



رئيس التحرير

د. إسراء محمد البشير مفرح

سكرتير التحرير

د. شمس الدين الفكي محمد الحسن

أعضاء هيئة التحرير

د. جعفر محمد العبيد منصور

د. محمد مصطفى محمد صالح

أ. سفيان علي آدم

أ. أميمة التجاني عبد الرحمن

أ. ريمان يحيى محمد إبراهيم

أ. هبة محمد حسين

رقم الايداع : ٢٠١٠٣٥

الترقيم الدولي : ردمد ISSN 1585-5884

الناشرون :

قسم الدراسات الإسلامية وقسم الثقافة الإسلامية - جامعة الخرطوم

الطبعون :

مطبعة جامعة الخرطوم للطباعة والنشر

الإشراف الفني

مجاهد الأمين عبد الرحمن فتح العليم

محمد حمي الدين طه درار

الصحيح والمراجع اللائحي

د. محمد مصطفى محمد صالح

د. جعفر محمد العبيد منصور

تصنيف النيل

Media & Technology Solution

قسم الدراسات الإسلامية ، جامعة الخرطوم

الخرطوم - السودان ، ص. ب ٣٢١/١٨ ، هاتف: ٠٩١٢٢٤٥٦١٤ - ٠٩١٢٢٧٩٠٩٦

E. mail: isjurnal321@gmail.com



محتويات العدد

افتتاحية العدد

رئيس التحرير ٥

تعدد معاني التطرف ومفاهيمه بين الذات والآخر في السياقات المختلفة

د. مبارك حسين نجم الدين

د/ حربية محمد أحمد عثمان ٧

الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين

د. أنس إبراهيم محمد عبد الباقي ٣٥

الفلو والتطرف الفقهي ”جدلية النص والاجتهاد“

أ.د. عامر عباس حمد ٥٩

التطرف الديني : في التوصيف والتصنيف والنماذج

د. قيصر موسى الزين ١٠١

بعض مظاهر التطرف في الدراسات الاستشراقية للإسلام ونقدها

”نموذج دراسة جوزيف شاخت للفقه الإسلامي“

د. محمد مصطفى محمد صالح ١٢٣

منابع التطرف وأسبابه ”دراسة في الحالة الإفريقية“

د. الصادق محمد آدم سليمان ١٤٥

التطرف والغلو ”الأسباب والآثار والعلاج“

د. عبد الحفيظ القاسم عبد المؤمن عمر ١٦٣

التطرف ما بين الأسباب الكامنة والحلول الممكنة ”رؤية نفسية“

أ. تهاني هاشم خليل عابدين ٢٠٣

صياغة رؤية إسلامية وسطية للحوار والتعايش الديني مع الأقليات غير المسلمة

د. هويدا صلاح الدين العتباني ٢٢٧

العنصرية والقومية السلبية السمات والحلول

من خلال كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي

أ.د. فيروز عثمان صالح ٢٥٣

دور الإعلام الجديد في التصدي لظاهرة التطرف وتعزيز الوسطية

د. محمد خليفة صديق ٢٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلوة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

القراء الكرام ، ، ،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، نضع بين أيديكم العدد التاسع من مجلتكم **دُلُّوْرَت إِسْلَامِيَّةٌ** ، الذي تتناول موضوعاته قضية شغلت الرأي العام ، وأثرت في مجريات الأحداث محلياً وإقليمياً وعالمياً ؛ ألا وهي قضية "التطرف" وما يرتبط بها ويكتنفها من دلالات سالبة وأحكام يوصم بها الخصوم والمخالفون في الرأي تارة ، وتبذر بها التدابير التي تتقصص من حرية وكرامة الإنسان تارة أخرى ، هذا من جهة ومن جهة أخرى تُربط بأنماط من الفعل مجانية لحد الاعتدال في الاعتقاد والسلوك ، الذي يتتج عنه تهديد الأمن والسلم الشخصي والمجتمعي محلياً وعالمياً.

استوفت موضوعات العدد بعض قضايا التطرف المعاصر "المفاهيم ، الواقع ، الحلول" ، فبيّنت دلالات لفظ "التطرف" واستخداماته ومرادفاته اللغوية وتطوره التاريخي وارتباطه بالمعتقدات الدينية والفكرية ؛ واستعرضت وصنفت نماذج من صور التطرف الديني والفكري التاريخي والمعاصر وانعكاساتها على الواقع ، مع محاولات لتشخيص الأسباب المؤدية للتطرف التي تتراوح بين التطرف في تأويلات النصوص الدينية ، والمتغيرات السياسية والمجتمعية ، والاستعدادات النفسية. كما اقترحت الحلول وسبل المعالجة ، مع إبراز أهمية الاستفادة من وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي الحديثة في التصدي للتطرف ونشر قيم الوسطية والتعايش السلمي.

والله ولي التوفيق

رئيس التحرير

جامعة التحرير والنشر

- | | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| أ.د. عبد الباقي دفع الله أَمَد | أ.د. حسن الحاج علي |
| أ.د. حسن مكي محمد أَمَد | أ.د. فيروز عثمان صالح |
| أ.د. تاج السر حران | أ.د. إبراهيم أَمَد الحاردلو |
| أ.د. حسن الساعوري | أ.د. على أَمَد بابكر |
| أ.د. الطيب زين العابدين | أ.د. الطاهر ساتي |
| أ.د. ذكرياء بشير إمام | أ.د. محمد سر الختم محمد أَمَد |
| أ.د. سليمان كرم | أ.د. أحمد الياس حسين |
| أ.د. أبشر عوض محمد إدريس | أ.د. إسماعيل محمد حنفي |
| أ.د. حسن أبو عشة | أ.د. جلال الدين الطيب محمد علي |
| أ.د. الشريف مدثر القطي | أ.د. زهير عثمان على نور |
| أ.د. محمد زين الهدى العرمابي | أ.د. إبراهيم نورين إبراهيم |
| أ.د. رقية السيد الطيب | أ.د. محمد عثمان أبو ساق |
| د. الخبر يوسف نور الدائم | د. إبراهيم صباحي |
| د. عبد الله حسن زروق | د. حسن علي الشايقى |
| د. عبد الرحمن الصديق | د. تاج السر عبد الباري |
| د. الطيب أَمَد شو | د. عثمان محمد عثمان |
| د. محمددين الطيب البدوى | د. عبد الله حمدنا الله |
| د. قسم الله علي المريود | د. قيصر موسى الزين |



تعدد معاني التطرف ومفاهيمه بين الذات والآخر في السياقات المختلفة

د. مبارك حسين نجم الدين

قسم اللغة العربية ، كلية اللغات ، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

د/ حربية محمد أحمد عثمان

كلية التربية ، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

المستخلص :

تناول هذا البحث مفهوم التطرف ومعانيه المتعددة في السياقات المختلفة بين الذات والآخر ، وفيه جرى بيان الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والمعاني المغايرة له ، كما تم بيان المفاهيم التي ارتبطت بهذا المصطلح في واقعنا المعاصر ؛ نتيجة لعوامل الترجمة من الإنجليزية والفرنسية ، ومن العربية إلى الإنجليزية والفرنسية. وكذلك الإعلام بوسائله المتعددة ، وتعتمد خلط المفاهيم ؛ لإيجاد الذرائع والحجج لضرب الإسلام في عمقه الفكري والثقافي ، ولتبرير الحرب والغزو.

ومن أهم أهداف هذا البحث : شرح مفهوم التطرف وتحديد معانيه ، وبيان الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملابسة إياه ، ثم إماتة الغموض والالتباس الذي سحب على مفهوم التطرف والإرهاب. والمنهج الذي اتبع في هذا البحث هو المنهج الوصفي مع الإفادة من المنهج التاريخي.

ومن أهم النتائج التي أسفر عنها البحث : لم يستخدم التطرف بمفهومه المعاصر في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وإنما استعملت مرادفاته كالغلو والتقطيع والتعصب ، كذلك لم يكن التطرف ومرادفه الإرهاب دالاً على التروع والرعب والهول والفزع والإبادة والتهديد والإكراه في سياق الحضارة الإسلامية.

المقدمة :

الحمد لله الذي علم القرآن وخلق الإنسان ، فعلمه البيان والصلة والسلام على الذي أوي جوامع الكلم فأفصح وأبان وعلى آله وصحبه السادة الأعيان وبعد ، فإن اللغة بألفاظها وأعراها ورموزها ومصطلحاتها ، هي الخصيصة الإنسانية والإصاح كان من ضرورات الفهم والإفهام ، والتواصل والتعليم والتعلم والإعلام ، التواضع والتعارف على دلالات الألفاظ ومفاهيمها ومعانيها وضعيها في الحقيقة وعرفها في المجاز والاصطلاح والاتساع ، وقد كان ضبط الاصطلاح وربط الألفاظ بدلالاتها وضعا وعرفا ، من دواعي الإبانة والتعليم والإفهام ونفي الغموض والإلباس وهذا وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه مبين كما علم نبيه ﷺ الفصاحة والإبانة.

ولما كانت الإبانة والإفصاح والوضوح ضرورية لنفي الإلباب والغموض ودرء الوهم وسوء المقاصد فإن علماء الإسلام قد عنوا بشرح المصطلحات وحدتها وقد بلغ علماء الفقه والمحثون في ذلك شأوا عظيماً ، فكان بيان المصطلح ووضوح دلالاته هما يضطلع به العلماء واللغويون إلى أن أقصيت العربية عن الاستعمال في الإدارة والتعليم والإعلام وحلت الإنجليزية والفرنسية مكانها ، وكثرت الترجمة غير الأمينة ؛ فألبت كثير من ألفاظ العربية ومصطلحاتها دلالات ومفاهيم غريبة قصداً للإلباب والإرباك ، وضررها للتصورات والأفهام ؛ لتسود الفوضى المفاهيمية وفي غمار هذه اللغة المضطربة ، أشربت ألفاظ كثيرة معاني من سياقات الثقافة الغربية ومن تلك الألفاظ ، ألفاظ التطرف والغلو والإرهاب والأصولية ، التي أصبحت بمفاهيمها الملتبسة غطاء قانونياً وأخلاقياً لضرب الإسلام في عمقه الثقافي والاجتماعي والحضاري ، ولا غطاء لها من النعوت التي صارت تلصق بال المسلمين. ونسبة هذه العوامل والأعتبرات ؛ عنيت هذه الدراسة ببيان معاني مصطلح الغلو والتطرف ورديفهما مصطلح الإرهاب في سياق مسيرة هذه الألفاظ تارينياً عبر حقب الحضارة الإسلامية ، وفي الواقع المعاصر بين الذات المسلمة ، وما فيها من جدل واصطراع من جانب الآخر المناوي ، وهو الحضارة الغربية بما فيها من مخيلة عدائية تجاه الإسلام من جانب آخر ، وللوصول لتجليات مفاهيم تلك الألفاظ كان لابد من توجيه السؤالات التالية :

سؤالات البحث :

- (١) ما معاني التطرف ومفاهيمه ؟.
- (٢) ما الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملائسة له ؟.
- (٣) ما تجليليات معاني التطرف والغلو في سياقات الحضارة الإسلامية ؟.
- (٤) ما المعاني المتضادة والمترادفة ”المترادفة“ لمصطلح التطرف في واقعنا المعاصر ؟.
- (٥) كيف كانت انعكاسات معاني مصطلح التطرف بين الذات والآخر ؟.

وقد سعى هذا البحث لتحقيق الأهداف التالية :

أهداف البحث :

- (١) شرح مفهوم مصطلح التطرف ومعانيه.
- (٢) بيان الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملتبسة له.
- (٣) إماتة الغموض والإلابس الذي سحب على مفهوم التطرف والإرهاب قصدًا.
- (٤) إبراز المفاهيم والدلائل الخفية التي نقل إليها مصطلح التطرف وأنه ويورى به عن الإسلام.
- (٥) توضيح أن التطرف والإرهاب يقصد به الإسلام عموماً، وأن الألفاظ استعملت لتبرير ضرب الإسلام والمسلمين.

منهج البحث :

اتبع الباحثان في هذه الدراسة المنهج الوصفي والمنهج التاريخي ملاءمة كل منهما لطبيعة المادة اللغوية وتقلبها في السياقات الثقافية والاجتماعية والتاريخية.

مخطط البحث :

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ومباحث أربعة هي :

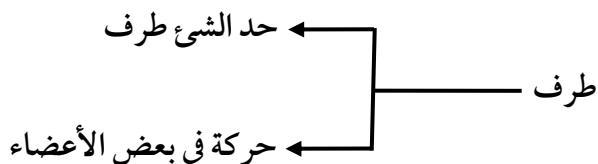
- ♦ مفهوم التطرف ودلاته.
- ♦ الألفاظ المرادفة لمصطلح التطرف والملتبسة به.
- ♦ مفاهيم التطرف والغلو في واقع حضارة الإسلام.
- ♦ مفاهيم مصطلح التطرف ومرادفاته بين الذات والآخر.

مفهوم التطرف ودلاته :

لفظ التَّطْرُفُ على وزن التَّفَعُّلُ مصدر يرجع إلى الأصل اللغوي ”الطاء ، والراء ، والفاء“ هذه المادة اللغوية يرى ابن فارس أنها أصلان : يدل الأولى على حد الشيء وحرفه ، ويدل الثانية على حركة في أحد الأعضاء.^(١)

^(١) ابن فارس ، المقايس في اللغة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ ، مادة (طرف) ص ٣٢٥.

(خطط (١) يوضح أصل مفهوم التطرف)



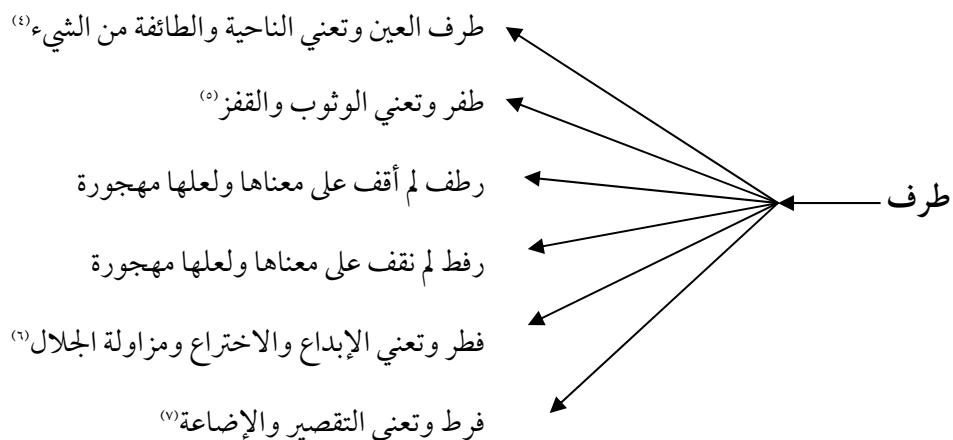
المرجع : "من إبداع الباحثين" ، م ٢٠١٥

وطرف الشيء جانبه ، ويستعمل في الأجسام مثل طرف الثوب ، وطرف الحائط ، كما يستعمل في الأوقات وغيرها كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ النَّهَارِ ﴾ [هود : ١١٤] ومنه استعير قوله كرم الطرفين ، أي الأب والأم ، وقيل الذكر واللسان إشارة للعفة^(١) ، والطريف هو المستحدث ، والطرف ما يؤخذ من أطراف الزرع ، وناقة طرفة ترعى من أطراف المرعى ولا تختلط بالنونق ، وهذا على دلالة الأصل الأول ، ومن الأصل الثاني طرف العين أي تحرك جفونها ويعبر به عن النظر ، لأن تحريك الجفن لا زمه النظر^(٢) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] وإذا أديرت هذه المادة اللغوية "الباء ، والراء ، والفاء" على حروفها الأصول وفق تقاليب الخليل - رحمة الله - تولدت عنها ستة أصول هي : طرف ، وطفر ، ورطف ، ورفطر ، وفترط ، ونجد لكل أصل معنى فرعي يرجع إلى المعنى الأصلي والبيان التالي يوضح ذلك :

^(١) الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، لبنان ، ط ٢٠٠٩ م - ١٤٣٠ هـ ، مادة (طرف) ص ٣٢٠.

^(٢) المصدر السابق نفسه ، مادة طرف ، ص ٣٢٠.

(خطط (٢) يوضح تقاليد لفظ (طرف) و معانيها)



المراجع "من إبداع الباحثين" ٢٠١٥ م

وجماع معاني هذه المادة اللغوية هي التنجي والحركة ، تلك هي المعاني الوضعية لمادة "الباء ، والراء ، والفاء" وتلك هي استعمالاتها في لسان العرب ومن اللفظ اللغوي الأصلي اشتقت مصطلح التطرف وبناء عليه فإن معانيه ودلالاته اللغوية منها : لزوم الطرف ، والتوصيب ، والتنجي ، والابداء ، والتقصير ، والإضاعة ، وجماع هذه المعاني هو التنجي والاضطراب ، وعن المعنى اللغوي جاز المعنى الاصطلاحي. والتطرف في الاصطلاح هو إتيان الطرف والتنجي أي مجاوزة حد الاعتدال وهو نقىض التوسط^(٨) ، والناظر في الدلالة الصرفية لفعل التطرف يجد من معانيها التكلف مثل التحلل والتقصير والتشجع أي تكلف الحلم والصبر والشجاعة ، فدلالة التطرف من هذا القبيل تكون هي : إدخال الشخص نفسه

^(٤) حمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازى ، ختار الصلاح دار التوفيقية للتراث ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، د.ت ، ص ٢٥١.

^(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٣.

^(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٩.

^(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٥.

^(٨) إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، دار المعرف ، القاهرة - مصر ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، مادة (طرف) ، ص ٥٨١.

في طرف من أمر ما ليكون من أهله أي يكون متكلفاً فيما يأتي به^(٤) وأيضاً من دلالة وزنه الصرفي الاتخاذ نحو توسيع التراب أي اتخاذ وسادة ، وطرف الرجل أي اتخاذ الطرف جانباً وملاداً^(٥) وقال صاحب أساس البلاغة : تطرفه إذا أخذه من أطرافه^(٦) وتحيفه. ذاك مفهوم التطرف في نظر القدامى من أهل اللغة العربية مسلمين وعرباً وكان مصطلح الغلو والرفض هو الأكثر استخداماً لديهم ويعبر عما يعبر عنه التطرف اليوم ، أما مفهوم التطرف عند المعاصرين من متكلمي اللغة العربية فقد أصبح مفهوماً يصعب تحديده أو إطلاق تعريفات بشأنه ؛ نظراً لما يشير إليه المعنى اللغوي للفظ التطرف من تجاوز لحد الاعتدال ، وحد الاعتدال نسبي يختلف من مجتمع لآخر وفقاً لنسب القيم السائدة في المجتمع ، وقد ذكر بعض الباحثين عدداً من التعريفات تحدد مفهوم التطرف^(٧) نذكر منها :

- (١) اتخاذ الفرد موقفاً متشددًا يتسم بالقطيعة والختمية في استجاباته للمواقف الاجتماعية التي تهمه والموجودة في بيئته ، وقد يكون إيجابياً في القبول التام أو سلبياً في اتجاه الرفض التام ويعتبر حد الاعتدال في متصف المسافة بين الموقفين.
- (٢) الخروج عن القواعد الفكرية ، والقيم والمعايير والأساليب السلوكية الشائعة في المجتمع معبراً عن ذلك بالعزلة والسلبية والانسحاب ، أو تبني قيم ومعايير مختلفة قد يصل الدافع عنها حد العنف في صورة فردية أو سلوك جماعي منظم بهدف إحداث تغيير أو فرض رأي بالقوة على الآخرين.
- (٣) استخدام العنف وسيلة لتحقيق المبادئ التي تؤمن بها فئة أو فرد مع اللجوء إلى الإرهاب النفسي والمادي والفكري.

ومن المصطلحات التي لابست مفهوم التطرف والثالث به في سياقات الترجمة من الإنجليزية إلى العربية مصطلح الرجماتية ويعني في سياقه الثقافي في اللغة الإنجليزية الانتساب ونقص المبررات والأدلة أو الجزم على الرأي وتوكيده والقطع به مع الغطرسة

^(٤) زين كامل الخويسكي ، فصول في دلالة الألفاظ ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

^(٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠٩.

^(٦) الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، د.ت مادة (طرف) ص ٣٨٨ .
^(٧) com 15/10/2015 - www.moqatil.com مساء الخميس الساعة ١٠ : ٤٤ .

ونقص المبررات والأدلة ، أو الجزم والقطع بالرأي بناء على مقدمات غير ممحضة تمحيضاً وافياً^(١٣) وتعني أيضاً الجمود والانغلاق العقلي ويتسم هذا المفهوم في سياقه الثقافي بنظرية إلى المعتقد أو الرأي أو الفهم تقوم على أن المعتقد صادق صدقاً أبداً ومطلقاً . ولا مجال للمناقشة ولا البحث عن أدلة تبني هذا الرأي أو المبدأ أو تؤكده . والاستعداد لمواجهة المخالفين في الرأي بالعنف وإدانة كل ما يخالف هذا الرأي أو الفهم وقد بدا لنا هذا من معاني اللفظ [dogma] وما اشتقت منه [dogmatism] التي تعني الجزمية أو القطعية مع الغطرسة التي تعني التطاول والتكبر وعدم الإذعان للحق والاعتساف^(١٤) ومصطلح التطرف بهذا المفهوم لم يعرف في مسيرة الحضارة الإسلامية حتى عند الخوارج الذين عرّفوا بالغلو والتطرف لأنهم قبلوا أن يناظروا ابن عباس رضي الله عنهما والإمام علي عليه السلام ورجع منهم إلى عسكر علي أفالان^(١٥) وأيضاً من الألفاظ الملائبة لمصطلح التطرف لفظ الإرهاب الذي أصبح مصطلحاً مرادفاً للتطرف في الاستعمال المعاصر للغة العربية ، والناظر في جذرها اللغوي يجد دالاً على الإخافة والرعب^(١٦) . وهي دلالة يدخل فيها الخشوع والتخشّع كما في الرهانية والردع الذي يسبب الرهبة للأعداء بسبب الجاهزية والاستعداد ، وهو مفهوم محمود ، لكن الاستخدام الإعلامي المعاصر قد أليس هذا اللفظ مفهوماً جديداً بعرض الإلباس والتلبيس والخلط ؟ إذ أصبح يفهم من خلال الاستعمال المعاصر في الإعلام أن الإرهاب هو العمل الإجرامي المصحوب بالرعب أو العنف أو الفزع ، وهذا المفهوم الملبس مفهوم مقصود وفيه خلط متعمد تدخل في توجيهه المصالح الخاصة . وقد وردت هذه المفاهيم الملائبة للفظ الإرهاب في سياق الترجمة عن اللغة الفرنسية والإنجليزية إذ وضعت كلمة الإرهاب العربية ذات الجذور القرآنية في مقابل المصطلح الإنجليزي ورصيده الفرنسي [terrorism] الذي يدل في سياقاته على الرعب والذعر والهول ، وكل ما يوقع الرعب في النفوس كما يدل على

١٣) منير البعلبيكي ، المورد [قاموس إنجليزي عربي] دار العلم للملاتين ، بيروت لبنان ، ط ٤٠ ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٨٧ مادة **dogma**

١٤) إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، مادة ”غطرس“ ص ٦٨٧ .
١٥) أبو العباس المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مؤسسة المعرفة ، بيروت لبنان ، ط ١ ، د.ت ، ج.خ ، ص ١٣٤-١٣٥ .
١٦) الرازى ، مختار الصحاح ، مادة ”رعب“ ص ١٣٥ .

الإكراه ، وقد تولد هذا المصطلح في أوروبا ناتجاً لتيارات الثورة الفرنسية والثورات الدينية بما فيها من احتجاج وخروج وحرمان كنسي ، والمطلوب اليوم من أصحاب الأقلام والإعلام وجوب الحذر مما ينشأ من هذا الخلط والتلبيس بين معاني كلمة إرهاب ودلائلها القديمة في العربية والقرآن والدلالات المعاصرة التي لاتزال مفتقرة للضبط والتمحيص حفاظاً على سلامة اللغة العربية والهوية الإسلامية.^(١٧)

وقد ارتبطت بمصطلح التطرف أفالاظ تفسر معناه بالغاية والترجمة ” الترافق ” وتفسir المغايرة هو تفسير اللفظ بذكر ضده كقولك التطرف خلاف التوسط والاعتدال فالآفالاظ المغايرة التي يستدعيها بمصطلح التطرف هي التوسط والاعتدال والوسطية والرفق واللين. أما التفسير بالترجمة وما يستدعيه من أفالاظ ترتبط بمصطلح التطرف فيكون بذكر الآفالاظ المرادفة مثل الإفراط والغلو والتنطع والرفض والشدة والعنف والتعصب والتشدد. وهكذا يمكن ملاحظة نمو دلالات بمصطلح التطرف من معانٍ اللغوية الدالة على لزوم الطرف والتنحي والاضطراب إلى معانٍ سياقية جرها الاستعمال واستدعاها اختلاف السياقات ليكون غلواً وعنفاً وتعصباً وتزمتاً وإرهاباً وأصولية تربص بالمدنية والحضارة كما يصوره الإعلام الغربي.

والإعلام الغربي في سياقاته السياسية والثقافية والعسكرية ، وفي سياقات الترجمة من الإنجليزية والفرنسية ارتبط بمصطلح التطرف عنده بمعانٍ كثيرة لم تكن من أصله ولا جذوره مثل الأصولية ، في مقابل Fundamentalism وقد ولد هذا المصطلح الإنجليزي الذي يعني الأصولية أو مذهب العصمة في سياق حركات الاحتجاج الديني في أوروبا العصور الوسطى إبان عصر الثورات وكانت تلك الاحتجاجات خروجاً على الكاثوليكية ، وقد تولد هذا المصطلح داخل المذهب البروتستانتي للدلالة على عصمة الكتاب المقدس ، وقد عرفت في سياق هذا المذهب ” البروتستانتي ” حركة حرفية في القرن العشرين تؤكد أن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ ، ثم صار المصطلح يطلق على التعصب والتشدد والتزمت^(١٨) في السياقات الدينية الأوروبية وانتقل إلى الإعلام ليسحب على الحركات التي تندد التحرر

^(١٧) موقع الإسلام <http://www.al-islam.com> ، تاريخ الزيارة في يوم الخميس ١٥ / ١٠ / ٢٠١٥ م منير البعلبي ، المورد ، ص ٣٧٣.

والاستقلال وتدافع عن حقوق المسلمين وحرياتهم فأصبحت هذه الحركات أصولية ومتزمنة ومتعصبة ومتشددة كما صورها الإعلام الغربي. وهكذا نرى أن مصطلح التطرف قد حمل دلالات جديدة لم تكن من أصله وأصبح مرادفا للتزمر والإرهاب والانغلاق الفكري وادعاء العصمة.

والناظر في السياقات التاريخية والثقافية للألفاظ المعايرة للفظ التطرف والغلو يجدها تدل على أن الإسلام دين ساحة ورفق ولين ورحمة وحرية ، وما ورد منها في الحديث قوله ﷺ : ”عليك بالرفق يا عائشة فإنه ما كان في شيء إلا زانه وما نزع عن شيء إلا شانه“^(١٩) ومنه قوله تعالى : ﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ لُهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِظَ الْقُلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا﴾ [النمل : ٤٤] وقوله ﷺ : ”بارك الله في رجل سمح إذا باع وإذا اقتصى“^(٢٠) فكل تلك الألفاظ دالة على الرفق وأمرة به وحاضة عليه في التعامل والتقاضي والدعوة والتربيه والتعليم داخل المجتمع الإسلامي وخارجه لأنه من المقادير الكبار للإسلام إلهاق الرحمة بالناس قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنياء : ١٧].

الألفاظ المرادفة للتطرف والمتتبعة به :

اتضح من البحث السابق أن مصطلح التطرف في العربية مشتق من الأصل اللغوي ”ط ، ر ، ف“ وهو أصل يدل على معنين أساسين هما : حرف الشيء وحده ، وحركة في عضو ما^(٢١) ، وتولدت عن هذين المعنين الأساسين معان متعددة جرى بها الاستعمال في العربية اتكاء على التجوز والاتساع والأعراف الطارئة مثل الأب والأم كما في قوله : هو كريم الطرفين^(٢٢) ، ومثل النظر كما في قوله تعالى : ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل : ٤٠] ، وقوله تعالى : ﴿فِيهنَ قَاصِرَاتُ الْطَرْفِ﴾ [الرحمن : ٥٦].

^(١٩) مسلم ، صحيح مسلم.

^(٢٠) البخاري ، صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، كتاب البيوع ، باب السهولة والسماحة ج ٩٠٧٦ ص .

^(٢١) ابن فارس ، المقايس في اللغة ، مرجع سابق مادة (طرف) ص ٦٣٤ .

^(٢٢) الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، مرجع سابق ، مادة (طرف) ، ص ٣٢٠ .

ومثل التنجي كما في قوله : تفرقوا في الأطراف ؛ أي في النواحي^(٢٣) ، ومثل الملل كما في قوله : وإنه لذو ملة طرف أي لا يثبت على إخاء واحد ومنه قوله امرأة طرفة أي لا تثبت على زوج وإنما تستطرف الرجال.^(٢٤)

والمدقق في دلالات لفظ التطرف ومعانيه ومشتقاته وسياقات استخدامها في لسان العرب طوال أزمنة الحضارة الإسلامية ، لا يجده قد استخدم في مفهوم الغلو والتعصب والتشدد وإنما الذي كان مستعملاً من المصطلحات الدالة على تلك المعاني من مفاهيم تجاوز حد الاعتدال فهي الغلو وقد وردت في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : ﴿لَا تَغُلُّوا فِي دِينِكُم﴾ [النساء : ١٧١] كما ورد لفظ التطبع في السنة المطهرة دالاً على المبالغة والمعالجة والتعمق وتجاوز الحد في الأفعال والأقوال كما في قوله ﷺ : " هلك المنتطعون " ^(٢٥) قالها رسول الله ﷺ ثلاثاً أي ثلث مرات ، كما ورد في السنة المطهرة لفظ المشادة دالاً على المبالغة والتجاوز ، قال ﷺ : " إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسدوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدبلجة " ^(٢٦).

وكثرة الاستعمال تزيل الفروق الدقيقة بين معاني الألفاظ فيعمل متكلمو اللغة بجعلها مترادفة ثم يستعملونها في الشرح وقد سمي هذا بالتفسير بالترجمة ؛ أي تفسير كلمة بكلمة مترادفة^(٢٧) لها وقد وقع هذا في سياق الاستعمال لمصطلح التطرف إذ فسر بالغلو والتعصب وبالتزمر والتشدد فالتبسيس بدلالات تلك الألفاظ خاصة في استعمال المعاصرين ثم كانت الترجمة عن الإنجليزية للعربية فوضع مصطلح التطرف مقابل لفظ الدجّاطيقية [dogmatism] الذي يدل في الإنجليزية على النسبة للعقيدة والارتباط بها ، هذا في أصل المعنى ثم صار يدل على الجزمية وهي توكييد الرأي والقطع به بغطرسة أو من غير مبرر كاف وكل ذلك عندهم مستمد من علم اللاهوت أو العقديات [dogma tics] وهو علم معني بتفسير دين ما.^(٢٨)

^(٢٣) الزمخشري ، أساس البلاغة ، مرجع سابق ، مادة (طرف) ، ص ٣٨٨.

^(٢٤) المرجع السابق نفسه.

^(٢٥) مسلم ، صحيح مسلم.

^(٢٦) البخاري ، صحيح البخاري (٣٩).

^(٢٧) مصطفى محمد عبد المجيد ، الألفاظ والدلالة ، مؤسسة حورس الدولية الإسكندرية –

مصر ، ط ١ ، ٢٠١٠م ، ص ٢٦.

^(٢٨) منير البعلبي ، المورد ، مصدر سابق ، ص ٢٨٧.

وهنا نلاحظ أن مصطلح الدقاطيقية [dogmatism] مستمد من سياقات دينية في البروتستانتية التي ورثت مقوله اليهود أنهم الشعب المختار وهي مقوله تحمل في جذورها التفوق العرقي والديني وكل هذا التراكم الدلالي في استعمال مصطلح الدقاطيقية قد سحب في عصرنا الحالي على مصطلح التطرف وقد كان هذا خلطا متعمداً للمفاهيم خاصة في الخطاب السياسي الأمريكي^(٣٠) الذي استجر الصورة القاتمة التي رسماها الباباوات في أوروبا الكاثوليكية في العصور الوسطى وهي صورة مشحونة بالكراهية والتصور الخرافي والخوف المزوج بالاحتقار للإسلام^(٣١) وفي سياق الاستعمال لدى أهل الإعلام والقلم نجد أن لفظ التطرف لا يسعه لفظ آخر أصبح مصطلحاً متداولاً وهو لفظ الإرهاب وهو لفظ يدل في أصله العربي على التخشُّع والخوف والإخافة والردع ، ولا يدل على التروع ولا الإكراه ولا الرعب ولا الهول ولك أن تنظر لهذه المادة اللغوية ”رَهْبٌ“ في سياقاتها القرآنية كما في قوله تعالى : ﴿رَعِبَا وَرَهَبَا﴾ [الأنياء : ٩٠] وقوله تعالى ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ [الحشر : ١٣] وقوله تعالى : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ [الأنفال : ٦٠] وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف : ١١٦] وقوله تعالى : ﴿وَإِيَّاهُ فَارْهَبُونَ﴾ [البقرة : ٤٠] ، فجماع معاني هذه المادة اللغوية ”رَهْبٌ“ كما رأيناها في بعض آي القرآن الكريم تدل على المخافة مع التحرز والاضطراب وهو معنى لا علاقة له بالهول والفزع كما يلاحظ ثم جرى استعمال لفظ الإرهاب في عصرنا الحاضر ليكون ممثلاً للفظ الإنجليزي [terrorism] وما اشتقت منه مثل [terrorism] مع أن هذا اللفظ الإنجليزي يدل في سياقاته المختلفة على الرعب والهول والذعر والفطاعة ، وكل ما يوقع الرعب في النفوس كما يدل على القلق والإكراه^(٣٢) ثم تطور اللفظ ليصبح [terrorism] ويدل على كل تلك المعاني المرتبطة بالهول والفزع والفطاعة والإكراه ، وجاءت الترجمة من الإنجليزية إلى العربية لتضع لفظ الإرهاب العربي في مقابل لفظ الهول والفطاعة والتروع الإنجليزي [terrorism] وهكذا التبست دلالات الهول والإكراه والفطاعة والرعب بلفظ الإرهاب وهو لفظ قرآن لم يرد في سياقاته العربية قديماً ، والقرآنية قديماً وراهننا بتلك المعاني.

^(٣٠) محمود إسماعيل ، آراء ورؤى في الفكر والتاريخ والفن والأدب ، دار رؤية للنشر ، القاهرة – مصر ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م ، ص ٥٣.

^(٣١) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٨.

^(٣٢) منير البعلبي ، المورد ، مرجع سابق ، ص ٩٦٠.

وعند تحليل تغيير دلالات ألفاظ التطرف والإرهاب لتكون دالة على معانٍ دلالاتٍ ومفاهيم لم تكن من أصولها ولم ترد في سياقاتها التاريخية والثقافية، نجد أن الإعلام الغربي قد وظف اللغة لتكون سلاحاً يضرب به العمق الثقافي والديني للمسلمين وليجرم الإسلام على اعتبار أن لفظ الإرهاب قد وردت مشتقاته في القرآن الكريم، هذا الأمر مدروس ومدبر لأن الحرب والسلم إنما كانت كل واحدة منها فكرة في الأذهان وأن الفكرة لا تولد خارج اللغة فإن تراث الصراعات البشرية على مر العصور يدل على أن هناك اهتماماً مستمراً باختيار الخطاب تمهيداً للسبيل أمام الفعل، وعلى الدوام كان هناك من يصوغون لغة الخطاب لتكون الأفكار مقبولة قبل تفيذها.^(٣٣)

والشاهد على ما سلف، ما كان في الحروب الصليبية إذ استخدم الصليبيون والباباوات والقساوسة اللغة وكان الخطاب المستخدم آنذاك يناسب العقل الأوروبي الغربي وخلطوا السياسة بالدين فكانت المفاهيم تصف المسلمين بأنهم الكفار وتصف النبي ﷺ أنه المسيح الدجال. والناظر في حوليات ومدونات الحروب الصليبية يجد لغتها ممزوجة بقدر كبير من الشتائم والإهانات التي تحط من قدر المسلمين، وفي الجانب الآخر يجد ألفاظها تمجد الصليبيين أنهم شعب الله المختار وأنهم جنود الرب، وجيش المسيح والحجاج وغيرها.^(٣٤)

تلك الصور الكريهة لل المسلمين والإسلام في المخيلة الأوروبية نشأت في دائرة الكنيسة، وتعود في صكها وصياغتها للخطاب اللاهوتي المسيحي في القرون الوسطى، وقد اعتمد ذلك الخطاب على اللغة في الإثارة والتحميس ضد الإسلام والمسلمين، وهي الصورة التي جرت بإعادتها في مطلع القرن الحالي مصورة الإسلام على أنه دين إرهاب وأن المسلمين خطر على الحضارة الغربية^(٣٥) وخلط المفاهيم وإلباس ألفاظ دلالات غير دلالتها واضح جداً؛ لخدم الأغراض التوسيعية والمصالح الذاتية للغرب الأوروبي الأمريكي، وذلك كله مستمد من تراث اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويهدون إلى استخدام الملاحن من تورية واستعارة لتحقيق أهداف خفية، وقد أشار القرآن لذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفُهُمْ فِي

قاسم عبده قاسم، إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي، وزارة الإعلام الكويتية، الكويت، ط ١، ٢٠٠٩م، ص ٥١.^(٣٣)

المرجع السابق نفسه، ص ٥٢ - ٥٣.^(٣٤)

محمود إسماعيل، آراء ورؤى، مرجع سابق، ص ١١.^(٣٥)

لحن القول [محمد : ٣٠] والمقصود به الكلام المورى به المزال عن جهة الاستقامة والظهور. ^(٣٦)

وإذا كان أمر اللحن الذي يدل على التورىة والإلغاز والاستعارة والرمز محمودا في البلاغة والأدب لما فيه من الطرافة ، فإنه غير محمود في الخطاب العلمي والإعلامي ؛ لما فيه من التلبيس والإيهام ويكون عندئذ تحريفا ، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على وجهين ^(٣٧) قال تعالى في شأن اليهود : **﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَاتَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾** النساء : ٤٦] قوله تعالى : **﴿ وَقَدْ كَانَ فِرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾** البقرة : ٧٥].

مفاهيم التطرف والغلو في واقع حضارة الإسلام :

اتضحت في البحث الأول من هذا البحث معاني التطرف اللغوية ودلالاته السياقية في الاستعمال وضعا وعرفا كما جرى بيان الألفاظ المغايرة له في المعنى والمرادفة كذلك ، وفي البحث الثاني جرى توضيح المعاني والدلالات الملابسة له من سياق الترجمة في الإعلام والكتابة ، أما في هذا البحث فيجري بيان مفاهيم التطرف في واقع الحضارة الإسلامية من لدن عهد النبوة والخلافة الراشدة إلى عهد السلطنة العثمانية . ففي هذه الأحقاب المتواترة تعاقبت الأجيال وازدهرت المدنية وارتقت الأذواق ونفت أسوق العلم واستحكمت الصنائع ، ونضجت الثقافة واتسع مجال القول والفعل ، وفي مثل هذا الواقع الحضاري ذي المشارب المتعددة تكتسب الألفاظ معانيها الوضعية والعرفية ، وقد فطن علماء الإسلام لهذا فضيبيوا الألفاظ وضعا "لغة" وعرفا "اصطلاحا" لتسهيل الفهم والتفهم ^(٣٨) وإزالة الإلbas والإيهام فازدهرت صناعة المعاجم اللغوية والاصطلاحية.

في مثل هذا الجو العلمي الثقافي الحضاري وجد لفظ التطرف وردifice لفظ الغلو ، وقد رأينا في البحث الأول مشتقات مادة "طرف" ودلالاتها في القرآن الكريم وقد اتضح لنا أنها تجري على معاني الناحية والجانب والنظر والاضطراب ، كما وجدنا أن مادة "غلا" تدور في الاستعمال على معاني عدة جماعها تجاوز الحد والبالغة والارتفاع. ^(٣٩)

ابن فارس ، المقايس في اللغة ، مرجع سابق ، مادة (لحن) ص ٩٥٠. ^(٣٦)

الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، مصدر سابق ، مادة (حرف) ص ٢٨. ^(٣٧)

ابن خلدون ، المقدمة ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، د.ت ، ص ٦٠٧ ، ٦٠٨. ^(٣٨)

ابن فارس ، المقايس في اللغة ، مادة (غلو) ص ٨٠٢. ^(٣٩)

أما في سياق النصوص الدينية قرآناً وحديثاً فإن الذي جرى استعماله ، وتعورف عليه هو لفظ الغلو وقد جاء في القرآن الكريم مخاطباً به أهل الكتاب كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوْا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ ﴾ [النساء : ١٧١] والمقصود به هنا المبالغة وتجاوز حد الاعتدال. وقد عبر عن التطرف والغلو في الحديث الشريف بلفظ التنطع ، وهو في اللغة التفصح والتعمق ورمي اللسان إلى نطع الفم. ^(٤٠)

وأيضاً التحدق وإظهار البراعة ، قال ﷺ : " هَلْكَ الْمُنْتَطَعُونَ " ^(٤١) قالها ثلاثة أي ثلات مرات ، إشارة لخطورة التنطع والغلو والتطرف على الدين والناس. فالطرف ، والغلو ، والتنطع ، والمشادة ، والقسوة ، والغلظة وما تعلق بها من أنواع المعاملة مفاهيم غير مقبولة في دين الإسلام ؛ لأنها تؤدي إلى سلوك وأقوال وأفعال تفرق الصدوقين وتؤخر الصدور ، وهي أيضاً مفاهيم مجافية لساحة الإسلام الذي عرف رسوله ومبلغه بحسن الخلق والرفق واللين والشفقة ، قال تعالى في شأن رسوله ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١٥٩].

وقال تعالى في شأنه أيضاً : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لُهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَنَّاً غَلِظَ الْقُلْبُ لَأَنَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

وقال تعالى في شأنه ﷺ أيضاً : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنياء : ١٠٧].

وقد كان النبي ﷺ قدوة وأسوة حسنة للصحابية الكرام وللناس كافة في حسن الخلق واللين والرأفة والشفقة والرحمة والرفق ، عمل بذلك ودعا إليه فكان ﷺ في قوله وفعله وتقديره بعيداً عن الجفاء والغلظة والتعالي ، وإنما كان مثلاً في التواضع ولذلك نهى عن تقميظ الناس فقال : " أَنْ رَجُلًا قَالَ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفَلَانَ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ ذَا الَّذِي يَأْتِيُ عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفَلَانَ إِنِّي غَفَرْتَ لِفَلَانَ وَأَحْبَطْتَ عَمْلَكَ " ^(٤٢).

^(٤٠) الزمخشري ، أساس البلاغة ، مادة " نطع " ص ٦٣٩.

^(٤١) المنذري ، مختصر صحيح مسلم ، عناية محمد بن عيادي مكتبة الصفا ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ص ٣٩٢ باب هلك المتنطعون.

^(٤٢) الحافظ المنذري ، مختصر صحيح مسلم ، مرجع سابق ، ص ٣٨٣.

ويفهم من الحديث عدم تقنيط الناس من رحمة الله وعدم تضييق الواسع ، وقال ﷺ : ”إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكُم“^(٤٣) وفيه دعوة لعدم التيئس ودعوة للتبرير ، وكان النبي ﷺ يعمل على ترابط المؤمنين ومؤاخذتهم ويضرب لذلك الأمثال ومن ذلك قوله ﷺ : ”المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض“^(٤٤)

وكثرة من المواقف والأمثلة في سيرته المطهرة وأحاديثه المشرفة تدل على الاعتدال والتوسط والدعوة للرحمة والسعادة والرفق وذلك ليخلو مجتمع الإسلام من الغلو ، والطرف والتنطع لأن هذه الألفاظ تدل مفاهيمها على سلوك وأفعال وأقوال مجافية لوسطية الإسلام واعتداله . وقد بربرت مثل هذه المفاهيم وتجسدت في سلوك وأقوال لأفراد وجماعات ظهرت بعيد جيل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، ومن هؤلاء الخوارج الذين غالوا في تدينهم عبارة وقولا وسلوكا ؛ فكفروا جمهور المسلمين واستباحوا دماء مخالفتهم واغتالوا سيدنا علياً رض وظلوا شوكة في خاصرة الدولة الأموية ، وقد سمووا أنفسهم المحكمة ؛ أي الداعون لتحكيم كتاب الله ، أو القائلون لاحكم إلا الله كما سموها أيضاً الشرابة^(٤٥) وساهم جمهور المسلمين الخوارج وهو مصطلح يدل على رفضهم وتنطعهم وغلوهم ، ومثلهم غلاة الشيعة وغلاة المعتزلة وكذلك غلاة أتباع المذاهب .

وإذا استثنينا تلك الفرق والجماعات والأفراد من الخوارج والغلاة ، فإن سواد جمهور المسلمين عاشوا على مدار التاريخ في وسطية ، وسماحة ، ورفق في التعامل ، والتعايش ، والتعلم ، والتعليم وقد شهدت مجالس العلماء والأدباء في المساجد والقصور والدور ، كثيراً من الخوارج والمناظرات التي كان طابعها الرفق والموضوعية ورعاية الحق وبيانه ، وقد دلت على ذلك كتب الطبقات وكتب مجالس العلماء وكتب الرد التي من خلالها بان الحق والصواب ، وصحت الأخطاء ولا غرابة في ذلك ؛ لأن الطابع الموروث عن رسول الله ﷺ هو التواضع والتنزل لإبلاغ الحق ونشر دعوة الله من غير عصبية ولا عنجهية ولا غطرسة ولا تعالى ، والقرآن الكريم نفسه حافل بالدعوة للحوار والدعوة بالتي هي أحسن كما في قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمُوَعِظَةِ الْحُسْنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥].

^(٤٣) الحافظ المنذري ، مصدر سابق نفسه ، ص ٣٨٤.

^(٤٤) المصدر السابق نفسه ، ٣٧٩.

^(٤٥) أبو العباس المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٧٥.

فخلق النبي ﷺ، وسيرته المطهرة وسته المشرفة وسيرة خلفائه الراشدين وسير علماء الإسلام وأعلامه ، كلها تدل على التوسط وطلب الحق والرفق وهذا انفتح علماء المسلمين على علوم الأولين بعد ما اضططع بترجمتها حكام المسلمين وتعلموها وهذبوا وأغنوها فأسهموا في رقي الحضارة الإنسانية ، لو كان في الإسلام عصبية أو تزمر أو جزمية بإدعاء الحق الأوحد ، لما قبل اتباع الإسلام ترجمة علوم الأولين والأخذ بها ؛ لأن المتزمر هو من يرى أن الحق في جانبه وهذا لا يحاور الآخرين ، ولا يأخذ عنها لطرفه وغلوه وترزمه وإدعائه ملكية الحق ، كما هو واضح في الرجماطيقية **dogmatism** ، ولو كان في الإسلام تزمر أو عصبية أو غلو أو تطرف لما دعا للحوار ، ولما حفل القرآن الكريم بالدعوة للحوار كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَادُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] وبالدعوة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٥].

وتبرز لنا مسيرة الحضارة الإسلامية عبر حقبها الطويلة أن اختلاف الرأي وارد بين العلماء والقادة وأئمة المذاهب ، هذا داخل الجماعة الحضارية التي تدين بدين واحد وتتكلّم لغة واحدة وتعيش في وسط ثقافي واحد. وكان من أهم وسائل حسم الخلاف في الحضارة الإسلامية الحوار والتعايش ولم يكن اللجوء للحرب إلا عند استنفاد الفرص والوسائل. وعليه يمكن القول إن انعكاس مفاهيم الغلو والتطرف والإرهاب في سلوك أفراد الحضارة الإسلامية ، لم يكن في درجة الغلو والتطرف والتزمر ، ولم يتجسد في أفعال تجاه الأفراد أو الجماعات المخالفة ، إلا في حالات نادرة تعد استثناء ، وحتى في حالة الخوارج فإنهم قبلوا المناظرات وال الحوار واقتنع بعضهم لما قام عليه الحق وخاص الباقون الحرب والذي يعد إرهاباً وتطرفاً في سلوكهم هو ما مثله نافع بن الأزرق في الأهواء من اعتراض الناس وقتل الأطفال^(٤٦) ، ومثل هذه النماذج قليلة لا يمكن تعميم حكمها في القياس.

وقد مضت تلك الأحقاب بأجيالها وجاءت العصور الحديثة ، وغزا الإنجليز والفرنسيون وغيرهم بلاد المسلمين ، وسبقهم الاستشراق لزرع الفتنة والمذهبيات والعصبيات والإثنيات ، وغز الغزو تلك العصبيات والاثنيات بالأفكار والمال والتربية المغيرة ؛ فنشأت الأزمة المعاصرة في بلاد المسلمين ، وكثُر فيها التزمر والتطرف والتكفير.

^(٤٦) أبو العباس المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٢٤.

وقد غزت الولايات المتحدة هذه الجماعات في فترة الحرب الباردة ، وزودتها بالمال والسلاح لضرب الاتحاد السوفيتي^(٤٧) ، ولما تم لها ما أرادت انقلبت على هذه الجماعات من الناحية الإعلامية فأطلقت عليهم ألفاظ الأصولية والسلفية وربطتهم بالإرهاب ثم ضغمت هذا في مفاهيم الغربيين وال المسلمين واتخذت منه ذريعة لغزو أفغانستان والعراق والصومال.

والآن تعيش بلاد المسلمين - إلا من رحم رب - تطرفا وتعصبا خلق فرقه وشتانا وملأ رؤوس الشباب بالتعصب المقيت فجعل منهم نماذج لأعداء الإسلام ، ليلاصقوا بهم تهمة تسبب الهول والذعر والفزع وتهديد الحضارة ، ووصمهم بمصطلح الإرهاب بعدهما حرف هذا المصطلح وحمل دلالة المصطلح الإنجليزي **dogmatism** والآخر **terrorism** ، وربط هذا بمخيال الحروب الصليبية والصورة النمطية الكريهة التي رسماها مخيال الكنيسة الكاثوليكية ضد الإسلام والمسلمين في العصور الوسطى ، واستوحي ذلك كتاب أمريكا النافذون أمثال صمويل هنتجتون صاحب كتاب **صراع الحضارات**.^(٤٨)

وصفة القول هي أن مفاهيم التطرف والغلو في واقع الحضارة الإسلامية لم يكن لها تجسد في سلوك الأغلبية الساحقة من الناس العاديين ، ولا العلماء ولا الحكماء ، وإنما بُرِزَ هذا السلوك المغالي والمتطرف عند أفراد قليلين من أتباع المذاهب وعند فئات قليلة من جماعات الخوارج وغلاة الشيعة وغلاة المعتزلة وفي ماعدا ذلك فإن الألفاظ المغایرة لمصطلح التطرف والغلو هي التي سادت مفاهيمها وتجسدت في سلوك المسلمين من افتتاح ، وإخاء ، وتعاون ، وحوار ، وتعيش ، وإذار ، وتصويب ، ومراجعة ، ومناظرات ، وجدال بالتي هي أحسن ؛ ولذلك ارتقى الفكر الإسلامي وازدهرت العلوم ونبغ النابهون ، وعم الأمان ، وسمت الأذواق وكثُرت الصنائع خلافا لما كان سائدا في أوروبا في العصور الوسطى.

مفاهيم مصطلح التطرف ومرادفاته بين الذات والآخر :

في هذا المبحث يجري بيان تجليات مفاهيم التطرف ومرادفاته من الألفاظ كالإرهاب والأصولية في سياقات واقعنا المعاصر خاصة لدى أهل القلم والإعلام والسياسة

^(٤٧) بول سويفي وآخرون ، أمريكا اعتزاز بالآثام وتجميل للذنب ، ترجمة مازن الحسيني ، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي ، أم درمان ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م ، ص ١٥٧.

^(٤٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٠.

وانعكاسات مفاهيم ومعاني هذا المصطلح في سلوك الأفراد والجماعات والمنظمات وفي أقوال الساسة وردود الأفعال الناتجة عن أقوالهم وتصريحاتهم.

ولا شك أن اللغة هي وعاء الفكر ، وبوقة الحياة وأداة الإعلام وداعون العلوم وموجهة السلوك العام لأن كثيرا من الأقوال والأفعال كانت أفكارا ورغبات في النفوس أو القلوب ولم تخرج إلى واقع الحس والعمل إلا مجسدة في لفاظ تعبّر عنها وتدلّ عليها ، وأن الأفكار لا تولد خارج لفاظ اللغة فإن الاهتمام بالترويج الأيديولوجي والإعلامي لفكرة ما يرتبط بالاختيار الوعيي والدقيق للألفاظ والمصطلحات المعبرة عنها والتي تستخدم في الترويج الإعلامي لها.^(٤٩)

وقد وجد مصطلح التطرف ومرادفاته في واقعنا المعاصر رواجا إعلاميا وأيديولوجيا متعمدا لخدمة أغراض ومصالح ذاتية وأيديولوجية تتعلق بالآخر المناوئ لنا ، ويتبدى هذا الآخر في الصهيونية العالمية والإمبريالية العالمية^(٥٠) كما وجد مرتعا خصيا في بلاد المسلمين مجسدا في بعض الجماعات الدينية ذات الصبغة الصفوية التي تدعي أحقيّة الصواب في التدين قوله وفعلا ، وتحزم بخلو الآخرين من أبناء الإسلام من هذا الحق ، كما تزعم خطأ ممارساتهم ، هذا الادعاء بامتلاك الحق وبصواب الممارسة للنفس والجماعة والفتّة ، ونفيه عن الآخرين داخل صف الإسلام خلق نوعا من الاحتقان والتشكك والتشكيك في إسلام غير المتمين لتلك الجماعات ؛ فبرز في سلوك أفراد تلك الجماعات وكتاباتهم وأقوالهم ، اتهام المخالفين لهم في الرأي والاجتهاد والمبدأ من أبناء الإسلام بالكفر أو الشرك أو الابتداع وغيرها من النعوت ، أو الألفاظ التي يولدها سلوك المغالين والمترفرين.^(٥١)

إضافة لوجود الجماعات الصفوية النخبوية في صفوف المسلمين الآن ، وادعائهم للحق والصواب في التدين والمارسة ونفيه عن الآخرين من أبناء الإسلام ، وانعكاس الغلو والتطرف في أقوالهم تجاه الآخرين كالتفكير والتبديع والتفسيق^(٥٢) فإن في صفوف المجتمع

٤٩) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ، ص ٥.

٥٠) بول سويري وآخرون ، أمريكا اعزاز بالآثام وتحمّيل للكذب ، مرجع سابق ، ص ٥٠ - ٥١.

٥١) عبد الستار الهيتي ، الحوار ، الذات والآخر ، كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف ، الشئون الإسلامية بدولة قطر ، الدوحة ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م. ص ١٢١ - ١٢٣.

٥٢) محمد عمارة أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، د.ت ، ص ٦٢.

ال المسلم جماعات أخرى صفوية نخبوية غير الجماعات الدينية ، وهي الجماعات العلمانية التي تشربت الثقافة الغربية وتبنت نموذجها في الحكم والحياة. هذه الجماعات العلمانية بعضها تبني النموذج الاشتراكي وبعضها تبني النموذج البراري ، وهذه الجماعات العلمانية منذ أواخر الثلثينيات طغيان إعلامي كبير بحكم وجودهم في مؤسسات التعليم ومؤسسات الإعلام وبين هذه الجماعات العلمانية والجماعات الدينية سجال طويل عرفته الصحف والمنابر الإعلامية والأدبية وغيرها ، هذه الجماعات العلمانية تكره كل ما يمت للإسلام بصلة من تاريخ ولغة ورابطة ، وعلى رأس مثل هذه الجماعات سلامة موسى^(٥٣) وغيره ، ويمكن ملاحظة التطرف أيضا في سلوك العلمانيين قوله وفعلاً فهم ساعون لاقصاء الإسلام ولغة القرآن عن الحياة وهم معادون لكل ما هو ذو صبغة إسلامية ، فهي جماعات ذات روح تغريبية استلابية.

وقد تجلى في سلوكها اللغوي الكثير من التطرف والغلو كما في قول سلامة موسى : عن اللغة العربية لغة القرآن وعن تراثها : ” إنه تراث لغوي يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها... فالعربية ليست لغة الديموقراطية والأتوبيل والتلفزيون بل لغة القرآن وتقالييد العرب ”^(٥٤).

وقد استمر السجال فكريًا بين التيارات الإسلامية والتيارات التغريبية وظل قويًا وفيه الكثير من السلوك اللغوي المتطرف الذي يسعى لإزاحة الطرف الآخر دون مواربة ، وقد تولد عن هذا السجال الفكري في الثقافة والسياسة والأدب ونظم التعليم تطرف واستقطاب ، يجسد أزمتنا المعاصرة بين الحكام والمحكومين وبين التيارات المختلفة إضافة إلى الهزيمة السابقة في كل المواجهات. هذا حال الذات المسلمة في مجموعها وتياراتها الفكرية والثقافية والسياسية والدينية تنازع واختلاف وصراع استنزف الطاقات وكان من نتاجه الفكري الوقوف عند السلب أكثر من الإيجاب^(٥٥)؛ فهنا نلاحظ تجلی مفاهيم التطرف والغلو لدى كل الجماعات والتيارات وانعكاسها في السلوك اللغوي ، فالتيارات والجماعات الدينية تصف العلمانيين والتغريبيين بالكفر والمرopic والعمالة والتبعية ، وتيارات التغريب وجماعات

^(٥٣) محمد عماره ، المرجع السابق نفسه ، ص ٦٤-٦٧.

^(٥٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٧.

^(٥٥) المرجع السابق نفسه ، ص ١١١.

العلمانيين تصف الجماعات الدينية بالجمود والرجعية والتخلف والأصولية والإرهاب ، و تستعدي الغرب عليها خاصة النخب المتنفذة والحاكمة ، و تزج ببعض أفرادها في السجون و تنصب لهم المحاكم والمشانق ، وبعض الجماعات الدينية في الجانب المقابل تحمل السلاح و تخرج على السلطان و تستعدي الجماهير عليه.^(٥٦)

وفي الجانب المقابل نجد الإيديولوجيا الغربية بإرثها المسيحي الكاثوليكي والإمبريالي العالمي ، تسعى لخلق الفتنة والقلق في بلاد المسلمين بإفريقيا وآسيا تحت مسميات حقوق الأقليات ، وحماية المضطهدين ومطاردة الإرهاب ومحاصرة المد الإسلامي^(٥٧) وفي هذا الجانب نلاحظ الآخر المناوي ”**الصهيونية والإمبريالية**“ يوظف مصطلح التطرف ورديفه الإرهاب لإيجاد السند القانوني والأخلاقي لتدخله وحربه في بلاد المسلمين سواء أكان ذلك في أفغانستان أو الصومال أو السودان. فاللألفاظ والمصطلحات في هذا السياق السياسي والعسكري والإعلامي ، أفرغت من دلالاتها الوضعية وألست دلالات غربية عنها مثل التروع والإكراه والرعب وتهديد الحضارة وإبادة الأقليات. في هذه الحال أصبح مصطلح التطرف والإرهاب غطاء أخلاقيا لأعمال وسلوك غير أخلاقي كما أصبح سندًا قانونيا لأعمال إجرامية مثل قتل الفلسطينيين في غزة وحصارهم بحججة ملاحة الإرهاب ، واحتلال أفغانستان بحججة القضاء على الإرهابيين من طالبان والقاعدة ، قال رئيس وزراء إسرائيل إيهود أولمرت : ” إننا نقوم بالعمل في أي مكان نستطيع فيه ضرب البنية التحتية للإرهاب ... ”.^(٥٨) وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م شنت الولايات المتحدة حربا عسكرية وإعلامية على ما أسمته الإرهاب وكانت هذه الحرب موجهة للدول الإسلامية في آسيا وإفريقيا وشاعت مقوله أمريكا ” من ليس معنا فهو ضدنا ” وقد حرص الرئيس الأمريكي جورج بوش على إبلاغ هذه المقوله - التي أصبحت بمثابة القانون - إلى الرؤساء والملوك العرب.^(٥٩)

^(٥٦) مؤمن المحمدي ، ابن لادن بعث أمريكا ، كنوز للنشر ، القاهرة مصر ، ط ٢ ، ٢٠٠٩م ، ص ١٧٢-١٧٦.

^(٥٧) رمزي المنياوي ، الفوضى الخلاقة ، دار الكتاب العربي ، مصر - القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٢م ، ص ١٦٧.

^(٥٨) المرجع السابق نفسه ص ١٦٨.
^(٥٩) المرجع السابق نفسه ، ص ١٧٩.

نلاحظ هنا أن اللغة وألفاظ اللغة أصبحت سلاحا في الحرب ، كما أصبحت غطاء قانونيا يبرر قتل الأبرياء في بلادهم بسيل ووابل من القنابل والصواريخ ، كما أصبحت مبررا أخلاقيا لدك المدن وهدم المباني واعتقال الأبرياء مجرد الاشتباء فيهم ، وتصبح مقوله الحرب على الإرهاب ومطاردة المتطرفين أينما كانوا مسوغا لحرب بلا حدود وبلا نهاية تبدو في ظاهرها لشعوب الدول الإمبريالية في أوروبا وأمريكا أنها قانونية وأخلاقية لحماية المدينة وحماية الحضارة من هجمات المتطرفين والإرهابيين ، لكن الناظرين إليها بعمق من المحللين والاستراتيجيين ، يرون أنها حرب للنهب والتنميط الثقافي ومحاصرة المناضلين والمجاهدين من أجل الحريات ، يقول أحد المحللين السياسيين : ” الولايات المتحدة على استعداد لاستخدام صفة إرهابي حسب ما يرود لها دفاعا عن تلك المصالح وهي على استعداد لإلصاقها بجميع حركات المعارضة السياسية... ”^(٦٠)

وقد استغلت الولايات المتحدة الخوف والغضب والحزن الذي ولدته أحداث سبتمبر ٢٠٠١ فسارعت لإعلان حرب كونية دائمة وترسيخ مبدأ أمريكي جديد هو حق أمريكا في استخدام القوة كما تشاء^(٦١) ، وقد وظفت آلة الإعلام بكل وسائلها ووسائلها لإقناع الشعوب في كل القارات أن أمريكا وحلف الأطلسي يخوضان حرباً أخلاقية قانونية لحماية الأمن والسلام العالميين وحماية المدينة والحضارة من المتطرفين والهمج والتوحشين والبرابرة وغيرها من الألفاظ التي تلخص بال المسلمين وهي ألفاظ مرسومة بصورها الذهنية في مخيلة الأوروبي المسيحي الكاثوليكي ، وقد وظفها قبل إربان لشحذ هم الكاثوليكي في أوروبا الغربية ليخرجوا في طوابير طويلة لقتل المسلمين في بلاد الشام ، واحتلال بلادهم ونهب ثرواتهم ، وكانت هذه الحرب الصليبية الظالمة تحت غطاء من الألفاظ التي تبررها قانونيا وأخلاقيا فكانت باسم المسيح ، وجندوا للرب ، والحجاج ، والحملة المقدسة ، وحملة الرب ، وفي الجانب المقابل وصف إربان المسلمين بالكفار^(٦٢) وغيرها من النعوت.

٦٠. بول سويري وآخرون ، أمريكا اعتزاز بالآثام وتجميل للكذب ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .
٦١. المصدر السابق نفسه ، ص ٧٩ .

٦٢. قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ص ١١٩ .

تلك الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين في المخيلة الغربية ، والتي عبرت عنها الحملات الصليبية إلى بلاد الشام هي نفسها الصورة الموجودة في المخيلة الغربي المسيحي اليهودي ، وقد أعادت نفسها للوجود مرة أخرى بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م إذ أعلن بوش أن الحرب على الإرهاب هي حرب صليبية^(٦٣) ورغم تراجعه ظاهرياً عن هذه العبارة ، فإنه كان يعني ما يقول لأنه يخاطب العقول الغربية ويخاطب عقلها الجماعي ويستدعي مخيلتها بالألفاظ ، وهو مخيلة رسمت فيها صورة الإسلام والمسلمين رسمًا شائهاً ومتعمداً.

فالألفاظ هنا تؤدي دوراً كبيراً في إثارة الرأي العام ضد الإسلام والمسلمين ، ولازال الإعلام الغربي بكل وسائله ووسائله يسعى جاهداً للترويج لفكرة الخطر الإسلامي على الحضارة الأوروبية ذات الأصول المسيحية اليهودية والهدف الخفي لهذا الترويج هو احتكار السلاح والبترول^(٦٤) وكان هنتحتون - الكاتب الأمريكي - من أكبر المروجين لفكرة الصراع الحتمي بين الإسلام والحضارة الغربية في كتابه صراع الحضارات^(٦٥) ولازال السواد الأعظم من الأكاديميين الغربيين والصحفيين ومعدى البرامج التلفزيونية يروجون الفكرة التي تجسد العالم الإسلامي في صورة إمبراطورية الشر التي تهدد الحضارة الغربية.^(٦٦)

حتى أصبح المعنى الخفي المورى للفظ الإرهاب والتطرف يقصد به الإسلام والمسلمين ، وقد يجاهر به في الكتابات الأكاديمية والتصريحات السياسية والعسكرية ، ويزعم هنتحتون أن الخطر الذي يتهدد الغرب ويترافق بالحضارة الغربية ذات الأصول الكاثوليكية اليهودية هو الإسلام والمسلمين ؟ لأنه في نظره أن الأصولية والتطرف والتهديد بأسلحة الدمار الشامل مرتبطة بالإسلام على نحو أوسع ويقول أيضاً : ” كانت ولا زالت النزعة العدائية الإسلامية المتنامية ضد الغرب توازيها زيادة في القلق الغربي بشأن التهديد الإسلامي الذي يفرضه على وجه الخصوص النهج المتطرف الإسلامي ... ”.

^(٦٣) بول سويري وأخرون ، أمريكا اعتراف بالآثام وتجميل للذنب ، مرجع سابق ، ص ٦٩.

^(٦٤) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ، ١٢١.

^(٦٥) صمويل هنتحتون ، صراع الحضارات ، ترجمة عباس هلال كاظم ، دار الملل للنشر والتوزيع ، إربت - الأردن ، ط ١٢٠٠٦ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

^(٦٦) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، مرجع سابق ، ص ١٢٢.

هذا الرأي واضح لا مواربة فيه ، أن الإسلام بالنسبة للغربيين - أوروبيين وأمريكان - هو مصدر الإرهاب وهو الإرهاب بنفسه وهنا يلاحظ أن الاختلاف والغاية في الدين والثقافة والقيم خاصة الإسلامية غير مقبولة في النسق الحضاري والثقافي الغربي ، ولأن الغربيين ينظرون للأخر من منطق الأنأ أو الذات ، وفي مفهومهم وعقدهم الجمعي الثقافي والديني واللغوي أن حضارتهم هي الحضارة ، وقيمهم هي القيم ، وما عداها لا يعتد به ؛ ولذلك وجب تنميته الآخرين - خاصة المسلمين - وفق النسق الحضاري الثقافي الغربي وإن رفضوا ذلك ، وتمسكون بقيمهم ودينهم فهم الإرهابيون ، وهم المتطرفون والأصوليون ، والإسلام مصدر الإرهاب والتطرف والتهديد والنزاعات ، وقد أكد ذلك هنتحجتون في كتابه صراع الحضارات .

الخاتمة :

وفي خلاصة التحليل اللغوي الفكري لدلالات التطرف والغلو والإرهاب ، وما رادفها من الألفاظ وغيرها ، نجد أن لفظ التطرف ورد فيه الغلو قد جرى استخدامه على طول حقب الحضارة الإسلامية والاعتقاد ، ولم يكن مرهونا ولا مرتبطا بالترويع والعنف والغاء الآخر المختلف ولا الإكراه والقتل إلا في حالات نادرة لا يقاس عليها مثل حالة جماعة الخوارج الأزارقة ، وحادثة خلق القرآن التي تسبب فيها غلاة المعتزلة ، إضافة لبعض حوداث متفرقة ارتبطت بالعصبية للمذاهب الفقهية. أما لفظ الإرهاب الذي عد رديفا للفظ التطرف والغلو والأصولية والسلفية وغيرها من الألفاظ ، فإنه لفظ بريء مما نسب إليه لأنه ورد في السياقات القرآنية دالا على التخشع والورع والانقطاع لعبادة الله ، وردع الأعداء لدفع الضرر والضرار عن أمة الإسلام ، ولم يكن يعني أو يدل على العنف والإبادة والترويع والإكراه والإلغاء ، كما يصوّره الغربيون اليوم ، وكما يستخدمه في سياقاته المختلفة لغويًا وعرفيًا وثقافيًا ودينيًا داخل محيط الذات ”الأنّا“ المسلم وخارجها في سياقات الآخر المأوى ”الحضارة الغربية“ عبر الترجمة من العربية إلى الإنجليزية والفرنسية ، ومن الإنجليزية والفرنسية إلى العربية ، أن الإرهاب والتطرف والأصولية قد ألبست معاني ودلالات لم تكن من جذورها ولا من سياقات استعمالها في لسان العرب ، بل أريحت إليها من مصطلحات إنجليزية مثل **fundamentalism** و **Terrorism** و **dogmatism** ، تلك المصطلحات الإنجليزية ذات سياقات مرتبطة بالعقيدة الكاثوليكية ، وما نبع منها من

احتتجاجات وثورات ، فهي مصطلحات دالة على الجزم والتعصب والاستعلاء والغطرسة والإكراه والتروع وإدعاء الحق المطلق ، ولها سياقات في عصر الثورات الأوروبية.

وفي محيطنا الإسلامي استغلت جماعات النخب النافذة في السلطة والإعلام هذه المفاهيم الجديدة التي ربطت بالألفاظ العربية كالإرهاب والتطرف والسلفية والأصولية ، ووصفت بها الجماعات الدينية الحركية وأخافت الغرب بها ، واستعدته عليها. ويلاحظ هنا خلط المفاهيم وتعويم الألفاظ ، واللعب على دلالاتها الملتبسة مما خلق نوعا من الفلق والاضطراب في الداخل الإسلامي ، وأيضا في محيط الذات المسلمة قامت جماعات مناوئة للغرب وهي عبارة عن ردة فعل لأفعال الغرب وسياساته في البلاد الإسلامية ، تلك الجماعات استخدمت الإعلام والوسائل المتعددة لنقل صورة مشوهة عن الإسلام فيها الذبح والنسف والعنف كما هو عند القاعدة وطالبان وداعش ، وقد استغل الإعلام الغربي تلك التصرفات والأقوال التي صدرت من الجماعات الإسلامية الحركية ، وجعلها دليلا على أن الإسلام دين إكراه ودين عنف ودين قتل وليس فيه تسامح ، إنما هو ببربرية وتعصب. هذه الصورة أنعشت الصورة الشائهة للإسلام في المخيلة الغربية الموروثة عن الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا العصور الوسطى. وفي كل الأحوال والسيارات من الحرب والسلم ، اخذت الألفاظ والمصطلحات غطاء أخلاقيا وقانونيا يبرر غزو بلاد المسلمين وقتلهم وسفك دمائهم وإمطارهم بوابل من الرصاص والقنابل والقذائف ؛ يحرق الأرض ويهلك الحرش والنسل وكل هذا في ظلال معاني مصطلحات التطرف والغلو والإرهاب والعنف.

وفي نهاية هذه الخاتمة يخلص البحث إلى النتائج التالية :

- (١) لم يستخدم التطرف بمعناه المعاصرة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وإنما استعملت مرادفاته كالغلو والتنطع والتعصب.
- (٢) كان الغلو والتنطع والتعصب في سياقات الحضارة الإسلامية ، دالا على حال من تجاوز حد التوسط إلى المغالاة في العبادات والمعاملات وبعض الأقوال التي تنسب المخالف داخل الذات المسلمة إلى المروق أو الابتداع أو الجهل.
- (٣) لم يكن التطرف ومرادفه الإرهاب في سياق الحضارة الإسلامية ، دالا على التروع والرعب والهول والفزع والإبادة والتهديد والإكراه والإلغاء ، إلا عند جماعة الخوارج

الأزارقة ، وغلاة المعتزلة في حادثة خلق القرآن ، وبعض الحالات المرتبطة بالتعصب المذهبى الفقهى ، وهي في مجموعها حالات نادرة لا يمكن القياس عليها.

(٤) الألفاظ المغايرة لمصطلح التطرف ومرادفاته ، هي السماحة واللين والرفق والحوار والجادلة والتي هي أحسن والعفو والإصلاح والرحمة ، وهي ألفاظ حكمت سلوك المسلمين وتصرفاتهم ومعاملاتهم وعبادتهم على طول أحقاب الحضارة الإسلامية ؟ فانبسط الأمن والأمان وشاع السلم وعلى جسرها من الخلق والسلوك انتشر دين الإسلام.

(٥) التبس مفهوم التطرف ومرادفه الإرهاب في عصرنا الحالى لدى الذات والآخر ، بدللات الرعب والفظاعة والقسوة والإكراه والإلغاء والتهديد ، وكان هذا الالتباس خلطاً متعمداً وقع في سياقات الترجمة لإيجاد غطاء قانوني وأخلاقي ، يبرر غزو بلاد المسلمين وقتلهم وإكراهم على التنازل عن قيمهم بحججة الإرهاب ، وهذا من صناعة اليهود وحلفائهم الكاثوليك والبروتستانت ؛ لأن صناعة تحريف الكلم صناعة يجدها اليهود.

(٦) إذا أطلق لفظ الإرهاب والتطرف والأصولية في محيط الحضارة الغربية المسيحية اليهودية ، فإن القصد الخفي هو الإسلام ، وإذا قالت أميركا ، وحلف الناتو أنهم يحاربون الإرهاب أو إمبراطورية الشر ، فإنهم يقصدون الإسلام.

(٧) وكانت ألفاظ اللغة ولازالت تستخدم عمداً بالتحريف وخلط المفاهيم وإلابس الدلالات ، لتكون غطاء يبرر الاستغلال والغزو والقتل والإكراه والاستبعاد ، بحججة مطاردة الإرهاب وحماية الحضارة وتنفيذ إرادة الله.

مصادر البحث ومراجعه :

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، صحيح البخاري ، تقديم أحمد محمد شاكر ، الفا للنشر والتوزيع ، القاهرة-مصر ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠١٠ م.
- (١) الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المتنزي ، مختصر صحيح مسلم ، عناية محمد بن عيادي بن عبد الحليم ، مكتبة الصفا ، القاهرة-مصر ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- (٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن ذكريا ، المقاييس في اللغة ، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت-لبنان ، ط١ ، ١٤١٤ هـ.
- (٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازى ، مختار الصحاح دار التوفيقية ، للتراث ، القاهرة ، مصر ، ط١ ، ١٤١٤ هـ.
- (٤) إبراهيم أنيس وأخرون ، المعجم الوسيط ، منشورات مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر ، ط١ ، ١٣٩٢-١٩٧٢ م.
- (٥) السيد الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات ، تحقيق عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، القاهرة-مصر ، ط١ ، د.ت.
- (٦) أبو البقاء الحسيني الكفوبي ، الكليات ، تحقيق عدنان درويش و محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت-لبنان ، ط٢ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- (٧) محمد عبد الرؤوف المناوي ، التوقف على مهام التعريف ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر بيروت-لبنان ، ط١ ، ١٩٩٠ م.
- (٨) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت-لبنان ، ط١ ، د.ت.
- (٩) روحى البعلبكي ، المورد الميسر ، قاموس عربى إنجليزى ، دار العلم للملايين ، بيروت-لبنان ، ط٦ ، ٢٠٠٦ م.
- (١٠) منير البعلبكي ، المورد ، قاموس عربى إنجليزى ، دار العلم للملايين ، بيروت-لبنان ، ط٤٠٦ ، ٢٠٠٦ م.
- (١١) مصطفى محمد عبد المجيد خضر ، الألفاظ والدلالة في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، مؤسسة حورس الدولية ، الاسكندرية-مصر ، ط١ ، ٢٠١٠ م.

- (١٢) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، دار الجبل ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، د.ت.
- (١٣) م.م. لويس ، اللغة في المجتمع ، ترجمة نعام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة – مصر ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.
- (١٤) أبو العباس المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مؤسسة المعارف ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، د.ت.
- (١٥) أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، تحقيق إيهاب محمد إبراهيم ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر ، ط ١ ، ٢٠١٣ م.
- (١٦) بول سويفي وأخرون ، أمريكا إعتزاز بالآثام وتحجيم الكذب ، ترجمة مازن الحسيني ، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي ، أمدرمان – السودان ، ط ١ ، ٢٠٠٦ .
- (١٧) محمود إسماعيل ، آراء ورؤى في الفن والفكر والتاريخ والأدب ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر ، ط ١ ، ٢٠٠٨ .
- (١٨) قاسم عبده قاسم ، إعادة قراءة التاريخ ، كتاب العربي ٨٧ ، وزارة الإعلام الكويتية ، الكويت ، ط ١ ، ٢٠٠٩ .
- (١٩) رمزي المنياوي ، الفوضى الخلاقة – الريع العربي بين الثورة والفوضى ، دار الكتاب العربي ، دمشق القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٢ .
- (٢٠) محمد مورد ، الحرب الصليبية من البابا إريان إلى البابا بوش ، مكتبة جزيرة الورد ، القاهرة – مصر ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.
- (٢١) صمويل متنجتون ، صراع الحضارات وإعادة النظام الدولي ، ترجمة عباس هلال كاظم ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، إربد – الأردن ، ط ١ ، ٢٠٠٦ .
- (٢٢) محمد عمارة ، أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، دار الشرق الأوسط للنشر ، القاهرة – مصر ، ط ١ ، د.ت.
- (٢٣) عبد الستار الهيني ، الحوار ، الذات والآخر ، كتاب الأمة العدد ٩٩ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الروحة ، قطر ، ط ١ ، ٢٠٠٤ .
- (٢٤) الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، مراجعة نجيب الماجدي ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

الطبعة الأولى

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ - ٢٠١٦ م

الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين

د. أنس إبراهيم محمد عبد الباقي

جامعة الإمام المهدى ، كلية الآداب ، قسم الدراسات الإسلامية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٣٥-٥٨)

المستخلص :

هدف هذا البحث إلى بيان أثر الجهل بالدين في ظهور الفرق والبدع في تاريخ المسلمين. وقد أوضح البحث معنى الجهل بالدين ، الذي يتمثل في الأخذ بظواهر النصوص دون اعتبار للنصوص الأخرى ، وفي الاقتصار على القرآن الكريم دون الرجوع إلى السنة المطهرة.

ثم أوضح البحث أيضاً معنى لفظ ”الخوارج“ و ”الخروج“ والأسباب التاريخية له المتمثلة في : الخلافة ، التأويل ، والعصبية.

ثم أشار البحث إلى منهج الخوارج في فهم النصوص ، وأنهم يأخذون الأحكام من القرآن الكريم دون الرجوع إلى سنة النبي ﷺ ، مما أوقعهم في أخطاء شنيعة. ثم ختم البحث بتأثير هذا المنهج الخارجي على الحياة المعاصرة في ظهور بعض الجماعات التي تبنت منهج الخوارج مثل : جماعة التكفير والهجرة وجماعة عبد الرحمن الخليري ثم أخيراً تنظيم ”داعش“.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن الخروج ظاهرة عامة وُجِدَت في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده وفي كل العصور.

وأن هذه الظاهرة قديمة متعددة ، تظهر متى ما توفرت ظروف معينة تتعلق بالمجتمعات المسلمة ، وظروف أخرى تتعلق بتلك الجماعات المتطرفة من الأخذ بظواهر النصوص دون التفقه في سنة النبي ﷺ.

ومن ثم توصي الدراسة العلماء والدعاة والمؤسسات والجامعات بنشر العلم الشرعي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .
وبالله التوفيق

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين ، والصلة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله صاحب الشرع المبين ، الذي بعثه ربه ليقرر الوفاق ، ويرفع الاختلاف والفرقة ، وعلى آله وصحبه الكرام ، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين. أما بعد ، ، ،

فإنَّ الدِّينَ إِسْلَامٌ قد نَهَىَ عَنِ الْفَرْقَةِ وَالْاِخْتِلَافِ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ، كَمَا نَهَىَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْاِخْتِلَافَ سَبَبَ لِذَهَابِ الرِّيحِ وَالْقُوَّةِ .

لقد ظهرت فرقٌ وبدعٌ في تاريخ المسلمين ، ومن أوائل الفرق التي ظهرت فرقة الخوارج ثم فرقة الشيعة ، وعلى الرغم من أن ظهور فرقة الخوارج قد ارتبط بحادثة التحكيم المشهورة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، إلَّا أن هنالك أفراداً مثلوا ظاهرة الخروج في عهد النبي ﷺ مثل : عبد الله بن ذي الخويصرة ، الذي يعتبر أول خارجي في الإسلام عندما اعترض على قسمة النبي ﷺ للغنائم ، ولذلك نجد أن بعض كُتاب الفرق والمقالات كالأمام الشهريستاني اعتبر الخروج ظاهرة عامة وأن لفظ الخوارج يطلق على كل من خرج على الإمام الذي ارضته الجماعة سواءً أكان هذا الخروج على عهد النبي ﷺ أو على عهد الخلفاء الراشدين أو على الأئمة في كل زمان.

ولخطورة هذه الظاهرة ، ظاهرة الخروج كتبتُ هذا البحث بعنوان : "الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين" . ولقد قسمت البحث إلى مباحثين اثنين على التحو الآتي :

المبحث الأول : الجهل بالدين وأثره في ظهور الفرق والبدع.

المبحث الثاني : أثر منهج وعقائد الخوارج على الأمة في هذا العصر.

البحث الأول

الجهل بالدين وأثره في ظهور الفرق والبدع

إن الجهل وضعف البصيرة بحقيقة الدين من الأسباب التي أدت وتؤدي إلى ظهور بعض الفرق والبدع في هذا العصر ، صحيح أن فرق الخوارج المختلفة قد انقرضت ، وأصبحت مقالاتها جزءاً من كتب الفرق والمقالات ، ولم يبق من الخوارج سوى الاباضية ، الذين لا تزال لهم بقايا حتى الآن ، ولكن الذي لم ينقرض هو الغلو ، والغلو الخارجي بالذات ذلك الذي يتضاعده به أصحابه حتى ليستبدلوا الكفر بالخطأ ، فلقد اختلف الزمان ، وتغيرت الملابسات ، وتبدل الأسماء والرأييات ، لكن هذا الغلو الخارجي مايزال حياً ، تبرزه الأزمات والمحن التي تمر بها الأمة^(١)؛ لذلك فإن بدعة الخوارج من البدع البارزة والمشهورة ، التي لازالت أثارها تتردد بين أنحاء العالم الإسلامي إلى الآن ، وقد أخبر الرسول ﷺ عن شرها ، وحذر من الأخذ بها ، وطالب بالقضاء عليها ومحاربتها.^(٢)

ومن الجهل بالدين الأخذ بظواهر النصوص من غير اعتبار للنصوص الأخرى ، فلقد تجراً البعض على إصدار الأحكام في الأمور الاعتقادية وذلك من ظواهر بعض الآيات أو الأحاديث دون علم بباقي النصوص ولا بحكم الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، بل تجاوزوا وزعموا أن كتب الفقه لا تصلح لهذا العصر الذي نعيش فيه^(٣)؛ لذلك لم يأخذوا بأقوال الصحابة وأقوال الفقهاء وعدوا كل من يأخذ بهذه الأقوال غير مسلم أى كافر ، وقالوا : ”نحن جماعة الحق ، ومن عدانا فليس بمسلم“.^(٤)

^(١) تيارات الفكر الإسلامي . د. محمد عمارة مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ، ص ٤٥-٤٦ .
^(٢) الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ، جمعة أمين عبد العزيز ، دار الإسكندرية ، طبعه أولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ، ص ٣٦-٣٧ .

^(٣) الحكم وقضية تكفير المسلم ، سالم البهنساوي ، دار البحوث العلمية - الكويت ، طبعة ثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ٨٠-٨١ .

^(٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، محمد الغزالي ، دار الشروق - القاهرة ، طبعة أولى ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، ص ١٧٧ .

ونتيجة لما سبق فقد وقع هؤلاء الناس في أخطاء شنيعة وجسيمة ، ومن ذلك قولهم : إن المسلم إذا ارتكب معصية صغيرة أو كبريه فيلزمه التوبه فوراً و إلا صار كافراً . واستدلوا بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِعَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٧] . ولو كان ما لدينا من القرآن هذا النص فقط لكان الحكم كما يقولون ولكن الله تعالى في الآية التي تليها يقول : ﴿وَلَيَسْتَ وَلَيَسْتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي ثُبَّتُ الْأَنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء : ١٨] . فإذا جمعنا الآيتين يكون معنى ” قريب ” هو حضور الموت .^(٦)

ومن الجهل بالدين أيضاً أن بعض الناس أعلنا أنه ينبغي الأخذ من القرآن مباشرة . وهذا الأمر صعب في زماننا هذا ، خصوصاً على أولئك الذين قل زادهم من اللغة والسنة ، ومعرفتهم بأسباب النزول^(٧) ؛ لذلك لا معنى لقولهم : ” إن العربي إنما كان يسمع الآية من آيات القرآن الكريم ليعمل بمقتضاها ببساطة ، ويقوم بتنفيذها على الفور وإن علينا أن نفعل مثله . وقال البعض : إن الأحكام الشرعية التي قال بها الفقهاء إما أنهم قالوا بها لتكون مناسبة في الظروف التي أحاطت بها . وإن منهم خضع لتوجيهات الساسة أصحاب السلطان من كانوا في عصرهم ، وأن الظروف التي تمر بها دعوة الإسلام في الوقت الحاضر لم يسبق أن مررت بها ، وإنه لذلك يجب علينا أن نطرح ذلك الفقه القديم جانباً وأن نتعامل مباشرة مع القرآن الكريم ونستمد منه أحكاماً تلائم الظروف التي نعيش فيها ، والملابسات التي تمر بها دعوة الإسلام في عصرنا هذا ” .^(٨)

إن الدعوة إلى التعامل مباشرة مع القرآن الكريم والاقتصار عليه^(٩) ، وطرح أحكام السنة النبوية قد كان سبباً أدى إلى ظهور فرق الخوارج وأهل البدع قدماً ، وقد قال فيهم

التكفير جذوره وأسبابه ومبراته ، د. نعمن عبد الرزاق السامرائي ، المنارة للطباعة والنشر طبعة أولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٥٨ .^(٥)

المرجع نفسه ، ص ٥٧ .^(٦)

دعاة لا قضاة ، الأستاذ / حسن الهضيبي ، دار التوزيع للنشر - القاهرة - بدون تاريخ طبع ، ص ٢١٩ .^(٧)

هناك بعض الجماعات اليوم في باكستان والنيجر ونيجرياً أطلق عليهم اسم ” القرآنيين ” وجماعة بوكو حرام وهم ينادون بالتعامل مباشرة مع القرآن دون الرجوع إلى السنة .^(٨)

الإمام الشاطبي : ” إن الاقتصار على الكتاب - أي القرآن الكريم - رأي قوم لا خلاق لهم ، خارجين عن السنة إذ عولوا على أن الكتاب فيه بيان كل شيء ، فاطرحوا أحكام السنة ، فأداهم ذلك إلى الانخلال عن الجماعة ، وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله ... فضلوا وأضلوا ”.^(٤) ولقد ذكر الإمام السيوطي ” أن من غالبية الرافضة من ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة ، والاقتصار بالقرآن ، لأنهم يعتقدون أن النبوة لعلي وأن جبريل أخطأ في نزوله إلى سيد المرسلين ﷺ ”.^(٥)

وفي القديم جاء رجل إلى الإمام الشافعي وأثار قضية الاقتصار على القرآن ، مبينا للشافعي أنه عربي وأن القرآن نزل بلغة العرب ، وقد قال الله عز وجل في القرآن ﷺ ... تبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ [التحل : ٨٩] ، إذن ليس هنالك حاجة إلى الاحتجاج بالسنة ، ويقتصر على القرآن فقط . فأجاب الإمام الشافعي على هذا الرجل مفندًا دعواه هذه فقال : قال الله عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة : ٢] . قال الرجل فقد علمنا أن الكتاب كتاب الله ، فما الحكمة ؟ قال الإمام الشافعي : ” سنة رسول الله ﷺ ” ثم ذكر الإمام الشافعي : ” أن الله تعالى فرض اتباع رسوله ﷺ وهو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ”.^(٦)

هكذا رأيت أن هنالك من أنكر حجية السنة في القديم ، وفي عصورنا هذه تصدى بعض الذين لا علم لهم بهذا الفن إلى إنكار حجية السنة ، وقد نشرت مجلة ” المنار ” للمرحوم رشيد رضا في العدد السابع والثاني من السنة التاسعة مقالين للدكتور توفيق صدقى يعلن فيها هذا الرأى تحت عنوان ” الإسلام هو القرآن وحده ” ، مستدلاً بنفس الآيات التي أستدل بها منكرو حجية السنة قديماً ، ثم أثار عدة شبكات منها :

أولاً : قول الله تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ [التحل : ٨٩] ،

^(٤) المواقفات ، الإمام الشاطبي ، ج ٤ ، ص ١٧-١٨ .

^(٥) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، الإمام السيوطي ، طبعة مصر ، بدون تاريخ طبع ، ص ٣ .

^(٦) كتاب الأم ، الإمام الشافعي ، دار الفكر - بيروت ، طبعة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، ج ٦ ، ص ٢١٩ .

يدل على أن الكتاب قد حوي كل شيء من أمور الدين ، وكل حكم من أحكامه ، وأنه يبينه وفصله بحيث لا يحتاج إلى شيء آخر كالسنة ، و **ولا** كان الكتاب مفرطاً فيه ، ولما كان تبياناً لكل شيء ، فيلزم الخلق في خبره تعالى وهو محال .

ثانياً : قول الله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] . يدل على أن الله تكفل بحفظ القرآن دون السنة ، ولو كانت السنة دليلاً وحججاً كالقرآن لتكتفى بحفظها .

تلك هي خلاصة ما أورده الدكتور توفيق صدقى من بعض الشبه التي أثارها حول حجية السنة ، ولا يتزدّ طالب العلم عن الجزم بتهافتها وضعفها ، ولكننا سنورد ما يتبيّن به ذلك إن شاء الله تعالى .^(١٢)

الجواب عن الشبهة الأولى :

إن القرآن الكريم قد حوى أصول الدين وقواعد الأحكام العامة ، ونص على بعضها بصراحة ، وترك بيان الأحكام الأخرى لرسول ﷺ ، مادام الله قد أرسل رسوله لبيان للناس أحكام الدين ، وأوجب عليهم إتباعه ، كان بيانه للأحكام بياناً للقرآن ، ومن هنا كانت أحكام الشريعة من كتاب وسنة وما يتفرع عنها من إجماع وقياس ، أحكام من كتاب الله عز وجل . إما نصاً وإما دلالة ، فلا منافاة بين حجية السنة وبين أن القرآن جاء تبياناً لكل شيء .^(١٣)

قال الإمام الشافعى رحمة الله تعالى : ”فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل المدى فيها“ . قال الله تبارك وتعالى : ﴿الرِّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صَرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : ١] . وقال : ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] . وقال : ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل : ٨٩] . والبيان اسم جامع لمعانٍ مجتمعة الأصول متشعبه الفروع ،

السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، د. مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي – بيروت طبعة ثالثة ، ١٤٠٢ – ١٩٨٢ م ، ص ١٥٣ – ١٥٤ .^(١٢)

المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .^(١٣)

فجماع ما أبان الله خلقه في كتابه مما تعبدهم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه من وجوه : فمنها ما أبان خلقه نصاً مثل جمل فرائضه في أن عليهم صلاةً وزكاةً وصوماً وحججاً ، وأنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وبين لهم كيف فرض الوضوء ، مع غير ذلك مما بين نصاً. ومنه ما أحکم فرضه بكتابه ، وبين كيف هو على لسان نبیه ﷺ. مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها ، وغير ذلك من فرائضه التي أنزل من كتابه. ومنه ما سنّ رسول الله ﷺ والانتهاء إلى حكمه. فمن قبل عن رسول الله ففرض الله قبل.

ومنه ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه ، وابتلي طاعتهم في الاجتهاد في طلبه ، كما ابتلي طاعتهم في غيره مما فرض عليهم. فإنه يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَنَبُلوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١].^(١٤)

ثم قال الإمام الشافعي : ”فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله سننه ، بفرض الله طاعة رسوله على خلقه ، وأن يتنهوا إلى حكمه. ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل ، لما افترض الله من طاعته. فيجمع القبول لما في كتاب الله ولستنة رسول الله : القبول لكل واحد منها عن الله ، وإن تفرّقت فروع الأسباب التي قبل بها عندها ، كما أحلَّ وحرَّم ، وفرض وحدَّ بأسباب متفرقة كما شاء ، جل ثناؤه ، ﴿ لَا يُسَأَّلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣].^(١٥)“

^(١٤) الرسالة ، الإمام الشافعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الفكر – بيروت – بدون تاريخ طبع ، ص ٢٠-٢٢.

^(١٥) الرسالة ، الإمام الشافعي ، ص ٣٣.

الجواب عن الشبهة الثانية :

وبناءً على ما سبق فقد ذهب العلماء والمحققون – دون اعتبار لقول من شدّ من المرجفين في دين الله تعالى ، العاملين على هدم السنة إلى أنه يتحتم شرعاً وعقولاً الرجوع إلى السنة لتفصيل ما ورد مجملًا في القرآن وبيان كيفية أدائه ، لوضع الصورة العلمية والتطبيقية لتجيئاته.^(١٧)

ومما يُستعان به في تأييد ذلك ما يلي :

روي أن رجلاً قال لعمران بن حصين^(١٨) : لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال له عمران : ”إنك أمرؤ أحمق ، أتجد في كتاب الله الظهر أربعًا لا تجهر فيها بالقراءة؟ ثم عد عليه الصلاة والزكاة. ونحو هذا ثم قال : أتجد هذا في كتاب الله مفسراً؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، وإن السنة تفسّر ذلك“.^(١٩)

وفي هذا المعنى قال الأوزاعي : ”الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب“.^(٢٠) وهكذا نجد أن أسلاف الخوارج كما يقول ابن حزم : ”كانوا أعراباً قرأوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول ﷺ ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء ، لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب عمر... وهذا نجد لهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها“.^(٢١)

^(١٧) منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية ، محمد سعيد منصور ، مكتبة وهبة – القاهرة ، طبعة أولى ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، ص ١١٩.

^(١٨) عمران بن حصين : أبو نجيد عمران بن حصين بن عبيد الخزاعي ، من علماء الصحابة – أسلم عام خير السنة السابعة للهجرة ، بعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقه أهلها ، وولاه زياد قضاها ، وكان مجاب الدعوة. له في كتب الحديث ثلاثة عشر حديثاً ، وتوفي سنة [٥٢هـ] بالبصرة. انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير على بن محمد الجزري دار الفكر – بيروت طبعة ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، ج ٣ ، ص ٧٧٨-٧٧٩ وانظر أيضاً صفة الصفوة ، ابن الجوزي ، ج ١ ، ص ٦٨١.

^(١٩) أخرجه ابن عبد البر في ”جامع بيان العلم وفضله“ باب موضع السنة من الكتاب وبيانها له ، ص ٤٩٥-٤٩٦.

^(٢٠) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ، الإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد ، تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدرى ، دار الفكر – بيروت – طبعة أولى ، ١٤١٢هـ - ص ٩٦.

^(٢١) انظر دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، د. أحمد محمد أحمد جلي ، ص ٦٥.

ولاشك أن هذا المنهج الذي سلكه الخوارج في فهم القرآن الكريم قد أدى بهم إلى الوقوع في أخطاء شنيعة ، فكفروا المجتمع ، وأسقطوا بعض الحدود كحد الزاني المحصن وحد الخمر ، وكفروا أرباب الذنوب وأخرجوهم من الله ، وحكموا بخلدتهم في النار. وغير ذلك من الشنائع والأخطاء التي وقع فيها هؤلاء.

ولا شك أيضاً أن كل من يسلك منهج الخوارج في اطراح السنة وعدم الاعتماد عليها في أي زمان ؛ سوف يتنهى إلى نفس التائج التي انتهى إليها الخوارج ويقول بنفس الأحكام التي قالوا بها من تكفير للمجتمع ولمرتكب الكبيرة وغيرها.

لقد انقرضت فرق الخوارج وذابت في لجة التاريخ ، ولكن الذي بقى هو التطرف والغلو ومنهج الخوارج في فهم القرآن الكريم ، هذا المنهج الذي سوف يؤدى إلى ظهور فرق وبذلة جديدة متى ما تم الاعتماد عليه و اتخاذه سبيلاً لفهم القرآن الكريم من قبل أولئك الجهال الذين جهلو مقاصد الشريعة الإسلامية ، وقل ففقهم في الدين.

إن الجهل وقلة الفقه في الدين هو الذي أوقع جماعة التكفير والهجرة – أتباع شكري مصطفى – في أخطاء شنيعة ، حيث ذهبت هذه الجماعة ، كما ذهب الخوارج من قبل إلى إن ارتكاب الكبائر يخرج من الله ، ويحكم على فاعلها بالكفر ، وقالوا إن كلمة كفر في الشريعة استخدمت للدلالة على نقض الإيمان ، وهي تشتمل على كلمات الفسق والظلم والعصيان ، وأن هذه الكلمات الثلاث تدل على معنى واحد وهو الكفر الملي ، والاختلاف بينها يعود إلى الاختلاف في مداخل الكفر لا في حقيقته.

وساوت جماعة التكفير والهجرة – كما فعل الخوارج – بين الخطأ في الاعتقاد والخطأ في العمل ، وأنكروا التفرقة بينهما. وقالوا : لم يحدث أن فرقت الشريعة بين الكفر العملي والكفر القلبي ، ولا أن جاء نص واحد يدل أو يشير أدنى إشارة إلى أن الذين كفروا بسلوكهم غير الذين كفروا بقلوبهم واعتقادهم ، بل كل النصوص تدل على أن عصيان الله عملاً والكفر به سلوكاً وواقعاً هو بمفرده سبب العذاب في النار والحرمان من الجنة.^(٢٢)

ولعل الذي أوقع هذه الجماعة في مثل هذه الأخطاء في الفهم والاستنتاج وفي العمل والممارسات خطأهم المنهجي الذي اتباعوه في معالجة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام

^(٢٢) انظر دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، ص ١٢٢ .

منها ، حيث زعمت هذه الجماعة أن القرآن لا يحتاج إلى تفسير ، ومن ثم يمكن أن تؤخذ الأحكام منه ومن السنة مباشرة. وقالوا في ذلك : من اعتقاد أن كلام الله ورسوله يحتاج إلى شرح فقد كفر ، لأنه اعتقاد بأن كلام البشر أبين و أوضح من كلام الله ” واستدلوا على رأيهم هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمَهُ لَيَّبِينَ لُهُمْ فَيُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ٤] ”. كما احتجوا أيضاً بقولهم : ” هل كلام الله ورسوله ﷺ أبين أم كلام غيرهما ؟ فإن قالوا كلام الله أبين وجب عليهم اتباعه وكفونا مؤونة الرد عليهم ، وإن قالوا العكس فقد كفروا وصادموا النصوص ” .^(٢٣)

أما جماعة محمد عبد الرحمن الخليفي الصغيرة التي فجرت أحداث مسجد الثورة في عام ١٩٩٤م بالسودان ، فقد أوقعهم الجهل في أخطاء ومارسات فادحة ، حيث أنهم أنكروا الإجماع والقياس والاجتهاد ، وكفروا أهل السودان جمِيعاً – كما فعل الخوارج من قبل – وقالوا بأن السودان دار حرب وهم لا يؤدون صلاة الجمعة مع المسلمين ، ومرتكب الكبيرة عندهم كافر والمذاهب الإسلامية سبب تمزق المسلمين وخلافهم. وهم يقتلون المسلمين. وقد قتلوا ستة عشر مصلياً في مسجد الثورة. وهذا قليل من بدعهم من واقع محضر المحاكمة.^(٢٤) هكذا رأينا عاقبة ومصير كل من لم يهتد بهدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وكل آفة جاءت في الإسلام ، وكل بلاء شمل المسلمين فإنها هو من ترك الاعتصام بهما ، فصار أهل الله الإسلامية اليوم يضل بعضهم بعضاً ، ويبدع أحدهم الآخر ويُكَفِّرُ بعضهم بعضاً من غير دليل وبرهان من قرآن أو سنة.^(٢٥)

الحكم بغير ما أنزل الله ، ص ١٢٨ ، نقلًا عن دراسة عن الفرق في تاريخ ، ص ١٣٩ .^(٢٣)
انظر مواعظ من قضية مجزرة مسجد الثورة ، عبد الرحمن شريفي طبعة أولى عام ١٩٩٤م ،^(٢٤) ص ١٦٧ .

الدين الخالص ، السيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري ، صححه محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية – بيروت طبعة أولى ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، ج ٣ ، ص ٤ .^(٢٥)

البحث الثاني

أثر منهج وعقائد الخوارج على الأمة في هذا العصر

لقد كانت لعقائد الخوارج آثار واضحة على الأمة ، تمثل ذلك في الخروج على الإمام الشرعي ، وتكفير المجتمع واستباحة دماء أفراده ، وهذه الظاهرة تطل من جديد من فترة إلى فترة عندما تتتوفر بعض الظروف. لذلك سوف نتحدث عن ظاهرة الخروج في هذا العصر باعتبارها أثر من آثار عقائد الخوارج ومنهجهم في فهم النصوص.

و قبل أن نتحدث عن ظاهرة الخروج في هذا العصر لابد أن نتحدث عن الأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة الخروج بشئ من الإيجاز. أو بمعنى آخر الأسباب العامة أو التاريخية لظاهرة الخروج ، وبذلك يمكن أن نقارن بين الأسباب العامة للخروج والأسباب الحالية للخروج في هذا العصر ، وقطعاً سوف نجد أن هنالك قدرًا مشتركاً بين هذه وتلك في الأسباب والد الواقع والغايات ، ونجد اختلافاً أيضاً اقتضته الظروف والأحوال الخاصة بكل جماعة وعصر. وسوف نتحدث أيضاً عن مصطلح أو لفظ " خارجي " ، و " خوارج " ونبين معنى ودلالة هذين اللفظين ، وعلى من يطلق لفظ " خارجي " ، و " خوارج " وبهذا نبدأ الحديث.

لفظ " الخوارج " بهذا المعنى الذي يشير إلى الانشقاق ومقارقة الجماعة ، قد وجد أفراد في عهد النبي ﷺ مثلوا هذه الظاهرة ، أي ظاهرة الخروج على الإمام الشرعي الذي ارتضته الجماعة^(٢٦) وينطبق هذا المعنى على كل من خرج على الإمام الشرعي من لدن سيدنا محمد ﷺ والصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين إلى عصراً هذا ، وفي كل زمان.^(٢٧)

ولقد وردت العديد من الأحاديث الصحيحة التي تتحدث عن هؤلاء الخوارج وأوصافهم وذمهم والأمر بقتالهم. منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري أنه قال : " بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهبة في أديم مقووظ لم تحصل من ترابها ، قال : فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقة بن علامة وإما عامر بن الطفيلي. فقال رجل من أصحابه : كنا

^(٢٦) الملل والنحل ، الشهري ، ص ١١٤.

^(٢٧) الشريعة ، الآجرى ، ص ٢٢.

نحن أحق بهذا من هؤلاء. بلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ”ألا تؤمنون وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحاً“ ومساء قال : فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشر الجبهة ، كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار. فقال يا رسول الله اتق الله. فقال : ويلك ، أو لست أحق أهل الأرض أني تقى الله قال : ثم ولرجل فقال خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه. فقال : لا لعله أن يكون يصلى قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله ﷺ : إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم. قال : ثم نظر إليه وهو مُقف قال : إنه يخرج من ضئضي^(٢٨) هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. قال : أظنه قال : لئن أدركهم لاقتلَّنَّهم قتل ثمود“^(٢٩).

وذلك الرجل الذي خاطب النبي ﷺ هو عبد الله بن ذي الخويصرة وذو الخويصرة هذا هو حرقوص بن زهير السعدي الذي كان مع علىٰ في حربه ثم صار مع الخوارج فقتل معهم.^(٣٠)

وبذلك يُعتبر ذو الخويصرة أول من مثل ظاهرة الخروج والاتجاه الخارجي ، ولكن اسم الخوارج لم يطلق على جماعة ما إلا بعد فترة من الزمن ، فأطلق على أولئك النفر الذين خرجوا على الإمام على بن أبي طالب عندما قبل التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. إذ اعتبر هؤلاء أن التحكيم ذنب تجنب التوبة منه. وإنه لا حكم إلا لله. ثم انحازوا إلى قرية ”حروراء“ وعيّنوا شبيث بن ربعي التميمي أميراً للقتال. وعبد الله بن الكواء اليشكري إماماً للصلوة.^(٣١)

الضئضي : هو الأصل. قال الكميت^(٢٨)

أحل الأكابر منه الصغارا

وجدتك في الضئضي من ضئضي

انظر : تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت – طبعة ثلاثة ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م ، ج ١ ، ص ٦٠ .^(٢٩)
صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، ج ٤ ، ص ١٧٤ وانظر صحيح البخاري كتاب الأنبياء ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، ج ٤ ، ص ١٧٤ وانظر صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء باب قوله تعالى { وإلى عادٍ أخاهم هودا } ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .
وانظر الشريعة للأجري ، ص ٢٢ .

صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٤ ، ص ١٧٤ .^(٣٠)

دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين د. أحمد محمد أحمد جلي ، ص ٥٥ .^(٣١)

وإذا تبعنا سيرة هؤلاء الخوارج نجد أن هنالك أسباباً دفعتهم إلى الخروج هي :
أولاً : الخلافة :

كان للفرق التي نشأت خلال القرن الأول الهجري نصيب كبير من موضوع الخلافة أو الإمامة ، ولعل بعضها لم ينشأ إلا لأنه كان ذا نظر خاصة في موضوع الإمامة أو بعبارة أخرى أن نشأتها كانت نتيجة لعوامل سياسية محضة ، وهنالك ما يشبه الإجماع بين المؤرخين قد يأْ وحديثاً على أن الدوافع التي دفعت بالخوارج إلى الظهور في تاريخ المسلمين كانت في أول أمرها وجهة نظر سياسية ، ثم تطورت فتحولت من الجانب السياسي إلى الجانب الفكري العقائدي. ومن هنا يذهب معظم كتاب الفرق إلى أن مسألة الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين وتشعبت حولها آراؤهم ، وتكون حولها أهم الفرق في العصر الإسلامي الأول الخوارج والشيعة.^(٣٢)

لذلك لابد من الاعتصام بالكتاب والسنّة لتجنب الزيف والضلال والاختلاف والفرقة و لابد من التفقه في الدين ومعرفة الأحكام الشرعية التي وردت في كتاب الله تعالى ، والتفقه في السنن المروية عن رسول الله ﷺ ، فإن القرآن الكريم والسنّة النبوية هما مصدرا التشريع الإسلامي ، وإن الإجماع والقياس يبني عليهما. وإن السنّة النبوية ترد من القرآن الكريم موارد عدّة فهي التي تفصل ما جاء مجملًا في القرآن ، وتقيد مطلقه وتحصّص عامله وتنسخ بعض أحكامه. فإن الله تعالى أعطى رسوله ﷺ حق التشريع لهذه الأمة والنبي ﷺ عندما يشرع فهو يحيى من الله تعالى.

ومن الجهل وضعف البصيرة بالدين اطراح وإهمال أحكام السنّة والاكتفاء بالقرآن الكريم فقط ، فإن ذلك سبب للهلاك والخسران والبوار. نسأل الله تعالى الهدى والنجاة.

ثانياً : التأويل :

لا يرتاب عاقل في أن جميع المصائب التي جرت في صدر الإسلام ووقوع الفتن وظهور الفرق كلها متفرعة عن التأويل الباطل ، الذي لا ينبع إلا شرًا ، وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله بالطرق الموصلة إلى ذلك فهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهي التي أمر الله ورسوله ﷺ بها ومدح أهلها.

^(٣٢) الخوارج د. عبد القادر البحراوي ، ص ٥٥.

إذن فالتأويل الصحيح يعود إلى فهم مراد الله ورسوله وإلى العمل بالخير ، وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ، أي الخروج بالنصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله إلى البدع والضلال. ^(٣٣)

وهذا التأويل الباطل هو ما فعلته الرافضة في أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية ، والشفاعة ، وكذلك القدرية في نصوص القدر ، وكذلك الحروريه وغيرهم من الخوارج في النصوص التي تختلف مذاهبهم. ^(٣٤)

ثالثاً : العصبية :

يقسم المؤرخون العرب قسمين عظيمين : ”قسم عدناني مضري وهم عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر ، وقسم قحطاني ينحدر من قحطان ، وموطنهم بلاد اليمين من أشهر قبائلهم : جُرْهُمْ وَيَعْرِبْ وَغَيْرَهُمْ“ ^(٣٥).

لقد كانت القبائل العربية في تناحر شديد فيما بينها وتقاتل مستمر. فلما جاء الإسلام حرم النداء بالعصبية ؛ لأنه قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة والمتساوية بين الأنسان والأعراق ، لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي فالإسلام يخاطب الإنسان بما هو إنسان لا بما هو عضو في قبيلة أو أمة.

يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من الآيات البينات ، فلقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاًكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣]. وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١]. وما أثر عن الرسول ﷺ حيث قال : ”إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالأباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم وآدم خلق من

الخوارج د. عبد القادر البحراوي ، ص ٨١-٨١. ^(٣٦)

إعلام الموقعين - ابن قيم الجوزية ، ج ٤ ، ص ٢٥. ^(٣٧)

السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام - أبو محمد عبد الملك بن هشام تحقيق جمال ثابت و محمد محمود - دار الحديث - القاهرة - بدون رقم طبعة وتاريخ ، ج ١ ، ص ٢٦-٢٧. ^(٣٨)

تراب ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتفوي^(٣٦) . وبالتألي اختفت العصبية تماماً ، ولكنها سرعان ما أطللت برأسها إبان حروب الردة . فُيروي أن مسلمة الكذاب حينما تنبأ في بني حنيفة اتبعه الناس على العصبية . وكان منهم من يقول : "إنا لنعلم أن محمدًا صادق ومسلمة كاذب ولكن كاذب ربعة أحب إلينا من صادق مصر" ^(٣٧) .

ولقد كانت العصبية من الأسباب المباشرة في ظهور الخوارج وكثريتهم ^(٣٨) ، وهنالك أيضاً سبب ساعد في زيادة عدد الخوارج ، وهو أن الدولة الأموية وقد كانت عربية ، كانت شديدة التعصب للعرب ولم تعط المولى حقهم الكامل في الإسلام وأرادت الإسلام عربياً ، ولم تفهم أنه دين الكافة لأن الله بعث محمدًا بشيراً ونذيراً للكافرة ؛ لا لقوم دون قوم ، وأن الإسلام سوئ بين الناس في الشرف ، ولا تفاضل فيه بين عربي وأعجمي إلا بالتفوي^(٣٩) .

هذه الأسباب التي سقناها وتحذثنا عنها هي الأسباب العامة أو الأسباب التاريخية التي أدت إلى ظهور الخوارج قديماً ، وهذه الظاهرة مازالت مستمرة ، فإن ظاهرة الخروج بما تحمله من مبادئ ومنهج لم تنته بنهاية الخوارج الذين ظهروا في تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام فإلي جانب الإباضية الذين يعيشون في مرحلة الكت้าน ويعتبرون أنفسهم امتداداً لمن عرّفوا بالمحكمة ، ظهرت في هذا العصر جماعات وأفراد تبنوا منهج الخوارج وأسلوبهم واعتنقوا كثيراً من أفكارهم ومبادئهم ، ومن أشهر هذه الجماعات كما أسلفنا جماعة المسلمين أو "جماعة التكفير والهجرة" كما أطلقت عليهم أجهزة الإعلام التي لاحظ معظم من كتبوا عنها الارتباط الوثيق بين أفرادها وبين الخوارج رغم اختلاف الدوافع والغايات بين الفريقين^(٤٠) .

آخر جه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ مسند أبي هريرة .^(٣٦)
تاریخ الطبری ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .^(٣٧)

الخوارج د. عبد القادر البحراوي ، ص ٨٨ .^(٣٨)

الوحدة الإسلامية الإمام محمد أبو زهرة - دار الرائد العربي - بيروت - طبعة ١٩٧٨ م ، ص ١٦٤ .^(٣٩)

الحكم وقضية تكفیر المسلمين ، سالم البهنساوي - دار البحوث العلمية - الكويت - طبعة ثلاثة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ١٦ - ١٧ .^(٤٠)

كما أنه قد ظهر أفراد قلائل في السودان في العام ١٩٩٤ م تبنوا منهج الخوارج في تكفير أفراد المجتمع واستباحة قتلهم ، وكان على رأسهم محمد عبد الله عبد الرحمن الخليفي ، الذي قدم من السعودية ، ولقد وصفت المحكمة التي نظرت في قضية هؤلاء الأفراد بأنهم خوارج وأزارقه هذا العصر.^(٤١)

والجدير بالذكر أن العلماء قد ذكروا أسباباً تؤدي إلى استيقاظ تلك الظاهرة القديمة التجددية ، أي ظاهرة الخروج وتكفير المسلمين ويمكن إجمالها فيما يلي :

- (١) انتشار الفساد والفسق والإلحاد في المجتمعات الإسلامية دونها محاسبة من أحد ، ولا من قبل الحكام ، ولا من قبل المجتمعات الإسلامية. فأثر ذلك على بعض الشباب ، فكان لا بد أن تتعقد أحاسيسه ومشاعره فينقم على كل ماحوله من أوضاع متربدة.^(٤٢)
- (٢) ضعف البصيرة بحقيقة الدين وضعف المعرفة بالتاريخ والواقع وسنتن الكون والحياة ، ومنهج أهل السنة والجماعة.

(٣) محاربة الحركات الإسلامية الإصلاحية من قبل حكام المسلمين وامتلاء السجون بداعية الإسلام^(٤٣) ؛ مما أدى إلى ظهور بعض الجماعات الإسلامية المتشددة في منهجها وفكرها بسب ما أصابهم من التعذيب والإرهاق في تلك السجون.^(٤٤)

ولا شك أن هذه الأسباب تدفع بتلك الجماعات والأفراد إلى اتخاذ ذلك الموقف المتطرف والغلو وتكفير المجتمع واستباحة دماء أفراده. وفي تقديرني إذا استثنينا الطرف التاريخي الذي أدى إلى ظهور الخوارج الأول وأفكارهم ومعتقداتهم – وهو الفتنة الكبرى وقضية الإمامة – فإنَّ الأسباب التي تؤدي إلى الخروج في هذا العصر وتبني آراء الخوارج وأفكارهم التي يمكن إضافتها لما سبق ، هو التأويل ، الذي يخرج بالنصوص الشرعية عن

^(٤١) مواعظ من قضية مجزرة مسجد الثورة ، عبد الرحمن شرفي – دار جامعة أفريقيا العالمية – الخرطوم – طبعة أولى ، ١٩٩٤ ، ص ١٢٤.

^(٤٢) الخوارج والأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم د. مصطفى حلمي – دار الأنصار – القاهرة – طبعة أولى ، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م – المقدمة ، ص ط.

^(٤٣) الموسوعة الميسرة ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣١٠.

^(٤٤) الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د. سعد الدين السيد صالح – دار الأرقم للطباعة والنشر – الزقازيق – طبعة ثانية ، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م ، ص ٣٠١.

المعاني المراده التي قصدها الشارع إلى معانٍ أخرى يكون أساسها الابداع والهوى. والسبب الثاني هو الأخذ بظواهر النصوص وعدم الاعتماد على السنة النبوية وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم في تفسير القرآن الكريم ، ولقد عُلم من الدين بالضرورة أن السنة النبوية هي مصدر التشريع الثاني ، وان السنة هي التي فصلت ما ورد مجملًا في القرآن ، وخصصت فيه ما ورد عاماً ، وقيدت مطلقه ، وغير ذلك من الموارد التي ترددها السنة من القرآن الكريم. والسبب الثالث يعود إلى البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه أولئك الأفراد والأوضاع الدينية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية لذلك المجتمع.

تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" :

يسمى هذا التنظيم ب "تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام" الذي يعرف اختصارا ب "تنظيم داعش". وكلمة "داعش" هي الحروف الأولى من عبارة "الدولة الإسلامية في العراق والشام" ، فالدال الحرف الأول من كلمة "الدولة" والألف من كلمة "الإسلامية" والعين من كلمة "العراق" والشين من كلمة "الشام". ثم جمعت هذه الحروف فصارت كلمة "داعش". وينسب إلى هذه الكلمة فيقال "داعشي" والجمع فيقال لهم "الدواعش". وأتباع هذا التنظيم يرفضون هذه التسمية ، ويعاقبون بالجلد كل من يستخدم هذا الاسم في المناطق التي يسيطرون عليها.

وتنظيم داعش هو تنظيم مسلح يهدف أتباعه - حسب اعتقادهم - إلى إعادة الخلافة الإسلامية ، وتطبيق الشريعة ، وينتشر نفوذه بشكل رئيس في العراق وسوريا ، مع وجوده في مناطق أخرى مثل : جنوب اليمن ، ولibia ، وسيناء ، والصومال ، وشمال شرق نيجيريا ، وباكستان. وزعيم هذا التنظيم هو أبو بكر البغدادي.

أعلنت داعش بتاريخ ٢٩/٦/٢٠١٤م عن الخلافة الإسلامية ، ومباعدة أبي بكر البغدادي خليفة المسلمين ، وقال الناطق الرسمي باسم الدولة أبو محمد العدناني ، انه تم إلغاء اسمى العراق والشام من مسمى الدولة ، وأن مقاتليها أزالوا الحدود التي وصفها بالصنم ، وأن الاسم الحالي سيلغى ليحل بدلا عنه اسم الدولة الإسلامية فقط.

تأسيس التنظيم وأفكاره :

لقد انبثق تنظيم داعش من تنظيم القاعدة في العراق ، الذي أسسه أبو مصعب الزرقاوي في عام ٢٠٠٤ م ، عندما كان مشاركا في العمليات العسكرية ضد القوات التي كانت تقودها الولايات المتحدة والحكومات العراقية المتعاقبة بعد غزو العراق.

وفي أكتوبر من العام ٢٠٠٤ م أعلن الزرقاوي البيعة لزعيم تنظيم القاعدة اسامه بن لادن ، وقام بتغيير اسم جماعته إلى ”تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين“ ، وعرفت باسم تنظيم القاعدة في العراق ، رغم أن التنظيم لم يستخدم هذا الاسم ، إلا أن هذا الاسم ظل متداولاً بين الناس.

وفي العام ٢٠٠٦ م اندمج التنظيم مع مجموعة من التنظيمات الأخرى وشكلوا مجلس شورى المجاهدين في العراق. وفي العام ٢٠١٤ م أعلن التنظيم عن تغيير اسمه إلى الدولة الإسلامية فقط. معلنا عن نيته إقامة ”خلافة عالمية“.

انتقدت العديد من المؤسسات والمجموعات الإسلامية اختيار هذا الاسم ، ورفضت استخدامه ، ويساعـ الآن إطلاق اسم ”داعش“ على التنظيم ، كما يطلق على المتممـين له اسم ”دواعش“.

كان لتنظيم داعش صلات وثيقة مع تنظيم القاعدة حتى فبراير ٢٠١٤ م ، إلا أن تنظيم القاعدة قطع كل العلاقات مع تنظيم داعش. حيث تعتبر القاعدة داعش تنظيـماً وحشـياً يقوم بقتل الأبرياء المدنـيين.

والحق أن تنظيم داعش يحارب كل من يخالف آرائه وتفسيراته الشاذة من المـدنيـين والعـسكـريـين ، ويصفـهم بالـرـدـةـ والـشـرـكـ والـنـفـاقـ ، ويـسـتـحلـ دـمـاءـهـمـ ، فـفـيـ عـامـ ٢٠١٥ـ قـامـ التنـظـيمـ بـخـمـسـ عـمـلـيـاتـ اـنـتـحـارـيـةـ فـيـ مـنـاطـقـ مـتـفـرـقـةـ مـنـ الـكـوـيـتـ وـالـطـائـفـ وـالـدـمـامـ وـالـعـرـاقـ ، وـقـدـ نـجـعـ عـنـ هـذـهـ عـمـلـيـاتـ مـقـتـلـ ماـ يـزـيدـ عـنـ ١٩٠ـ مـدـنـيـاـ.

كـمـ قـامـتـ حـرـكـةـ أـنـصـارـ الشـرـيـعـةـ الـمـوـالـيـةـ لـدـاعـشـ بـتـفـجـيرـ ٦ـ مـسـاجـدـ فـيـ الـيـمـنـ اـثـنـاءـ أـدـاءـ صـلـاـةـ الـجـمـعـةـ شـهـرـيـ مـارـسـ وـأـبـرـيلـ ٢٠١٥ـ مـ ، وـنـتـجـ عـنـهـاـ مـقـتـلـ ماـ يـزـيدـ عـنـ ١٧٠ـ مـصـلـيـاـ.

وـهـكـذـاـ رـأـيـتـ أـنـ تـنـظـيمـ دـاعـشـ يـتـبـعـ تـفـسـيرـاـ مـتـشـدـداـ لـإـسـلـامـ ، وـيـشـجـعـ عـلـىـ القـتـلـ وـالـعـنـفـ بـاسـمـ الدـيـنـ – عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ زـعـمـ التـنـظـيمـ أـنـهـ يـتـبـعـ التـيـارـ السـلـفـيـ وـكـمـ يـعـتـبـرـ التـنـظـيمـ الـذـيـ يـخـالـفـونـهـ فـيـ مـعـقـدـاتـهـ وـتـفـسـيرـاتـهـ لـإـسـلـامـ كـفـارـاـ وـمـرـتـدـيـنـ.

كما يعتبر التنظيم أيضاً الشيعة مرتدین لابد من قتلهم. ويقوم مقاتلو داعش بالتفريق بين أتباع المذاهب المختلفة بسؤال عدة أسئلة منها : الاسم ومحل السكن ، وكيفية الصلاة ، ونوع الأناشيد التي يستمع إليها. وهذه العملية أشبه بعملية الاستعراض التي كان يمارسها الخوارج القدامى مع الذين يخالفونهم في المعتقدات. ولذلك فإن العديد من الشيوخ أمثال مفتى السعودية عبد العزيز آل الشيخ وعدنان العرعور وصفوا المتدينين لداعش ”بالخوارج“.

معاملة تنظيم داعش للمدنيين :

خلال الصراع العراقي في عام ٢٠١٤م أصدرت داعش عشرات من أشرطة الفيديو تظهر سوء معاملة المدنيين ، وكثير منهم قد استهدفوا على أساس ديني أو عرقي وحدرت نافي بيلاي المفوضة السامية لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة من جرائم الحرب التي ارتكبت وأفادت الأمم المتحدة انه في الأيام من ١٧ أيار ولغاية ٢٢ حزيران ، قتل داعش أكثر من ١٠٠٠ مدني عراقي وأصابة أكثر من ١٠٠٠٠ .

يوم ٢٩ مايو ٢٠١٤م داهمت داعش قرية في سوريا وقتلت ١٥ مدنياً على الأقل ووفقاً لمنظمة هيومن رايتس وورلدز فإن من بينهم ستة أطفال على الأقل. وأكدت مستشفى في المنطقة أنها تلقت ١٥ جثة في نفس اليوم ، ووفقاً لوكالة رويترز فإن داعش قتلت ١٨٧٨ شخصاً في سوريا خلال الأشهر الستة الأخيرة من عام ٢٠١٥م معظمهم من المدنيين.

وفي مدينة الموصل ، قامت داعش بتطبيق مناهج دراسية في المدارس تحظر تدريس الفن والموسيقى والتاريخ الوطني والأدب وال المسيحية ، وقد أعلنت أن الأغاني الوطنية كفر وأعطت الأوامر لازالة بعض الصور من الكتب المدرسية.

وبعد الاستيلاء على مدن عراقية أصدرت داعش مبادئ توجيهية وتعليمات في كيفية ارتداء الملابس والحجاب وحدرت النساء في مدينة الموصل من مغبة مخالفتها وخيرهن بين ارتداء النقاب أو مواجهة عقوبات صارمة. وقال رجل دين لوكالة رويترز في الموصل إن مسلحي داعش أمروه أن يتلو التحذير في مسجده عند تجمع المسلمين. وفي مدينة الرقة تم استخدام كتيبتين من النساء في المدينة لفرض تطبيق الأوامر من قبل النساء.

وأصدر داعش وثيقة تحوي مجموعة من القواعد التي تستهدف المدنيين في محافظة نينوى ومن بين قواعدها أن المرأة يجب أن تبقى في المنزل ولا تخرج في الشارع ما لم يكن

ضرورياً. وقال بند آخر إن عقوبة السرقة تكون قطع اليد وبالإضافة إلى العرف الإسلامي الذي يحظر بيع وتعاطي الخمر والكحول فإن داعش حظرت بيع واستخدام السجائر والشيشة وحظرت أيضاً الموسيقى والأغاني في السيارات والمحلاط التجارية ، وأمام الملا ، وكذلك صور الأشخاص في واجهات المحال التجارية.

ووفقاً لمجلة الإيكونوميست فإن داعش عين في الرقة ١٢ من القضاة وهم سعوديون وتشمل مهامهم إنشاء الشرطة الدينية وفرض الحضور في الصلاة واستخدام واسع لعقوبة الاعدام ، وتدمير الكنائس والمساجد غير السنية أو تحويلها إلى استخدمات أخرى.

ولقد قامت داعش بتنفيذ عمليات إعدام على كل من الرجال والنساء الذين كانوا متهمين بأعمال مختلفة ، وأدين بارتكاب جرائم ضد الإسلام مثل الشذوذ الجنسي ، والزنا ، ومشاهدة المواد الإباحية ، واستخدام وحيازة الممنوعات والاغتصاب والتجميد ونبذ الإسلام والقتل. وقبل أن يتم تنفيذ العقوبات بحق المتهمين تتم قراءة التهم الموجهة إليهم وبحضور مجموعة من المشاهدين ، وأما عقوبة الإعدام فتتخد أشكالاً مختلفة بما في ذلك الرجم حتى الموت ، والصلب وقطع الرؤوس ، وحرق الناس أحياء ، ورمي الناس من البنيات الشاهقة.^(٤٥)

الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، الحمد لله الذي وفقني لكتابه هذا البحث ، الذي هو بعنوان : الجهل بالدين وأثره في ظاهرة الخروج في تاريخ المسلمين.

وقد تناولت في هذا البحث أثر الجهل بالدين وعدم معرفة السنة المطهرة في ظهور الفرق والبدع قدماً وحديثاً ، كبدعة الخروج على الإمام الشرعي الذي ارتضته الجماعة ، ثم تحدثت عن الأسباب العامة للخروج مثل : الخلافة – والتأويل – والعصبية. تم ختام البحث بالحديث عن أثر منهج الخوارج وعقائدهم على الأمة في هذا العصر.

ومن خلال معالجة هذا الموضوع توصلت إلى النتائج الآتية :

(١) إن ظاهرة الخروج هي ظاهرة عامة حديثة في زمن النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، وتظهر في كل زمان متى ما توافرت أسباب كالجهل بالدين والتأويل ونحوه.

(٢) إن الأخذ بظواهر النصوص من غير اعتبار للنصوص الأخرى ومن غير معرفة بالسنن الراتبة عن النبي ﷺ هو الذي أوقع الخوارج الأول في أخطاء شنيعة في العمل والمارسات ، وأن هذا الأمر – أي عدم الاعتماد على السنة – إذا كان منهجاً لأي فرقة أو جماعة فإنها سوف تقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها الخوارج ، كما حدث لجماعة التكفير والهجرة وغيرها.

الوصيات :

- (١) أوصي العلماء والمؤسسات التعليمية كالجامعات والمعاهد بنشر العلم الشرعي من مصدريه القرآن الكريم والسنة النبوية.
- (٢) كما أوصي الجميع حكامًا ومحكمين بتطبيق شرع الله تعالى في مجالات الحياة كلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.
والله نسأل التوفيق والسداد ، ، ،

قائمة المصادر والراجع

- (١) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ، الإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد ، تحقيق أبي مصعب محمد سعيد البدرى ، دار الفكر – بيروت ، طبعة أولى ١٤١٢ هـ.
- (٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن قيم الجوزية ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل – بيروت.
- (٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير الجزري ، دار الفكر – بيروت ، ١٤٠٤ – ١٩٨٩ م.
- (٤) الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، د- سعد الدين السيد صالح ، دار الأرقام ، الزقازيق طبعة ثانية [١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م].
- (٥) التكفير جذوره وأسبابه ومبرراته ، د. نعман السامرائي ، المنارة للطباعة والنشر – طبعة أولى [١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤].
- (٦) الحد الفاصل بين الكفر والإيمان – جمعة أمين عبد العزيز – دار الدعوة – الإسكندرية – طبعة أولى [١٤١٣ هـ].

- (٧) الحكم وقضية تكفير المسلم ، سالم البهنساوي ، دار البحوث العلمية - الكويت - طبعة ثالثة [١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م].
- (٨) الخوارج د. عبد القادر البحراوي دار المعرفة الجامعية - القاهرة طبعة عشرة [١٩٩٧ م].
- (٩) الخوارج والأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم د. مصطفى حلمي دار الأنصار - القاهرة - طبعة أولى [١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م].
- (١٠) الدين الخالص ، السيد محمد صديق حسن - دار الكتب العلمية - بيروت طبعة أولى [١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م].
- (١١) الرسالة ، الإمام الشافعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ طبع.
- (١٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي - د. مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي - بيروت طبعة ثالثة [١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م].
- (١٣) السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام - أبو محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق جمال ثابت ومحمد محمود - دار الحديث - القاهرة - بدون تاريخ طبع.
- (١٤) الشريعة ، أبو بكر الأجرى تحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة [١٣٦٩ هـ].
- (١٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم الظاهري دار الجليل - بيروت - طبعة [١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م].
- (١٦) المواقف في أصول الشريعة ، الإمام الشاطبي ، تحقيق محمد عبد الله دراز - دار المعرفة - بيروت.
- (١٧) الملل والنحل ، الإمام الشهري ، تحقيق عبد العزيز الوكيل ، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- (١٨) الوحدة الإسلامية - الإمام محمد أبو زهرة - دار الرائد العربي - بيروت [١٩٧٨ م].
- (١٩) تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - طبعة ثالثة [١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م].
- (٢٠) تيارات الفكر الإسلامي د. محمد عمارة ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

- (٢١) جامع بيان العلم وفضله - ابن عبد البر النمرى - دار الفكر - بيروت.
- (٢٢) حجية السنة ، عبد الغنى عبد الخالق ، الدار العلمية للكتاب الإسلامي - الرياض [١٤١٥هـ].
- (٢٣) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين ، د. أحمد محمد أحمد جلي ، مركز الملك فیصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض - طبعة ثانية [١٤٠٨هـ - ١٩٨٨].
- (٢٤) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، محمد الغزالي ، دار الشروق - القاهرة طبعة أولى [١٤١٨هـ - ١٩٩٧م].
- (٢٥) دعاء لاقضاة ، الأستاذ الهضيبي ، دار التوزيع للنشر - القاهرة بدون تاريخ طبع.
- (٢٦) صحيح الإمام البخاري ، مركز الدراسات والإعلام - الرياض.
- (٢٧) صحيح الإمام مسلم ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- (٢٨) صفة الصفوة ، عبد الرحمن بن الجوزي ، دار الجبل - بيروت - طبعة [١٤١٠هـ - ١٩٩٠م].
- (٢٩) كتاب الأم ، الإمام الشافعى ، دار الفكر - بيروت - طبعة [١٤١٠هـ - ١٩٨٩م].
- (٣٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المسعودي ، دار الفكر - بيروت طبعة [١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م].
- (٣١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ، الإمام السيوطي ، مصر - بدون تاريخ طبع.
- (٣٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- (٣٣) منزلة السنة من الكتاب وأثرها في الفروع الفقهية ، محمد سعيد منصور ، مكتبة وهبة - القاهرة - طبعة أولى [١٤١٣هـ - ١٩٩٣م].
- (٣٤) مواعظ في قضية مجررة الثورة ، عبد الرحمن شرفي ، دار جامعة أفريقيا العالمية - الخرطوم - طبعة أولى [١٩٩٤م].

مجلة علمية

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ - ٢٠١٦ م

الغلو والتطرف الفقي " جدلية النص والاجتهاد "

أ.د. عامر عباس محمد

باحث في الفلسفة والدراسات الإسلامية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٥٩-١٠٠)

المستخلص :

تناقش هذه الورقة بعض مظاهر فساد الواقع الإجتماعي والسياسي ، وبعض أشكال فساد التحليل الفكري لهذا الواقع عند النظر إليه من زاوية تطبيق الحدود الشرعية. معأخذ بعض النماذج الدالة على ذلك من الفكر المعاصر كمحمد الجابري في دفعه بتغيير الواقع وفرج فودة في قوله بإستحالة الإثبات و محمد أبوريان في أخذه بملابسات العصر .

كما ترکز الورقة على أهمية إستخدام العقل وضرورة فتح باب الاجتهد للكافة ، والتأكيد على الإستقلالية ونبذ التبعية والدعوة للنظر إلى ذلك بإعتباره فريضة دينية لا سيما عند الأخذ في الإعتبار حقيقة جدلية ثبات النص وتحير وقائع الإجتماع البشري ، والذي يقود حتماً لاعادة تعريف الاجتهد بإعتباره يمثل عين الظن وليس عين الحق ، ويعضد ذلك وجود الاجتهد في حياة الرسول ﷺ.

وأخيراً تحاول الورقة تقديم مناقشة علمية على قدر من الموضوعية حول مفهوم الاجتهد كرؤى تواجه رؤى علمية أخرى .. بعيداً عن التخوين أو التسفيف أو التكفير ، وكلها رؤى تدخل ضمن ”الأجر أو الأجراء“ إن شاء الله تعالى .. وتنتهي الورقة لطرح جملة من التساؤلات حول ما الذي نحتاج إليه عند التطرق لهذه المواضيع. وبجملة من القيم والتوصيات تتمحور حول كيف أن مبادئ الشريعة الإسلامية ومقاصدها غائبة ومتغيرة ، حيث تطبق بعض التشريعات العقابية فقط دون روح وجوهر مبادئ الشريعة الكلية ، التي تحمي الفرد بوقاية المجتمع من شيوخ الفواحش. وتوصي الورقة بضرورة الحوار الحضاري في مواجهة الأفكار ، وفي حوار العلماء والباحثين .

المقدمة :

لقد تعقدت الحياة المعاصرة للإنسان وتعددت جوانبها وتشعبت مسالكها بالنسبة للفرد الواحد ، وكذا الأمر بالنسبة للمجتمعات والدول.. فتقاطع المصالح وقبح الممارسات السياسية قد أفرز واقعاً مضطرباً تكاد أن تسوده الفوضى .. وحتى هذه الأخيرة أصبحت هدفاً بحد ذاته لبعض الدول تحت مسمى الفوضى الخالقة ! وكل هذا قد أدى لخلق واقع شديد الغموض متناقض للإتجاهات ومتضاد الأهداف وهو وإن إختلف في ذلك إلا أنه قد إنفق في الوسائل التي يمكن أن تُجْمَل كلها تحت مسمى العنف والعنف المضاد ، بل الغلو والتطرف في العنف نفسه لا بعد وأبشع ما يمكن أن يتصوره عقل أو تقبله فطرة سوية سواء أكان في هذا الإتجاه أو ذاك الإتجاه.. وفيما يتعلق بواقعنا الإسلامي فإن أغلب هذه الممارسات تتم بإسم الدين وتحت راية الاجتهاد والذي هو أمر محمود في ذاته ومؤجور من يقوم به كفعل عقلي يستهدف فهم القرآن وفقاً لتغيرات الزمان والمكان.. ولكن من المحمود أيضاً مناقشة ما يُطرح وما يتم تداوله لتوضيح صوابه من خطئه... وهذا هو الدافع الذي حدا بالباحث إلى تناول هذا المبحث بالتركيز على جدلية النص والاجتهاد وذلك عبر تناول عدة قضایا من قبيل المقاصد والمصالح في الشريعة الإسلامية وتهافت إختزال الأمر كله في قضية الحدود في معظم الكتابات الفقهية القديمة والمعاصرة على السواء أو استخدام العقل وفتح باب الاجتهاد أو قضية الاجتهاد نفسها فضلاً عن إرتباط السياسي بالديني فيما يتعلق بهذا الجانب.. وكلها قضایا من الأهمية بمكان.

فعلى سبيل المثال نجد أن الدعوة للاجتهاد في أمر تطبيق الحدود دون التطرق لواقع المجتمعات المسلمة - وخاصة العربية - التي ترذح في الإستبداد والعنف السياسي^(١) وتغرق في الفساد المنظم الذي تمارسه غالبية الأنظمة الحاكمة بحيث يمكن القول بأن ظاهرة الفساد

^(١) يذكر الدكتور / فؤاد زكريا في كتابه "الصحوة الإسلامية في ضوء العقل" في معرض تقييمه للحركات الإسلامية المعاصرة وأسباب نشأتها : "إن الطرق جميعها مسدودة أمام المجتمعات الإسلامية ، والقهر هو الوسيلة الوحيدة لضمان بقاء الأنظمة القائمة" .

أنظر في ذلك : الإسلام المعاصر "نظارات في الحاضر والمستقبل" : د. رضوان السيد - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م - دار العلوم العربية - بيروت - لبنان - ص. ١٧٦ .

قد غدت مكوناً أساسياً من مكونات النظام السياسي العربي والنظام الاقتصادي ، بل وأصبحت مثلاً من مثالب البنية الأخلاقية للمجتمع العربي^(١) ، إن تجاهل ذلك مع الإلحاح بضرورة تجديد النظر في الأحكام الشرعية هو - في تقدير الباحث - من الأمور التي يجانبها الصواب ، فعلى سبيل المثال إن القول بضرورة إعادة النظر في حد السرقة - قطع اليد من مفصل الكف - وذلك على أساس أن قطع يد السارق تدبير معقول تماماً في مجتمع بدوى صحراء يعيش أهله على الحل والترحال^(٢) ، يستناداً على أن قطع يد السارق كان معمولاً به قبل الإسلام في جزيرة العرب^(٣) ، إضافة إلى القول بأن الشروط التي وضعها الفقهاء في إثبات فعل الزنى كان من الممكن توفرها في مجتمع كل شيء فيه بادٍ ، فلا جدران ولا أسوار ولا غرف الخ .. ، وبالتالي يمكن للشاهد أن يشاهد فعلاً تفاصيل العملية^(٤) ، ويتبع ذلك تساؤل الكاتب محمد عابد الجابري : هل من المعقول إشتراط مثل تلك الشروط في وضعية المدنية المعاصرة؟ ويحيب بأن ذلك يعني إستحالة إثبات الجريمة^(٥) ، كما يتسائل فرج فودة عن إمكانية إثبات جرائم الحدود والزنا على وجه خاص فهو يقول : أعطونى قضية واحدة شهد فيها أربعة.. ورأى فيها الأربعة الميل في المكحلة ، أو الرشاء في البئر... ولا ضير في مزيد من التحدى الهايئ.. أحيبونى بعد الدرس والمراجعة والبحث عن سؤال أكثر بساطة وهو : ألا تعاقب القوانين الوضعية على ما لا تطوله الشريعة في هذا المجال في ظل شروطها القاسية بل والمستحيلة^(٦)؟ ، ويضع محمد على أبو ريان ملابسات العصر كأحد الأسباب التي يمكن بناءً

^(١) ظاهرة الفساد : د. ناصر عبيد الناصر - كتاب المدى [٥] رئيس التحرير فخرى كريم - دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٢ م - دمشق - سوريا - التقديم - ص. ٧.

^(٢) الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : د. محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة الثقافة القومية [٢٩] - قضايا الفكر العربي - ص. ١٧٥.

^(٣) نفس المرجع : ص. ١٧٥.

^(٤) نفس المرجع : ص. ١٧٦.

^(٥) نفس المرجع : ص. ١٧٦.

^(٦) الحقيقة الغائبة : د. فرج فودة - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - كتاب الفكر [١٠] - الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٨ م - القاهرة - مصر - ص. ١٢٢.

عليها إيقاف تنفيذ الحدود وذلك حين يقول : ”إن نظام الحدود لا يشكل إلا جزءاً ضئيلاً من أركان الشريعة الإسلامية ويمكن اجتهاداً التعزير فيه أو إستغلال الظروف المصاحبة لكل حدث على حدة والإستناد إليها في إيقاف تنفيذ الحدود سواء بالنسبة لظروف الفرد أو ملابسات العصر“^(٨).

إن التساؤلات أعلاه في تقدير الباحث في غير محلها إذ من المطلوب أن تكون المقاصد والمصالح هي هدف الحكم - الحد أو العقوبة - وتحقق هذه المقاصد والمصالح بالردع والزجر وليس فقط بمحض تطبيق العقوبة.. وهو ما سناحول في هذه الورقة إلقاء بعض الضوء عليه فإن أصينا الحق فمن الله وحده ، وإن كان غير ذلك فمنا ومن الشيطان ولنا على كل أجر المجتهد وفي تصويب الآخرين مندوحةً.. وذلك وفقاً للمباحث التالية :

المبحث الأول : الحدود ”المقاصد والمصالح“.

المبحث الثاني : الدعوة لاستخدام العقل وفتح باب الاجتهاد.

المبحث الثالث : حول مفهوم الاجتهاد ”رؤيه ورؤيه“.

المبحث الرابع : الإسلام والسياسة ”التقاطعات والتبنيات“.

الخاتمة والتوصيات.

^(٨) الإسلام السياسي في الميزان والبديل : ”الإسلام المتكامل وملحق به بحث عن : نحو إيديولوجية عربية إسلامية“ : د. محمد على أبو ريان - دار المعرفة الجامعية - ١٩٩٧ - دون تحديد لعدد الطبعات - ص. ١٦.

البحث الأول

الحدود "القصص والصالح"

عطفاً على ما ورد في مقدمة هذه الورقة فإننا نتساءل : هل من الثابت أن قطع يد السارق لا يلبي مصلحة المجتمع المدني المتتطور حالياً ؟ وهل نفي جلد الزانى يخدم هذا المجتمع عن طريق إزدياد أطفال الشوارع واللقطاء وتدمير نسيج المجتمع ؟ كما أن إستحالة إثبات بعض أنواع الجرائم في التشريعات الإسلامية ليس بالأمر المثير للتساؤل إذ أن الشارع - الله عز وجل - من حيث أنه غنى عن العالمين فإن العقوبة لا تعنى له شيئاً - لا تصلحه ولا تضره - وإنما يهدف سبحانه وتعالى للحفاظ على الطهارة العامة للمجتمع من الجرائم كافة ، والحفاظ على سلامة النسيج الاجتماعي عبر عدم شيوخ الفاحشة ، فليس المقصود من الحدود أو العقوبات الشرعية محض تطبيقها - محض إيقاع الأذى بالجاني - وهو على أى حال أمر لا غبار عليه إن ثبت الجرم حقاً بالإعتراف أو بأدلة وبيانات كافية ولكن الهدف النهائي والأصيل لها هو حماية المجتمع من شيوخ الجرائم.. من أن تصبح هذه الفواحش والجرائم محض عادة ، وليس هدفها - كما قد يتصور الكثيرون - منع الجريمة من حيث هي فعل ملازم للطبيعة البشرية التي تحتوى على الشر كما تحتوى على الخير فذلك أمر كان الشارع عز وجل أقدر على فعله إن شاء.. ولكن لأن الأمر في بيته ومتنهه مُناظ بالتكليف وبحرية الإرادة فقد ترك الأمر على هذه الشاكلة من حرية الإرادة.. فأنت مسئول عن أفعالك^(٤) إن شئت سلم الناس من لسانك ويدك وأنت في رضي الله ، وإن شئت فلك غير ذلك.. ولكن إن كان ذلك الفعل في إستثار وخفاء فما لأحد عليك من سبيل ومردك إلى الله إن شاء عاقبك وإن شاء غفر لك ما لم تجهر به ! لأن في الإعلان - سن الفعل - تحريض على

^(٤) يمكن القول أن الإنسان مكلف بشكل مطلق بالحفاظ على سلامة الآخرين من الأذى أو القتل وهي شرعة الأديان السماوية جميعاً.

الرذيلة ودعوة إليها^(١٠) كما أن التخويف بإستعمال القوة كما هو معروف سلفاً أفضل كثيراً من إستخدامها فعلياً ! وفي هذا الإطار النظري لم تجنب النظرية النفعية في العقوبة **Utilitarianism Theory** الصواب ولكن حادت عنه ببعدها عن تحرى العدالة وإستعدادها لتجاوز القيم الأخلاقية في سبيل تحقيق هذا الهدف وهو أمر سلمت منه وجهة النظر الإسلامية.. هذه بديهيّة لا يختلف حولها أحد والعبارة كل العبرة بتوافر الشروط والحد..^(١١) ، إن ما غاب عن ذهن فرج فودة أن الإعتراف نفسه ليس مطلوباً في ظل التشريع الإسلامي على الرغم من وضوح وعدالة القاعدة المعمول بها في هذا المقام كما ورد في : الفقه : ”إذا أفر المكلف الحر الرشيد الصحيح المختار بحق أخذ به“^(١٢) ، فمع وجود الإعتراف - المشمول بكل هذه الشروط - يتوجب إلتماس الشبهات لدرء الحد عن المعترف ما وسعت الحيلة لذلك ، فهو إذن - أى التشريع الإسلامي - لا يحرص أبداً على إثبات الجرم أو تطبيق الحد^(١٣) ! بل يحرص أشد الحرص على الوقاية من موجباته وعدم إقrafها أولاً ، وعدم الجهر بها إن وقعت بالفعل حتى لا تُتّخذ قدوة وتكون سبباً في شيوع الفاحشة بين من لم يواقعها ثانياً ، ومن ثم تنفيذ العقوبة إن فشلت التدابير أعلاه وتوافرت شروط الإثبات المنصوص عليها ثالثاً.

^(١٠) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : الإمام / محمد أبو زهرة - دار الفكر - دون تحديد لعدد الطبعات أو تاريخ النشر - ص. ٤٧.

^(١١) الحقيقة الغائبة : مرجع سابق ، ص. (١٢١-١٢٢).

^(١٢) ”العدة“ شرح العمدة في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه : تأليف بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي - دون تحديد لعدد الطبعات أو دار وسنة النشر - ص. ٦٦١.

^(١٣) لعل من الجدير هنا الإشارة إلى أن الدكتور / محمد سليم العوا قد أشار - وبحق - إلى أن التعزير هو أوسع أنواع العقوبات نطاقاً في الفقه الجنائي الإسلامي ، وهو لمرونة قواعده من أصدق الأدلة على صلاحية الجانب الجنائي في الشريعة الإسلامية للتطبيق في عصرنا هذا ، وفي كل العصور.

إن هذا الحرص على عدم تطبيق العقوبة عبر التشدد في الإثبات أولاًً وعبر إتاحة فرص واسعة لدرء العقوبة ثانياً هو أمر يعود إلى طبيعة الإسلام ونظرته إلى الفرد والمجتمع ، فالإنسان مُعْرَف له بالخطأ بل هو ”خطاء“ بصيغة التشديد كنهاية عن كثرة إقترافه للأخطاء كما أخبرنا أنس رضي الله عنه عن الرسول الكريم ﷺ : ”كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون“^(٤) ، وبناءً عليه فلا محل للجوء إلى ملابسات العصر كظرف مانع لتنفيذ الحدود كما يقول بذلك أبو ريان ، فملابسات العصر لا تمنع مطلقاً – ولا ينبغي لها – تنفيذ الحدود إن هي إستوفت شروطها ، وإنما الذي يمنع تنفيذها وحده هو إمتناع شرط من شروط تطبيقها التي أقرّتها الشريعة السمحاء قبل أكثر من أربعة عشر قرناً مضت ، فملابسات العصر إن كان يعني بها أبو ريان التقدم والتطور ”الحضاري“ للحضارة المعاصرة – كما فهمنا نحن ذلك – فإن ذلك ليس مانعاً لما جاءت به الشريعة إذ أنها أنزلت إبتداءً لتكون سياجاً حاماً لأرقي تطور وأعمق تقدم يمكن أن يبلغه الإنسان على الإطلاق ! .

المبحث الثاني

الدعاة لا يستخدمون العقل وفتح باب الاختيارات

إن التأكيد على إستقلالية الفرد المسلم ونبذ التبعية العميماء وإستهجانها هو دعوة صريحة ” من ضمن دعوات أخرى عديدة يذخر بها التوجيه القرآني ” لإستخدام العقل وإعمال الفكر في حرية تامة بغرض الوصول إلى الحقائق وتحقيق أفضل المصالح للإنسان الفرد وللبشرية جماء ، وذلك يدخل ضمن ما دعى إليه الإسلام إبتداءً عند توضيحه للغرض الأساسي لخلق الإنسان ؛ فعبادة الله وإعمار الأرض لخير الإنسان الفرد وخير مجموع البشر مما هدفان لا ينفصلان في رؤية المسلم لعقيدته ولحياته ، ولما كان الأمر كذلك فإن هذا يؤدى حتماً للتساؤل حول إمكانية التوفيق بين ثبات ” النص ” وجدلية الواقع المتغير والمتبدل حسب تبدل طبيعة المجتمع البشري وما يطرأ عليه من تحولات وتبدلاته في أشكال الحياة

سنن الترمذى : محمد بن عيسى الترمذى - تحقيق أحمد شاكر - مطبعة مصطفى البابى الحلبي
 وأولاده - دون إشارة لعدد الطبعات - ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م - الجزء الرابع - ص. ٤٥٩.
 وقد صححه مسلم وأبو داود وأحمد الدارمى عن قتادة عن أنس عن الرسول ﷺ.

ونظمها ووسائله هو في التعامل مع هذه التغيرات ، وهو ما يقود مباشرة لتناول مفهوم الاجتهاد والدعوة لإعادة فتح ما إنغلق من أبوابه وتجديده ما تجاوزه الزمن بتغيراته وتبدل أحواله.

الاجتهاد : في اللغة والإصطلاح :

الاجتهاد في اللغة : من الجُهُدُ و الجَهْدُ : الطاقة. قال الفراء : الجُهُدُ بالضم الطاقة. والجَهْدُ بالفتح من قولك أَجْهَدْ جَهْدَكَ في هذا الأمر ، أى أبلغ غايتك. الجَهْدُ : المشقة. والاجتهاد والتَّجَاهُدُ : بذل الْوُسْعَ الْمَجْهُودُ.^(١٥) وفي اللغة أيضاً يعني : بذل الجهد وإستفراغ الوسع في أى فعل كان. بمعنى أنَّ يبذل الإنسان جهده وطاقته ، وكل ما في وسعه من أجل القيام بهذا الفعل وتنفيذه.^(١٦)

والاجتهاد عرفاً : ذلك من الفقيه في تحصيل حكم شرعى. قال في التلويح : ومعنى بذل الطاقة أن يحس من نفسه العجز عن المزيد عليه ، وشرطه الإسلام والعقل والبلوغ ، وكونه فقيه النفس : أى شديد الفهم بالطبع ، وعلمه باللغة العربية وكونه حاوياً لكتاب الله تعالى فيما يتعلق بالأحكام ، وعالماً بالحديث متناً وسندًا وناسخاً ومنسوخاً ، وبالقياس. وهذه الشرائط في المجتهد المطلق الذى يفتى في جميع الأحكام. وأما المجتهد في حكم دون حكم فعليه معرفة ما يتعلق بذلك الحكم.^(١٧)

^(١٥) الصَّحَاحُ "تَاجُ الْلُّغَةِ وصَحَاحُ الْعَرَبِيَّةِ" : تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار - المجلد الثاني - الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م [٢٠١٤ هـ - ١٩٨٢ م] على نفقة المحسن معالي السيد / حسن عباس الشربلي - القاهرة - جمهورية مصر العربية - ص. (٤٦٠ - ٤٦١) مادة "جهد".

^(١٦) أُصول الأحكام الشرعية : د. يوسف قاسم - دار النهضة العربية - مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي - الطبعة الثانية ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م - القاهرة - مصر - ص. ٣٧٠.
^(١٧) أنظر في ذلك : رد المحتار على الدر المختار : حاشية إين عابدين على شرح الشیخ علاء الدين محمد بن على المصفى لكتبه "تنوير الأ بصار" للشيخ شمس الدين التمرتاشى ومعه تقريرات الرافعى وضعت في الهاشم زباده في المنفعة - تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م - بيروت - لبنان - الجزء الثامن - ص. ٤٦ الهاشم.

وإبن حزم يرى إن : حقيقة بناء لفظة "الاجتهاد" أنه إفتعال من الجهد ، وحقيقة معناها أنه إستنفاد الجهد في طلب الشئ المرغوب إدراكه ، حيث يرجى وجوده فيه ، أو حيث يوقن بوجوده فيه.

وفي الشريعة هو : إستنفاد الطاقة في طلب حكم النازلة حيث يوجد ذلك الحكم. هذا ما لا خلاف بين أحد من أهل العلم بالديانة فيه.^(١٨)

والإمام الشوكاني يقول : الاجتهاد في اللغة مأخوذ من الجهد وهو المشقة والطاقة فيختص بها فيه مشقة ليخرج عنه ما مشقة فيه ، قال في المحصول وهو في اللغة عبارة عن إستفراغ الوعي في أى فعل كان يقال إستفراغ وسعه في حمل التقييل ولا يقال استفراغ وسعه في حمل التواه وأما في عرف الفقهاء فهو إستفراغ الوعي في النظر فيها لا يلحقني فيه لوم مع استفراغ الوعي فيه وهو سبيل مسائل الفروع وهذا تسمى هذه المسائل مسائل الاجتهاد والناظر فيها مجتهداً وليس هكذا حال الأصول.

وقيل هو في الإصطلاح : بذل الوعي في نيل حكم شرعى عمل بطرق الإستنباط.^(١٩)
والاجتهاد هو إستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الكلية ، وهو جهد يخضع لقدرة الإنسان وطاقته. فكل من مارس أسباب العلم حتى تعلم ، وعكف على وسائل الإستنباط والاجتهاد حتى قامت عنده ملكرة فيها ، فإنه يستطيع أن يستخدم هذه الملكرة في البحث والإستنباط دون أن يصطدم في طريقه بأى باب موصى.^(٢٠)

الإحكام في أصول الأحكام : "تصنيف الإمام الجليل المحدث الفقيه فخر الأندلس أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦ هـ" - قدم له الأستاذ الدكتور / إحسان عباس - المجلد الثاني [٨ - ٥] - الطبعة الأولى ١٤٩٩ هـ / ١٩٨٠ م - الجزء السابع - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان - الجزء الثامن - ص. ١٣٣.^(١٨)

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٥ هـ وبهامشه شرح الشيخ أحمد بن قاسم العبادى الشافعى على : شرح جلال الدين محمد بن أحمد المكى الشافعى على : "الورقات في الأصول" لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوهينى الشافعى المتوفي سنة ٤٧٨ هـ - الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م - مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده القاهرة - مصر - ص. ٢٥٠.^(١٩)

محاضرات في الفقه المقارن " مع مقدمة في بيان أسباب اختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن " : د. محمد سعيد رمضان البوطى ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، ص. ٧ من التمهيد.^(٢٠)

والاجتهد هو خصيصة الأمة الإسلامية ! فمن الثابت أن المولى عز وجل لم يأذن لنبي قبل سيدنا محمد ﷺ بالاجتهد في أمر التشريع ، فكان الأنبياء جميعاً يبلغون الحكم كما أنزله الله تعالى ؛ ولكن الأمر في الرسالة الخاتمة كان غير ذلك إذ أذن الله تعالى لرسوله الكريم بالتشريع في بعض الأمور : ﴿ وَمَا آتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧٦٢] ، ويقول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : ”دعوني ما تركتم إنما هلك من كان قبلكم بسوءهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فأجتنبوا وإذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما أستطعتم ”^(٢١) ، وقد إنطلق شرف الاجتهد ” ليس بمعنى تعديل أو تغيير الأحكام الشرعية القطعية ، ولكن بمعنى الكشف عن مختلف جوانب الأحكام المتضمنة في التشريعات الإلهية ” إلى أمة محمد ﷺ فأستحقت بذلك أن تكون خير أمة أخرجت للناس من حيث أمرها بالمعروف ونهاها عن المنكر وهو ما يقتضي ضرورة إستمرارية فعل الاجتهد وعدم جواز إنقطاعه ، فالاجتهد من فروض الكفایات وقد ذهب جمع إلى أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد قائم بحجج الله بين الناس ما نزل إليهم قال بعضهم ولا بد أن يكون في كل قطر من تقوم به الكفایة لأن الاجتهد من فروض الكفایات^(٢٢) ، بل إننا نجد ما هو أبعد من ذلك إذ يحيى الأكثرون الاجتهد حتى في عصر النبي ﷺ ! فحول الإجابة على سؤال يدور حول جواز الاجتهد في عصر النبي ﷺ يقول الإمام الشوكاني : ”ذهب الأكثرون إلى جوازه ووقوعه واختاره جماعة من المحققين منهم القاضي ومنهم من منع ذلك كما روى عن أبي علي وأبي هاشم ومنهم من فصل بين الغائب والحاضر فأجازه من غاب عن حضرته ﷺ كما وقع في حديث معاذ دون من كان في حضرته الشريفة ﷺ واختاره الغزالى وابن الصباغ . ونقله الكبا عن أكثر الفقهاء والمتكلمين ومال إليه إمام الحرمين . قال القاضى عبد الوهاب إنه الأقوى على أصول أصحابهم قال ابن فورك بشرط تقريره عليه . وقال ابن حزم إن كان اجتهد الصحابى في عصره صلى الله عليه وآلہ وسلم في الأحكام

^(٢١) صحيح أبي عبد الله البخارى ” بحاشية السندي ” : للعلامة المدقق أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى - مطبعة دار إحياء الكتب العربية ” عيسى البابى الحلبي وشرکاه ” - دار التراث العربى ، ميدان المشهد الحسينى ، - القاهرة - مصر - المجلد الثانى - الجزء الرابع - باب ” ما يكره من السؤال ” - ص. ٢٥٨ .

^(٢٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : مرجع سابق - ص. ٢٥٣ .

كأيجاب شيء وتحريمه فلا يجوز^(٢٣)؟ وإن كان في غير ذلك فيجوز^(٢٤)، والاجتهد تحكمه قاعدة من أروع ما يمكن أن يُشار إليه في الدلالة على إطلاق حرية الفكر وإزالة الخرج والخوف من النفوس وهي عن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ : "إذا حكم الحاكم وإنجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم الحاكم وإنجتهد ثم أخطأ فله أجر الاجتهد"^(٢٤)، هذا فضلاً عن أن الإسلام هو دين العقل والفطرة السليمة يحيث عليها ويدعو للأخذ بأحكامها وفي هذا يقول المفكر الباكستاني محمد إقبال في معرض تناوله لقضية "ختم النبوة" والمغزى من ذلك : "إن النبوة في الإسلام تبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالةبقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على وقود يُضاء منه وأن الإنسان لكي يُحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو"^(٢٥).

ولما كان الواقع الإسلامي "منذ آماد بعيدة" شديد النزعة للتقليد^(٢٦) بفعل عوامل عديدة داخلية "السلط والطغيان السياسي وإنضباط المجددين من الفقهاء المستنيرين من جهة وتحريم الفكر والإشتغال بالفلسفة" "رياضة العقل" من جهة أخرى "وخارجية" "إنهايار الدولة الإسلامية بفعل الغزوات المتكررة عليها من الخارج والخوف من فقدان الهوية والذوبان في الآخر" فقد أدت هذه النزعة الشديدة نحو التقليد إلى جمود الفكر الإسلامي وتخلفه عن مواكبة ما يستجد من أحوال حركة البشر فترة طويلة من الزمن ، وصولاً إلى

نفس المرجع - ص. (٢٥٦-٢٥٧) بتصريف.

المسند : أحمد بن محمد بن حنبل - تحقيق عيسى القلندي - مؤسسة الرسالة - دون تحديد لبلد الطبع - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م - الجزء التاسع والعشرون - ص. ٣٥١.

رسالة الخلود أو "جاويد نامه" للشاعر والمفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال : ترجمتها وشرحها وعلق عليها د. محمد السعيد جمال الدين - مؤسسة سجل العرب ، القاهرة - مصر [١٩٧٤] بدون تحديد لعدد الطبعات - ص. ٢١١ - وهذه الفقرة - حسب المترجم - مقتبسة من كتاب محمد إقبال "تجدد التفكير الديني في الإسلام" - ص. ١٤٤.

في ذلك يقول سلطان العلماء : "ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً ومع هذا يقلّده فيه ويترك من الكتاب والسنة والأقىسة الصحيحة لمذهبه جوداً على تقليد إمامه ، بل يتحلل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ، ويتأوّلها بالتأوّيلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلده".

العصر الحديث والذى تشعبت فيه الأمور وتشابكت فيه المصالح خاصة بعد إصطدام الأمة الإسلامية بالحضارة الغربية المتفوقة مادياً وتقنياً منذ حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٩ م والتى لم ترُّق المسلمين بإنتصارها العسكري وحسب ؛ بل كان طعم الهزيمة الحضارية هو الأقسى والأفحى !

وقد أدت الهزيمة الحضارية للعالم الإسلامي أمام الحضارة الغربية وما تلاها من تداعيات شملت إحتلال معظم بلاد المسلمين ، أدت إلى تصاعد الدعوات إلى ضرورة فتح باب الاجتهد لتجديد وتطوير التراث الفقهي للإسلام حتى يتمكن من النهوض ومسايرة العصر بما يجعله نداً للحركات الإستعمارية ؛ وقد مثّلت حركة السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده في القرن التاسع عشر أوضح بدایة لذلك في العصر الحديث ثم تلاهم آخرون.

ولا يعني ذلك أن الاجتهد قد أغلق بواسطة تشريع أو قانون أو بفعل قصدى من العلماء كما يذهب إلى ذلك بعض من الكُتّاب والمفكرين^(٢٧) ، وإنما هو قد إنغلق من تلقاء نفسه بفعل الفقهاء المقلدين^(٢٨) والذين يبتعدوا عن استخدام العقل في كشف الجوانب المتضمنة في الأحكام الشرعية والتي تتوافق مع المصالح العامة في كل عصر ؛ فليس بالضرورة أن يكون ما هو صالح في فترة ما أو في بلد ما هو عينه ما يصلح في مكان آخر بغض النظر عن الفوارق الموجودة في كليهما ، وبهذا يكون ما نهدف إلى قوله هنا هو الدعوة لوضع المبادئ العامة والتي تكفل لنا الحق في نقد التراث الفقهي أولاًً ومن ثم الدعوة لفقه جديد بما يتوااءم مع مقتضيات الحال ثانياً.

إن الحق في الدعوة لنقد التراث الفقهي وإعمال الاجتهد تؤيدها شواهد عديدة من صلب مبادئ الإسلام ت نحو كلها بإتجاه عدم جواز تقييد الاجتهد وحصره في فئة محددة وفقاً لشروط توافق عليها بعض الفقهاء ثم جعلوها حكماً لتحديد من له الحق في الاجتهد ومن لا

أحمد فتحى بنسى على سبيل المثال في كتابه : موقف الشريعة من نظرية الدفاع الإجتماعي : د. أحمد فتحى بنسى - دار الشروق - الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م - بيروت - لبنان - ص. (١٠٩ - ١١٠).

يعرف التقليد في إصطلاح الأصوليين بأنه : العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة بمعنى أن المقلد يعمل بقول فقيه معين دون النظر في أدلة هذا القول.

حق له ! وقد أرسى الأئمة الكبار المبادئ التي تكفل عدم التقليد والجمود ؛ فقد حذروا كل التحذير : " من أن يتغىب تلاميذهم لأقواهم . فقد روى عن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يقول : " لا ينبغي لمن لم يعرف دليلاً أن يفتى بكلامه ". وكان رضي الله عنه إذا أفتى يقول : " هذا رأي النعمان بن ثابت - يعني نفسه - وهو أحسن ما قدرنا عليه . فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب " وكان الإمام مالك رضي الله عنه يقول : " ما من أحد إلا وهو مأمور من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ " وروى الحاكم والبيهقي عن الشافعى رضي الله عنه أنه كان يقول : " إذا صح الحديث فهو مذهبى . وفي رواية إذا رأيتم كلامى يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامى عرض الحائط " وعن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قوله : " هذا كلام الله وهذا كلام رسوله ، ولا مقال لأحد بعد الله ورسوله " .^(٢٩)

وقد أصبحت الدعوات تتعالى في الوقت الراهن للأخذ بهذه القيم والمفاهيم المناهضة للتقليد والجمود والداعية لإنفصال العقل والتجدد ؛ فعلى سبيل المثال يرى الإمام الأكبر محمود شلتوت في مؤلفه الإسلام عقيدة وشريعة أن : " ليس في الإسلام من يجب الأخذ برأيه الخليفة والإمام والقاضي فالخليفة أو الإمام ليس معصوماً من الخطأ ولا هو مهبط وحى ولا أثره له بالنظر والفهم وليس له سوى النصح والإرشاد وإقامة الحدود والأحكام في دائرة ما رسم الله وهو نائب في وظيفته عن الأمة توليه وتبقيه وتطيعه ما دام قائماً بمهامه وقائماً على حدود الله وتعزله إذا إنحرف عن الحدود واقتصر حدود الله وكذلك وضع القاضي وشيخ الإسلام " .^(٣٠) وحسن الترابي يرى أن : " الاجتهاد مصطلحاً ، إشتدا خصوصه تبليلاً لكلمة عربية تعنى اجتهاد الرأى من كل أحد بقدر وسعه وثقة الناس في رأيه ، وقد طمس معنى كلمات التذكر والذكر والتذكرة والتذكرة التي خاطب بها القرآن كل الناس " .^(٣١) ويرى بعض المفكرين المعاصرين " جمال البناء وحسن الترابي ورضوان السيد على سبيل المثال " أن

^(٢٩) نفس المرجع - ص. (٤٢٣-٤٢٤).

^(٣٠) العقوبة البدنية في الفقه الإسلامي " دستوريتها وعلاقتها بالدفاع الشرعي " : د. الحسيني سليمان جاد - دار الشروق - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م - القاهرة - مصر - ص. ١٧٧ .

^(٣١) أنظر في ذلك : السياسة والحكم " النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع " : د. حسن عبدالله الترابي - دار الساقى - الطبعة الأولى ٢٠٠٣ - بيروت - لبنان - ص. ٢٤٧ - ٢٤٨ .

الشروط التي وضعها الفقهاء المتأخرین والّتی یجب توافرها في من یتصدى لقضیة الاجتہاد – کما هو مشار إلیه أعلاه في رد المحتار على الدر المختار ، وهنالک غیرها كما یذكر الإمام الشوکانی علی سبيل المثال والذی یضع أصول الفقه والعلم بالإجماع^(٣٢) – إنما قُصد منها قفل الباب أمام حركة التجدد وإحتكار الأمر في أيدي بعض الفقهاء وحرمان المسلم العادی من التفکر في أمر دینه وهو ما یتنافی مع رسالة الإسلام الأساسية والتّی تتحث على التفکر والتدبر وإعمال العقل لکل أحد دونها تخصیص لفرد أو فئة دون أخرى وأن الاجتہاد مع إحتمال الخطأ أفضل بكثير من الإمتناع عنه وتفضیل الجمود وعدم مواکبة مستجدات العصر ، وهذا أمر – في تقدير الباحث – لا غبار علیه البتة وهو یحيی موات الساحة الفكرية الإسلامية ، فلو أخذنا جمال البناء علی سبيل المثال فإننا نجده یذكر ذلك بوضوح شدید حين یقول تحت عنوان ”إیثار المنهج التقليدي النقلی علی المنهج التحرری القرآنی“ : ”لم یقتصر افتیات الفقهاء علی ما وضعوه من غشاوات التفسیر التي أشرنا إلیها في الفصل السابق. بل إمتد أيضاً إلی السنة التي هي عدتهم وعما یدرهم. لأن السنة وإن كانت من القرآن بمثابة التطبيق من المثال ، وبالتألی تكون محاکومة بمقتضیات الواقع ، إلا أنها ما كانت لتخالف روح القرآن ولهذا اتسمت بقدر من العقلانية والتحررية. ولكن لما كانت قوى التحول التي أشرنا إلیها والتي قبضت علی الخلافة الراشدة وجاءت بالملك العضوض والحكم الإستبدادي قد ضیقت السبل علی الفقهاء ، فإنهم أبدعوا منهجاً یتفق مع الأوضاع التي كانت تضیيق بكل تحررية ، وترفض إعمال العقل ولا تسمح إلا بالعمل في إطار الوضع القائم لهذا فإن الفقهاء إفتاتوا علی السنة أيضاً ، ولا جدال أن هذا كان وراء وضع أحادیث عدیدة للتلاعيم مع الأوضاع السائدة ، فإذا ظهرت الحاجة ابتدعت الوسیلة. وقد يكون هذا المنهج أكثر وضوحاً وصراحة في قسرهم وتطویعهم لأحادیث لتفق معهم ، فالحادیث النبوی المشهور عن معاذ عندما أجب الرسول عن سؤاله بم یقض فیما لم یأت في القرآن أو السنة أجتهد رأی ولا الو“ أصبح في أيدي الفقهاء مخالف لنصه وروحه إذ یعتبر الفقهاء أن الاجتہاد ليس إلا قیاسا فإذا إتحدت العلة في قضیة جديدة ، مع قضیة قديمة جاء فیها قرآن أو سنة ، حکم فیها بما حکم في الأولى ، وبهذه

^(٣٢) الشروط الواجب توافرها في المجتهد خمسة هی العلم بـ : القرآن والسنة ، الإجماع ، لسان العرب ، أصول الفقه ، الناسخ والمنسوخ .

الطريقة أصبح الاجتهاد قياساً "كما صرَّ بذلك الشافعى" وقياساً محدوداً مبنياً على حالة واحدة هي اتحاد العلة ، وأين هذا من الكلمة معاذ الطليقة الحرة "أجتهد رأى ولا لو.." . وكان هذا المنهج أى الإبعاد عن إعمال العقل أو تقبل الحرية وراء تفضيلهم للحديث الضعيف على القياس ، وهو مبدأ أخذ به معظم الأئمة كما أثبتنا ذلك في الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" وهو الخاص بالسنة إذ هو في حقيقة الحال لا يعد إعمالاً للسنة قدر ما يعد فراراً من استخدام العقل أو إبداء الرأى . وأكثر صراحة من هذا كله إغلاقهم باب الاجتهاد بالكلية ، وكان السبب الذى أبداه بعضهم أقبح من الذنب . ذلك أنهم رأوا أنه لا يمكن أن يظهر مجتهد في مثل منزلة الأئمة الأربع . فكانهم تألاً على الله وتحكموا في المصائر .. وأعجب شيء في هذه المأساة ، وما يدل على قوة وتغلغل روح التقليد أن أئمة المذاهب الأربع أنفسهم وجهوا الناس لعدم الالتزام - ضرورة - بهم وأن آرائهم صواب يحتمل الخطأ .. كان العصر عصر انغلاق .. وكان لابد أن يكون المذهب مذهب انغلاق فعجزوا عن التكيف السليم للسنة .^(٣٣)

ويقول حسن الترابي : " لكن عظة تاريخ المسلمين ، أن سوادهم الأعظم عطلوا طاقتهم ، ما كانوا يجتهدون في تبصر واقع الوجود ، ولا يجتهدون في تحكيم الشريعة . بل ساد فيهم الوهم بأن الاجتهاد خصيصة لا تتحقق إلا لمن استوفي شرطًا معلومة من حد عال في تحصيل علوم وأصول ، والحق أن المؤمنين بشر تتفضل مكاسبهم علمًا وفقهاً بحق الدين وحقائق الواقع ، بدرجات من الفطنة المطبوعة فيهم وحظوظ من الأسباب والظروف المقدرة لهم ، لكنهم مبتلون بذلك لعلهم على تفاضلهم يتّحدون بالمساعي ، كلٌ يعطي قدره لا يتفرقون فيتناولون ، منهم من يدخل بجهده ويتعلّم ، أو يتخصصون كل ناسخ كسب الآخر . لم يعرف الإسلام في سنته الأولى طبقة علماء أو مجتهدين متميزة ، بل كان كل المؤمنين يتعلّمون ويجتهدون تفقهاً هدى الشريعة ، الأجهل يستفز الأعلم بالسؤال عما لا يعلم فيتجاوب أخوه بالعطاء ، والفقيه بقدر اجتهاده يحرّك الأفقة بالحوار والجدال إلى اجتهاد أبلغ ونتاج فكر جديد . فالاجتهاد حركة واحدة في المجتمع تثمر رأياً غزيراً بقدر التساؤل والتدافع

^(٣٣) أنظر في ذلك : تثوير القرآن : جمال البنا - "الإحياء" دار الفكر الإسلامي - دون إشارة لعددطبعات أو تاريخ النشر - القاهرة - مصر - ص . ٦٥ - ٦٦ .

الحي وتكتُّفُ الباءات ، ولا تتوافر ثروة من مادة التشريع إلا بذلك التوحيد. إن زاد المسلمين حصيلة نظرهم واجتهادهم ، لابد من أن تتوحد فيهم الرؤى الواقعية الزمانية في الدنيا لكنها لا ترتهن عندها ، والأزلية الغيبية التي تصوّب نحو الآخرة لكنها لا تنصرف عن الإعداد لها من مادة الوجود المشهود. وانفلات ذلك التوحيد هو الذي عطل كسب المسلمين مثل غير المسلمين من غنى الرأى المتنزّل واقعاً ، إذ جنح بعض أهل الدين إلى العكوف على قصد الغيب وأجاله ، هجراً عالم الدنيا ومقاصده وأسبابه في الزمان ، لا يعدون زادهم للآخرة استهراً للعمل الآجل ، ولا يمدّون شريعتهم الموحّاة بتشريع وتشريع يواكبان ويسايقان تجدد بلاءات الواقع المتواترة. لابد من أن يتّوّحد باطن الإنسان المؤمن نيات ومشاعر وظاهره أقوالاً وأفعالاً وعظة السير ، أن المسلمين تفرقوا فقهاء ظاهر بالغ وقفوا عند حروف الألفاظ وفروع المسائل ، وعشوا عن المعانى والمغازي الكلية التي تغذى مادة التشريع المستنبط من تلك اصولاً ، ومتتصوّفة باطن همّهم إحياء شعاب الإبهان في الوجودان يعمون عن تصديقها تعبيراً يتّنّزّل تكاليف الشريعة ومضاعفة غياثها النازل تشيّعاً. إن التوحيد هو الحق ، لأنّ الباطن إنما هو دوافع وضوابط للظاهر الذي يخرج منه^(٣٤)“.

ورضوان السيد يقول : ”إِسْتَنَدَ الدُّعَوَةُ لِلتَّجَدِيدِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى أَسَاسٍ فَقِيَّهِي مُعْرُوفٌ تَقْليدياً هُوَ الْقِيَاسُ. لَكِنَّ هَذَا الْإِسْتَنَادُ بِحَدِّ ذَاتِهِ كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ بِذُورٍ مُحَدُّودَيْتِهِ وَلَا شَمْوَلِيَّتِهِ. فَالْقِيَاسُ كَمَا يَعْرِفُهُ الْأَصْوَلِيُّونُ تَبَعًا لِلإِمَامِ الشَّافِعِيِّ : ”الْحَاقُ فَرْعَ بِأَصْلِ لِاتِّحَادِ الْعَلَّةِ“ . وَيَعْنِي هَذَا مِنْ ضَمْنِ مَا يَعْنِيهُ أَنَّ مَا يَجْرِي بِحُثَّهِ لَيْسَ جَدِيدًا يَنْضَمِّنُ تَحْطِيطًا لِلْمُسْتَقْبِلِ وَتَشْيِيدًا بِلِهِ أَمْرٌ وَقَعَ أَوْ نَازَلَةٌ نَزَلَتْ وَالْجَهَدُ الْبَشَرِيُّ لِمَوْاجِهَتِهَا يَأْتِي فِي نَطَاقِ رَدِّ الْفَعْلِ ، وَإِيجَادِ الْخَلَلِ الْمُمْكِنِ. ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْخَلَلَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ جَدِيدًا تَامًا ، رَغْمَ أَنَّ الْوَاقِعَةَ ”لَا نَصَّ فِيهَا“ . إِنَّ ذَلِكَ كَلْهَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَسَّسَ عَلَى أَصْلٍ هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنْنَةُ بِحِيثِ يَكُونُ غَيْرُهُمَا – أَيّْاً كَانَتْ عَلَاقَتِهِ بِهِمَا – فَرَعًا عَلَيْهِمَا ، فِيهِمَا مُوْطَنُ الْقِيَاسِ وَانْقَطَعَتِ الْعَلَاقَةِ. لِذَلِكَ فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْاجْتِهادِ هُوَ حَدِيثُ فِي غَيْرِ مَحْلِهِ ، لِأَنَّ الْاجْتِهادَ كَمَا فَهَمْهُ السَّلْفُ الصَّالِحُ هُوَ بَحْثٌ عَنِ الْجَدِيدِ وَلَيْسَ رَدًا عَلَى وَاقِعِ كَانٍ. ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ فَرَعًا عَلَى أَصْلٍ ، بَلْ هُوَ

أَنْظُرْ فِي ذَلِكَ : السِّيَاسَةُ وَالْحُكْمُ ”الْنُّظُمُ السُّلْطَانِيَّةُ بَيْنَ الْأَصْوَلِ وَسُنْنِ الْوَاقِعِ“ : مَرْجِعٌ^(٣٤) سَابِقٌ – ص. ٢٤٧ – ٢٤٨.

جديد مطلق غرضه "بذل الجهد في موافقة مراد الله تعالى". صحيح أنّ مراد الله تعالى يبقى أصلًا ، لكنه ليس أصلًا محدّداً لغيره بأنه فرع عليه ، رغم عدم معرفته أو تحديده. لقد تحدّد الاجتهاد بالرأي ، ثم تحدّد الرأي بالقياس على يد الإمام الشافعى [٢٠٤ هـ] في الرسالة في حركة مضادة للراديكالية الإعتزالية التي كانت سائدة أيامه. بيد أنّ زوال الإعتزال وتضاؤل تأثيره بعد القرن الخامس الهجري ، لم يعد الأمور إلى نصابها رغم رؤى ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ، وجدرية الشوكاني في القرن الثاني عشر الهجري. ومن هنا فإنّ نظرات المجددين المسلمين التي قيدتها تعاريفات الاجتهاد ، والقياس ، وخشية الخروج على المأثور المتوارث ، لم تستطع أن تحرّك في غير مجالات الجزئيات ، ودائماً بعد طروء الأمور وتفاقمها. هكذا كانت فتاوى محمد عبده. وهكذا مضت نظرات أبي الكلام آزاد والمراغي ومحمود شلتوت ^(٣٥) .

والشيخ محمد الغزالى يقول مدافعاً عن حرية الرأي : "في أوج الحضارة الإسلامية كانت حرية الرأي مكفولة إلى حد بعيد ، وكان البحث عن الحقيقة وتعرف وجه الصواب ، ميسوراً للكل من واته الوسائل الصحيحة. وحيث لم يوجد في مسألة علمية نص يعلو على الشبهة ، ويثبت أمام التأويل ، فإن المجال رحيب أمام عقول الرجال.. أجل حيث تتکاثر الأدلة ، وتتلون أساليب الفهم - في حدود قواعد اللغة - وتخالف الأنظار ، ويختلف وزن المصلحة العامة ، ويتسع الأفق أو يضيق أمام مبتغى الحق ، الساعي لكشف النقاب عنه ؛ ففي الأمر مندوحة ، ولا حرج على المسلم أن يعتنق أي مذهب ، وينجح إلى أي رأى. ولم يكن هناك موضع لتعصب ذميم ، أو جمود بليد.. فإن هذه الآفات العقلية لا تصيب إلا قصار الباع ، ولا تعرى إلا كل مغمومز في فضله ، مطعون في عقله.. بل إن المجتهد الحر ، ما كان يزيد على أن يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب" ^(٣٦) .

^(٣٥) أنظر في ذلك : الإسلام المعاصر "نظارات في الحاضر والمستقبل" : مرجع سابق - ص. ٩١-٩٠.

^(٣٦) الإسلام والرأي الآخر "تجربة الإمام علي نموذجاً" : حسن السعيد - قضايا إسلامية معاصرة - الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م - مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد بالتعاون مع دار الهادى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ص. ٣٣.

إن فتح باب الاجتهاد هو أمر ضروري ومُلحٌّ ومحمود ولكن ليس بالضرورة أن يُعبر عن الاجتهاد بضرورة تغيير كل حكم ونسخ كل تشريع بحجة التطور والتقدم الذي وصل إليه الإنسان في العصر الحالي ، إن هذا التقدم والتطور لم يكن حدوثه غائباً عن المشرع جلّ وعلا : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤]. إن هذا الكلام ينطبق على القانون الوضعي بسبب من نسبة المشرع وحدودية علمه وقدراته على إستشراف المستقبل ومعرفة ما سيؤدي إليه الوضع في كذا من السنين وهو ما يجعل القوانين الوضعية دائمةً في حاجة مستمرة للتعديل والتنقيح لتواكب المستجدات ، هذا لا يعني البتة الدعوة للجمود أو عدم الاجتهاد بل لعلّ أكون من أشدّ المؤيدين لقضية الدعوة للاجتهاد وتحرير العقل المسلم مما كُبِّلَ به نفسه وما كُبِّلَ به من قيود من قبل غير قليل من فقهاء التقليد ”أى الحفاظ والشراح وكتاب الحواشى والذين يسيرون على خطى من سبّقهم حذو النعل بالنعل لا يجدون ولا يبدلون“^(٣٧) وفيهم يقول القاضى النعيمان بن محمد في كتابه ”اختلاف أصول المذاهب“ : ”أجمع المنسوبون إلى الفقه من العامة ، إذا ما كان من الأحكام ، وعلم الحال والحرام ظاهراً في نص القرآن ، وجب الحكم والعمل به ، وإن ما لم يوجد ”بزعمهم“ من ذلك في القرآن ، التمس في سنة الرسول ، فإذا وجد في السنة أخذ به ، ولم ي تعد إلى غيره. وقال كثير منهم ؛ وما لم يكن من ذلك في كتاب الله جل ذكره ، ولا في سنة رسوله ، نظر في قول الصحابة ، فإن أصبناهم قد قالوه وأجمعوا عليه أخذنا به ، وإن أصبناهم اختلفوا فيه تخيرنا قول من شئنا منهم ، فقلنا به. وقال بعضهم :

من المؤكد أن هؤلاء المقلدين بعض الفضل – إذ الأمر لا يخلو كله من الفائدة – في حفظ التراث الفقهي عن السابقين وذلك عن طريق حفظهم له وشروحهم المتكررة على متون هذا التراث ، ييد أن اللافت للنظر هو أن من تم تقليدهم من السلف الصالح قد كانوا من المجددين على الرغم من قربهم من عهد النبوة وقد تمثل ذلك في العديد مما قاموا به كما يذكر ذلك الأستاذ / رضوان السيد : ”لابد أن ينفتح النقاش الحرّ في مجال الإسلام في كل شئ بعيداً عن مخاوف البدعة ويعيداً عن نزعة الحال والحرام. وهذه هي أوليات اجتراح الجديد ، بل هذه هي أوليات الاجتهاد كما فهمه رجالات السلف الصالح. لقد فعلوا جديداً كثيراً : جعوا القرآن ، وبنوا الدولة ، وابتدعوا نظام الخلافة ، ومهروا بخاتمهم مسألة الجماعة والإجماع. وهذه المسائل هي كبرى مسائل الإسلام حتى اليوم. فالإحتجاج بالسلف الصالح في مجال التقليد هو احتجاج ضدّ أصحابه ، بسبب الصورة المزورة التي يملكونها عن رجالات السلف وزمانهم“.

ومن أصحابنا قال به منهم لم نخرج عن قوله ، وما لم نجده في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ، ولا في قول أحد من الصحابة ، نظرنا فإن كان أجمع العلماء عليه قلنا به ، ولم نخرج عن إجماعهم فيه ، وسنذكر قول كل فريق منهم في هذا الكتاب عند ذكر مقالتهم والرد عليهم. ثم اختلفوا فيما ليس في كتاب الله "بزعمهم" ولا في سنة نبيهم ، بقولهم ذلك بتقليل أسلافهم وطاعة ساداتهم وكبارائهم وقالوا : هم أعلم منا بوجه الحق ، فما قالوا به قلنا به ، واتبعناهم فيه ولم نخالفهم ، وقلنا لهم فيما هم قالوه ، واتختلفوا فيما قلدوه ، فذهب كل فريق منهم إلى قول قائل من تقدمهم ، فقالوا بقوله ، وأحلوا ما أحله لهم ، وحرموا ما حرم عليهم ، وأقاموا قوله حجة عندهم ، وأعرضوا عن قول من خالقه من قلده وإتبعه غيرهم ، وخطأ بعضهم بعضاً ، وكفرّ قوم منهم قوماً من خالفهم وفارقهم ، وآخرون أنكروا التقليد ، وذهبوا فيما جهلوه مذاهب الذين قبلهم الآخرون في الإستنبط ، وقال بعضهم بالقياس ، وقال آخرون بالنظر ، وقال آخرون بالإستدلال ، وهذه الألقاب لقبوا بها مذاهبهم ، لينسبوها إلى الحق "بزعمهم" وكلها يرجع إلى أصل واحد ويجمعها معنى فاسد ، وهو إتباع الهوى والظن ، اللذين حذر الله منها وعاب من اتبعها...^(٣٨).

ولكن هذا لا يعني مطلقاً أن نرفض كل قديم بإعتبار وضعه الزمني بدعوى التحديث ومواكبة التطور ، إذ أن الثوابت في الإسلام تمثل في العقيدة التي لا تتبدل ولا تتغير مطلقاً بتغير الزمان والمكان وهي محددة في الإيمان بالله وملائكته ورسله والإيمان باليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، وهي تمثل العمود الفقري للإسلام ولكلة الأديان السماوية الأخرى السابقة عليه ، أما الشريعة فهي ثابتة فيها ورد فيه نصّ قطعى الثبوت قطعى الدلالة في القرآن أو السنة وما عدا ذلك فهو خاضع للمصلحة العامة لجماع المسلمين في كل عصر حسب تغير الواقع وإختلاف الزمان ، وما يخضع للمصلحة العامة هنا ليس حكماً جديداً وإنما هو فهم جديد لأحد أوجه الحكم ربما غاب إدراكه عن من سبقنا من السلف.

إختلاف أصول المذاهب : مرجع سابق - ص. ٣٦ - ٣٨

البحث الثالث

حول مفهوم الاجتهاد "رؤيه ورؤيه"

بناءً على ما سبق فإن الاجتهاد ليس بالضرورة في تقدير الباحث أن يعني الإتيان بالجديد في كل آن وحين بل ربما كان قمة الاجتهاد يتمثل أحياناً في إزالة اللبس الذي يكتنف قضية ما ! بحيث تؤدي هذه الإزالة لتعديل دفة الحوار فبدلاً عن المطالبة بإلغاء أمر ما يصبح المناداة بإيقائه وتطبيقه هو المطلب الأهم من قبل نفس الفتنة المطالبة سابقاً بإلغائه عن عدم دراية أو سوء فهم ، وكما يقول محمد أبو زهرة : "قال النبي ﷺ فيما رواه الإمام أحمد : "إن الله يبعث هذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يجدد لها أمر دينها" وتجدد أمر الدين ليس بتلقيح ما فيه من أحكام باءة من غيره ، فإن ذلك هو الفهم السقيم ، لأنه يؤدى إلى التغيير والتبدل ، وليس إلى التجديد ، ورده إلى أصله ، وإنما التجديد هو إزالة ما يعلق به من أوهام وخرافات هي الغبار الذي يعلو سطحه ، ويظنه الناس منه ، وما هو منه" ^(٣٩) ، يقول ^(٤٠) : "إياكم ومحدثات الأمور" أى باعدوا أنفسكم وأخذروا الأخذ بالامور المحدثة في الدين ^(٤١) ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" ^(٤٢) ، والإمام الشافعى يقول في رسالته في الأصول "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها" وقال "كل ما نزل ب المسلم فيه حكم لازم ، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة" ^(٤٣) ، وفي كثير من الأحيان تحتاج لأن تغير نفسك أكثر من حاجتك لتغيير العالم المحيط بك : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا يَقُولُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا يَأْنَسُهُمْ﴾ [الرعد : ١١].

^(٣٩) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : مرجع سابق - ص. ٢٠.

^(٤٠) منهاج الورادين - شرح رياض الصالحين للإمام النووي الحافظ محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف [المتوفى سنة ٦٧٦ هـ] : ضبط الأصل - ووضع الشرح - ووضع الفهارس الدكتور. صبحي الصالح أستاذ إسلاميات وفقه اللغة في كلية الآداب بجامعة اللبناني - دار العلم للملائين - بيروت - الطبعة الرابعة - كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧ - ص. ١٥٢.

^(٤١) نفس المرجع : ص. ١٦٤.

^(٤٢) في أصول النظام الجنائي الإسلامي "دراسة مقارنة" : مرجع سابق - ص. ٤٨.

إن التخوف الذى ظل ملازماً للفكر الإسلامي وملفكيه طيلة فترات الضعف والهزال الفكرى والذى يُعتبر أحد أهم العوامل المؤدية إلى إغلاق باب الاجتهد بحججة سد الذرائع خشية إتاحة الفرصة "للمفسدين" للعقيدة الإسلامية للتسلل من هذا الباب كما قيل : "إن الاجتهد الذى إذا فتح بابه دخل فيه مع الرجل الواحد الصالح عشرون من الرجال المفسدين ، جدير ببابه أن يظل مغلقاً لا يفتح" ^(٤٣) ، هو تخوف في غير محله من جهة إذ يدحض ذلك أن الإسلام ليس بالضعف والهشاشة التى يمكن أن تبرر مثل هذا المنحى في التفكير ! بل على العكس من ذلك فهو دين قوى يقوم على الفطرة وإعتماد العقل وال الحوار والإعتراف بالآخر وتقبل ما هو على خلاف ما جاء به من أفكار وآراء وعدم نفيها أو إبطالها بل طرحها للجدل والتمحيص وصولاً للإقناع بالبرهان ومن ثم فإن الزبد يذهب جفاءً أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ! ومن جهة أخرى فإن مثل هذه الدعوات فيها إستباح للأحداث وتفتيش في النوايا وهو أمر لا يجوز القول به من عوام الناس فضلاً عن علمائهم ، وفوق هذا وذاك فهو يضاد القاعدة الموضوعة للاجتهد ويصدر عليها فيعاقب من يخطئ بمصادرة حقه في إبداء الرأى إبتداءً ! عوضاً عن أن يعترف له بأجر المحاولة.

الناسخ والمنسوخ في اللغة والإصطلاح :

وقد يثور إعتراض هنا من قبل بعض الذين يتناولون موضوع الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم - وهو أمر ورد بنص القرآن نفسه - : ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٦٠].

والنسخ من مادة ”نسخ“ : وَنَسَخَتِ الشَّمْسُ الظَّلَّ وَإِنْسَخَتُهُ : أَزَالَتْهُ . وَنَسَخَتِ الْرِّيحُ آثَارَ الدَّارِ : غَيَّرَتْهَا . وَنَسَخَتِ الْكِتَابُ ، وَإِنْسَخَتُهُ ، وَاسْتَنْسَخَتُهُ كُلُّهُ بِمَعْنَى . وَنَسَخْ الآيَةِ بِالآيَةِ : إِزَالَةُ حُكْمَهَا ، فَالثَّانِيَةُ نَاسِخَةٌ وَالْأُولَى مَنْسُوخَةٌ .^(٤٤)

محاضرات في الفقه المقارن ”مع مقدمة في بيان أسباب اختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن“: مرجع سابق - ص. ٨ من التمهيد.

الصِّحَّاحُ "تَاجُ الْلُّغَةِ وصَحَّاحُ الْعَرَبِيَّةِ" : مرجع سابق - المجلد الأول - ص. ٤٣٣ مادة "نسخ". (٤٤)

أما الإستنساخ فهو نقل المكتوب من نسخة إلى نسخة. قال الله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابٌ نَّارٌ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحُقْقِ إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْعِنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٩].^(٤٥) وكما يقول عبد الوهاب خلاف : ”لا نسخ لحكم شرعي في القرآن أو السنة بعد وفاة الرسول ﷺ. وأما في حياته ، فقد إقتضت سنة التدرج بالتشريع ، ومسايرته المصالح نسخ بعض الأحكام التي وردت فيها بعض نصوصها نسخاً كلياً ، أو نسخاً جزئياً“.^(٤٦) والنسخ في إصطلاح الأصوليين هو إبطال العمل بالحكم الشرعي بدليل متراخ عنه ، يدل على إبطاله صراحة أو ضمناً ، إبطالاً كلياً أو إبطالاً جزئياً لصلاحة اقتضبه ، او هو إظهار دليل لاحق نسخ ضمناً العمل بدليل سابق.^(٤٧)

وهذا الإختلاف بين القائلين بالنسخ والرافضين لوجوده بين مفكري المسلمين من جهة ، وإحتجاج المستشرين به وأخذه كدلالة على تعارض القرآن وعدم إتساق أحكامه من جهة أخرى هو ما يوجب الإشارة إليه من زاوية توضيح أن ”النسخ“ لا يكون أبداً بمعنى الإلغاء أو الإزالة ل الكامل التشريع وإحلال آخر جديد مكانه وإنما هو إما تخفيف لتكليفات يشق على الإنسان أداؤها ، أو تشديد في حكم للنهي أو التحرير جاء على سبيل التدرج في أول أمره وكلاهما كما هو واضح من السياق يوجد لها ”تقرير سابق“ أو مادة يجرى فيها التعديل تخفيفاً أو تشديداً.

هذا ما يراه الباحث ويطمئن للأخذ به ” وهو يوافق ما أورده الإمام الشاطبي كما سيتم توضيحه لاحقاً“ ، نقول هذا لأن موضوع ”النسخ“ في القرآن مختلف عليه – لا من حيث دلالة اللفظ أو فهم موضوع النسخ فحسب ، بل من حيث الإقرار بوجوده من حيث هو – وهذا ما سنشير إليه كالتالي :

ففي زبدة التفسير من فتح القدير ورد فيها يختص بالنسخ : ”والنسخ هو الإبطال والإزالة ، كل شئ خلف شيئاً فقد إنتسخه ، يقال نسخت الشمس الظل ، ونسخ الشيب الشباب وذلك أن يحول الله الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والماح محظوراً ، والمحظور مباحاً ،

أصول الأحكام الشرعية : د. يوسف قاسم - مرجع سابق - ص. ٣٧٠ .^(٤٥)
علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف - دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثانية عشرة ١٣٩٨هـ / ١٩٨٧م - الكويت - ص. ٢٢٢ .^(٤٦)
نفس المرجع : ص. ٢٢٢ .^(٤٧)

ولا يكون ذلك إلا في الحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ . وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة إلى أخرى ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره ، إنما هو تحويله إلى غيره . وسواء نسخ حكم الآية ، أو خطها . وقد إتفق علماء الإسلام سلفاً وخلفاً على ثبوت النسخ في كتاب الله تعالى ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه . وقد إشتهر عن اليهود إنكاره " ليتوصلوا بذلك إلى إنكار نبوة محمد ﷺ قالوا لأنّه نسخ بعض ما في التوراة فلا يكوننبياً " وهم محجوجون بما في التوراة نفسها أن آدم كان يزوج الأخ باخته وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وقومه " أو ننسها " أي : ننسكم إياها حتى لا تقرأ أو لا تذكر " نأت بخير منها أو مثلها " نأت بما هو أفعى للناس منها في العاجل والأجل ، أو بما هو ماثل لها من غير زيادة ، فقد يكون الناسخ أخف فيكون أفعى لهم في العاجل ، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أفعى لهم في الأجل " ألم تعلم أن الله على كل شيء قادر " فالنسخ من مقدوراته سبحانه وتعالى " .^(٤٨)

ويذكر الإمام الشاطبي في معنى النسخ : " إن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين : فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً ، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخاً ، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً ، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعاً متأخر نسخاً ؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد ، وهو أن النسخ في الإصطلاح المتأخر إقتضي أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف ، وإنما المراد ما جرى به آخرأ ، فال الأول غير معنوم به ، والثاني هو المعنوم به " .^(٤٩)

ومن المعاصرين يذكر جمال البنا عن النسخ : " وتعد دعوى النسخ من أكبر ما نسب إلى القرآن واعتبر معرفته من أهم ما يجب لمفسر وجرت قالتهم لمن لم يعرف الناسخ والمنسوخ

أنظر في ذلك : القرآن الكريم " وبالهامش زبدة التفسير من فتح القدير " : " وهو مختصر من تفسير الإمام الشوكاني المسمى فتح القدير الجامع بين فني الدراسة والرواية من علم التفسير " : محمد سليمان عبد الله الأشقر - الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م - دولة الكويت - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - ص . ٢١ .^(٤٨)

أنظر في ذلك : المواقف في أصول الشريعة لأبي إسحق الشاطبي : تحقيق محمد عبد القادر الفاضل - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - الجزء الأول ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م - بدون تحديد لعدد الطبعات - صيدا - بيروت - ص . ٧١ [من الجزء الثالث].^(٤٩)

” هلكت وأهلكت ” ! وما من مفارقة تثير الذهول كهذه ، فبدعوى خدمة القرآن أعمل هؤلاء المفسرون سكين النسخ وبتروا مئات الآيات .. فهل يختلف عملهم هذا من عمل ” جزار اليهود بالبقر .. ” كما رأى شوقي ” برأها من العيوب .. وعقر !! ” لا أدرى كيف واتت هؤلاء المفسرين الجرأة على هذا الجرم العظيم .. وأغرب من ذلك وأعجب أنهم رأوا في المفسر الوحيد الذى أنكر النسخ أنه ” جاهم بهذه الشريعة جهلاً فظيعاً ” كما قال الشوكانى في إرشاد الفحول ” أو أن قوله ضعيف مردود مرذول ” كما قال ابن كثير . وجاء في ” فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت ” وأجمع أهل الشرائع على وقوعه سمعاً خلافاً لأبي مسلم الأصفهانى الجاحظ من شياطين المعتزلة وهو لا يصح من مسلم من يدعى إسلامه إلا بتأويل ” . وقال السيوطى ” والناس في هذا بين طرفين نقىض فمن قائل لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول ومن متساهم يكتفى فيه بقول مفسر أو مجتهد والصواب خلافهما ” .^(٤٠)

وهو يرفض للسنة أن تكون ناسخة للقرآن وهو يستشهد بإنكار الشافعى لذلك وكيف أن الفقهاء المتأخرین أنكروا عليه ذلك ورأوا فيه سقطة كبيرة ، ويذهب للقول بأن المفسرين قد ذهبوا مذاهب شتى في عدد الآيات المنسوخة فذهب ابن الجوزى أنها [٢٤٧] آية . وذهب أبو عبد الله بن حزم ” وهو غير أبو محمد بن حزم الأندلسى الظاهري المشهور ” إلى أنها [٢٠٨] آية . وعند أبي القاسم هبة الله بن سلامة [٢١٢] آية . وعند أبي جعفر النحاس [١٣٤] . وعند عبد القادر البغدادى [٦٦] آية . والقرآن عند الأستاذ جمال البنا لا يستخدم كلمة آية كما نستخدمها نحن بمعنى [نص] ولكن بمعنى قرينة أو معجزة أو دلالة ومن هنا فإنه يرى أن بناء النسخ على ما جاء في سورة البقرة ﴿مَا نَسْخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ...﴾ الآية لا يجوز الإستدلال به فضلاً عن أن القرآن يستخدم كلمة نسخ بمعنى إثبات أو كتابة فالدعوى ساقطة تماماً^(٤١) وهو هنا محق تماماً .

وقد ذهب فريق من الفقهاء للقول بأن البداء على الله مستحيل ، والبداء هو أن يبدأ أمر ما ثم يتضح لاحقاً حاجته للتعديل لأن جديداً قد طرأ لم يشمله ما قد قرر من قبل ، وهذا

^(٤٠) أنظر في ذلك : ثثوير القرآن : مرجع سابق - ص . ٥٦ .

^(٤١) نفس المرجع : ص . ٥٨ . بتصرف .

الإعتراف صحيح ومقبول تماماً فيما يختص بهذه الجزئية ، ولكن نفي التعديل بالكلية يشوبه بعض القصور ، وذلك بالنظر إلى أن الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم - كما أوضحتنا - يختص فقط " بالتكليفات " ولا يتناول العقائد أو الإخبار من الله مطلقاً فهي ما لا يجوز فيه النسخ ؛ إذ العقائد واحدة وثابتة منذ الأزل وعلى لسان كافة الرسل دون إثناء ، والقصص التي أوردها المولى عز وجل تتناول أموراً قد سبق وقوعها فلا يصح فيها التعديل وإلا فقدت صدقيتها ، وأما " التكليفات " فهي أمور قررها المولى عز وجل في فترة ما ثم طاها التعديل في بعض أحكامها أو تم إلغاؤها وإستبدالها بأخرى مثلها في الجزاء والثواب - وإن إختلفت عنها في حجم التكليف - أو خيراً منها ، ولكن ما الفرق بين التعديل هنا والتعديل الذي يتعلق بالبداء ؟ إن الفرق ولاشك كبير إذ أن التعديل فيما يختص بأمر الله لا يكون طارئاً أبداً إذ أنه في سابق علم الله - وهو العليم الخير - أن الأمر سيكون على هذا النحو في فترة ما ثم يعدل فيما بعد لحكمة الله تعالى التي أجراها في هذا التعديل من تدرج أو تخفيف أو غير ذلك ، بينما الأمر في البداء - أو التعديلات الوضعية عموماً - فالامر يسير على غير هذا النحو ، فالقوانين توضع باعتبارها تمثّل متهي ما توصل إليه اجتهاد العقل البشري القانوني في هذا المجال ويفترض فيها أنها قد شملت كل ما له صلة بالظاهرة موضع القانون المحدد لها ، ثم يظهر لاحقاً ما لم يكن في الحسبان وما هو غير داخل في حسابات من وضع ذلك القانون مما لا يكون معه بد من إجراء التعديل في بعض الأحيان أو إلغاء التشريع بالكلية وإستبداله بآخر يدخل ما يستجد من أوضاع ضمن نطاقه ، وتتصح لنا هذه الأمور بأوضح صورة بالنظر إلى أن المنسوخ من " التكليفات " دائمًا ما تكون فيه إشارة إلى أن هناك أمراً ما سيطرأ في المستقبل بحيث يعتبر ما هو موجود تمهيداً لما سوف يأتي لاحقاً.

ويذكر الإمام الشاطبي في تفسير ذلك ما يتحتم إيراده هنا لمزيد من التوضيح إذ يقول :

" القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً ، والذى نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة ، ثم تبعها أشياء بالمدينة ، كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة... ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وإتسعت خطة الإسلام كملت هنالك الأصول الكلية على تدريج ، كإصلاح ذات البين والوفاء بالعقود ، وتحريم المسكرات ، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية وما يكملها ويسهلها ورفع الحرج بالتحفيفات والرخص ، وما أشبه ذلك ، كله تكميل للإصول الكلية . فالنسخ إنما وقع معظمها بالمدينة ، لما إقتضته الحكمة الإلهية في تمهيد الأحكام ، وتأمل

كيف تجد معظم النسخ إنما هو لما كان فيه تأنيس أو لقريب العهد بالإسلام وإستئلاف لهم ، مثل كون الصلاة كانت صلاتين ثم صارت خمساً ، وكون إنفاق المال مطلقاً بحسب الخيرة في الجملة ثم صار محدوداً مقدراً ، وأن القبلة كانت بالمدينة بيت المقدس ثم صارت الكعبة ، كحل نكاح المتعة ثم تحريمها ، وكون الطلاق كان إلى غير نهاية على قول طائفة ثم صار ثلاثة ، والظهور كان طلاقاً ثم صار غير طلاق ، إلى غير ذلك مما كان أصل الحكم فيه باقياً على حاله قبل الإسلام ثم أزيلاً ، أو كان أصل مشروعيته قريباً خفيفاً ثم أحكم... ويمضي فيقول : الشريعة مبنية على حفظ الضروريات وال حاجيات والتحسينيات ، وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء. لكن إنما أتى بالمدينة ما يقويها ويعظمها ويحصنهما ؛ وإذا كان كذلك لم يثبت نسخ لكل البة ، ومن إستحرى كتب الناسخ والمنسوخ تحقق هذا المعنى ؛ فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها ، والجزئيات المكية قليلة ”^(٥٢)“.

وبناء على ما سبق فإن إتخاذ النسخ دليلاً على تعارض أحكام القرآن عند بعض المستشرقين من جهة أو رفض وجوده وإستبعاده تماماً من قبل البعض من المسلمين^(٥٣) ، أو القول بوجود وجه شبه بينه وبين ما يحدث من تعديلات في القوانين والتشريعات الوضعية^(٥٤) كله قول يجانبه الصواب في تقدير الباحث ! فالأحكام في التشريع الإلهي لا تتعارض مطلقاً ولا يصادم بعضها بعضاً : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] ، ولكنها ومن بنية تركيبها الفريدة بإعتبارها التشريع الخاتم لكل الأديان والقانون الذي سيسود كل البشرية على إختلاف ألوانها وتبين أعرافها وألسنتها وما جُبلت عليه من عادات وطبعات وإختلاف في الزمان والمكان وهو ما أكسبها صفة الصلاحية لكل زمان ومكان ؛ لكل ذلك فإنها تراعى شيئاً هامين : طبيعة النفس البشرية من جهة ، والتدريج في أحكامها من جهة أخرى وذلك بحسب ما تتطلب هذه الطبيعة البشرية من ملائنة وتلطف وصولاً بها إلى أعلى مراقي التطور الأخلاقي وهو ما لا يتأتى بالشدة والصرامة في التشريع أو التطبيق من أول وهلة ومعاملة الناس على حد سواء خاصة وأن

^(٥٢) المواقفات في أصول الشريعة : مرجع سابق - ص. (٦٨ - ٦٩) من الجزء الثالث بتصرف.

^(٥٣) كما عند أبي مسلم الأصفهانى قديماً ، أو الأستاذ / جمال البنا من المحدثين مثلاً.

^(٥٤) علم أصول الفقه : مرجع سابق - ص. ٢٢٢ .

صلاحية الأحكام الإلهية لكل زمان ومكان تلفت نظرنا إلى حقيقة هامة جداً تمثل في أنها لم تُشرع لزمان واحد ولم توضع لجماعة بعينها حتى يمكن أن يُقاس عليها بحكم واحد ونهائي ، إذ أنه ولما كان من بديهيات الأمور فهم أن حقيقة التطور والتقدم في مسيرة البشرية لا يسيران في خط رأسى صاعد نحو الأفضل دوماً ؛ بل ربما كان المتأخر زمانياً هو الأفضل من النواحي العقلية والروحية والأخلاقية والتقنية أيضاً من اللاحق ” وكثيراً ما حدث هذا في التاريخ ” ! ، وبالنظر إلى أن من نعتبرهم أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ وهم الصحابة الأجلاء عليهم رضوان الله تعالى قد تدرجت بهم الأحكام – والرسول الكريم بين أظهرهم – من يسيرها إلى ما هو أشدّ ومن الأخف إلى ما هو أكثر إحكاماً في تهذيب وتشذيب للطبيعة الإنسانية حتى وصلوا إلى المكانة الرفيعة التي إحتازوها فإن ذلك يسمح بالقول بأن التدرج سُنة باقية إلى يوم الدين تكتسب صلاحيتها من تشابه الظرف المكاني والزمني وتشابه الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان وما يشهد على ذلك إختلاف العلماء في أحكام كثير من الآيات التي يقول البعض منهم بنسخ أحكامها ويدهّب البعض إلى بقاءه في حق حالات بعينها ، إضافة إلى ما أوضحتنا سابقاً من أن الجهل بالحكم الشرعي ” كإعتقاد حل ما هو محرّم ” مما يصلح أخذه كشبهة مانعة للحد ” العقوبة ” عند كثير من العلماء وذلك في داخل المجتمع المسلم الذي كُمِل إسلامه وهذا على خلاف ما هو معمول به في القانون الوضعي إذ القاعدة فيه تنص على أن الجهل بالقانون لا يُعفي من المسؤولية وبالتالي إستحقاق العقوبة كاملة ! ، وذلك أحد أوجه التمايز بين الأحكام الإلهية والوضعية إذ أن مخض تطبيق العقوبة ليس هدفاً أصيلاً لها كما أوضحتنا ذلك ، ولكنها تُعني بتنمية الإنسان أخلاقياً وتعمل على ترقية ضميره الشخصي وصولاً به إلى درجة أن يكون رقيباً بنفسه على نفسه وهو ما يسمح لنا بفهم الظاهرة الغريبة – على التراث البشري والمثلة في سعي المذنب لـإستحقاق العقوبة رغم عدم شهود الجرم ، وعزوف القاضي عن تطبيق نص الحكم بإلتماس كافة ما يمكن أن يُكذب هذا الإعتراف والإقرار الصريح المصحوب بالإصرار والإلحاح الشديدين ! وقد لا نعدم وجود أحد طرف في المعادلة هنا أو هناك طيلة مسيرة البشرية ، ولكن إجتماعهما معاً هو محل الدهشة والإستغراب.

وبهذا يصح القول بوجود وبقاء التدرج في الأحكام وصولاً للأخذ بالحكم النهائي في كل قضية من القضايا فيمن كُمِل إسلامه من المجتمعات^(٥٥) بحيث أصبح الرأي العام السائد فيها لا يسمح بغياب أحكام الإسلام عن متناول فرد من أفرادها ، وإنفائه فيمن سواها من يُرجى تدرجها في مراقي التطور والكمال الأخلاقي والإيماني وصولاً إلى حال من سبقها من المجتمعات الإسلامية الأخرى المشار إليها آنفًا.

إن الصيغة الإعتذارية التي غالباً ما تطبع كل حديث يدور حول القضايا الإسلامية عامة - والتشريعات الحدودية خاصة - إنما تنبع في تقدير الباحث من قصور في فهم ذات المقاصد والمصالح التي ينادي أغلب الكتاب بجعلها هدفاً لفهم التشريعات في الإسلام هذا من جهة ومن جهة أخرى هو شعور بالدونية وإحساس بالعجز بإزاء الحضارة الغربية وإعلامها الذي يصور الإسلام والمسلمين بالخلاف.. وهو إن صدق إلى حد بعيد في تصويره لمسلمي اليوم فإنه قد غاب عليه المعرفة الحقة بالإسلام كدين.. وهو معذور في جمعه وخلطه بين النظرية والتطبيق ”النص والواقع“ ، بين الإسلام والمسلمين ! لقد فشل المسلمون منذ أمد بعيد في التطبيق.. هذا أمر لا جدال فيه البة ، ولكن النظرية العامة والمبادئ الكلية التي إحتواها التصور الإسلامي فإنها تظل نقية وفي غاية الكمال.. وهل عجزنا إلا بسبب من كمالها الذي يتابي على الضعفاء ؟ على من تمتلىء قلوبهم بالنفاق ! .. هذا الكمال الذي يرفض التجزئة ويستعصي على كل من يحاول توظيفه لغير ما أنزل له والمتمثل في إقامة العدالة الشاملة لكل جوانب الحياة - السياسية والاجتماعية والقانونية والفكرية - وما من آفة ألمت بالإسلام

قد لا نعدم وجود أحد طرفي المعادلة هنا أو هناك طيلة مسيرة البشرية ، ولكن إجتماعها معاً هو محل الدهشة والإستغراب ، فمن المؤكد أن المجتمعات لا تسير دوماً في خط واحد بإتجاه التقدم فهناك دائمًا منحنيات قد تعود بمجتمع ما إلى مرحلة غاية في التخلف وهو أمر لا صلة له بالصيغة الزمانية... وكما يقول على حرب فقد : تزعزعـت الثقة بمقولة ”التقدـم“ ، التي استخدمها الماركسيون بشكل خاص كمبدأ للتفسـير والعمل في آن. فالمجتمع لا يسير على خط صاعد متصل نحو رقيه وكـمالـه. بل هناك دوماً اختـلالـات وترـاجـعـات وانـقطـاعـات. هناك سـيرـورة تـتم على أـكـثـر من مـسـتـوى وـهـا أـكـثـر من سـرـعـة. وهـى تـجـرى دـوـمـاً نحو مـزـيد من التـعـقـيدـ والتـأـزـمـ ، وـتـنـفـتـحـ عـلـى الـلـامـعـقـولـ وـالـلـامـتـوـقـعـ ، فـتـوـسـعـ بـذـلـكـ رـقـعـةـ إـمـكـانـ وـتـضـاعـفـ حـسـابـ الـاحـتـالـاتـ.

وقد عدت به أشد إيماناً ”في تقدير الباحث“ من غياب قيمة العدالة منها ، فالهدف واضح.. إن كثرة العدد وضخامة البنيان وكثرة الأموال لم تكن في يوم من الأيام هي هدف الإسلام أو ما يسعى إليه.. بل صياغة الإنسان المسلم صياغة تؤهله لتطبيق النظرية أو المبادئ بشكل صحيح لا نفاق فيه ولا ريبة.. وهل نحن الآن إلا غثاء كغثاء السيل..

صحيح لقد إجتهد الكثيرون - وسيدنا عمر بن الخطاب يعد من أبرزهم - كما يذكر محمد عابد الجابری^(٦٧) ، ولكن كان اجتهادهم ناشئاً عن التطور الذى حدث في بنية المجتمع المسلم من داخله ”والذى كانت الشريعة مطّبقة فيه بالكامل“ وليس التطور الذى فرض عليه من الخارج من بيئة مغايرة وثقافة تختلف في نظرتها للإمور وللإنسان عن نظرة التصور الإسلامي في نقاشه الأول ، إن الاجتهادات سالفة الذكر قد راعت المصلحة العامة وفقاً للظروف الإستثنائية في حينها ”عام الرمادة مثلاً أو عام المجاعة أو ما ورد في المؤلفة قلوبهم“ ، وكل محنة هي عام رمادة جديد.. إن المجتهد هنا بنص ما ذكر الكاتب لم يعط النص وإنما رجع إلى إعتبار ما يمكن وصفه ”بالمصلحة الأصل“ في الزكاة مثلاً وهي التخفيف من حاجة الفقراء والمساكين وأهمل ”المصلحة الفرع“ أى إستئالة المؤلفة قلوبهم وهي مصلحة كانت مؤقتة ولم تعد قائمة ، إن هذا لا يمكن أخذه حجة على إمكانية وقف العمل بالحدود في العصر الحالى ، إذ أن الحضارة الحالية وما وصل إليه الإنسان من ”تطور“ ليس أمراً إستثنائياً إذ أن الجرائم لم تختفي بل زادت وتنوعت كماً وكيفاً وزادت شراستها وخطورتها ؛ إذ وبينما كان الإنسان قبل هذا يتمتع بحماية الأسرة أو القبيلة أو الطبقة الإجتماعية فإن ما آل إليه الأمر الآن من كون الفرد أصبح هو قوام المجتمع بما يجعله أعزلاً في مواجهة الجريمة إلا من قوانين

الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : مرجع سابق ، ص. ٤٠ وما بعدها من المقدمة ، وأيضاً نظر في ذلك : ”الحقيقة الغائية“ : مرجع سابق ، قراءة في أوراق الراشدين ص. ٢٠ . وقد كان من المشهور عن عمر بن الخطاب موافقته لبعض ما ينزل من القرآن الكريم مما أصبح يُعرف عند المحدثين بإسم مواقفات عمر ، وفي البخاري يقول أنس قال عمر : ”وافقت ربي في ثلاث فقلت يا رسول الله لو إخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت وإنخدعوا من مقام إبراهيم مصلى وآية الحجاب قلت يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يتحجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر فنزلت آية الحجاب واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن عسى رب إن طلقكن أن يبدل أزواجاً خيراً منكن فنزلت هذه الآية“ .

رادعة تحميء وتصون كرامته بـإباء المجرمين وهذا يحيلنا مباشرة لسؤال يحتاج لنقاوش جاد حول من تهدف القوانين لحمايةهم؟.. الأفراد أم المجتمع "أو الكل"؛ أم جماعة معينة أو نظاماً محدداً..! إن ما نحتاج إليه حقاً ليس هو تعطيل تطبيق الحدود وإنما هو إصلاح حال المجتمعات الإسلامية أولاً وإعلاء القيم الإنسانية والدينية العليا فيها وتطبيق ذلك فعلاً لا قولاً، ومن ثم إعمال النصوص بأدق معانيها في محاولة للوصول إلى أفضل "فهم" لها يتواءل مع ما وصلت إليه المدنية المعاصرة من تطور وتقدير علمي وتقني وتعقد وتشابك في أساليب التعامل وتبادل المصالح والمنافع.

إن هذا الوضع يجعل الحاجة للتشريعات الحدّية في الإسلام أكثر إلحاحاً عما سبق إذ ليس من المصلحة في شيء - ولا يقول بذلك عاقل - أن يسرق المجرم ثم لا يبالي بما فعل إذ هو مدرك بأن ما يتربّ على ذلك من عقوبة هو ما لا يؤبه لخطورته عليه وسرعان ما يخرج ويعاود الكّرة تلو الأخرى ، وليس من المصلحة أن يزني الزانى - ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج المعروفة - ثم يمضي لا يبالي بما حصل إذ أن التكيف القانوني لهذا الفعل في جعل القوانين الوضعية هو أنه أمر لا غبار عليه إن لم يتم بالقسر والإكراه.. كيف لا يكون عليه غبار وهو في تقدير الباحث وكل ذي عقل أمر أفتح من القتل.. إذ أن القتل يعني إهدار نفس واحدة بينما الزنى يهدّر نفوساً عدّة ويولّد جرائم شتى فهو يدمّر المرأة ومستقبلها ويدمر الأطفال الذين يتتجون عن هذه الجريمة النكرة وذلك بإلقاءهم في الشوارع دون رعاية أو تنشئة سليمة فضلاً عن قتلهم في كثير من الأحيان.. وما يُتّظر من أطفال الشوارع هؤلاء؟ ليس إلا القتل والسرقة والفاحش من القول والفعل وهو تدمير للمجتمع ككل.

إن القول بأن الاجتهد يجب أن يطال جدوى تطبيق الحدود لتواكب ما يستجد من تطور هو من الأمور الخادعة جداً.. كيف؟ أولاً إن الحديث عن التطور هنا يمثل أول أوجه الخداع إذ ما المقصود بالتطور؟ إذا كان المقصود هو التطور التقني والعلمي فهو حقيقة واقعة لا سبيل - ولا داعي - لإنكارها ولكنها لا تلزمنا هنا ! إذ لا نتحدث هنا عن الآلات أو ما شابه من وسائل الحضارة المعاصرة.. وإن كان المقصود بالتطور هنا هو تطور الإنسان في معارفه بالبيئة والكون من حوله فهو كسابقه ونحن نؤمن عليه ، أما إن إنصرف القول إلى الأخلاق والسلوك فهاهنا تكمن المفارقة.. إذ لم يتطور الإنسان البتة بل تردّى إلى أسفل وأوغل في الغريزة ومطالب الجسد وتطرف في الوحشية في نظرته لكثير من الأمور التي من

ضمنها نظرته للإنسان نفسه ، وما الشعور بالإغتراب والقلق الذي يحيا فيه الإنسان المعاصر في ظل الحضارة الغربية إلا شكلاً من أشكال هذا التردى مضافاً إليه تفكك الأسرة والتى تمثل نواة المجتمع وشيع الجريمة وما يدور حول العالم من صراعات وحروب تحشد بالقسوة وتحصد الملايين بما تستخدمه من الأسلحة المدمرة على كافة أشكالها ، كما سبق وأن أوضحنا أوجهاً من ذلك فيما سبق^(٥٧) ، وهي وإن كانت لا تزال قضية جdaleية إلا أن ما أشرنا إليه وما هو مشاهد على أرض الواقع يدعم ما ذهبنا إليه من آراء ، ولا تخلو الحضارة الغربية نفسها من بعض الأصوات التي تذهب إلى ذات ما أوردناه وتنادى بضرورة تصحيح الوضع تفاديًّا للإنهاصار المحتمل إن سارت الأمور على ما هي عليه.

وثانياً إن المطالبة بارجاء تطبيق الحدود في المجتمعات الإسلامية في أحسن الأحوال أو صرف النظر عنها في كثير من الأحيان إنما يجعل مدخله إلى ذلك عبر ما هو حادث الآن في الساحة السياسية العربية والتي يغلب عليها توظيف الدين من أجل الكسب السياسي في برامجاتية واضحة لا يختلف عليها إثنان ، يقول محمد عابد الجابري : "إن التطرف في الإسلام كان دائمًا نوعاً من التعبير عن موقف سياسي معين.. كانت الحركات الغالية المتطرفة القديمة تمارس التطرف والغلو على مستوى العقيدة ، أما الحركات المتطرفة المعاصرة فهي تمارسه على مستوى الشريعة ، لم يكن الخوارج ولا الحركات الباطنية بمختلف تيارتها وأصنافها تطرح مسألة "تطبيق الشريعة" ولا كانت تتخذ منها شعاراً لها ، بل لقد كانت جميع شعاراتها تقع على مستوى "العقيدة" العلاقة بين ذات الله وصفاته ، الجبر والإختيار ، العدل الإلهي ، كيفية الخلق ، الخ .. فالسياسة تمارس اليوم في الدين على مستوى الشريعة ، لا على مستوى العقيدة. ويكفي أن نذكر هنا بالشعار الذي ترفعه هذه الحركات ، شعار "تطبيق الشريعة الإسلامية" لندرك المجال الذي تمارس فيه السياسة. وهكذا ، فبدلاً من قضايا الجبر والإختيار والإيهان والكفر والتنزيه والتشبيه... الخ. ، التي كان يدور حولها النقاش قديماً وينقسم المتكلمون بشأنها إلى معتدلين ومتطرفين ، نجد اليوم قضايا أخرى تتصل بالشريعة والفقه ، مثل قطع يد

لقد صدق جمال الدين الأفغاني حين عد ذلك النوع من التمدن والرقي جهلاً محضاً ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش فالإنسان في ذلك أحاط من الحيوان.

أنظر في ذلك : زعماء الإصلاح في القرن الحديث : تأليف أحمد أمين - مطبعة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد وأولاده - الطبعة الخامسة - ١٩٨٩ م - ص. ١١٩.

السارق والربا والمحجوب... الخ. ، هي التي يدور النقاش فيها ويختلف الناس حول كيفية تطبيق الشريعة فيها ، وهذا يعني أن السياسة تمارس اليوم ، إسلامياً ، على مستوى الشريعة ، وليس على مستوى العقيدة ، كما كان الشأن في الماضي ”^(٥٨)“.

إن الاختلاف هنا ينبع عن السياسة وليس الدين ، ولذلك يوصف هذا التيار بإسم الإسلام السياسي Political Islam تمييزاً له عن غيره من التيارات الأخرى التي يحتويها الإسلام ”السنوي“ على وجه الخصوص كالتصوف والإسلام التقليدي.

الباحث الرابع

الإسلام والسياسة ”التقاطعات والتباينات“

إن الدعوة لتحكيم الإسلام في غالب المجتمعات العربية تظل شعارات فضفاضة لا تحتوي على برامج محددة يمكن الاحتكام إليها ، وبينما نجد أن الدعوات النظرية تحمل كثيراً من التوهج في الإلتزام بها شرعاً الله ”العدل والإحسان“ إلا أن واقع الممارسة العملية يقف على التقىض من ذلك ، ولو أخذنا دولة السودان كنموذج فإن من السهل إثبات ذلك كما نجد مثلاً في قول حسن الترابي ”^(٥٩)“ ففي سبيل التوبة إلى رشد الإسلام المتكامل وتغيير الواقع المنقوص الدين تجحب الدعوة ، فيها تذكير بأن الإيمان التوحيدى تمامه إسلام السلطان الله ..“^(٦٠).

ومن المؤكد أن هذا الحديث لو تم الإلتزام به في الواقع العملي لعنى الكثير بالنسبة للإسلام والمسلمين ولغير المسلمين أيضاً ؛ إذ هو سيُبرز الوجه الحقيقى لعدالة الإسلام الحقة مع الملتزمين به ومن هم على خلاف معتقده أيضاً ! ولكن ما أوسع الفجوة بين القول والفعل.

^(٥٨) أنظر في ذلك : الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : مرجع سابق - ص ١٥٢ - ١٥٣ .
بتصرف.

^(٥٩) وهو عَرَابٌ ومؤسس إنقلاب ١٩٨٩م الحاكم في السودان حتى الآن ”بكل تجاوزاته التي ما فتئ يذكر بعضاً منها ويعترف بها طوعاً لا كرهاً“ .

^(٦٠) السياسة والحكم ”النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع“ : مرجع سابق - ص ٧٦ - ٧٧ .

والكاتب نفسه على أى حال يقرر فشل الشعارات الفضفاضة " كشعار الإسلام وحسب " والتى لا تحتوى على مذهب ومنهاج وسياسة للأمر العام.^(٦١) وهو أمر سبق وأن ناقشه وتحدث فيه كتاب ومفكرون كثُر في العالم العربي "أنظر فرج فودة على سبيل المثال في " قبل السقوط " وفي " الحقيقة الغائبة " وفي كثير من كتاباته الأخرى " غير أن صدر المنادين بهذه الشعارات آنذاك لم يتسع لقبول الأمر ! . وتناوله أيضاً رضوان السيد في معرض تساؤله حول الخلاف بين الوطنيين " الحركة الوطنية " والإسلاميين وهل هو يدور حول إنشاء " الدولة الحديثة " ؟ ويجيب بنعم ولا : " .. صحيح أن الإسلاميين يملكون تصوراً مختلفاً عن الدولة والحداثة ، لكن وصولهم للسلطة كان سيرغمهم على مواجهة مسألة مشروع الدولة في العالم المعاصر. المسألة كانت في نظرى صراغاً على السلطة أو بعبارة أدق على من ينشئ هذه الدولة بعد الإستقلال. وكان طبيعياً أن يتتصر " الوطنيون " على الإسلاميين ، لأن " الكونية الغربية " السائدة في العالم لا تسمح تحت أى ظرف بتصور آخر لمنظومة مختلفة. بل إن هذه المنظومة التي عرضها الإسلاميون بدت وهماً من الأوهام. كانوا يدعون وما يزالون لتطبيق الشريعة ، لكن ما هي الشريعة التي يريدون تطبيقها ؟ .. هل هي الحدود ؟ إذا كان الأمر كذلك فقد طبقتها دول إسلامية كثيرة وما يزال شبانها ساخطين. إنهم يقولون إن التصور ينبغي أن يكون إسلامياً من أفقه إلى يائه. لكن عندما ارتفعت مطالبة الوطنيين للإسلاميين بإيصال برامجهم التطبيقى أو العملى رد عليهم سيد قطب بأن هذا فخ لا ينبغي أن يقع الإسلاميون فيه. إن تصورهم إلهي ، فإذا استلموا السلطة بدت معاله. أما قبل ذلك فالمطالبة به لا تتعدى الإحراج ونصب الشباك. ثم إن الوطنيين لم يفعلوا غير نقل ترافق من هنا وهناك في صورة برنامج استعاروه غالباً بعد وصولهم إلى السلطة - فلماذا يطالب الإسلاميون بما لم يطالب به الوطنيون أنفسهم ؟ لكن يمكن الرد على هذه الحجة بأن الإسلاميين يقولون إنهم يملكون نظاماً كاملاً لا يدعه حتى الوطنيون - والكمال يقتضى الظهور والتحدد " .^(٦٢)

السياسة والحكم "النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع" ، ص. ٢١٢ .^(٦١)

الإسلام المعاصر "نظارات في الحاضر والمستقبل" : مرجع سابق - ص. ٢٧ .^(٦٢)

ولكن هل هذا المدخل وحده كافٍ لتبرير هذه الدعوة.. إن قوله الحق إذا أريد بها باطلًا فإنها تظل حقًا على الدوام ولا يصيبها من الباطل شيء وإنما يصيب من تكسب بها وإرتفق.. إن الأوفق في تقدير الباحث هو التسليم والتأكيد على ضرورة وإلحاح الحاجة لتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية من زاوية صلاحتها وكماها لكل زمان ومكان مع الفصل بينها وبين من يتکسب بها من واقع التطبيق المشوه الذي نتج عن ذلك ، ومناهضة وفضح أنظمة الحكم الفاسدة التي تهيمن على العالم الإسلامي بشكل عام - والعربي منه على وجه الخصوص - إن لجوء كثير من الأنظمة والجماعات لرفع لافتة تطبيق الشريعة الإسلامية إنما ينبع من إدراكتها لحاجة المجتمع إليها أكثر من القوانين الوضعية والتي لا تحفظ حقًا ولا تردع مجرماً إلا لاماً ، وهو في الآن نفسه يدل على فقدان الثقة في الأوضاع القائمة من جميع النواحي السياسية والقانونية من قبل غالبية المجتمع ، وفي كل الحالات فإن هذه الدعوة لا تُعبر في الغالب عن الرغبة الحقيقة من قبل الداعين إليها في تطبيقها فهي لا تدعو أن تكون وسيلة لغاية سياسية^(٣٣) ، إذ أنها وفي حال تطبيقها على الوجه السليم فإنها ستطال أول ما تطال هؤلاء المفسدين أنفسهم سواء كان هذا الفساد سياسياً أو إجتماعياً أو اقتصادياً.

إن الخلاف بين الفقهاء المشهود لهم بصدق التوجه في تحرير وإستنباط الأحكام من النصوص الشرعية هو من أكبر الدلائل - في تقدير الباحث - على ضرورة اعتبار المقاصد والمصالح الكلية أساساً للحكم وهذا الخلاف قديم منشأه الخلاف في فهمهم للنصوص وإستنباط الأحكام منها متأثرين في ذلك بعوامل مختلفة أحاطت بهم ، وهذا ما يجعل الشريعة صالحة لكل زمان ومكان.^(٣٤)

^(٣٣) الحقيقة الغائية : مرجع سابق - ص. ١٤ بتصريف يشير إلى المضمون.

^(٣٤) أنظر في ذلك : الجرائم في الفقه الإسلامي ”دراسة فقهية مقارنة“ : د. أحمد فتحي بنسري - دار الشروق - الطبعة الخامسة ”مزيدة“ - ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م - بيروت - لبنان - ص.

٢١٩ بتصريف.

وحيث أن لكل أمر في الإسلام غاية ومقصد فقد لخص فقهاء الشريعة الإسلامية المعاصرون ذلك في تعريفهم لمفاهيم الشريعة بقولهم هي : " الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها " ، وهي أيضاً " المعانى والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها " . وتمثل محسنات الشريعة الإسلامية في مفاهيمها فقاعدة المفاهيم هي " سر الأوامر والنواهي " في الإسلام . والأصل في التشريع هو مفاهيمه ، ولذلك ينبغي أن تأتي النصوص تابعة لمفاهيمها .^(٦٥)

إن المثير حقاً ليس قطع يد السارق وإنما شيوخ السرقة في المجتمع بما يؤدي إلى تقويض أُسُسِه ، وليس المثير في نظرنا رجم الزاني وإنما شيوخ الفاحشة والتهتك ونمو ظاهرة الأطفال مجهولين الأبوين أو أحد هما على الأقل في المجتمع يوصف " بالتطور " إن القصاص من الجاني ليس فعلاً وحشياً كما يدعى ذلك الرافضيون لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بل غاية الوحشية تكمن في إغفال حق الضحية والمجتمع في العيش بسلام وأمان وهو مقصود الشارع في الحدود .

إن التجديد ليس مطلباً في حد ذاته ... بل ما يلبي حاجة المجتمع للإستقرار والأمن هو المطلب الأول والأخير وإن تحقق هذا المطلب بوسائل حتى وإن لم تكن في صلب التشريعات الإسلامية إبتداءً - قول الكاتب في قطع اليد - أو في الرجم لدى اليهود فهو من أكبر الدلائل على أن الهدف هو ما يتحقق صالح الجماعة أو المجتمع ككل ويحفظ له أمنه وإستقراره أيًّا كان مصدر التشريع فالرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم مأمور بإباحة كل ما لم يحرّم حلالاً أو يحل حراماً : ﴿خُذِ الْعَوْنَوْنَ أَمْرُ بِالْعُرْفِ وَأَغْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

أنظر في ذلك : المفاهيم الشرعية للعقوبات في الإسلام " بيان المفاهيم وتطبيقاتها وآثارها والشبهات التي أثيرت حولها ومقارنتها بمقاصد القوانين الوضعية قبل الإسلام وبعده " : د. حسني الجندي - دار النهضة العربية - الطبعة الأولى - ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م - القاهرة - مصر - ص. ٧٦ .^(٦٥)

خاتمة ووصيات :

نحن نحيا الآن ومنذ أمد بعيد في ظل قوانين وتشريعات ومفاهيم لا تُمْتَّ للإسلام بصلة في غالب الأحيان^(٦٦) فهل أكَّدت التجربة المعاشرة على إمكان تحقيق السلم والأمان عبر هذه التشريعات والقوانين ؟ إن تفشي المظالم وإزدياد الجرائم وإنعدام الإحساس بالأمن والعدالة وغياب قيم الحريات والمشاركة السياسية هو الشعور السائد الآن وهو واقع يفرض اللجوء للأخذ بخيار تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية – بما فيها العقوبات الحدية – كأمر لا مناص عنه ، إن الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية بالنسبة للمسلم فرض في حد ذاته ولا يحتاج لأن يُعَضَّد بآى فرضية أخرى ، ولكن التعبير هنا مجازى للدلالة على أنه إذا قَصُرَ فهم المسلمين اليوم عن إدراك هذا الأمر فإن إلحاح الواقع كفيل بفرضه قسراً ، إن الله غنى عن العالمين فلا ينفعه تطبيق أحد للشريعة ولا يضره غير ذلك ولكن أحكام التشريع تهدف فقط لحفظ سلامة كيان الفرد عبر وقایة المجتمع من شیوع الفواحش والبغى ؛ ولا يكون ذلك إلا بإجتناب محارم الله فإن حمى الله في أرضه محارمه^(٦٧).

لقد عرضنا لقضية ”الاجتهد“ من عدة زوايا إستعرضنا فيها آراء لفلكرين وكتاب من مدارس عدة وتوجهات متباعدة.. وعرضنا فيها آراء خاصة بنا وكلنا مجتهد يستهدف الصالح العام فلا تخوين هنا ولا تكفير هناك ولا تفتيش عن الضمائر.. بل حجج وأدلة وبرهان في كلا الطرفين وهذا هو الحوار الحر المنفتح الحضاري ولا بد أن يخرج من مثل هذا

لا يعني هذا بالطبع أن كل القوانين مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية ومثل هذا القول هو محض إستغلال سياسي لشعار الإسلام وهو ما لا يلزمنا في هذا المقام إبتداءً ، ولكننا نعني تحديداً أن أحكام الشريعة الإسلامية غير مطبقة بالكامل في معظم الدول الإسلامية ، وما هو مطْبَق منها في البقية لا يعني سوى بالجوانب العقابية فقط ويهمل ما عاده ، وليس ثمة شيء – إلى جانب تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كاملة – يمنع الإبقاء على كل التشريعات الوضعية التي لا تخالف نصوص الشريعة الإسلامية أو روح ما تنطوي عليه من مصالح تهدف لحفظ إستقرار المجتمع وإستباب أمنه فما يستجد من أمور الإجتماع المدنى في غير ما نصت عليه أحكام الشريعة الإسلامية يلزمها وضع ما يناسبه من تشريعات.

صحيح أبي عبد الله البخاري ”بحاشية السندي“ : مرجع سابق – المجلد الأول – الجزء الأول – ص. ١٩ .

- النقاش ما يفيد الناس وفي النهاية فالحكم لهم قبولاً أو رفضاً.. إستحساناً أو إستهجاناً وسائل الله التوفيق والسداد لنا ولسوانا ومن ثم يمكن أن نخلص لجملة من التوصيات أهمها :
- ♦ إعادة التأكيد على الثوابت " ما هو قطعي الثبوت ما هو قطعي الدلالة "، بعد تحديدها بشكل دقيق وهو ما لا يلزم فيه رأي أو اجتهد ، والثوابت قليلة غير كثيرة.
 - ♦ ضرورة تسلیط الضوء على كثير من المفاهيم والمصطلحات الواردة في التراث الفقهي وإعادة تفكيكها لاستخراج رؤى جديدة... على سبيل المثال ماذا يعني بمصطلحات من قبل "النص ، الجهد ، الاجتهد ، الشريعة ، الحدود ، المعلوم من الدين بالضرورة ، الإسلام دين ودولة... إلخ".
 - ♦ ترسیخ مفهوم أن الإختلاف في الفروع لا يعد مدخلاً للتكفير وإنما هو من باب الاجتهد ، والأجر لكل من المصيб والمخطئ مقطوع به.
 - ♦ الحكم على الأفكار لا يكون إلا بالأفكار ، والحكم على الرأى لا يكون إلا بالرأى والحكم على الكتاب لا يكون إلا بالكتاب.. وذلك كله ضمن دائرة الصواب والخطأ وليس دائرة الحلال والحرام أو التكفير.
 - ♦ توضیح وتأكيد أن التطرف لا يرتبط بدين ولا طائفة ولا عرقية محددة وإنما بسلوك متممین - في غالب الأحيان - لهذه الإتجاهات.
 - ♦ التنبیه إلى أن التطرف في بعض جوانب التفكير الديني ينبع عنه بالضرورة تطرف مضاد معاكس له في التوجه ينحو إلى رفض الدين جملةً أو في أخف صوره رفض بعض قطعياته التي لا خلاف حولها.
 - ♦ التنبیه على أهمية عنصري الضبط والتجدد.. ضبط الخطاب الديني وتجدد الفكر الديني.
 - ♦ تبني الروح النقدية في تناول الأفكار ومناقشتها في حد ذاتها بعيداً عن شخصية الكاتب أو التشكيك في النوايا فلنا الظاهر والله يتولى السرائر.

هوامش ومراجع الورقة :

القرآن الكريم.

- (١) الإسلام المعاصر ”نظارات في الحاضر والمستقبل“ : د. رضوان السيد - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م - دار العلوم العربية - بيروت - لبنان.
- (٢) الإحکام في أصول الأحكام : ”تصنيف الإمام الجليل المحدث الفقيه فخر الأندلس أبي محمد على بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ“ - قدم له الأستاذ الدكتور / إحسان عباس - المجلد الثاني [٥-٨] - الطبعة الأولى ١٤٩٩هـ / ١٩٨٠م - الجزء السابع - منشورات دار الآفاق الجديدة.
- (٣) الدين والدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية : د. محمد عابد الجابري - مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة الثقافة القومية [٢٩] - قضايا الفكر العربي.
- (٤) الحقيقة الغائبة : د. فرج فودة - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - كتاب الفكر [١٠] - الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٨م - القاهرة - مصر.
- (٥) الإسلام السياسي في الميزان ”والبديل : الإسلام المتكامل وملحق به بحث عن : نحو إيديولوجية عربية إسلامية“ : د. محمد على أبو ريان - دار المعرفة الجامعية - ١٩٩٧ - دون تحديد لعدد الطبعات.
- (٦) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : الإمام / محمد أبو زهرة - دار الفكر - دون تحديد لعدد الطبعات أو تاريخ النشر.
- (٧) ”العُدْة“ شرح العُدْة في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه : تأليف بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي - دون تحديد لعدد الطبعات أو دار وسنة النشر.
- (٨) القرآن الكريم ”وبالهامش زبدة التفسير من فتح القدير“ : ”وهو مختصر من تفسير الإمام الشوكاني المسمى فتح القدير الجامع بين فني الدراسة والرواية من علم التفسير“ : محمد سليمان عبد الله الأشقر - الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م - دولة الكويت - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- (٩) أصول الأحكام الشرعية : د. يوسف قاسم - دار النهضة العربية - مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي - الطبعة الثانية ١٤١١هـ / ١٩٩١م - القاهرة - مصر - ص. ٣٧٠.

- (١٠) البدنية في الفقه الإسلامي "دستوريتها وعلاقتها بالدفاع الشرعي" : د. الحسيني سليمان جاد - دار الشروق - الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م - القاهرة - مصر.
- (١١) الإسلام والرأي الآخر "تجربة الإمام علي نموذجاً" : حسن السعيد - قضايا إسلامية معاصرة - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م - مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد بالتعاون مع دار الهادى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- (١٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٥هـ وبهامشه شرح الشيخ أحمد بن قاسم العبادى الشافعى على : شرح جلال الدين محمد بن أحمد المحلى الشافعى على : "الورقات في الأصول" لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعى المتوفي سنة ٤٧٨هـ - الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م - مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده - القاهرة - مصر.
- (١٣) السياسة والحكم "النظم السلطانية بين الأصول وسُنن الواقع" : د. حسن عبدالله الترابي - دار الساقى - الطبعة الأولى ٢٠٠٣ - بيروت - لبنان.
- (١٤) محاضرات في الفقه المقارن "مع مقدمة في بيان أسباب اختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن" : د. محمد سعيد رمضان البوطي - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م - دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان.
- (١٥) اختلاف أصول المذاهب : للقاضى النعيم بن محمد [٢٥٩-٢٣٥١هـ] - تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب - دار الأندرس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - دون تحديد لعدد الطبعات.
- (١٦) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : الإمام / محمد أبو زهرة - دار الفكر - دون تحديد لعدد الطبعات أو تاريخ النشر.
- (١٧) المواقف في أصول الشريعة "لأبي إسحق الشاطبى" : تحقيق محمد عبد القادر الفاضل - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - الجزء الأول ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م - بدون تحديد لعدد الطبعات - صيدا - بيروت
- (١٨) الجرائم في الفقه الإسلامي "دراسة فقهية مقارنة" : دكتور. أحمد فتحى بهنسى - دار الشروق - الطبعة الخامسة "مزيدة" - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - بيروت - لبنان.

- (١٩) المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام ”بيان المقاصد وتطبيقاتها وآثارها والشبهات التي أثيرة حولها ومقارنتها بمقاصد القوانين الوضعية قبل الإسلام وبعده“ : د. حسني الجندي - دار النهضة العربية - الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م - القاهرة - مصر.
- (٢٠) الصِّحَاحُ ”تَاجُ الْلُّغَةِ وصَحَاحُ الْعَرَبِيَّةِ“ : تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أ. عبد الغفور عطار - المجلدين الأول والثاني - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م [١٤٠٢هـ-١٩٨٢م] على نفقة المحسن معالي السيد / حسن عباس الشربتي - القاهرة - جمهورية مصر العربية.
- (٢١) المسند : أحمد بن محمد بن حنبل - تحقيق عيسى القلندي - مؤسسة الرسالة - دون تحديد لبلد الطبع - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م - الجزء التاسع والعشرون.
- (٢٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : تأليف الإمام المحدث سلطان العلماء أبي محمد عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام السلمي ، المتوفى سنة ٦٦٠هـ - ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن [١-٢] - منشورات محمد على بيضون - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م - بيروت - لبنان.
- (٢٣) موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي: د. أحمد فتحي بنسى - دار الشروق - الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - بيروت - لبنان.
- (٢٤) تثوير القرآن : جمال البنا - ”الإحياء“ دار الفكر الإسلامي - دون إشارة لعدد الطبعات أو تاريخ النشر - القاهرة - مصر.
- (٢٥) منهل الواردين ”شرح رياض الصالحين“ : للإمام النووي الحافظ محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف [المتوفى سنة ٦٧٦هـ] - ضبط الأصل - ووضع الشرح - ووضع الفهارس د. صبحي الصالح أستاذ الإسلامية وفقه اللغة في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الرابعة - كانون الثاني [يناير] ١٩٧٧م.
- (٢٦) في أصول النظام الجنائي الإسلامي ”دراسة مقارنة“ : د. محمد سليم العوا - دار المعارف - الطبعة الثانية ”مزيلة ومنقحة“ مايو ١٩٨٣م - القاهرة - مصر.

- (٢٧) محاضرات في الفقه المقارن "مع مقدمة في بيان أسباب اختلاف الفقهاء وأهمية دراسة الفقه المقارن" : ٧٩ / محاضرات في الفقه المقارن ، د. محمد سعيد رمضان البوطي - الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م - دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان.
- (٢٨) علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف - دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثانية عشرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٧ م ، الكويت.
- (٢٩) ظاهرة الفساد : د. ناصر عبيد الناصر - كتاب المدى [٥] - رئيس التحرير فخرى كريم - دار المدى للثقافة والنشر ٢٠٠٢ م - دمشق - سوريا.
- (٣٠) سنن الترمذى : محمد بن عيسى الترمذى - تحقيق أحمد شاكر - مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده - دون إشارة لعدد الطبعات - ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م - الجزء الرابع.
- (٣١) رسالة الخلود أو "جاويد نامه" للشاعر والمفكر الإسلامي الكبير محمد إقبال : ترجمتها وشرحها وعلق عليها د. محمد السعيد جمال الدين - مؤسسة سجل العرب - القاهرة - مصر [١٩٧٤] بدون تحديد لعدد الطبعات.
- (٣٢) صحيح أبي عبد الله البخارى "بحاشية السندي" : للعلامة المدقق أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى - مطبعة دار إحياء الكتب العربية "عيسى البابى الحلبي وشريكاه" - دار التراث العربى "ميدان الشهد الحسينى" - القاهرة - مصر.
- (٣٣) رد المحتار على الدر المختار : حاشية ابن عابدين على شرح الشيخ علاء الدين محمد بن على المصفى لكتبه "تنوير الأ بصار" للشيخ شمس الدين التمرتاشى ومعه تقريرات الرافعى وضفت في الهاشم زباده في المنفعة - تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م - بيروت - لبنان.

* أخرى :

- (٣٤) مجلة الاجتهاد : "مجلة متخصصة تُعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجدد العربي الاسلامى" : رئيسا التحرير الفضل شلق ورضاون السيد - مدير التحرير المسؤول محمد السماك - تصدر عن دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر - بيروت - لبنان.

الطبعة الأولى

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ - ٢٠١٦ م

التطرف الديني : في التوصيف والتصنيف والنماذج

د. قيصر موسى الزين

جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٠١ - ١٢٢)

المستخلص :

اهتمت هذه الورقة البحثية بظاهرة ما يعرف بـ "التطرف الديني" ، وهو مصطلح يكثر استخدامه اليوم في الاعلام والصراع ، بشكل اخرجه عن المدلول العلمي المنضبط. وقد اوضحت الورقة ان مصطلح التطرف الديني يمثل دائماً مفهوماً نسبياً ، وتعتمد فحوه على منظور وتوجه المستخدمين له. وكذلك على ملابسات وسياق استخدامه. وقد حاولت الورقة استعراض المعاني المختلفة لمصطلح التطرف الديني من خلال محاولة تقديم نظرية تصنيف ، تعتمد على التفرقة بين ما هو مرتبط او غير مرتبط بالعنف من اشكال التطرف.

اختارت الورقة نموذجين بهدف ربط اتجاههما النظري بأرض الواقع ، وهما : الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وتفريعاتها المعاصرة وحركة الجهاد التي انطلقت من مصر في ستينيات القرن العشرين - وذلك على أساس ان الكثيرين يعتبرون هذين النموذجين من مظان التطرف الديني في عالم اليوم. وقد حاولت الورقة تجنب اصدار الاحكام القيمية الذاتية على الظواهر التي عالجتها ، وبالرغم من ذلك فقد اشارت على نحو موجز إلى بعض طرق مكافحة الجوانب السلبية في ظاهرة ما يعرف بـ "التطرف الديني".

Abstract:

Title : Religious Extremism, Description, Classification and Models
This research paper is about the so-called religious extremism, which is a current term, greatly abused by media and used in a political sense in different types of conflict. The paper explained that, this term always has a relative meaning, depends on both the perspective of the users and the surrounding circumstances. The paper tried to demonstrate the different meanings of the term through an attempt of classification that distinguished basically types of extremism related with violence from types not related with violence.

The paper selected, for the purpose of applying its theoretical aspects on reality, two cases-considered by many as sources of both "extremist thought" and "extremist action". These models –as the paper explained –are the "Wahabi Movement in the Arabian peninsula and its sub branches in the present, and the "Jihad Movement" that started in Egypt since 1960s. The paper tried to avoid subjective value judgments in this context. In spite of this it dealt briefly with the possible ways of handlings what it considered negative aspects in the religious extremism.

مقدمة : موضوع ومنهج الدراسة :

تسعى هذه الدراسة إلى القاء بعض الضوء على معانٍ ومفاهيم ما يعرف بـ ”الطرف“، وذلك بهدف تحقيق انضباط وتدقيق مفاهيم في تناول قضايا احدث فيها التناول الاعلامي كثيرا من التشویش الذي لا تقبله النظرة الموضوعية الاكاديمية ، التي تهتم اولا بالتعرف على ”الظواهر“ كما هي في الواقع وفهم علاقتها ، وذلك للوصول إلى تشخيص أقرب إلى الصحة للمشاكل والأزمات- سواء كانت فكرية او عملية ، ثم محاولة تلمس الطرق لمعالجتها وحلها. وتهتم الدراسة في هذا السياق بوجه خاص بـ ”الطرف الديني“ ، الذي لا يمكن عزله - وان امكن تمييزه - عن ظاهرة ”الطرف“ بوجه عام. وتركز الدراسة في توضيحها لمفاهيم ”الطرف الديني“ على انواع هذا ”الطرف“ في سياق العالم الاسلامي. وهي تدرج في ذلك ، من حيث التركيز - من المعانٍ والمعالجات العامة إلى النماذج - التي تأتي كأمثلة- وتركز اكثرا على نموذجين مثليين لاثنتين من بين اهم المدارس الفكرية في العالم الاسلامي - هما ”السلفية الوهابية“ ، التي اثرت على صياغتها بيئه الجزيرة العربية ، خاصة في نجد ، والحركة الجهادية ذات المرتكز السنوي العام ، التي انطلقت اساسا من البيئة المصرية. وتبحث في حالة ”السلفية الوهابية“ في فكر محمد بن عبد الوهاب وفي حالة الحركة الجهادية ذات المنطلق المصري ، تشير إلى بعض النصوص التي كتبها الاستاذ سيد قطب.

تقوم منهجية^(١) الدراسة على مبدأ ”الموضوعية النسبية“ التي تحاول الابتعاد عن التداخل بين الرؤية الذاتية للباحث وبين ما يقتضيه منهج البحث العلمي من اعتماد التقسي والوصف للظواهر الفكرية والاجتماعية الموجودة في الواقع ، بعيدا عن تلوينها او ادراجها في إسار الشعارات ذات الطابع الصراعي او السياسي بين الفرقاء المعينين هنا ، كذلك الابتعاد عن التزععات الاعلامية او النزارات ذات الطابع الاحادي الذي يعمي عن رؤية مختلف الابعاد والاحتلالات.

بشأن مصادر البحث فهي أساساً أدبيات حوتها بعض الكتب والدراسات ذات الصلة. وقد تم استخدامها هنا اما باعتبار أنها تمثل موضوعاً أساسياً للدراسة او لأغراض التوثيق او لهدف الاشارة إلى موضع المزيد من المعلومات عن الموضوع.

مفاهيم أساسية

(أ) التطرف : منظور انساني عام :

يتصل المدلول اللغوي لكلمة ”التطرف“ بمفهوم ”الطرف“ ، وهو يعني عادةً ابعد موضع من ”الوسط“ . ويمكن نقل المقصود هنا من المستوى المكاني - الفراغي ، الخاص بالأبعاد المادية الثلاثة ، إلى المستوى المعنوي . ومن هنا يمكن القول : ان ”التطرف“ يعني الذهاب إلى أبعد خانة من الوسط ”وهي الطرف“ . ويعني ”الوسط“ متصف الطريق بين الطرفين . ويصبح بذلك ”المتطرف“ هو من يتخد موقع الطرف في أي قضية . وقد تطورت استخدامات هذا المصطلح وتضمنت جملة من الصفات مثل ”التعصب“ ، ”التعسف“ ، ”عمى البصيرة“ ، ”البعد عن المرونة والتسامح والاعتدال“ . وبسبب الطابع السلبي لهذه الصفات فقد اخذ استخدام كلمة

”التطرف“ منحى وظيفياً في الحرب الإعلامية بين الخصوم ، وقد يكون هؤلاء الخصوم دولاً أو مجموعات أو حتى أفراداً - مثل ما في حالة العلاقات الأساسية بين الاب والابن ، الاخ والأخت ، الزوج والزوجة ”المرأة والرجل بوجه عام“ . ومن بين أفضل نماذج التدليل على هذه الناحية ، هو ما عبرت عنه الأساطير الإنسانية - وهي ابداع فني جماعي يعبر عن طريق الرمزية عن تجارب ومعاني اساسية ، قاعدة في التكوين الإنساني . من ذلك أن الأساطير ذات الجذور التوراتية - وقد تحولت إلى تراث انساني عام - أضافت إلى قصة ابن آدم بعداً لم يذكره القرآن الكريم ، كما لم تذكره التوراة الرسمية ، فذهبت إلى أن قابيل قد قتل هابيل بسبب الصراع حول إمرأة . وهذا وضع تطرف واضح - حتى أنه ورد في القصة القرآنية ، أن ابن آدم القاتل تعجب من نفسه متفسراً كيف سولت له نفسه قتل أخيه وكيف أنه تعلم من الغراب كيف يواري سوعته ، ومن جوانب الرمزية الأساسية هنا أن ابن آدم هذا يمثل ”الإنسانية“ . وهذا يعني أن ”التطرف“ مركوز ”في الطبيعة الإنسانية . وهو هنا من أخطر أنواع التطرف ، ذلك المرتبط بـ ”العنف الجسدي“ ”الهمجية“ . والقتل هو

جوهر الحرب التي كثيراً ما تكون عدوانية والتي لم تمنعها حتى اليوم القوانين الدولية السائدة حتى في أعلى مستوياتها "العدوانية" واكتفت بمحاولة جعلها أكثر انسانية !!

اذا اخذنا مثلاً اخر من الأساطير ، لا علاقة له بالعالم "العربي" او "الإسلامي" ، وهو قصة "ميديا" الاغريقية ، نجد في هذه القصة أن جاسون - وهو ملك اغريقى - تزوج ميديا بعد عشق وحب عميق ، وكانت مراسم احتفالات العرس اسطورية. وأنجب منها ثلاثة بنات ، وبعد اربعة عشر عاماً تزوج بأمرأة أخرى. وكانت ردة فعل "ميديا" أنها قتلت بناتها الثلاثة. ويمثل ذلك واحداً من أقوى درجات التطرف الإنساني. وتحليل هذه الأسطورة يدل على أنها "نموذج" إنساني / شعوري / سلوكي. قد يحدث في الواقع اليومي في أي مكان وفي داخل أي ثقافة. وفي الغالب يكون "القتل" رمزاً - ومع ذلك يكون في حالات نادرة واقعياً. وهذا نفسه هو حال قصة هابيل وقابيل ، كلما دار صراع بين رجلين حول امرأة.

ومن غير شك ان التطرف الجماعي في كثير من نماذجه الكبرى لم يكن مرتبطاً بصورة مباشرة بـ "الدين". ومن اشكاله التاريخية الحقيقة ، التي قد تبدو وكأنها اساطير ، المجازر التي أقامها المغول والتتار ، وكذلك حالة المانيا النازية وزعيمها هتلر ، الذي قتل عشرات الملايين من البشر ، في فترة زمنية تقل عن العشرة اعوام لأسباب ودوافع غير معقولة ، بالنسبة لأي تفكير موضوعي. والسؤال الأساسي هنا هو : اذا كان هتلر مخولاً بما هو عذر الشعب الألماني ؟ والسؤال الآخر ، الذي يرد منطقياً هنا ، لماذا لم تكن نهاية المانيا النازية وزعيمها هتلر نهاية لـ "جوهر النازية" ، التي تتزايد اشكال التعبير عنها في عالم اليوم ؟ والواقع ان النازية كانت إلى حد بعيد تعبيراً عن تيار فلسفي تمثل في فلسفة نيشه وغيره في السياق الأوروبي ، وله مشابهات في سياقات فلسفية أخرى غير أوروبية.

لابد هنا من توكيد حقيقة انه يصعب دمغ حضارات او ثقافات او شعوب بعينها او فترات تاريخية او نطاقات جغرافية - ثقافية بعينها بأنها "متطرفة" بوجه مطلق. وفي نفس الوقت لا يمكن اتهام "الطبيعة الإنسانية" مطلقاً بالterrorism. ذلك لأن كل درجات "الterrorism" و"الإعدام" توجد في الحالات الإنسانية جميعاً. وسيشير التحليل في هذه الدراسة إلى ان ما يعرف بـ "الterrorism" يمثل قضية جدلية معقدة ، يتأثر الحكم القيمي فيها بالمنظور النسبي وكذلك بالملابسات الموضوعية.

(ب) مدخل تصنيفي عام :

قبل تناول ”التطرف الديني“ لابد من التعرض لتصنيف اشكال ما يمكن أن يدخل في دائرة ”التطرف“. ولا بد هنا من توضيح ان موضوع ”التصنيف“ ليس مجرد جانب شكلي او اجرائي فقط بل هو موضوع معقد ، يمكن ان يؤدى بالبحث العلمي إلى الانزلاق خارج دائرة ”العلمية“ و ”الموضوعية“ ، وذلك لما يتضمنه احيانا من مواقف مسبقة او قبلية ذات طابع ”ايديولوجي“ . وحتى في حالة توخي الحذر الاكاديمي فان اي محاولة تصنيف تحمل عادة ابعاد النظرية ، التي ينبغي ان تقبل الرؤى النقدية ان اراد البحث ان يكون موضوعيا. ولا بد ان يستصحب التصنيف لأنواع ”التطرف“ هنا مصطلحات ومفاهيم ذات صلة : مثل ”العنف“ ، ”الوظيفية“ ، الايديولوجيا وغيرها.

يمكن القول عموما انه يمكن تقسيم ”التطرف“ إلى قسمين اساسيين : التطرف المرتبط بالعنف والآخر غير المرتبط بالعنف. ولمفهوم ”العنف“ هنا اشكال عديدة ، مثل : العنف الجسدي ”الدموي“ ، والعنف اللغطي ، والعنف المشهدي ”القائم على عرض مشاهد العنف الجسدي في الاعلام المرئي“ – وفي تصنيف هذه الدراسة يقع العنف الجسدي وحده في اطار التطرف المرتبط بالعنف. وهناك اشكال من العنف المشروع – في الحالات الفردية والجماعية – مثل تنفيذ القانون العادل في حالة ”القصاص“ وما اليها. ومن اشكال ”التطرف“ غير ذات الصلة بالعنف : التطرف الفكري ، والتطرف الشعوري ، غير المرتبطين بالفعل مباشرة مع انماها قد يؤديان في كثير من الحالات إلى العنف الفعلي. ويتضمن تصنيف وبحث هذه الاشكال عادة سؤال المشروعية الاخلاقية – وهي ترتبط بدورها احيانا بالمشروعية القانونية. ومن ذلك أن كلمة ”الإرهاب“ التي تستخدم اليوم كثيرا في الحرب الدعائية بين الخصوم باكثر المعاني سلبية ، ويقصد مستخدموها عادة دمغ اعدائهم بتهمة استخدام العنف الدموي ، او التهديد باستخدامه بطريقة غير اخلاقية وغير قانونية بينما يرى من يستخدمون هذا العنف أنهم يدافعون عن القيم النبيلة والاهداف السامية ضد الظلم. وهذا لا يرتبط بالجانب الديني فقط بل يشمل اتجاهات اخرى غير دينية ”علمانية“ ، مثل حالة ”العنف الثوري“ في الماضي ، او تلك التي ارتبطت بحركات التحرر الوطني في اسيا وافريقيا. وفي حالات الصراع الغربي الاسلامي المعاصر ، المتجلد في التاريخ كذلك ، نجد عامل صراع القيم فاعلا في تحديد الاختلاف حول المشروعية الاخلاقية في استخدام

”العنف“ عند كل من الطرفين. وهو صراع يقوم على مركبات حضارية ، وفي كثير من الأحيان على فكر اقصائي لا يرى صحيحاً غيره. ولابد هنا من تقرير وجود ”الطرف النسبي“ وهو يعني وجود درجات متفاوتة من الحدة والتصلب داخل كل نطاق حضاري او تيار فكري او جماعة كبيرة. وعادة ما يعتبر الأقل حدة وتصلباً أنفسهم من المعتدلين ، وتخالف وجهات النظر في الطرف الآخر ، المناوئ ، لهم في قبول وصف الاعتدال هذا – وذلك وفقاً لدرجة تطرفها او نسبيتها. ومن الأمثلة الواضحة هنا اختلاف الدوائر الغربية والإعلام المتصل بها في تصنيف حالة جماعة ”الإخوان المسلمين“ المصرية. هل تقع مع تنظيم ”القاعدة“ و ”تنظيم الدولة الإسلامية“ في صنف واحد ، أى صنف المجموعات الإرهابية ؟ أم تقع في صنف المعتدلين؟ وقد تم اعتبار واحد من القراء القادة الفكريين لهذه الجماعة ، هو الشيخ يوسف القرضاوي ، من الإرهابيين بواسطة النظام المصري الحاكم وصدر ضده حكم غيابي بالاعدام ، بالرغم من انه من رموز الوسطية والاعتدال بنظر كثيرين. ولابد هنا ، ليتضح المقصود ، من التفرقة بين بعد السياسي في ذلك الحكم والتصنيف ، وبين الموقف الفكري الثابت لبعض الفئات في مصر وغيرها ، من المتمين إلى النخب الليبرالية واليسارية ، التي ترى في الشيخ القرضاوي ومن يمثلهم متطرفين يدعمون بصورة مباشرة التيارات الإرهابية. وبالنسبة للتغيرات الفكرية الإسلامية فقد تأثرت بدورها بمفهوم النسبية في التصنيف وما يحده من غموض وبلبلة وإضعاف للجزم بشان وضع عناوين واضحة توضح درجات ”طرف“ من يعتبرونهم متطرفين من ”إسلاميين“.

حدث هذا في التاريخ بشأن ”الشيعة“ من منظور أهل السنة ، ظهر مصطلح ”الشيعة الغالية“ ، ويعني ذلك قدرًا من الاعتبار والشرعية لغيرهم من الشيعة – مما لا تراه بعض عناصر التيار السني السلفي. ويحدث هذا اليوم بين فصائل ”الإسلاميين“ المختلفة و منهم من يعتمد مبدأ التوسيع في ”التكفير“ – إلى حد ما – ويرى نفسه معتدلاً إزاء آخر يذهب إلى مدى أكبر مما يصله هو في إصدار أحكام ”التكفير“ بحق من يعلنون إسلامهم وينطئون بالشهادتين. وذلك على أساس كلامية جدلية مثيرة للاختلاف.^(٢)

^(٢) راجع بعض تفاصيل الاحتجاج الجدلي هنا في : حسن الهضيبي – دعوة لاقضاة.

لابد هنا من الاشارة العابرة إلى مداخل عديدة تتصل بالتصنيف العام ، مثل : العنف الفردي ضد الذات ، واعلى حالاته الانتحار. وهو عنف يمكن ان يتطور إلى عنف جماعي ، ويمكن تطوير مشروعية دينية او اخلاقية له واستخدامه وظيفيا في الحرب والإعداد للحرب. ويبدو هنا التداخل بين العنف ضد "الذات" والعنف ضد "الآخر" ، وبين العنف ضد "الذات" البسيط "كما هو في حالة الرياضة الفردية البدنية القاسية" والعنف الوظيفي "كما في الترويض النفسي - الجسدي القاسي في التدريب العسكري" .. وهكذا... وهناك "العنف الاجرامي" ، ويمكن تحويله إلى عنف وظيفي سياسي ذي مشروعية فكرية وأخلاقية بعد اعادة توجيهه من نفس منطلقاته النفسية.^(٣) وهذا يشير إلى نمط اخر من العنف وهو "العنف المؤدلج" وهو يرتبط بما يمكن تسميته ب "التطرف المؤدلج". يضاف إلى ذلك اشكال من التطرف والعنف تحتاج إلى دراسات مستقلة ، مثل عنف وتطرف الدولة.

(ج) التطرف الديني مدخل عام :

يمكن القول في البداية أن تعبير "التطرف الديني" يعني حكماً قيمياً يكونه طرف ما ، فرد أو مؤسسة أو غير ذلك ، إزاء طرف آخر. وليس بالضرورة أن يكون ذلك في سياق مواجهة أو عداء ، مع أنه غالباً ما يكون في هذا السياق ، والمدخل العلمي هنا لا بد أن يكون موضوعياً ، بعيداً عن المنطق الايديولوجي ، حتى توظيف هذه المعرفة لمن يشاء كيف يشاء. لظاهرة "التطرف الديني" أسماء عديدة – حتى في نطاق الثقافة واللغة الواحدة – وإذا بدأنا بالدائرة الإنسانية والعالمية العامة ، نجد في المفاهيم الغربية ، وهي ليس عالمية إلا بمعنى نسبي وخاص ، إن "التطرف الديني" يتصل بمفهوم تمثله الكلمة ذات ظلال ودلالات خاصة في المناخ الثقافي الغربي ، وهي الكلمة "الأصولية" ، وتقابلها في اللغة الانجليزية الكلمة^(٤) "Fundamentalism" هي الكلمة ترتبط في هذه اللغة بها هو جذري وأساس وقاعدي ورئيسي ، في الاستخدام العام.

^(٣) علي زيعور – التحليل النفسي ص ٣٩-١٦ ، وعن بعض الجوانب ذات الصلة : Jelle & Hall and Rychlak

^(٤) Flew, A-P. 128 & Houghton, Mifflin C. – Heritage Dictionary , P. 539

وفي السياق الديني الغربي المسيحي ، فهي تتصل بما يمكن تسميته بـ ” حرفة فهم الكتاب المقدس [The Bible] ” ، وذلك أحد التيارات القومية في المذهب البروتستانتي المسيحي ، وقد تم تعميم ذلك ليدل على كل الاتجاهات العادلة لما يمكن تسميته ” الليبرالية الدينية ” ، وهي تعني تحرير المفاهيم الدينية من القيود التقليدية والمرجعية الصارمة والسامح بحرية ومرونة التناول لهذه المفاهيم وحرية الوصول إلى نتائج مختلفة واحترام ذلك ، وقد أصبح هذا المفهوم العام جزءاً واحداً فقط من أجزاء عديدة متنوعة تشكل معنى ” التطرف الديني ” في الغرب.

ومن الأنواع الأخرى للتطرف الديني في العالم الغربي ما يرتبط بالعنف ويعني توظيف الحكم الديني في بناء منظمات تسمى ” إرهابية ” ، وهذا المعنى الأخير يسيطر على تصنيف الغرب لبعض التيارات الدينية في العالم الإسلامي وإذا كانت البروتستانتية قد مثلت في الغرب المسيحي في القرن ١٦م اتجاهًا متحررًا مقارنة بالكاثوليكية ، فإنها مع غيرها من التيارات الدينية المسيحية أصبحت تطرفاً دينياً إزاء حركات التنوير في القرن ١٨م في أوروبا – التي اعتبرت كل الفكر الديني معادياً للحرية الليبرالية ، وقد بلغ هذا الاتجاه قمته في الولايات المتحدة وغيرها ، في إطار ما عرف بـ ” العلمانية الإنسانية ” وهي تختلف عن العلمانية التي كانت مذهب الكنيسة البروتستانتية ، وكانت تعني فصل الكنيسة عن الدولة في الأدوار والوظائف وليس كما يشاع خطأً فصل الدين عن الدولة ، أما ” التنوير ” فيذهب بعيداً عن ذلك بارتكازه على مشروعية إجازة انكار وجود الإله أو ما يعرف بـ ” الإلحاد ” هذه المفاهيم والحركات الغربية انعكست على العالم الإسلامي وأحدثت بلبلة واضطراباً كبيراً في المفاهيم السياسية وغيرها وطلت الاتجاهات فكرية وسياسية عديدة ذات أهمية خاصة في تكيف معنى ” التطرف الديني ” وكيفية التعامل معه ، حدث هذا في إطار عمليات التحدث – التغريب ذات الطابع المزدوج ، والتي تضمن ما اسمه البعض بـ ” الغزو الفكري ” ^(٥) ولا بد من ملاحظة أن الانقسامات بين المتشددين فكريًا وتقييدهم كانت معروفة في الدوائر الإسلامية قبل الاحتكار الثقافي بالغرب ، وذلك منذ بداية الإسلام بنزول الوحي في فترة النوبة وما بعدها.

^(٥) محمد جلال كشك – الغزو الفكري ” وبقية سلسلة اصداراته في هذا المجال ”.

ومن أهم المصطلحات الإسلامية في وصف ما يعادل اليوم واحداً من معاني ”التطرف الديني“ تعبير ”الغلو في الدين“^(١) وترفرعت من كلمة ”الغلاة“ و ”الفرق الغالية“ ، وما إلى ذلك ، وقد ورد في القرآن الكريم : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَا تَغْلُو فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحُقْقُ ...﴾ [النساء : ١٧١] ، وكذلك ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَا تَغْلُو فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ...﴾ [المائدة : ٧٧] ، ومن المهم هنا ملاحظة الموازنة القرآنية بين ”الغلو“ و ”الحق“ ، وذلك مهم في بعض نقاط التحليل في هذا البحث ، وفي اللغة العربية فإن الغلو ذو صلة بمعنى الحد ، ويدخل في التشدد والتعصب في الدين حتى تجاوز الحد ، والحد المقصود هنا هو الفاصل بين الصلاح والفساد ، الذي يعني ضمن ما يعني الضرر والاختلال وانقلاب الأمر إلى ضده.

والغلو لا يخرج من إطار المذموم ، وعندما ظهرت بعض الفرق الإسلامية التاريخية – مثل الخوارج والرافضة – أطلق عليها بعض منتقديها من علماء الإسلام تعبير ”الفرق الغالية“ ، وإزاء التشدد المذموم في الدين ، استخدمت في التراث الإسلامي تعبيرات نقية ، ذات جذور في المصادر الإسلامية الأساسية ”القرآن الكريم والحديث الشريف“ ، منها التسديد والمقاربة والتوسط والقسط ، وهذا لا يخرج من أمر الدين نفسه – في الإسلام كما في غيره – وهو أمر جدية. وأمر شدة وفعالية وانضباط ، لذلك ”لن يشاد الدين أحد إلا عليه“ وقد جاء في سورة آل عمران ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، والآية الكريمة السابقة تدل على الثبات والتمسك على طريق ”الحق“ . ويمثل إدراك ”الحق“ واحداً من أهم القضايا التي تبحث في موضوع ”التطرف الديني“ في السياق الإسلامي ، والعبرة في هذا المقام تختص بحسن الإدراك وحسن الفهم وحسن التقدير.

التطرف الديني في سياق العالم الإسلامي المعاصر : نماذج مختارة

(أ) مدخل :

يركز هذا الجزء من الدراسة على الفكر المتصل بالفعل ، ومن بين اشكال الفعل هنا ان يؤدى او يؤثر او يتأثر الفكر بتكوين التيارات والجماعات والمؤسسات السياسية والاجتماعية.

١ عبد الله سلوم السامرائي ص ٣١ وما بعدها & الطاهر حسن التوم / عصام احمد البشير ص ١٥-٢٦.

ومن ناحية أخرى فان من بعض انواع الفكر المتصل بالفعل هو ذلك الذى يؤثر على سلوك الافراد والجماعات والمؤسسات ويدخل فى ذلك ميلها او ابعادها عن "العنف".

وفي هذا الجزء من المعالجة لابد من التمييز بين ما هو عصرى "بالمفهوم الزمني وليس النوعي" وبين ما هو تاريخي سابق للعصر الحديث ، مع مراعاة مسألة هامة هي تاثير الجذور التاريخية على المعاصر وكذلك الاستمرار التاريخي في المعاصر ، ذلك بالإضافة إلى البنية الثابتة التي لا تتغير في وحدات زمنية كبيرة - مثل القرون - الا بصورة نسبية ، مثل المعاذلات الرئيسة التي تحكم علاقة "النص" بـ "المتلقي" في ذلك الجانب الذي يكون فيه النص "فوق التاريخ" - "لابد من ملاحظة ان ذلك لا ينطبق على كثير من النصوص مقدسة او عاديه". وستركز الدراسة هنا على نموذجين ، هما الفكر الوهابي السلفي ذي المركز النجدي في الجزيرة العربية وتفرعياته المعاصرة ، والفكر الجهادي ذي المركز السنى في مصر.

(ب) نموذج الفكر الوهابي ذي المركز النجدي في الجزيرة العربية وتفرعياته المعاصرة :

ينسب هذا الفكر إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي اسس هذه المدرسة في اواسط القرن الهجري الثاني عشر / الميلادي الثامن عشر في الجزيرة العربية.^(٧) وهذا الفكر في بعض جوانبه ذو اصول حنبليه ، متاثر بصورة خاصة بشيخ الاسلام ابن تيمية. وقد ظهر هذا الفكر في سياق حركة مناهضة لممارسات دينية ، تتعلق بتقديس القبور ، خاصة قبور الصحابة في المدينه بالبيهقي ، وممارسات ذات صلة بذلك مثل الاعتقاد في قدرة الاولياء والصالحين - بمعزل عن القدرة والارادة الالهية- على اجابة الدعاء. وقد قادت هذه الفكرة الاساسية الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى بناء منظومة فكرية متكاملة فيها العديد من الجوانب الجدلية المتشابكة ، صاغها حول ما اعتقادها عقيدة التوحيد الصحيحة. وقد جرء ذلك إلى الكثير من الصدامات الكلامية الجدلية ، وحرك الكثير من الفئات والقوى الدينية ، وادخله ذلك في دائرة الفعل السياسي "الذى ارتبط في النهاية بالعمل العسكري- الذى قام به اخرون غيره. وجاءت اهم التنتائج هنا في قيام دولة تبني "الفكر" ، وهي المملكة العربية السعودية. حدث ذلك عبر تطور تاريخي طويل ، امتد منذ منتصف القرن الهجري الثاني عشر حتى الربع الاول من القرن العشرين / المجرى الرابع عشر. وقد صحب ذلك عند التيار الوهابي

^(٧) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط & الفتاوى الكبرى - كذلك : احمد امين ص ١٠ - ٢٧ & حسين بن غنام - تاريخ نجد & اليهانى الفخرانى ص ١٩ .

تطور وتشعب في الفكر السياسي ، ارتبط بعدد من الانقسامات ، وكذلك بعض الخلاف والصدام مع الدولة السعودية نفسها. وقد خلق ذلك داخل هذه المدرسة قطبين بين التطرف والاعتدال. ولا بد هنا من الاشارة إلى ان خصوص محمد بن عبد الوهاب قد مثلوا بدورهم تطراً ضده ، حتى انه كتب مفند ما نسبوه إليه من موقف : "انه بلغني ان رسالة سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم ، وانه قبلها وصدقها بعض المتمميين للعلم في جهتكم ، والله يعلم ان الرجل افترى على امورا لم اقلها ولم يأت اكثرا على بالي ، فمنها قوله : ... اقول ان الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء. واني اكفر كل من توسل بالصالحين واني اكفر البوصيري لقوله "يا اكرم الخلق" ، واني اقول لو اقدر على هدم قبة رسول الله ﷺ هدمتها ... واني احرم زيارة قبر النبي ، واني اكفر من حلف بغير الله. وجوابي عن هذه المسالة ان اقول : "سبحانك هذا بهتان عظيم" ^(٨) ويستمر الشيخ محمد عبد الوهاب في نفي اراء متطرفة نسبت اليه : "... اني اكفر جميع الناس ، الا من اتبعني واني ازعم ان انكمتهم غير صحيحة ، فيا عجبا كيف يدخل هذا في عقل عاقل؟ وهل يقول هذا مسلم؟ اني ابرأ الى الله من هذا القول الذي ما يصدر الا من مختل العقل فاقد الادراك ، فقاتل الله اهل الاغراض الباطلة" ^(٩) ويقول الشيخ محمد عبد الوهاب في اثبات اساس عقidiته في نفس المصدر السابق "اني اقول : لا يتم اسلام الانسان حتى يعرف معنى "لا اله الا الله" ، واني اعرف من يأتيني بمعناها ، واني اكفر النادر اذا اراد بنذره التقرب لغير الله واخذ النذر لاجل ذلك وان الذبح لغير الله كفر والذبيحة حرام ، فهذه المسائل حق وانا قاتلها" ^(١٠) ما ورد في الاقتباس السابق من كتاب "الدرر السننية" عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد اثبته صاحب الكتاب ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، الذي ذكر ان محمد بن عبد الوهاب كان في بداية دعوته لا يكفر احدا. وكان اذا سمع الناس يدعون زيدا بن الخطاب ، يقول الله خير من زيد ، ويسلط بهم بلين الكلام ، نظرا إلى المصلحة وعدم النفرة. ^(١١) وهذه الملاحظة مهمة من ناحيتين :

الأولى : انها غالبا ما ترجم تحرك موقف محمد بن عبد الوهاب باتجاه التشدد في القول - على الاقل - بتصاعد حركته الدعوية.

^(٨) احمد الكاتب ص ٣٧-٣٨.

^(٩) المصدر السابق ص ٣٨.

^(١٠) المصدر السابق ص ٣٨.

^(١١) عبد الرحمن بن محمد - الدرر ج ٢ ص ٢١١.

الثانية : انها تشير إلى ضرورة التفرقة بين التطرف الفكري المحسن وبين التطرف على مستوى الفعل. ويتمثل ”القول“ واحدا من درجاته.

لابد من اثبات المفهوم المحوري في فكر محمد بن عبد الوهاب حول التفرقة بين شرك الالوهية وشرك الربوبية ، ففي حين ان شرك الربوبية يعني عند محمد بن عبد الوهاب ، كما هو الحال عند سلفية ابن تيمية ، مخالفة توحيد الربوبية وهو الاشراك في الاعتقاد بالله عز وجل. فان شرك الالوهية يعني نفي توحيد الالوهية وهو التوحيد بالافعال ، فيكرف الانسان رغم اعتقاده بتوحيد الله نطقا لانه اتي فعلا مثل دعاء العباد وتقديم النذور والقرابين والتوكيل عليهم ... وما إلى ذلك من العبادات والشعائر. يقول في ذلك ”ان التوحيد هو افراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذين ارسلهم الله إلى عباده“^(١٢) .

كان محمد بن عبد الوهاب باعثا ومنظما لواحد من توجهات المدرسة السلفية عند الحنابلة وابن تيمية في سياق تاريخي مختلف ، كانت تحكم فيه الدولة العثمانية في الربع الاخير من عمرها. وبدأ بعد ذلك بفترة قصيرة الهجوم الاستعماري الاوربي على بلاد المسلمين ، وانعكس ذلك على ”الفكر الوهابي“ . وبدأ بعد فترة التباعد بين بعض اشكاله المعتدلة والمتشدد فكريا وفعليا ، وذلك بتوسيع وتعزيز مبادئ قرانية مثل ”الولاء“ لله وحده و ”البراءة“ من المشركين. وادى ذلك إلى عدم التوافق بين بعض التيارات الوهابية والملكة العربية السعودية التي تبنت صورا معتدلة من ”الوهابية“. ومصطلح ”الوهابية“ هنا لا يقتصر على محمد بن عبد الوهاب بل يشمل المدارس التي توسيع وتفرعت بعده نابعة من اصول فكره. وكان موقف المملكة العربية السعودية يقوم على احترام موازين القوى السياسية الدولية من ناحية مع الحرص على تحقيق حد اساسي من مصالح الاسلام والمسلمين في هذا الاطار. وذلك ما انتقده تيار وهابي اكثر تشددا ، وهو الذى وصل قمته بظهور ”تنظيم القاعدة“ والذى اصبح مشهورا بقيادة زعيمه اسامه بن لادن ، بعد تفجير البرجين في نيويورك في ١١ / سبتمبر / ٢٠١١م . ولابد هنا من ملاحظة ان التبلور الفكري والعلمي الاخير لتنظيم القاعدة جاء بعد التحام التيار النابع من جزيرة العرب مع التيار الجهادي المصري - ذي الاصول الفكرية المختلفة نسبيا . وهو اختلاف في التاريخ وملابسات التكوين

^(١٢) احمد الكاتب ، مصدر سابق ص ١٧ .

واساليب العمل وليس اختلافا في التوجهات الفكرية والعقائدية. وهذا ما توضحه الفقرة التالية من هذه الدراسة ، عن ما اسمته الفكر الجهادي ذي المرتكز السنوي في مصر. لابد هنا من الاشارة إلى ان الفكر ”الوهابي“ في مرحلة وسيطة من مراحل تطوره اتجه اتجاهها حافظا بتبنيه الرأى القائل بعدم جواز الخروج على ولی الامر ”ويقصد بالطبع ولی الامر الشرعي بنظر هذا التيار“ ، غير ان تجاوزه لهذا الموقف اصبح صارخا في مرحلة اسامة بن لادن ، الذي اعلن الحرب على الدولة السعودية بذرية سماحها بوجود القوات الامريكية على ارض المملكة. وقد وصف هذا الوجود بانه ”تحالف اسرائيلي امريكي يحتل بلاد الحرمين ومسرى النبي عليه الصلاة والسلام“^(١٣) واثبت في رسالة قوله ”ان الذين يزعمون ان دماء جنود هذا العدو الامريكي المحتل لبلاد المسلمين معصومة ، إنما يرددون مكرهين ما يمليه هذا ببطشه ... والواجب على كل قبيلة في جزيرة العرب ان تجاهد في سبيل الله وتطهر ارضها من هولاء المحتلين ، وعلم الله ان دماءهم مهدورة وامواهم غنية ، ومن قتل قتيلا فله سلبه“^(١٤) وربما كان اهم تطور في تحول الفكر السلفي الجهادي إلى التنظيم والفعل العسكري بعد عام ٢٠١١ هو بروز ”تنظيم الدولة الاسلامية“ - الذي عرف باسم ”داعش“ ، اشارة إلى مرحلته السابقة ، عندما كان تنظيم الدولة الاسلامية في العراق وسوريا. وقد خرج هذا التنظيم من رحم تنظيم ”القاعدة“ ومثل تشددًا أكبر من الناحيتين الفكرية والعملية وهو يختلف عن تنظيم القاعدة في توسيعه أكثر لمفهوم ”التكفير“ وفي تركيزه على الحرب في ارض المسلمين ، لانه يسعى إلى اقامة دولة على مساحتها الجغرافية بخلاف القاعدة التي كانت تركز عموما على الحرب خارج ديار المسلمين. ويلاحظ ارتباط ”تنظيم الدولة“ بالعراق والشام ، من حيث الارتكاز والنشأة ، اكثرا من السعودية واليمن كما هو حال القاعدة. وهذا يبعده قليلا عن التأثير المباشر للمدرسة الوهابية ، بخلاف حالة الفكر والجماعات الوهابية التاريخية ، التي كانت تنزع إلى استخدام العنف الدموي ولكنها تنحصر في اطار جغرافي محدود ، فان كلا من القاعدة وتنظيم الدولة يتسع في نطاقات جغرافية واسعة خارج جزيرة العرب في اسيا وافريقيا ويؤثر كذلك في اوربا ، وذلك وفقا لايديولوجيا امية تخلق نسبا بينها وبين حركات مشابهه مثل ”بوکو حرام“ في غرب افريقيا وحركة الشباب الاسلامي في الصومال وطالبان في افغانستان وباكستان.

^(١٣) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

^(١٤) موقع الكتروني : <http://www.aloswa.org/bayanat/afgan/laden2.html>

اذا كانت ”الوهابية التاريخية“ قد ارتبطت بالعلم السلفي وطبيعته الجدلية فان كلا من ”القاعدة“ و ”تنظيم الدولة“ قد نزعـت نحو ”الفعل“ العنـيف مع ضعـف الارـتبـاط بـحرـكة العـلم الشرـعـي المـتـعمـق والـعلـمـاء المـدرـسـين والـفـكـرـ النـظـري. ولا شـكـ انـ هـذـهـ الحـركـاتـ الـتـىـ توـصـفـ منـ قـبـلـ خـصـومـهـاـ بالـارـهـابـيةـ تـقـومـ عـلـىـ نـشـاطـ اـقـلـيـاتـ صـغـيرـةـ وـسـطـ الشـعـوبـ الـاسـلـامـيـةـ ،ـ لـكـنـ قـوـةـ تـنـظـيمـهـاـ وـارـادـتـهاـ الـقـتـالـيـةـ وـاسـالـيـبـهـاـ الـعـنـيفـةـ وـتـجـاـوزـهـاـ لـحـدـودـ قـيـمـ ”الـسـلـامـ“ـ وـ ”الـاـنـسـانـيـةـ“ـ الـمـعـرـوـفـةـ فـيـ عـالـمـ الـيـوـمـ ،ـ تـجـعـلـهـاـ اـكـثـرـ خـطـوـرـةـ ،ـ خـاصـةـ وـاـنـهـاـ تـؤـثـرـ اـكـثـرـ عـلـىـ قـطـاعـ صـغـارـ السـنـ بـصـورـةـ عـامـةـ ،ـ وـذـلـكـ بـحـكـمـ طـبـيـعـةـ التـفـكـيرـ وـالـشـعـورـ وـالـسـلـوكـ وـسـطـ اـفـرـادـ هـذـهـ الـفـةـ الـعـمـرـيـةـ ،ـ وـاسـتـعـادـهـمـ الـنـفـسـيـ لـلـتـطـرـفـ.ـ وـذـلـكـ حـكـمـ ،ـ فـيـ مـاـ يـخـصـ الـحـالـةـ الـمـحـدـدـةـ ،ـ يـحـتـاجـ إـلـىـ اـسـتـقـصـاءـ اـكـثـرـ قـبـلـ اـنـ يـصـبـحـ نـتـيـجـةـ عـلـمـيـةـ.

(ج) نموذج الفكر الجهادي ذي المرتكز السنوي في مصر :

النموذج الذي ترکز عليه هذه الدراسة هنا هو ذلك التيار الذي تأسس فكريا في مصر على يد سيد قطب ، ثم تطور جانب منه بواسطة تنظيم – ”تنظيمات الجهاد“ – المنشق بوجه عام من جماعة ”الاخوان المسلمين“ وقد كون جزء من هذا الجانب مع واحد من اشكال السلفية الوهابية – ”ذلك الذي تزعمه اسامة بن لادن“ – تنظيم القاعدة. وكان ابرز قادة هذا التنظيم الجهادي المصري هو أيمن الظواهري.

مثلت ”حركة الاخوان المسلمين“ ذات المنشأ والمرتكز المصري الاطار العريض الذي انتج جانباً كبيراً من الحركات ”الاسلامية“ المتفرعة عنه – معتدلة كانت ام متطرفة – مع استمرار هذه الحركة باعتبارها الحركة الاسلامية الاعظم في الوسط المصري. وعندما تعرضت هذه الحركة لبطش النظام الناصري بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٦ تطور داخل سجونها فكر سيد قطب ، الذي مثل تجاوزاً للفكر الاخواني التقليدي الذي اسسه حسن البنا منذ عام ١٩٢٧ وهو نفس تاريخ قيام الدولة السعودية في مرحلتها الحالية ”الثالثة“^(١٥) وقد تطور بجانب فكر سيد قطب في السجون المصرية خلال هذه الفترة تيارات ”التكفير السافر“ التي عرف بعضها باسماء مثل جماعة ”المسلمون“ و ”التكفير والهجرة“ وما إلى ذلك ، وهي تمثل إلى الاحتجاج الجدلـيـ ،ـ شـأنـ الـفـرـقـ الـاسـلـامـيـةـ التـارـيـخـيـةـ –ـ وـتـلـكـ لـيـسـتـ ذـهـنـيـةـ اوـ ”لـغـةـ“ـ سـيدـ قـطـبـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ يـؤـمـنـ بـالـفـرـقـ الـاسـلـامـيـةـ كـلـهـاـ بـهـاـ فـيـ ذـلـكـ ”اـهـلـ السـنـةـ“ـ وـبـهـاـ فـيـ ذـلـكـ ماـ

^(١٥) محمد جلال كشك – السعوديون ص ٦٣٣ وما بعدها.

يمكن تسميته ب ”الفقه التاريخي“ الذي سماه سيد قطب ب ”فكرة الأوراق“ مقابل ما اصطلح عليه فكر الحركة. ذكر سيد : ”وانا على يقين جازم بان التصور الاسلامي لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ الا حين يلغى عنه جملة بكل ما اطلق عليه اسم الفلسفة الاسلامية وبكل مباحث ”علم الكلام“ وبكل ما اثير بين الفرق الاسلامية المختلفة في شتى العصور ايضا ثم نعود إلى القرآن الكريم ونستمد منه مباشرة ”” مقومات التصور الاسلامي ”“^(١٦) ويتبين من هذا الاقتباس ان سيد قطب ينحو منحى ثوريا – ان جاز التعبير – في المجال الأساس والقاعدة التي تحدد الآراء والاحكام ””الإسلامية““ ، وهو مجال ما اسماه ب ””المنهج““ . ويصل بذلك ابتكار سيد قطب لمصطلحات مفتاحية اساسية يمكن أن تغير توجه ””الفكر الاسلامي““ وتخوجه من القوالب التاريخية – مثل ”” مقومات التصور““ و ””قوالب الفكر““ ، ””المنهج الاهلي““ و ””منهج الحركة““ . وكان من بين أهم المصطلحات التي طور سيد قطب استخدامها مصطلح ””الجاهلية““ ، باعتبار انها ليست فقط المرحلة التاريخية السابقة للبعثة المحمدية وانما هي حالة انسانية تتكرر دائمًا وتتكرر معها دلالة الأحكام والقيم القرانية كلما استجد وضع مواجهة بين ”” الحق““ ”” والباطل““ . وكان مدخل سيد لبناء نظريته هذه هو وضعها في سياق اعادة تفسير مبدأ الاسلام الاول وهو ””التوحيد““ ، تماما كما فعل محمد بن عبد الوهاب واسلافه في المذهب الحنفي ومن قبلهم المعتزلة . واستخدم مصطلحي ””الالوهية““ و ””الربوبية““ وذهب إلى أن الاعتقاد والنطق بالشهادتين وحده لا يكفي ، لنفي صفة الجاهلية عن الافراد والجماعات ولكن لم يطلق لفظ تكفير او كفر مباشرة وانما استخدم كلمات ذات مدلول ضمنى مثل مصطلح ””جاهلية““ . واستخدم في هذا السياق مصطلح ””مجتمع““ – وهو مصطلح غير موجود في مصطلحات العلوم الشرعية التي تتحدث عادة عن افراد أو عياد أو عن جماعات . وادخل بواسطة هذه المصطلحات المجتمعات الاسلامية الحالية في صنف المجتمعات الجاهلية ، في سياق يعني نفي الاسلام عنها ””اي عن المجتمعات وليس عن افرادها الذين لم يذكر عن حكمهم في هذا الخصوص شيئا““ . قال سيد قطب في ””معالم الطريق““ : ””ولكن ما هو ””المجتمع الجاهلي““ ؟ وما هو منهج الاسلام في مواجهته إن المجتمع الجاهلي هو كل

^(١٦) سيد قطب – خصائص ص ١٢ .

مجتمع غير المجتمع المسلم او اذا اردنا التحديد الموضوعي قلنا : انه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده. ولا تمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي وفي الشعائر التعبيرية وفي الشرائع القانونية. وبهذا التعريف الموضوعي. تدخل في اطار المجتمع الجاهلي جميع المجتمعات القائمة اليوم في الارض فعلا ... تدخل فيه المجتمعات الشيوعية ... وتدخل فيه المجتمعات الوثنية ... وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية. وأخيرا في اطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها انها مسلمة.^(١٧) ولقد كان مصطلح "الحاكمية"^(١٨) ركنا في نظرية سيد قطب ، وادخل بذلك مسألة "الحكم" في صميم العقيدة – كما هو الحال في الفكر الشيعي ، مع الاختلاف الجذري في المطلقة والتوجه والغاية. وينزع سيد قطب في فكره نحو "المطلق" ولا يرى "الواقع" الا من هذا المنظور. ويعرض فكره مستعينا بقوة "الشاعرية" ذات التأثير القوي على وجдан من يملكون "الشفافية" الالازمة. ذلك مع وضوح وبساطة الأفكار كما تبدو للوهلة الأولى- مع انها غير ذلك تماما. وهذا يعني قدرتها على التأثير على كافة مستويات الفهم ، حتى لو لم يؤد ذلك إلى حسن الفهم في كل الأحوال. ومن الواضح ان سيد قطب قد منح "اصحاب النزعة التكفيرية" ازاء من ساهم هو نفسه : "يُزعمون أنهم مسلمون أو مسلمون بشهادة الميلاد" ^(١٩) وقد منح هؤلاء اسلحة فعالة وخطيرة في تطوير بعض بذور فكره باتجاهات لم يذهب اليها هو نفسه. وقد سبق سيد قطب "تنظيم القاعدة" بدعوته إلى قيام حركة المسلمين على المستوى العالمي ، واحادث الانقلاب في صميم النظام العالمي – مما ذهب اليه ابو الأعلى المودودي كذلك.^(٢٠) ولا زالت حتى اليوم الحلقات الفكرية والفعالية في التوा�صل والتتطور بين سيد قطب – وهو ليس مجرد صاحب فكر وانما هو كذلك صاحب "تنظيم" – وبين ما حدث من تطورات في مصر وانتهت باغتيال الرئيس انور السادات وما تلاه من فترة كمون طويلة حتى سقوط نظام حسني مبارك في يناير ٢٠١١ ، ثم بروز التنظيمات الجهادية المسلحة التي ارتبطت اولا بتنظيم القاعدة ثم بتنظيم الدولة الاسلامية ، لازالت هذه التطورات والحلقات غير واضحة امام الباحثين مع توفر

^(١٧) سيد قطب – معالم ص ٨٨-٩٢.

^(١٨) سيد قطب – معالم ص ٤٦ – ٥٤ & ص ٩١-٩٢ & ص ١٢٣ وما بعدها.

^(١٩) سيد قطب ، معالم ص ١٤٤.

^(٢٠) مصطفى الفلايلي في الحركات الاسلامية ص ٣٣٣-٤٠٨.

المؤشرات العامة عنها. غير ان ما يمكن قوله هنا ان الجانب الاعظم من هذه التطورات لم يكن مدبرا بصورة مسبقة وانما جاء في شكل تفاعلات وتداعيات تداخل فيها الفكر المتفاعل مع مستجدات الواقع وتاثيرات البيئة الاجتماعية والثقافية في اقطار مختلفة من العالم العربي والاسلامي. ومن الواضح ان الافكار - البذور والتنظيمات الجينية التي خلقها التبشير بافكار دينية - سياسية - اجتماعية بسيطة ، في عقود ماضية ، قد نمت رغم محاولات وأدتها ومكافحتها بشتى الوسائل. وقد ساهم ذلك في وضع عالم اليوم امام مواجهات معقدة قد تتطور إلى حروب طاحنة في المستقبل. واكثر البيئات الملائمة لتصاعد "التطرف" بكل اشكاله هي "بيئة الحرب". غير ان التطورات المشار إليها في هذا السياق ليست حربية فقط وانما ذات طابع اساسه مدني فكري رغم قوّة الابعاد الصراعية فيه.

إشارة خاصة بمعالجة التطرف الديني :

إن حسن الإدراك وحسن الفهم وحسن التقدير والتوسط والاعتدال ، وما إلى ذلك من المبادئ التي ينادي بها جوهر الإسلام في مصادره الأولية ، هي صفات تتصل بسلامة التكوين النفسي للشخصية الإنسانية = فردية كانت أو جماعية ، لذلك فإن عامل الصحة النفسية ، في المستوى الفردي والجماعي ، يمثل ركناً أساسياً في تحقيق البعد عن "التطرف" المذموم ، ومهما أُوقي شخص ، أو مجموعة ، من علم فإن نصيبيه - أو نصيحتها - سليم في تكوينه الأساسي : نفسه وقلبه ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦].

وأشار القرآن الكريم كذلك إلى المرض القلبي وصلته السببية بالضلال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْنِيُونَ﴾ [البقرة : ١٠] ويوضح القرآن الكريم معانٍ للاستواء والاعتدال والاستقامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك : ٢٢]. وهذه الآية واضحة في دلالتها على العلاقة بين استقامة الطريق واستقامة سالكه وتوازنه ، وهنا لابد من التمييز الدقيق بين التشدد في التمسك ، عقيدة وسلوكاً ، وبين موضوع ومحنوى التشدد والتمسك فهو "حق" أم "باطل" بالمصطلح القرآني ، وهو ما يضمه الفكر غير الديني - وقد يتفق معه الفكر الديني أحياناً - في صورة المقابلة بين ما هو "صحيح" وما هو "خاطئ" ، ويطرح الفكر النقيدي هنا - دينياً أو غير ديني - هنا أسئلة أساسية : من الذي يحكم وكيف

يحكم في قيمة ما هو حق أو باطل – أو ما هو صحيح أو خاطئ؟ وهل حكمه قاطع ونهائي – أم مجرد رأي حوله آراء أخرى يجب احترامها؟ وما هو الحكم القيمي على ”النهج الليبرالي“ في هذا أو ذاك من الأديان ، وهل يعني رفض النهج الليبرالي الديني الوقع في هاوية ”التطرف الديني“؟ وهل الليبرالية الدينية أو المناوئة للدين أو نقيس كل منها يمثل موقفاً فكريًا عقلانياً أم يمثل كل ذلك حالة نفسية فردية أو جماعية أم يمثل مزيجاً من الاثنين، قد يتفاوت من حالة إلى أخرى؟ بالطبع لا يمكن هنا الاستفاضة في محاولة الإجابة على هذه الأسئلة ، لضيق الحيز ، غير أن طرحها هنا يأتي بعرض التنبية والإشارة إلى نقطتين أساستين : الأولى : أن ”الحسان“ هنا هو ”الحق“ – وله متشابهات في ثقافات أخرى غير إسلامية مثل ”الحقيقة“ ، وما يلي ذلك من قضايا في سياق الحديث عن ”التطرف الديني“ يمثل ”الغربية“.

الثانية : أنه إذا كان ”الدين“ موضوعاً للتشكيل الذاتي – الفردي أو الجماعي بدون حقيقة مستقلة أو استقلال ، فإن هذا يعني الحكم بعدم وجوده ، وهذا يبين عن كل من الواقع والحقيقة ، لذلك فإن ”المرجعية“ الخاصة بالإسلام هنا هي صاحبة الرأي الفيصل ، ذلك على أساس انفصال ”الدين“ عن الذات الفردية أو الجماعية وكذلك على أساس استيلاء ”الدين“ على ”التاريخ“ ، ويستثنى من ذلك ”الدين“ فهو يخضع للتاريخية والذاتية إلى حد كبير.

إن الخروج من مأزق ”التطرف الديني“ ومحاولة توظيف الغموض الفكري بين المسلمين حول قضاياه ، بواسطة القوى المادية ، لا يكون إلا بشرط ، ومن أبرز تلك الشروط إشاعة وتعزيز الصحة النفسية في نفس الوقت ، في هذا الإطار العام يمكن تطوير مقترنات عملية تفصيلية ، من أجل استخدامات التعليم والإعلام وأدوات التأثير الذهني والحضري المختلفة.

خاتمة : خلاصة ونتائج :

أوضح الجزء الأول من هذه الدراسة ، المتعلق بالتصنيف والمفاهيم النظرية الخاصة بالتطرف والعنف وما يتصل بذلك ، مدى غموض وصعوبة تحديد معنى التطرف الديني ونسبة وزئنية هذا المفهوم وتأثيره وتغيره وفقاً للمنظور والمرتكز الفكري والسياسي ، خاصة في السياق الصراعي الحالى الذي تحرى فيه مثل هذه الدراسات والمناقشات. ولقد حاول

البحث بصورة موجزة تناول نموذجين يمثلان اثنين من بين اهم ”مظان“ النطرف الفكرى المرتبط بالفعل والحركة الاجتماعى والسياسى المؤدى الى الصدام العسكرى وال الحرب. وهم نموذجا الحركة الوهابية وتفريعاتها المعاصرة والحركة الجهادية ، التى انطلقت من مصر- حيث بدأت سلمية وفكريه ثم اخذت تتجه نحو المواجهة العنيفة. لم تنزع الدراسة ، التزاما بمنهجها العلمى الموضوعى ، نحو اطلاق الاوصاف الأخلاقية والقيميه على الافكار والجماعات والظواهر ، وركزت اكثرا على توضيح المظاهر الموضوعية ووصف الواقع وتحليل التفاعلات. ولم تنظر في هذا السياق إلى ”الفكر“ الا باعتباره جزءاً لا يتجزأ من تفاعلات يدخل فيها الواقع ومستجداته بصورة اساسية – ذلك مع بعض الاستثناءات القليلة التي دعت اليها الرغبة في إضاءة بعض الجوانب ذات الصلة.

لم يسمح حجم الدراسة المحدود بمحاولات رؤية المعادلة الكاملة هنا وهي ليست بين ”وسط“ و ”طرف“ بل بين ”وسط“ و ”طرفين“ – يتغير فيها الفرقاء مع تطور ”الحركة التاريخية“ ، من خانة إلى اخرى ”كأن يصبح من كان بالطرف في فترة ما او في مكان ما في خانة الوسط“ وهذا يشير إلى ان ”النطرف“ قد لا يكون في فريق او مجموعة ما بقدر ما هو في الوضع والملابسات التى تشكل معادلة ”الطرف“ و ”الوسط“ . ولو تم استصحاب المعادلة كاملة لبرزت في التحليل – الخاص باليارات الإسلامية المتحركة – اطراف اخرى مثل ”اللبرالية“ التي ترفض بحدة قبول الحركات التي تسعى إلى تنظيم المجتمع بعد اعادة صياغته ووضعه في اطار نظم شمولية ذات اطار وتوجه ”ايديولوجي“ ، ولظهرت تيارات مثل ”العلمانية“ التي تحفظ على منح ”الفكر الدينى“ اي مساحات كبيرة في الحياة الاجتماعية والسياسية. ولظهرت ايضا تيارات ”الصوفية الباطنية“ في مقابل التيارات ”السلفية والظاهرية المتشددة“ . ولبرز كذلك ”التفرنج“ و ”الاستغراب“ و ”الاباحية“ والتمرد على ”الاله“ في مواجهة التيارات الإسلامية المتشددة والمعتدلة معا. كان القصد من خطة هذه الدراسة القائمة على ايراد الاشارات والتلميحات وانتقاء النماذج المحدودة -دون التوغل في التفاصيل- هو مجرد القاء نظرة عامة على ظاهرة معقدة بغرض مكافحة التبسيط وسطوحية الشعارات – خاصة في التناول السياسي والاعلامي – التي تعوق الفهم الصحيح لحقائق الواقع كما تعوق المعالجات المنشودة.

مراجع مختارة

الكتب :

(أ) باللغة العربية

- (١) ابن أبي العز الدمشقي - شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ / ١٩٩٤م
- (٢) ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم الحرانى - اقتضاء الصراط المستقيم - خالفة اصحاب الجحيم ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ط ٢ - تحقيق محمد حامد الفقى - ١٣٦٩هـ - شرح
- (٣) ابن تيمية ، الحرانى - شرح العقيدة الواسطية.
- (٤) ابن تيمية ، الحرانى - الفتاوى الكبرى - تحقيق حسين محمد مخلوف "خمسة اجزاء" دار المعرفة ط ١ بيروت ١٣٨٦هـ
- (٥) محمد قطب - جاهلية القرن العشرين - الكويت.
- (٦) أحمد الكاتب- الفكر السياسي الوهابي ، قراءة تحليلية ، مكتبة مدبولي - القاهرة - ٢٠٠٨
- (٧) أحمد امين- زعماء الاصلاح في العصر الحديث- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة ط ٤١٩٧٩
- (٨) الطاهر حسن التوم - الدين المغشوش ، في نقد الغلو والتطرف- حوار مع فضيلة الشيخ أ.د. عصام البشير ، سلسلة قيد النظر ٢ - قناة النيل الازرق التلفزيونية ، "السودان"- هيئة الخرطوم للطباعة والنشر - الخرطوم ٢٠١٤
- (٩) اليانى الفخرانى - النزعة التكفيرية في فكر الوهابية - مكتبة مدبولي القاهرة ٢٠١٢ حسن المضبى - دعوة لاقضية- القاهرة.
- (١٠) حسين بن غنام - تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الاسد - ط ٤ ، دار الشروق - القاهرة / بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م
- (١١) سيد قطب - خصائص التصور الاسلامى ومقوماته - دار الشروق - القاهرة / بيروت ط ٨ - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
- (١٢) سيد قطب- معالم في الطريق - دار الشروق- القاهرة / بيروت / بدون تاريخ

- (١٣) سيف عبد الفتاح اسماعيل (محرر) - معجم مفاهيم الوسطية ، نموذج لبناء المفاهيم الأساسية من منظور حضاري - الجزء الاول - مركز الحضارة للدراسات السياسية ومنتدى النهضة والتواصل الحضاري - الخرطوم ط ١١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م
- (١٤) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - الدرر السننية في الاجوبة النجدية - انظر الموقع الالكتروني : <http://www.Dorar.net/htmls/mbooks.asp>
- (١٥) عبد الله سلوم السامرائي - الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية - دار واسط للنشر - لندن / بغداد ط ١٩٨٨ م
- (١٦) علي زيعور - التحليل النفسي للذات العربية - دار الطليعة - بيروت ١٩٨٢
- (١٧) محمد بن عبد الوهاب - المؤلفات الكاملة - تحقيق عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وآخرون - جامعة الامام محمد بن سعود - الرياض / السعودية - بدون تاريخ
- (١٨) محمد جلال كشك - السعوديون والحل الاسلامي - المطبعة الفنية - القاهرة / ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م
- (١٩) مصطفى الفلايلي - تقرير تجميعي : الصحوة الدينية الاسلامية : خصائصها - اطوارها - مستقبلها في الحركات الاسلامية المعاصرة في الوطن العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٧ م

(ب) باللغة الانجليزية :

- (1) Fairehild , H.(ed) – Dictionary of Sociology – Hilex Book – N.J.,USA.1970
- (2) Flew, Antony (ed) – Dictionary of Philosophy – Martin's Free Press –New York 1984
- (3) Hall, Calvin S.-theories of personality – New York 1965
- (4) Houghton MillinCompany – The American Heritage Dictionary – Boston 1982
- (5) Jelle,Larry A& Ziegler – Personality Theories – Mac Graw.Hill- 1982
- (6) Rychlak , Joseph F- Introduction to Psychotherapy – Houghton Millin company –Boston 1981

موقع الكترونية :

- (1) <http://www.khayma.com/Rafidha/ematah.ht>.
- (2) <http://www.aloswa.org/bayanat/afgan/laden2.html>
- (3) <http://www.Dorar.net/htmls/mbooks.asp>



بعض مظاهر التطرف في الدراسات الاستشرافية للإسلام ونقدّها ”نموذج دراسة جوزيف شاخت للفقه الإسلامي“

د. محمد مصطفى محمد صالح

أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٤٤-١٢٣)

المستخلص :

تعني هذه الورقة بالوقوف على نظرية المستشرق جوزيف شاخت التي ناقش فيها الفقه الإسلامي حيث ترکز نظريته على أن الفقه الإسلامي لا علاقة له بالقرآن الكريم إلا في الجوانب المتصلة بفقه الأسرة والميراث. كما أنه ذهب إلى رأي متطرف للغاية حيث نفى وجود أي حديث نبوي يتصل بالفقه قبل سنة ١١٠ هجرية بل إنه أنكر وجود الفقه الإسلامي قبل هذه السنة. كما ذهب إلى رأي متطرف آخر وهو أن السنة في عهد الصحابة والتابعين لم تكن تعني سنة النبي صلّى الله عليه وسلم بل كانت تعني سنة المجتمع، ولم تأخذ تعريفها بأنها سنة النبي إلا بعد الشافعي الذي أعطاها هذا التعريف الجديد. تحاول الورقة إلقاء الضوء على طريقة شاخت المتسمة بالتط ama و بعدم اتباع منهجة علمية منضبطة تجاه التشريع الإسلامي.

مقدمة تعريفية :

يعد المستشرق الألماني الإنجليزي جوزيف شاخت من أشهر المستشرقين الذين عُنوا بدراسة الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية ، وهو يعد امتداداً لمدرسة المستشرقين الذين انشغلوا بدراسات الشريعة الإسلامية وفقها من أمثال المستشرق إجناس جولدزير. كما أنه -أي شاخت- قد أثر في كثيرين من الدارسين الغربيين الذين جاءوا من بعده من أمثال نويل ج. كولسون أستاذ القانون الإسلامي والقوانين الشرقية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. غير أن شاخت قد عُرِف بأنه الوحيد من بين المستشرقين الذي استطاع أن يصوغ نظريةً متكاملةً عن الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية ، وقد وصف بعض الدارسين الغربيين لنظرية شاخت بأنها نظرية متكاملة لا يمكن دحضها بأي حالٍ من الأحوال. وبالرغم من ذلك الثناء المفرط الذي حظيت به مقولات شاخت في هذا المضمار إلا أن الكثيرين من المستشرقين اختلفوا معه في بعض الآراء التي صرّح بها في كتابيه المشهورين "أصول الشريعة الحمدية" و "مقدمة في دراسة الشريعة الإسلامية". لقد كانت النظرية التي عكف عليها شاخت زمناً طويلاً ، ونادى بها في كتابيه المذكورين آنفًا غريبةً كلَّ الغرابة ، وفيها الكثير من عناصر الوهم والخيال المحسض ، وهي في حقيقة الأمر "مقلوب تطور الفقه

الإسلامي ”، وبمعنى آخر فإن شاخت قد فهم نشأة الفقه الإسلامي أو أراد أن يفهمها بصورة عكسية. وبما أن هذه المقالة تعتبر أن التطرف هو الميل إلى أحد الطرفين المتضادين دون وجه حق ، وأنه-أي التطرف- هو البعد عن حد الاعتدال والتوسط والاستقامة فإنه بالإمكان اعتبار النظرية التي ذهب إليها شاخت نوعاً من أنواع التطرف الاستشرافي حيال الدراسات الإسلامية ، وحيال الإسلام بصورة عامة. وتعنى المقالة أيضاً بالوقوف على النقد الذي وُجه لنظرية شاخت ، وعلى أبرز منتقدي هذه النظرية من الغربيين ومن المسلمين على حد سواء. كما تناول ممارسة نوع من نقد النقد في هذا المضمار. وتشير المقالة إلى المكانة المرموقة التي حظي بها شاخت في الجامعات الغربية ، وأن بعض هذه الجامعات مثل جامعة لندن وجامعة كمبردج قد رفضتا تسجيل طالب أراد أن يدرس أحد كتابي شاخت بصورة نقدية. كما أن جامعة أكسفورد البريطانية قد طردت أحد الأساتذة الذين حاولوا نقد مقولات شاخت!!^(١) لقد اعتبر جوزيف شاخت دراسته في كتابه ”أصول الشريعة المحمدية“ مجرد امتداد لدراسة إجناس جولدزير ، وأنه جاء ليؤكد نتائج جولدزير ويمضي بها قدماً. كما اعتبر نفسه مديناً لدراسات المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورقرونية ، والمستشرق البلجيكي هنري لامانس ، والمستشرق البريطاني ديفيد صامويل مارجوليث.^(٢)

أبرز مقولات شاخت في نظريته :

إن مقولات شاخت التي اعتُبرت نظرية متكاملة حول الفقه الإسلامي قد ضمّنها كتابيه المشهورين ”مقدمة في الشريعة الإسلامية“ و ”أصول الشريعة المحمدية“. وأبرز مقولاته تتمثل في الآتي :

أن الفقه الإسلامي لا علاقة له بالدين ، وأن الشريعة ”القانون“ في الإسلام لا علاقة لها بالدين. يقول جوزيف شاخت :

^(١) انظر محمد مصطفى الأعظمي ، المستشرق شاخت والسنّة النبوية ، ضمن إصدارة ”مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية“ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الجزء الأول ، ١٩٨٥ م ، ص ٦٣ وما بعدها.

^(٢) Joseph Schacht, *The Origins of Muhammadan Jurisprudence*, at Clarendon Press, Oxford University Press, Ely House, London W. I First published 1950, P. v.

[The sacred law of Islam is an all- embracing body of religious duties rather than a legal system proper, it comprises on an equal footing ordinances regarding cult and ritual, as well as political and [in the narrow sense] legal rule. In choosing the examples I shall concentrate as much as possible on the (properly speaking] legal sphere... For the legal subject-matter in early Islam did not primarily derive from the Koran or from other purely Islamic sources, law lay to a great extent outside the sphere of religion].^(٣)

أن السنة في عرف المسلمين الأوائل من صحابة وتابعين لم تكن تعني سنة النبي ﷺ ، وإنما كانت تعني سنة المجتمع أو "الأمر المجمع عليه من قبل جموع المجتمع". ويرى أن الشافعي هو الذي وضع المعنى المتعارف عليه الآن للسنة حيث يقول :

[The main theme of Shafi's discussion with his opponents is the function of the traditions from the Prophet. Shafi's insists time after time that nothing can override the authority of the Prophet, even it attested only by an isolated tradition. And that every well-authenticated tradition going back to the Prophet has precedence over the opinion of his companions, their Successors, and later authorities. This is a truism for the classical theory of Muhammadan law, but Shafi's continual insistence on this point shows that it could not yet have been so in his time].^(٤)

ويقرر شاخت أن الشافعي هو أول فقيه يعرّف السنة بأنها سيرة النبي ﷺ حيث يقول :

Ibid. ^(٣)

Ibid, P11. ^(٤)

[... the first lawyer to define sunna as the model behavior of the Prophet, in contrast with his predecessors for whom was not necessarily connected with the Prophet, but represented the traditional, albeit ideal, usage of the community, forming their “living tradition” on an equal footing with customary or generally agreed practice].^(٥)

أنه لا يصح حديث واحد من الأحاديث النبوية المتعلقة بأمور الفقه والشريعة.

أن الفقه الإسلامي لم يكن له وجود قبل سنة ١١٠ هـ.

أن المدارس الفقهية القديمة لم يكن لها وجود قبل التاريخ المذكور [١١٠ هـ]. ويقصد بالمدارس الفقهية القديمة مدرسة العراقيين بزعامة أبي حنيفة وأتباعه من أمثال القاضي أبي يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وتلامذتهم ، ومدرسة المدينيين وعلى رأسها الإمام مالك بن أنس ، ومدرسة الشاميين ”المدرسة السورية“ وعلى رأسها الإمام الأوزاعي. ركز شاخت في دراسته على هذه المدارس برغم أن هناك مجموعة من المدارس الفقهية الأخرى التي انتشرت في جهات مختلفة مثل المدرسة المصرية ، والمدرسة اليمنية.

يرى شاخت أن الشافعي هو الذي قام بوضع الأسس الجديدة التي أصبحت بموجبها أن السنة هي سنة النبي ﷺ ، وليس سنة المجتمع كما كان معهوداً من قبل. أي أن الأمر الذي كان استثنائياً قبل الشافعي أصبح هو الأساس بعده. ولقد ركز شاخت كثيراً على الشافعي حتى أن دراسته في كتابه ”أصول الشريعة المحمدية“ يمكن أن تعتبر دراسة للشافعي وبخاصة من خلال ”الرسالة“ و ”اختلاف الحديث“. توفرت لشاخت العديد من المصادر الالازمة لهذه الدراسة غير أنه يذكر منع السلطات المصرية له من العودة إلى عمله ومتزلاه بالقاهرة في سنة ١٩٣٩ م الأمر الذي حرمه من الرجوع لكثير من المصادر المتصلة بدراساته وبخاصة كتاب ”الحجج“ للشيباني وكتاب ”السنن“ للشافعي.

[...the refusal of the Egyptian authorities to allow me to return to my work and home in Cairo in 1939 deprived me of the use of

my library at the time I needed it most. I particularly regret that I was thereby prevented from consulting the Kitab al-Hujaj by Shaibani, the Kitab al-Sunan by Shafi's ...].^(١)

يرى شاخت أن المدارس الفقهية المذكورة آنفًا كانت تميّز بفضيلتها لآثار الصحابة والتابعين على الأحاديث النبوية، وبعبارة أخرى يرى شاخت أن تلك المدارس الفقهية تتسم بروح عدائية وغير مرحبة بالسنة النبوية.

ويرى شاخت—أيضاً—أن المتكلمين كانوا يعادون السنة النبوية، ويقصد بالمتكلمين "المعتزلة". ويزعم شاخت أن مظاهر العداوة للسنة النبوية كانت تمثل في طائفتين: طائفة معتدلة، وطائفة متطرفة. أما الطائفة المعتدلة في رفضها للسنة فهم أصحاب المدارس الفقهية المشار إليها سابقاً، وأما الطائفة المتطرفة في رفضها للسنة فهم المتكلمون من المعتزلة.

الخلفاء الأوائل ويقصد بهم الأربعة الذين خلفوا رسول الله ﷺ كانوا مشرّعين للأمة، وبيدو—على حد زعم شاخت—أنهم لم يستمدوا أحكامهم من مصدر أعلى. وأنهم—أي الخلفاء الأربعة—لم يعيّنوا القضاة. وأن الخلفاء الأمويين هم الذين خطوا خطوة مهمة بتعيينهم القضاة الإسلاميين. وكان أولئك القضاة يختارون من مجموعة "الناس الأتقياء" على حد تعبير جوزيف شاخت. وأن هؤلاء "الناس الأتقياء" هم الذين أصبحوا نواة المدارس الفقهية القديمة. وكل هذا الكلام قد حدث في العقود الأولى من القرن الثاني الهجري. وهذا يعني أن شاخت يقول بصراحة بأن الفقه الإسلامي لا علاقة له بالقرآن ولا بالسنة النبوية ولا بالجيل الأول من الصحابة والتابعين، وإنما نشأت كل تلك الحركة الفقهية في القرن الثاني، وفي العهد الأموي.

ما أبرز شيء فعلته تلك المدارس الفقهية القديمة تجاه الفقه؟ يرى شاخت أن تلك المدارس كانت تقوم بإرجاع "الأمر المجتمع عليه" إلى شخصيات كبيرة من الماضي. وهي تفعل ذلك—ربما—لتعطى لذلك الأمر المجتمع عليه مزيداً من الحجية! ولكن لماذا تفعل ذلك وهي أصلاً تعادي السنة النبوية. إن شاخت لا يملك الإجابة عن هذا التساؤل المشروع. ويقول شاخت إن الكوفيين كانوا سباقين في هذا العمل أي في نسبة "إجماعهم" إلى

الشخصيات الكبيرة الماضية ؛ فقد نسبوا نظرياتهم إلى أشخاص من أمثال إبراهيم النخعي ، ولم يقفو عند أمثال هذه الشخصيات المتأخرة في الزمن نسبياً بل رجعوا بهذه الآراء إلى نقطة البداية في الإسلام حيث إنهم أشركوا عبدالله بن مسعود في هذا العمل أي أدخلوه في أسانيدهم. وهذا يعني أن أصحاب هذه المدارس الفقهية قد قاموا منذ البداية بعملية وضع للأسانيد حسب زعم شاخت.

ويرى شاخت - في كلام ربيا ينافق النقطة السابقة - أن الحديث النبوى لم يصبح هو السنة إلاّ بعد الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، ولقد أفرد شاخت دراسة مفصلة ومتكاملة عن الشافعى في كتابه ”أصول الشريعة المحمدية“ وعن الحركة التي قام بها الشافعى في وضع قواعد الفقه الإسلامي. لقد اعتمد شاخت في الأساس على كتابين من كتب الشافعى وهما ”الرسالة“ و ”اختلاف الحديث“. ولا بد من ذكر أن رأي شاخت في الإمام الشافعى رأى سلبي للغاية. غير أنه يعتمد عليه في المقولات التي توافقه ، ويرفض الآراء التي تختلف دون مبرر علمي منطقي.

يعتبر شاخت أن الشافعى هو رافع لواء مدرسة الحديث لأول مرة في تاريخ تطور الفقه الإسلامي. بل إنه الذي أعطى القرآن الكريم مكانته في أصول التشريع بعد أن لم يكن كذلك في العهود الإسلامية الأولى. إن الشافعى - بلا شك - كان يتقدّم مسلك بعض الفقهاء الذين يستعملون الرأي والاجتهاد بضروبه المختلفة ويتركون أحاديث نبوية ؛ فالشافعى إذن يتقدّم هذا المسلك. ولكنّ أولئك الأئمة من الفقهاء لم يكونوا يترون الحديث عمداً ومع سبق الإصرار ، وإنما كانوا ينظرون ربيا في أسانيد بعض تلك الأحاديث ، وربما انتقدوا تلك الأسانيد ومن ثمّ ردوا تلك الأحاديث بسبب علمي وجيه. وربما لم تصل بعض تلك الأحاديث لأحد الأئمة من الفقهاء فحّكّ رأيه واجتهد في القضية. ولكن في العموم كان أئمة المدارس الفقهية القديمة جميعاً ودون استثناء يقررون أنه إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبهم ، وأن المتبَّع لهذه المدارس إن وجد رأياً لإمام من أئمة هذه المدارس يخالف حديثاً للنبي ﷺ فعليه أن يتّبع الحديث ويضرب برأي إمامه عرض الحائط. ولكن شاخت يتّخذ من هذا النقد الموضوعي الذي قام به الشافعى تجاه أصحاب المدارس الفقهية ذريعة لكي يصل من خلالها إلى أن أصحاب تلك المدارس الفقهية القديمة كانوا يعادون السنة النبوية ويفضّلون آراء الصحابة والتابعين عليها.

يرى جوزيف شاخت أن حركة المحدثين في القرن الثاني الهجري جاءت نتيجةً طبيعيةً لاستمرار حركة المعارضة للمدارس الفقهية القديمة ، والتي – أي حركة الحديث – كانت متأثرةً بالدين والأخلاق. ويفهم من هذا الكلام أن حركة الفقهاء والمدارس "المذاهب" الفقهية لم تكن متأثرةً بالدين والأخلاق!! ولكن يتذكر الباحث أن شاخت كان قبل قليل يرى أن المدارس الفقهية خرجت من القضاة وهم "الناس الأتقياء" الذين عينهم الخلفاء لتولّي القضاة ؛ فالتناقض واضح في مقولات جوزيف شاخت. وحينما ظهرت مدرسة الحديث فإن كافة المدارس الفقهية القديمة قد واجهتها بمعارضة شديدة وذلك لأنها وجدت في الحديث النبوى الجديد!!! عنصراً جديداً وغريباً ومشوشًا عليها!!! ولكن يبدو أن المحدثين قد انتصروا على أصحاب تلك المدارس حيث إنهم استطاعوا فرض عنصرهم الغريب المشوش على الفقهاء ، وأنهم حملوا الفقهاء على مجاراةهم في هذا الوضع فانتصر مبدأ أن الحديث مصدر للتشريع الفقهي مع القرآن ، وأن السنة أصبحت تعني هذا العنصر الجديد وهو الحديث النبوى بعد أن كانت تعني سنة المجتمع التي توارثها الناس عن السلف من الصحابة والتابعين. ولكن من أين ورثها الصحابة والتابعون؟ هذا السؤال البسيط الذي يعرفه كل مسلم يجهله أو يتتجاهله شاخت عن عمدٍ وسبق إصرار!!!

ومن خلال النقاط السابقة يتضح أن جوزيف شاخت يختزل ويختصر كل تلك الفترة الطويلة التي مرّ بها الفقه الإسلامي – يختزلها في فترة زمنية محدودة للغاية تمثل في ثلاثة عاماً فقط تنحصر بين سنة ١١٠ هـ وهي السنة التي مات فيها الفقيه عامر الشعبي ، والفقية الحسن البصري ، ومعلوم أن الحسن البصري كان من كبار التابعين ، بل إن أهل البصرة يعتبرونه أفضل التابعين. وهذا يعني أن الفقه الإسلامي و المدارس الفقهية القديمة لم تكن موجودة إلى ذلك الزمن المتأخر. وإذا كانت المدارس الفقهية قد تكوّنت في حدود سنة ١٤٠ هـ فإن الفترة الزمنية بين سنة ١١٠ هـ وسنة ١٤٠ هـ هي ثلاثون سنة فقط ، وقد شهدت كل تلك التطورات التي طرأت على الفقه الإسلامي.

إن الباحث يجد نفسه أمام مجموعة من الأحداث التي لا يمكن أن تحدث في فترة ثلاثة عاماً فقط. لقد تبنت نظرية شاخت هذه المقولات التي يصعب تصديقها ؛ فليس من المعقول أن تحدث الأمور التالية في هذه المدة اليسيرة :

ولادة المدارس الفقهية القديمة في سنة ١١٠هـ :

تطور هذه المدارس ، وتطور فكرة الإجماع في داخل كل مدرسة على حدة . نسبة أقوالهم إلى الشخصيات الكبيرة الماضية مثل نسبة العراقيين أقوالهم إلى إبراهيم النخعي .

تطور آخر في نسبة أقوالهم إلى شخصيات أسبق زمناً مثل مسروق .

تطور آخر في نسبة أقوالهم إلى الصحابة كنسبة هذه الأقوال إلى عبد الله بن مسعود .

تطور آخر في نسبة هذه الأقوال إلى النبي ﷺ .

ولادة حزب المعارضة وهم المحدثون الذين عارضوا المدارس الفقهية واحتزروا الأحاديث متوناً وأسانيد .

وضع الأحاديث النبوية مفصلاً عن سيرة النبي ﷺ ، ووضع أقواله وأفعاله ، وكذلك وضع سير الصحابة وأقوالهم وأفعالهم .

الخصوصة والصراع المحتمد بين حركة المعارضة الدينية وبين أصحاب المدارس الفقهية القديمة .

انهزام المدارس الفقهية القديمة أمام حركة المحدثين ورسوخ سلطة السنة النبوية ، وكل ذلك بالطبع نتيجةً لعمل الشافعي .

إن هذه الثلاثين سنة آنفة الذكر تمثل سنوات الوضع والتأسيس للفقه الإسلامي ، وينخلص منها الباحث أن جوزيف شاخت يحذف الفترة الأولى من تاريخ التشريع الإسلامي ، وهي الفترة النبوية ، وينسف الحديث النبوي المروي عن رسول الله ﷺ ، ويحكم على كل التراث الحديثي الذي رواه الصحابة والتابعون بأنه تراث غير حقيقي ومكذوب ومحتلق في فترة لاحقة .

كما يلاحظ الدارس أن جوزيف شاخت قد أخطأ خطأ جسيماً من الوهلة الأولى حيث إنه استبعد القرآن الكريم عن دائرة الفقه وعن دائرة الشريعة ، ويعتبر هذا الخطأ من الأخطاء المنهجية غير المقبولة . فكيف لدارسٍ ي يريد أن يدرس الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي بدون الرجوع إلى القرآن الكريم الذي يحتوي على كثير جداً من آيات الأحكام التشريعية في كل المجالات من أحكام أسرية وجنائية وتشريعات حرب وسلم وعلاقات دولية وقضايا ميراث وبيوع ورهن وزكوات وصدقات مالية . إنه لا يمكن لباحث ي يريد دراسة الفقه

والشريعة في الإسلام أن يتجاهل القرآن الكريم بصرف النظر عن إيمانه أو عدم إيمانه بأن القرآن وحٰيٰ من عند الله. يكفي أنه الكتاب الذي يؤمن به المسلمون ، ويأخذون منه تشعّاتهم. ولكن بالرغم من أن الأعظمي اعتبر استبعاد شاخت للقرآن الكريم بمثابة خطأ منهجي كبير إلا أن شاخت قد وضع خط رجعة وأثبتت الدور التشريعي للقرآن بخاصة في أمور قوانين الأسرة وتشريعات الميراث. يقول :

[It is true that a number of legal rules, particularly in family law and law of inheritance, not to mention cult and ritual, were based on the Koran from the beginning].^(v)

إن مظاهر التطرف تبدو بصورة واضحة في هذا المسلك غير العلمي الذي سلكه جوزيف شاخت في تعامله مع المصادرين الأساسيين للتشريع وللفقه في الإسلام. إن جوهر النظرية الشاختية يتمثل في فك الارتباط بين الفقه والتشريع الإسلامي وبين القرآن الكريم والسنّة النبوية. لكن من أين جاء المسلمون بهذا الفقه وبهذا التشريع؟! إن الإجابة الجاهزة عند شاخت وعند غيره من متطرفي المستشرقين أن المسلمين جاءوا بالكثير من تلك التشريعات من أهل الكتاب ”اليهود والمسيحيين الشرقيين“ ، ومن عادات المجتمع العربي وأعرافه الجاهلية. ولكن الدراسات الاستشرافية نفسها لا تُنكر التغيير الجذري والأساسي الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي آنذاك ، ولا ينكرُون الانقلاب المأهلي الذي أحدثه القرآن الكريم وأحدثه النبي ﷺ في معتقدات العرب. وإذا كان الإسلام قد أحدث ذلك الانقلاب العقائدي أفليس من الغريب أن يحدث ذلك الانقلاب في المستوى العقائدي ولا يصاحبه تغيير في المستوى التشريعي القانوني الفقهي؟!! هل من العلمية في شيء أن يتحدث الدارس لتاريخ تطور الفقه الإسلامي عن سنة المجتمع التي توارثها الصحابة والتابعون وأصبحت سنةً للمجتمع وللمدارس الفقهية بدون أن يناقش أصل القضية وهو من أين جاء الصحابة والتابعون بهذه السنّة؟ وهل يستطيع شاخت أن ينفي دور النبي ﷺ في وضع القواعد الأساسية للتشريع الإسلامي؟ وهل يستطيع شاخت أو غيره من المستشرقين أن ينفي العلاقة الوثيقة والصلة الراسخة بين القرآن الكريم وبين السنّة النبوية المطهرة؟ وهل

يستطيع أن يقدم دليلاً علمياً واحداً على أن الصحابة والتابعين لم يكونوا على علم ودرية بأن القرآن والسنة هما مصدرا التشريع الأساسيين في الإسلام؟!

إن جوزيف شاخت لم يستطع أن يقدم دليلاً علمياً منطقياً مقبولاً على نظريته تلك في كتابيه آنفي الذكر وذلك برغم المكانة السامية التي حظي بها هذان الكتابان وحظي بها شاخت نفسه في الدوائر الاستشرافية الغربية ، وحتى أن بعض كبار المستشرقين وصف نظريته بأنها غير قابلة للدحض ، وأنها سوف تظل أساساً لكل دراسة قادمة عن الفقه الإسلامي وعن الشريعة الإسلامية على الأقل في الغرب كما صرّح بذلك المستشرق هاملتون جب.

نقد نظرية شاخت حول الفقه الإسلامي :

لاشك أن المقالة قد لمست شيئاً ولو يسيراً من نقد نظرية شاخت في أثناء استعراض أبرز مظاهر تلك النظرية. لكن لا بد من الوقوف عند حركة نقد الاستشراق بين الدارسين المعاصرين من العرب والمسلمين ، وهي حركة كانت إلى عهد قريب جداً تتسم بالتسريع والانطباعية ، وبعدم التعمق في دراسة كتابات المستشرقين ، والكثيرون من ناقدى حركة الاستشراق من العرب والمسلمين كانوا ضمن العاملين في الدعوة الإسلامية ، وكانوا يتحركون بمشاعر العاطفة الجياشة دون التسلح الكافي بالأدوات العلمية والمنهجية بل واللغوية التي تمكّنهم من فهم مقولات المستشرقين على وجهها الصحيح. لكن في الآونة الأخيرة ظهر جيل من العرب والمسلمين الذين درسوا في الجامعات الغربية ، ولعلهم تلذموا على بعض أولئك المستشرقين ، ولقد سلحو بالمنهجية العلمية ، وبأدوات البحث العلمي ، وباللغات التي كتب بها المستشرقون أبحاثهم. ومن هنا جاء نقدهم لكتابات المستشرقين بالصورة العميقه المطلوبة التي كشفت الكثير من الغواصات والمبهمات. ولعل أبرز أولئك الناقدين حركة الاستشراق وبخاصة لكتابات شاخت الدكتور محمد مصطفى الأعظمي الذي كتب كتاباً خاصاً تبع فيه النظرية الشاختية ، كما أنه كتب مجموعة من المقالات العلمية التي شرح فيها نظرية شاخت وبين جوانب ضعفها ، وقدم الأطروحتات النقدية التي بني عليها نقده المتمكن لهذه النظرية. وبرغم أن النقد الذي ساقه الأعظمي يحظى

بالأهمية الكبرى وذلك لمكانته في دراسات الحديث والفقه إلا أن نقدّه يحتاج إلى توضيح وبيان في بعض الجوانب.^(٨)

لقد انتقد الأعظمي شاخت من ناحيةٍ منهجية علمية وذلك في إبعاده القرآن الكريم من دائرة اهتمامه إذ كيف يتأتّى لدارس للفقه الإسلامي وللشريعة الإسلامية أن يتتجاهل القرآن الكريم؟! وقد اتضح كيف أن شاخت قد أثبت دور القرآن في بعض الجوانب التشريعية. كما أنه وصف القانون الإسلامي بأنه "مقدس"؛ ومن أين جاءت هذه القدسية إن كان القانون الإسلامي لا يرتبط بالقرآن الكريم؟!!

ثم كيف له أن يتتجاهل الحديث النبوى ، ويحكم ذلك الحكم الجائر وغير العلمي على الأحاديث النبوية بأنها أمر دخيل وغريب ومشوش دخل بدون وجه حق على أصحاب المدارس الفقهية القديمة. والدكتور الأعظمي الهندي الأصل حاصل على الدكتوراه في علوم الحديث من جامعة كمبردج البريطانية ، وكان فحوى الرسالة ومضمونها إثبات أن الحديث النبوى كان مكتوباً منذ العهد النبوى ولم يمر بمرحلةٍ شفويةٍ صرفة حتى ظهور حركة التدوين الكبرى وحتى ظهور أصحاب الكتب الحديثية الكلاسيكية. وهو في هذا الميدان أفضل من يرد على شاخت ويدافع عن الحديث النبوى.

لقد ذهب شاخت إلى القول إن أصحاب المدارس الفقهية القديمة كانوا يفضلون آثار الصحابة والتابعين على حديث رسول الله ﷺ بل إنه يقول إنهم كانوا يعادون السنة النبوية ، ولكن ظهور الشافعى وقيام حركة المعارضة الحديثية شكّلت عامل ضغطٍ على الفقهاء المتأخرین فأصبحوا يستشهدون بالحديث النبوى ويفضّلونه على آثار الصحابة والتابعين عكس ما كان سائداً من قبل. ثم يقدم شاخت جدولًا يتضمن مجموعة من الكتب بعضها متقدّم وبعضها متأخر نسبياً في الزمن ، ويريد شاخت من هذا الجدول أن يثبت قضيته هذه ولكن الغريب في الأمر أن الجدول لا يقف دليلاً على نظريته بل يقف دليلاً دامغاً ضدها. وليس بالإمكان استعراض الجدول بصورةه الكاملة ولكن الصورة الموجزة له تفيد بأن موظف مالك الأقدم زماناً يتضمن ٨٢٢ حديثاً نبوياً بينما يتضمن ٦١٣ أثراً موقوفاً عن الصحابة

^(٨) انظر عبدالمجيد تركي ، في مقدمته لتحقيق كتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول لأبي الوليد الباقي ، المجلد الأول ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٥ م ، ص ٣٠ وما بعدها.

ويتضمن ٢٨٥ أثراً منسوباً للتابعين. ولابد من تذكر أن مالكاً هو أحد أصحاب المدارس الفقهية القديمة التي وصفها شاخت بأنها كانت تعادي السنة النبوية وفضل آثار الصحابة والتابعين عليها!! وهذا هو الإحصاء الذي قدّمه شاخت يكذب زعم شاخت!!! وأما موطأ الشيباني الذي جاء زميّاً بعد مالك فتوقع حسب نظرية شاخت أن تزيد كمية الأحاديث بسبب ضغط المعارضة الحديثية ولكن يخيب هذا التوقع فالآحاديث في موطأ الشيباني ٤٢٩ حديثاً أي أنها تقل عن آحاديث موطأ مالك وهي قريبة عنده من آثار الصحابة [الحديث الموقوف] ٦٢٨ أثراً عن صاحبها. وفي آثار أبي يوسف نجد الأحاديث النبوية لا تتعدي ١٨٩ حديثاً ، وأما آثار الشيباني فأحاديثه ١٣١ حديثاً فقط. إن مُضيَّ الزمن يؤكد أن الأحاديث حسب إحصائية شاخت نفسه في تناقض وليس في تزايد ، وأن عدد الأحاديث في موطأ الإمام مالك وهو أحد أئمة المدارس الفقهية يؤكد أن مذهب شاخت الذي يزعم بأن أصحاب تلك المدارس يعادون السنة النبوية زعم لا يقوم على أساس. ولكن شاخت يقرر حقيقة ربما تختلف ما ذهب إليه ، ومفادها أن حجة أصحاب المدارس الفقهية في اعتقادهم على أحكام الصحابة أن الصحابة أعلم الناس بأمر النبي عليه الصلاة والسلام. حيث يقول :

[Their common thesis that the companions could not be unaware of the sunna of the Prophet and would know it best, takes its place beside other arguments put forward against traditions of the Prophet].^(٤)

وللمرء أن يعجب من هذا التناقض في هذه العبارة فأولها إيجابي مع السنة النبوية وآخرها سلبي !! فإذا كان أصحاب المدارس الفقهية يأخذون بآراء الصحابة لأنهم أعلم الناس بالنبي فكيف تكون هذه الحجة ضد السنة؟! بل هي تؤكد على أهمية السنة وعلى اهتمام أصحاب المدارس الفقهية بأمرها.

إن فقهاء المدارس الفقهية القديمة ”العراقية والمدنية والشامية“ كلهم يقررون بأنهم يقبلون السنة النبوية ، ولكن شاخت لا يقبل هذا الاعتراف!! وبرغم اعتماد شاخت على الشافعي إلا أنه لا يقبل كلام الشافعي عندما يقول إن أصحاب تلك المدارس يتلقون معه في قبولهم للسنة النبوية. ولكنه يقبل كلام الشافعي حينما يقول إن أصحاب تلك المدارس قد

تركوا مجموعة من الأحاديث!! إن شاخت - كما جاء سابقاً - له رأي سلبي للغاية في الإمام الشافعي مثل اتهامه له بعدم الأمانة العلمية!! وبأنه يزيد في كلام خصوصه من عند نفسه!!! ويرغم ذلك أخذ كلامه الذي يفيد بأن أصحاب المدارس الفقهية تركوا بعض الأحاديث وعمّم هذا الكلام بصورة غير علمية واستنبط منه أن هؤلاء الفقهاء يرفضون السنة جملة واحدة!!! إن شاخت لا يسلك سلوكاً علمياً منضبطاً حينما يأخذ قول الشافعي الذي يعتقد الفقهاء في أنهم يتركون شيئاً يسيراً من الأحاديث ثم يعمّم هذه الجزئية البسيطة و يجعلها قاعدةً عامةً. ومن هنا فإن الأعظمي ينقد هذا الأسلوب بطريقة حادة وساخرة حيث يقول إن شاخت يجعل من ١٪ بسهولة كبيرة ١٠٠٪ ، وأن الأصفار على اليمين لا قيمة لها عنده!!!!

ومن أبرز الآراء المطرفة عند شاخت اعتباره أن المعتزلة هم الفئة المطرفة في معاداة الأحاديث النبوية ، ويرغم أنّ كبار المعتزلة ينفون عن أنفسهم هذه التهمة إلا أن شاخت يصر على هذا الرأي ؛ فالخياط المعتزلي الذي ألف كتابه "الانتصار" قبل سنة ٣٠٠هـ يورد فيه مجموعة من النقول عن كبار معتزلة القرنين الثاني والثالث الهجريين تفيد بأنهم يلتزمون بالسنة. يرفض شاخت ذلك ويقول إنه لا يعبر عن موقف المعتزلة ولا يمثلهم. ويبدو أن شاخت أخذ رأيه هذا من بعض كتابات ابن قتيبة [ت ٢٧٦هـ] ، وابن قتيبة خصم للمعتزلة وهو يشير إلى مواقف بعض المعتزلة من أهل الكلام. وفي حقيقة الأمر فإن المعتزلة كانوا ينقسمون إلى فرق كثيرة وذلك لأنهم يقدمون العقل ويجعلونه فريراً وجد منهم من يعترض على بعض الأحاديث والسنة: ^(١٠)

إن الأعظمي يقف موقف الناقد الشديد لسلوك شاخت من المدارس الفقهية ، وهو أنه يعتبرهم مخالفين للحديث رافضين للسنة النبوية معتمداً على نصوص يسوقها من كتب الشافعي غير أن تلك النصوص لا يمكن أن تساعده على هذا الاستنتاج. ولا يدرى هل يعاني شاخت من عدم فهم النصوص العربية أم أنه يعتمد عدم الفهم ومن ثم يخرج بتلك النظريات الغريبة؟!! يقول شاخت بوضوح كامل : إنّ العراقيين يتزلون السنة النبوية في

المنزلة الثانية بعد آثار الصحابة ، ويقول : هذا واضح من كتابات الشافعي. ولكن النص الذي ساقه واقتبسه من الشافعي لا يمكن أن يفهم هذا الفهم !!

وها هو نص الشافعي : ”وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَخْالِفُونَ الْوَاحِدَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ خَالَفُوا حَكْمَ عُمَرَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَقْبِلُونَ مِنْ أَحَدٍ تَرْكُ الْقِيَاسِ ، وَقَدْ تَرَكُوهُ ، وَقَالُوا فِيهِ قَوْلًا مُتَنَاقِضًا“ انتهى نص الشافعي .

قبل الحديث عن مضمون هذا النص لماذا يستشهد شاخت بالشافعي مع رأيه السلبي فيه؟ ولماذا لا يستشهد بأقوال الفقهاء العراقيين أنفسهم الذين يقولون ويكررون القول : ”لَا حَجَّةٌ فِي أَحَدٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ“؟ وهل هذا النص الذي استشهد به شاخت من كلام الشافعي يحمل في طواياه أن العراقيين يجعلون السنة النبوية في المرتبة الثانية بعد آثار الصحابة؟!

أما موقف شاخت من المدرسة المدنية بزعمه مالك فهو موقف غريب للغاية. يقول شاخت عنهم : إنهم استعملوا السنة النبوية في قضايا كثيرة ، وأهملوها وتجاهلوها في أحوالٍ كثيرة!!! وللباحث أن يسأل ما هي هذه الأحوال الكثيرة التي خالف فيها مالك رأس المدرسة المدنية السنة النبوية؟! لقد احتوى موطأ مالك على ٨٢٢ حديثاً وترك العمل بثلاثة أحاديث فقط. وروى ٦١٣ أثراً عن الصحابة وترك العمل بعشرة منها فقط!!! برغم هذه الإحصائية الواضحة لكل ذي بصر وبصيرة فإن شاخت يعتبر أن المدنين لا يعتمدون على السنة النبوية في بحوثهم الفقهية ، وأن الاعتماد على العمل هو وحده الذي يبنون عليه استدلالاتهم الفقهية حتى جاءهم الشافعي وغيره عندهم هذا الاتجاه.

إن تطرف شاخت قد جعله متخصصاً في عدم فهم النصوص واستنطاقها بما لا تتحمل من المفاهيم. وهنا نص آخر يفهم منه شاخت فهـماً عجـياً مفاده أن الناس قبل حركة المحدثين كانوا يفضلون آثار الصحابة على حديث النبي ﷺ . النص يرويه معاذ عن صالح بن كيسان : ”قال معاذ : أخبرني صالح بن كيسان قال : اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا : نكتب السنن. قال : وكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ . قال ”يعني صالح“ : ثم قال ”يعني الزهري“ : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سنة. قال ”الراوي وهو معاذ“ :

قلت "يعني صالح" : إنه ليس بسنة فلا نكتبه. قال " صالح" : فكتب ولم أكتب فأنا ج
وضيّعت" انتهى النص.^(١٢)

كل ما يمكن فهمه من هذا النص أن صالحًا بن كيسان والزهري قد طلبًا العلم سوياً
وكتباً حديث رسول الله ﷺ ، وبعد أن انتهيَا من كتابة الحديث اقترح الزهري على صاحبه
أن يكتباً آثار الصحابة لأنها من السنة ، ولكن صالحًا لم يقبل هذا الاقتراح واكتفى بكتابه
الحديث النبوي وترك كتابة آثار الصحابة بينما واصل الزهري كتابة آثار الصحابة. وكان
تعليق صالح بن كيسان على ذلك بأن الزهري قد نجح وأنه "أي صالح" قد ضيّع!!! هذا
كلام واضح كل الوضوح ولا يحمل أبداً تفضيل آثار الصحابة على السنة النبوية المطهرة. لكن
كيف فهم شاخت من النص هذا الفهم الغريب فهذا هو السؤال. ولماذا يستنبط جوزيف
شاخت من النصوص ما ليس فيها أهو التحامل على الإسلام والتطرف والعصبية
الاستشرافية؟ أم هو الجهل وعدم المعرفة باللغة العربية التي كتب بها أولئك العلماء والفقهاء
المسلمون؟! ولعله من المستبعد أن يكون شاخت المستشرق المتضلّع وتلميذ إنجناس
جولديزير جاهلاً باللغة العربية. بل إن المتتّبع لكتابات شاخت يجد فيها الاجتهاد والعناء
والتنقيب والبحث المضني ولكنّه يسير بعد كل ذلك البحث الشاق في طريق غير قويم ، وفي
صراطٍ غير مستقيم!!! لكن ما القول إذا كان هذا النص ينسف نظرية من جذورها ويأتي على
قواعدها بصورة تامة. إن شاخت يصر على أن حركة المعارضة الحديثة كانت في القرنين الثاني
والثالث الهجريين ، وأن صناعة الأحاديث من ناحيتي المتون والأسانيد إنما جاءت متأخرة.
ولكن هذا النص المروي عن صالح بن كيسان والزهري يؤكّد أن حركة كتابة الحديث وجمعه
وتدوينه كانت مستمرة منذ القرن الأول ؛ فالزهري من مواليد الخمسينيات في القرن الأول
الهجري وهو من طبقة شيخوخ مالك بن أنس. إن شاخت الذي ساق هذا واستشهد به على أمر
لا يتواهم معه لابد أن يكون مقتنعاً بصحّته وإلاّ لما استشهد به. والنص يخالف نظرية شاخت
بصورة جلّية حيث إن شاخت يقول إن كل الأحاديث النبوية قد وُضعت في القرنين الثاني
والثالث الهجريين.^(١٣)

الأعظمي ، مصدر سابق ، ص ٩١^(١٢)

نفس المصدر ، ص ٩٢^(١٣)

جاء في نقد الدكتور الأعظمي لشاخت أن شاخت يزعم أن الناس كانوا يعتقدون أن آراء الصحابة كانت تتوافق مع أحكام رسول الله ﷺ. ويبدو أن هذا القول بصورته هذه ليس فيه غرابة ، وليس فيه ما ينتقد. ولعل الأعظمي لم يستطع التعبير بوضوح عن مضمون كلمات شاخت. إن اتفاق آراء الصحابة مع أحكام رسول الله ﷺ وقضاياها هو من الأمور الطبيعية ، وهذا بالفعل ما استخرجه الأعظمي من النص في نهاية دراسته له مما يؤكّد أن التعبير هنا لم يكن دقيقاً. ولكن شاخت يريد القول إن الناس كانوا ينسبون آراء الصحابة إلى رسول الله ﷺ ، وهو قد فهم هذا الفهم من نص لا يحمل هذا المعنى بل يحمل المعنى الإيجابي وهو اتفاق آراء الصحابة مع أحكام النبي عليه الصلاة والسلام حتى ولو حكموا باجتهادهم ولم يعرفوا حكمه عليه الصلاة والسلام في القضية. وقد حدث ذلك لابن مسعود رضي الله عنه حينما سأله عن الحكم الشرعي في قضية بعينها فقال إنه لا يعرف فيها حديثاً عن رسول الله ﷺ فسألته الناس عند ذلك أن يحكم فيها باجتهاده فحكم باجتهاده ورأيه ، وعند ذلك قام رجل من حاضري المجلس وقال إنه سمع أن رسول الله ﷺ قد حكم في مثل تلك القضية بمثل الحكم الذي حكم به عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وتقول الرواية إن ابن مسعود قد فرح فرحاً شديداً بكلام هذا الرجل أي أنه فرح بأن يتوافق حكمه الاجتهادي مع حكم رسول الله ﷺ. وليس هذا بمستغرب وذلك لأن الصحابة تربوا على يد رسول الله صلى الله عليه وتملّموا في مدرسته النبوية ومن ثم فليس بغرير أن تتوافق اجتهاداتهم مع أحكامه عليه الصلاة والسلام.^(١٤)

ومن أبرز الآراء المنطرفة التي نادى بها جوزيف شاخت أنه نسب الوضع إلى الإمام الأوزاعي إمام مدرسة أهل الشام ؛ فقد زعم شاخت أن الأوزاعي ”كان يميل إلى أن ينسب كل ما يجده من تعامل المسلمين في عهده إلى النبي ﷺ“ ... ويعطيه السلطة النبوية سواء كانت له أحاديث تؤيده أم لا ...“ وهذا يعني ببساطة شديدة أن الأوزاعي كان وضاعاً للحديث.^(١٥) وهذه التهمة الكبيرة لم يوصف بها الأوزاعي حتى من قبل خصومه ومن أبرزهم القاضي أبو يوسف وهو الذي كان يرد على اعتراض الأوزاعي على حسين قضية من القضايا

الأعظمي ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ .^(١٤)
Ibid, P72. ^(١٥)

التي خالفة فيها الأوزاعي أبا حنيفة. ومن خلال ردود أبي يوسف على الأوزاعي تتبين دقة الأوزاعي حيث كان يبين بوضوح كل قول وينسبه إلى صاحبه؛ فهو نسب بعض القضايا إلى النبي ﷺ نفسه، ونسب قضايا أخرى إلى الخلفاء بتفصيل دقيق، ونسب قضايا أخرى إلى عمل المسلمين وقادتهم، ونسب قضايا أخرى إلى استنتاجه، ونسب أخرى إلى اجتهاداته، ولم يذكر شيئاً في واحدة من تلك القضايا. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأوزاعي إمام أهل الشام كان ذا منهجية علمية دقيقة ومضبوطة، وكان يتسم بالأمانة العلمية، وكان ينسب كل قول إلى قائله؛ ومن هذا فإن القول بأن الأوزاعي كان ينسب عمل المسلمين في عصره إلى النبي ﷺ قول تكذبه الواقع، وأن جوزيف شاخت قد أعظم الفرية على هذا الإمام الجليل ونسبه إلى الكذب والافتراء على النبي ﷺ دون وجه حق.

وأما المقوله المتطرفة الأخيرة هنا – فهناك آراء متطرفة كثيرة غيرها – فهي قوله بأن الأسانيد المتصلة بالأحاديث النبوية مصنوعة صناعةً وموضوعة وضعاً بطريقة اعتباطية!!! ويستدل على ذلك بحديث أورده الإمام مالك في الموطن بروايتين، والحديث هو أن النبي ﷺ سُئل عن الضب فقال: لست بأكله ولا محّمه. والروايتان اللتان وردتا في الموطن هما:

رواوه مالك مرتاً عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ.

ورواه مرتاً أخرى عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ. ^(١٦)

وجوزيف شاخت يعتبر هذا نوع من الوضع الاعتباطي للأسانيد!!! بل إنه يقرر بصورة حاسمة: ^(١٧) [The Isnad were often put together very carelessly]. إن الدارس المبتدئ لعلم الحديث وعلم تراجم الرجال بصورة خاصة يعلم أن نافعاً وأن عبدالله بن دينار من موالي عبدالله بن عمر. أما نافع فقد عاش في المدينة النبوية لأكثر من ستين عاماً، وأنه قضى ثلاثين سنة في خدمة مولاه عبدالله بن عمر. وأما عبدالله بن دينار فهو الآخر قد قضى زمناً ليس باليسير في المدينة، وقضى زمناً في خدمة عبدالله بن عمر. وليس هناك ما يمنع هذين الجليلين من سماع شيء مشترك من ابن عمر. كما أنه ليس بمستغرب أن يسمع مالك هذا الحديث من الرجلين، وليس بغرير أن يورده في كتابه مرتاً بروايته له عن

الأعظمي، مصدر سابق، ص ١٠٥. ^(١٦)
Schacht, op, cit, P163. ^(١٧)

نافع ، وأن يورده مرةً أخرى بروايته له عن عبدالله بن دينار ، وذلك أن إيراد الحديث بروایتين اثنتين يعطيه مزيداً من القوة. وما يزيد الأمر قوةً أن سفيان بن عيينة المكي قد رواه أيضاً عن عبدالله بن دينار. وأورد الشافعي في "الأم" : أخبرنا الشافعي "طبعاً الشافعي يملي على الكاتب" ، وهذا ما جعل الأمر مشكلاً على بعض الباحثين حتى دفعهم للقول إن كتاب "الأم" ليس من تأليف الشافعي !!! عودة إلى متابعة الإسناد : قال : أخبرنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ ... الحديث " وهو حديث الصب" . وهذه الأسانيد تقوّي ما ذهب إليه مالك ، ولا تترك مجالاً للقول إن الأسانيد كانت ترکب بصورة اعتباطية كما ذهب إلى ذلك جوزيف شاخت. ومن المعلوم لدى دارسي أسانيد الأحاديث النبوية أنَّ هذا الإسناد الذي صوَّب إليه جوزيف شاخت سهامه هو من أجل الأسانيد عند المسلمين حيث إنهم يصفون هذه السلسلة بأنها "السلسلة الذهبية" ، وهي رواية مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ . وكيف يطلب شاخت من أولئك الفقهاء أن يستشهدوا بأحاديث هو نفسه يقول عنها إنها لم تُخترع إلا في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وأن الشائع في معنى السنة عند أولئك الفقهاء القدامى هو "سنة المجتمع" أو "الأمر المجتمع عليه بين الناس" !!!(١٤) فمن أين يأتيه أولئك الفقهاء بالأحاديث؟؟؟!!

ولعل من أهم الأمور التي ينبغي ذكرها هو المنهج والطريقة التي اعتمدتها شاخت لمعرفة صحة الحديث النبوي. ولكن يتذكر الدارس أن شاخت نفسه يقول بأنه لا يصح حديث واحد من الأحاديث الفقهية المنسوبة إلى النبي ﷺ ، وهو الذي يقول إن الأحاديث قد وضعت في فترة متأخرة أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وأن السنة لم تكن تعني إطلاقاً سنة النبي ﷺ ، وأن هذا المصطلح إنما ظهر بعد الحركة التي قام بها الإمام الشافعي وهي الحركة التي أسماها شاخت بحركة المعارضة الحديثية. بعد كل هذه الآراء المتطرفة التي حاولت نسف القواعد التشريعية الإسلامية وبخاصة حاولت نسف الحديث النبوي نجد أن شاخت يعود ليضع منهجاً لمعرفة الأحاديث النبوية الصحيحة !! ولكن ما هو هذا المنهج؟! إن شاخت يضع قاعدةً غريبةً كل الغرابة ، ولم يعرفها علماء الحديث الراسخون في هذا العلم !! إن قاعدة شاخت تقول : "إن عدم الاستشهاد بالحديث في الموضع الذي ينبغي أن

يُستشهد به على القضية موضع النقاش فإن هذا يعترى دليلاً على عدم وجود هذا الحديث أصلاً!! وبمعنى آخر فإن الحديث الذي لا يذكره الفقهاء الأقدمون في مواضع الاستشهاد فهذا يعني أن هذا الحديث لم يكن موجوداً في تلك اللحظة ، وإذا ظهر ذلك الحديث في مصدر متأخر فهذا يعني أن الحديث قد وضع في الفترة الزمنية المنحصرة بين المصدر الأقدم الذي لم يذكر فيه الحديث وبين المصدر الأحدث.

إن هذه القاعدة التي وضعها جوزيف شاخت لا تستقيم ولا تصمد أمام النقد العلمي ، وذلك لعدة أسباب أهمها : أن شاخت جعل أصحاب المدارس الفقهية القديمة حكماً على صحة الحديث بمعنى آخر فإن شاخت يقول إن الحديث الذي لم يذكره أصحاب المدارس الفقهية في مناقشتهم العلمية فهذا دليل على أن هذا الحديث لم يكن موجوداً في زمنهم. ولكن كيف يستقيم لشاخت أن يجعل أصحاب تلك المدارس معياراً لصحة الأحاديث النبوية وهم الذين وصفهم شاخت بأنهم كانوا يتصرفون بميولهم إلى معاداة السنة النبوية ويفضّلُون آثار الصحابة والتابعين عليها؟ فإذا كانوا كذلك فلماذا يتوقع منهم شاخت أن يستشهدوا بالأحاديث النبوية على فقههم؟ وأما إذا كان شاخت يتوقع بصدق أن يورد هؤلاء أحاديث النبي ﷺ في معرض مناقشتهم للقضايا الفقهية فعند ذلك يتوجب على شاخت أن يسحب ذلك الاتهام الذي ساقه ضدهم دون دليل أو برهان.

ولكن حتى إذا كان أولئك الأئمة من فقهاء المدارس الفقهية القديمة لا يتسمون بمعاداة السنة النبوية فليس من الواجب أن يذكر الوارد منهن الدليل على قضيته من السنة النبوية أو من القرآن الكريم. والناظر لكثير من كتب الفقه يجد أن الفقيه يذكر الحكم في القضية دون أن يذكر الدليل الذي استند عليه.

وهل كان أصحاب تلك المدارس محظيين بكل الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ؟ والإجابة بالطبع لا ؛ فبعضهم لم يسمع ببعض الأحاديث أو بالكثير منها ، وبعضهم إذا سمع بها لا يصح عنده إسنادها فينصرف عنها إلى رأيه واجتهاده.

إن قاعدة شاخت تختَّم عليه أن يقدم الدليل والبرهان على أن أصحاب المدارس الفقهية قد أحاطوا علمًا بكل الأحاديث التي نطق بها النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا غير ممكن.

ثم عليه أن يقدم الدليل والبرهان على أن الفقهاء يذكرون كل الأدلة التي يعرفونها حينما يناقشون قضيائهم الفقهية ، وهذا أمر يتذر على شاخت أن يفعله؟

ثم عليه أن يقدم الدليل والبرهان على أن كل الكتب التي صنفها الأقدمون قد وصلت إلى هذا العصر أو العصر الذي كتب فيه جوزيف شاخت كتبه وأخرج فيه نظرياته ، وهذا بدوره من الأمور غير الممكنة.

لقد امتدح الغربيون شاخت ، وأثنوا على نظريته ثناءً واسعاً ؛ فهذا هاملتون جب يصف كتاب شاخت بأنه سوف يكون أساساً لكل دراسة عن الشريعة الإسلامية وخاصة في الغرب. ولقد أثرت نظرية شاخت في عدد من المستشرين ودارسي الشريعة الغربيين من أمثال ”كولسون“ برغم الانتقاد الذي وجهه ”كولسون“ لمقولات شاخت.^(٢٠)

خاتمة :

وصفوة القول إن دراسة شاخت للفقه الإسلامي برغم الشمول والإحاطة والموسوعية التي اتسمت بها إلا أنها جاءت قاصرة و بعيدة عن المنهجية العلمية ، ولا يعفيه اعتذاره في بداية الكتاب أن السلطات المصرية منعته في سنة ١٩٣٩ م من العودة إلى منزله في القاهرة ومن ثم لم يتمكن من الوقوف على عدد كبير من المصادر الموجودة بمكتبه الخاصة خاصة كتاب الحجج للشيباني وكتاب السنن للشافعي. ويحتاج كتاباً شاخت ”أصول الشريعة الحمدية“ و ”مقدمة للقانون الإسلامي“ إلى مزيد من الدراسة النقدية التي تؤكد عدم اتساق نظريته ، وعدم مقدرتها على الصمود في وجه النقد خاصة وأنها جاءت متصادمة مع كثير من الدراسات الفقهية القانونية التي أجرتها المسلمون والمستشرون على حد سواء.

^(٢٠) انظر مقالة النظام القانوني الإسلامي في الدراسات الاستشرافية المعاصرة – دراسة لنهج المستشرق نويل ج . كولسون ، للدكتور محمد سليم العوّا ، ضمن مناهج المستشرين المشار إليها أعلاه ، ص ٢٥٣ وما بعدها.

المراجع :

- (1) أبو الوليد الباقي ، إحكام الفصول في أحكام الأصول ، حققه وقدّم له ووضع فهارسه عبدالمجيد تركي ، المجلد الأول ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٥ م. استعرض المحقق في مقدمته نظرية جوزيف شاخت بصورة وافية.
- (2) الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، المستشرق شاخت والسنّة النبوية ، مقال منشور ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، الجزء الأول ، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٩٨٥ م، ص ٦٣ إلى ص ١١٠ .
- (3) Joseph Schacht , The Origins of Muhammadan Jurisprudence, Oxford, At the Clarendon Press, Oxford University Press, Ely House, London W.i First Published 1950 (1953,1959,1967).



منابع التطرف وأسبابه

”دراسة في الحالة الإفريقية“

د. الصادق محمد آدم سليمان

جامعة النيل الأزرق - كلية التربية ، قسم اللغة العربية ، الدمازين

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٤٥-١٧٢)

ملخص الدراسة :

وتدور هذه الدراسة حول فلك النزاع والاختلاف والتفرق والتطرف والتنازع والتجاذب الحزبي والاقتتال الطائفي والإثنى الذي ضرب بأطنابه جميع زوايا القارة الإفريقية ، فحوّلها إلى مستنقع للصراعات ، فصارت أشلاء ، بعد أن كانت تحتوي على كل عناصر القوة والازدهار ، وكان السبب في كل ذلك الدور الخسيس الذي لعبته القوى الاستعمارية بمهارتها سياسة فرق تسد حين تدخلت في شؤون هذه القارة فأحدثت هذا التفرق والتطرف بين الأمة الإفريقية ، بفعل الأحزاب السياسية المستوردة بخلفياتها الأيديولوجية سواء كانت ليبرالية أم سلطوية أم شمولية تعددية ، أو أحادية التي خلقت البلبلة والاضطراب ، وخرقت النسيج الاجتماعي والثقافي للشعب . وعلى صعيد آخر ؛ فقد أفضت السياسة البراجماتية البريطانية إلى ظهور التزعزعات الإقليمية والعرقية ، وذلك بإعطاء الاستعمار البريطاني تنازلات كبيرة لصالح المستوطنين البيض مما أثار التطرف وخلق مشكلات جمة للمواطن الأفريقي ، ولنذكر نظام التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا.

وشهدت القارة الإفريقية تسييساً للظاهرة الإثنية ، من حيث تشكيل الأحزاب السياسية على أساس إثنية وما ترتب على هذا الأمر من تمثيل المصالح والتعبير عنها ، بل وتوزيع الثروة والسلطة وفقاً لهذه الأسس.

كما اتبّع الاستعمار سياسة ”فرق تسد“ ، وأعلى من شأن جماعات إثنية معينة على حساب الجماعات الأخرى التي ربما لا تمثل الأغلبية.^(١) كما مارس المستعمرون عمليات تهجير قسري لبعض الجماعات الإثنية خارج مناطقها الأصلية ، وذلك لخدمة مطامعه على حساب الاعتبارات الاجتماعية والمصالح الاقتصادية لتلك الجماعات.^(٢)

وهذه الدراسة تحاول قراءة منابع وأسباب هذا التطرف وربطها بأسبابها .

والله ولي التوفيق ، ، ، ،

^(١) مثل جماعة التوتسي في رواندا ، والتي تمثل ١٥٪ من السكان ، والتي فضلتها بلجيكا على جماعة الهوتو التي تمثل ٨٥٪ من السكان!

^(٢) ومن ذلك تهجير بلجيكا للآلاف من المزارعين من جماعتي الهوتو والتوتسي من رواندا إلى شرق الكونغو منذ العام ١٩٣٧ م ، وهو الأمر الذي جعل الشرق الكونغولي منذ ذلك الحين بؤرة للتوترات السياسية والأمنية ، ونقطة انطلاق للحروب الأهلية في البلاد!

محاور الدراسة :

عن إفريقيا حدت ولا حرج ، فقد ظلت مختبرا لنظريات الاستعمار الاقتصادية والسياسية والثقافية في بشاعة لم يحدث لها مثيل في التاريخ القديم و لا الحديث. ففي عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ انعقد مؤتمر برلين لتقنين الاستعمار والتهاافت على خريطة إفريقيا - فانهمرت بعده الشركات الاحتكارية على أشلاء القارة المنكحة.^(٣)

ومن جراء ذلك عانت القارة الإفريقية بشدة من التفرق والتطرف وما ترتب عليه من اقتتال وفقر ومرض وصراعات إثنية أخذت أشكالاً عديدة من التطرف وانتهاك حقوق الإنسان ، وخاصية ملزمة لتلك الصراعات ، وكان المستعمر أداة رئيسة من أدوات إدارتها ، وفي هذا السياق تشير الدراسات إلى وجود خمسة أشكال أساسية لهذه التطرف ؛ هي : الإبادة الجماعية ، وانتهاك حقوق الإنسان الأساسية ، وانتهاك الحريات المدنية ، وانتهاك الحقوق السياسية ، والتمييز الإثنى والاجتماعي^(٤) ، وتردي الوضع الاقتصادي ، وانتشار البطالة والفساد الموجود في النخبة السياسية ؛ وما زاد الأمر سوءاً استخدام بعض السياسيين الانقسامات العرقية والطائفية من أجل الوصول للسلطة ، وذلك عن طريق إثارة الاضطرابات العرقية والدينية ، مما يعطي الفرصة للتيارات الدينية المتطرفة كي تنشط بقوة ، على أساس أنها تدافع عن دينها وعقيدتها.

وانعكس ذلك على جميع نواحي حياة الإنسان الإفريقي ، وتحاول الدراسة أن تتناول العوامل والأثار المترتبة على الخلاف والتطرف في إفريقيا من خلال المحاور الآتية :

المحور الأول : المنابع والأسباب السياسية .

المحور الثاني : المنابع والأسباب الاجتماعية .

المحور الثالث : المنابع والأسباب الفكرية الثقافية .

المحور الرابع : المنابع والأسباب الاقتصادية .

٣) زاهر رياض. استعمار إفريقيا. الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ٩٦٥ م ، ص : ١٣٢ - ١٣٨.

٤) د. أيمن السيد شبانة (*) الصراعات الإثنية في إفريقيا .. الخصائص - التداعيات - سبل المواجهة ٢٠١٤ فبراير - مقال في الانترنت.

تمهيد :

دعت نصوص قرآنية كثيرة إلى الوحدة وعدم التطرف ونبذ التفرق ، قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... ﴾ [آل عمران : ١٠٣]. قال ابن كثير : وقوله " ولا تفرقوا " أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة .^(٥) وقوله تعالى : ﴿ ... أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَنَقَّرُوا فِيهِ ... ﴾ [الشورى : ١٣]. هذا إضافة إلى نصوص نبوية تأخذ بالنفوس إلى الوحدة والتعاون والتكاتف وعدم التفرق . وقد كانت قيادة الأمة الإسلامية في عصور العزة والتمكين ؛ موحدة مصونة من الانشقاق والتطرف ، يدين لها جميع الأمة بالسمع والطاعة والولاء والنصرة ، دلالة فعلية على الوحدة . وكان كل قول أو فعل يؤدي إلى شق العصا وتفريق الكلمة ؛ جريمة يعاقب عليها ، وكل تنظيم خارج على إمام المسلمين يعد من " الخوارج " ويخصم منهم بحكم الله ورسوله ، كما في قوله ﷺ " من أئاكم وأمركم جميع ، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه ".^(٦)

إن أي مجتمع إسلامي لا بد أن يقع له من الأزمات والصعوبات ما يستوجب اختلاف وجهات النظر ، ولكن عندما يحل الانفعال والتعصب محل العقل ؛ فإن أي حوار حينئذ سيسير به الهوى والتهاب والسباب ، وتراثي بالشعارات ، وانتصار للاتجاهات ، فحينئذ تقع داهية التفرق والتنافر ، فتنطلق وقتها حملات التشهير والتطرف ؛ فيصبح الخلاف في الرأي حينئذ انشقاقاً مذموماً ، يستحيل حينئذ معه الحوار البناء المثمر صلاحاً وإصلاحاً . أما في الحالة الإفريقية فالتطور له أبعاد كثيرة و مختلفة ، سياسية ، واقتصادية وثقافية ، ودينية ، وكان مثيرها وعاملها الأول هو المستعمر .

فقد تناقض الأوروبيون بشراسة للسيطرة على إفريقيا خلال القرن التاسع عشر . وبدأوا في إنشاء محطات تجارية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . وبحلول بداية القرن العشرين ، توّزّعت القارة تماماً إلى مناطق نفوذ استعمارية . لقد قاوم الإفريقيون الحكم الاستعماري منذ بدايته ، غير أن المطالبة بالاستقلال لم تأخذ شكل الحركة

^(٥) تفسير ابن كثير : ٣/٥٣٩ .

^(٦) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين : ٣/١٤٨٠ .

الشعبية إلا في أواسط القرن العشرين. وقد حصلت (٤٧) مستعمرة على استقلالها في الفترة بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٨٠م ، غير أن القادة في معظم هذه الدول الحديثة الاستقلال لم يكن بسعهم معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي ظلت قائمة بعد الاستقلال. ونتج عن ذلك أن انقلب قادة عسكريون على بعض تلك الحكومات وأطاحوا بها وأحلوا محلّها أنظمة استبدادية عسكرية. وأصبح نظام الحزب الواحد هو قاعدة الحكم في عدد آخر من البلدان. أما في وقتنا الحالي ، فإن التنافس العرقي والخلافات الإقليمية بين الدول تشكل عقبةً أمام استقرار إفريقيا ، إضافةً إلى ذلك ، فإن هناك مشاكل الضغط السكاني والفقر والمجاعة والأمراض ، وهي أكبر التحديات أمام القادة الإفريقيين.

فالآثار العامة للنظم الإدارية الاستعمارية في إفريقيا تمثلت أولاً في خلق مشكلة الحدود السياسية بين المستعمرات ، وربط إفريقيا بمنظومة علاقات الغرب ، وخلق نظم التفرقة العنصرية ، وانتهاك حقوق الإنسان الإفريقي ، مما ترك آثاراً متباعدة على القارة أدت إلى تفرقها وتشريذها ومن ثم ظهور التطرف فيها.

التحول الأول

النابع والأسباب السياسية للاختلاف والتطرف في إفريقيا

لقد أتى على القارة الإفريقية وشعوبها حين من الدهر ، عانت فيه العسف وشتي صنوف القهر والإبادة والتمييز العرقي الذي فرضه عليها الاستعمار.^(٧) والحديث عن الاستعمار حديث عن علاقات غير متكافئة بين إفريقيا وبين أوروبا التي تهافتت - بقوة السلاح - على باقي قارات العالم وشعوبه ، وبقوة التخريب لا بقوة التشيد تمكن من إخضاع هذه الشعوب وتسخيرها لماربها وفرضت عليها نظماً وأفكاراً كانت بمثابة نقطة تحول أدت إلى التفرق الإفريقي ، وكان السبب الأساسي في ذلك هو الأفكار والأيديولوجيات المستوردة المتمثلة في الآتي :

من كتاب " لمحات من تاريخ إفريقيا " تأليف - باسل ديفد سون ترجمة مركز البحوث والدراسات الأفريقية -^(٧)

الأحزاب والأيديولوجيات :

شهدت إفريقيا مجموعة من الممارسات الفكرية بعضها استند إلى إرث محلي أبرزها نظام الحزب الواحد ذي القاعدة الجماهيرية ، وكانت تمثله المجتمعات التقليدية ، وقد نجح نظام الحزب الواحد في تلك الفترة في تحقيق نجاحات كبيرة ، ولكنه فشل في تحقيق أي نجاحات تذكر في ظل الدولة الإفريقية الحديثة أو المعاصرة أو في تحقيق الوحدة الوطنية . وقد شهدت إفريقيا نماذج لممارسات سياسية استجلبت من خارج إطارها الجغرافي ، وأبرزها الانقلابات العسكرية التي لم تعرفها النظم الإفريقية التقليدية ، ولكنها انتشرت عقب عام الاستقلال الأفريقي [١٩٦٠ م] واستطاعت أن تعبر عن تطلعات النخب الفكرية والسياسية آنذاك.^(٨) وقد اختلفت نظم الإدارة الاستعمارية في إفريقيا بشكل واضح ، ومن ثم تركت آثارا متباعدة ، فقد تعامل البريطانيون والألمان بشكل عام على أنّ مستعمراتهم تمثل وحدات كاملة ، ومن ثم تعاملوا مع كل منها بشكل منفصل .

ومن جهة أخرى فإنّ الفرنسيين والبرتغاليين نظروا إلى مستعمراتهم على أنّها تمثل جزءا لا ينفصل عن الدولة الأم ؛ يعني ذلك ببساطة شديدة أنها مجرد مقاطعات فيها وراء البحار ، ولقد اتبعت فرنسا نظام الحكم المباشر الذي يعتمد على مركزية فرنسية واضحة في إدارة مستعمراتها ، وإلى جانب ذلك طبّقت سياسة ثقافية استهدفت نشر قيم وتراث الثقافة الفرنسية ، وقد بدأ تطبيق هذه السياسة في بادئ الأمر طبقا لمبدأ الاستيعاب Assimilation أو الفرنسة الجماعية ، وهي تقوم على فرض اللغة والحضارة والمفاهيم والنظم الفرنسية على الحياة الإفريقية حتى يصبح الأفارقة فرنسيين في كل شيء فيما خلا لون جلودهم .

بيد أن التجربة أثبتت فشل خطة الفرنسيين في فرنسة الأفارقة ، وعليه فسر عان ما تبنت فرنسا سياسة جديدة أطلق عليها اسم : فرنسة النخبة ، لخلق نخبة إفريقية مثقفة قادرة على قيادة مجتمعها وتصبح بمثابة الوسيط بين الرسالة الحضارية الفرنسية والشعب الإفريقي المتخلف مما خلق الفرق بين النخبة والشعب .

^(٨) أسامة على زين العابدين . المرجعية الاجتماعية والممارسة الديمقراطية في إفريقيا المعاصرة ، المرصد الثقافي ، ورقة منشورة في أعمال ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا ، الجزء الأول ، ص :

ومن أهم مظاهر التفرق السياسي بين الأفارقـة تبني الأيدلوجيات الغربية وهي :
أولاً : النظام الديمـقراطي المتعدد الأحزـاب :

أورث الاستعمار الأوروبي كثيراً من المستعمرات في إفريقيا نظماً ديمـقراطـية على النـمـط الغـربـي ، ورغم أنها حقـقت نـجـاحـات مـقـدـرة لـلـمـجـتمـعـات الغـربـيـة ، إـلاـ أنهاـ كـانـتـ وبـالـاـ عـلـىـ المـجـتمـعـ الإـفـرـيقـيـيـ إذـ لمـ تـعـنـ لهاـ الفـرـصـةـ الكـافـيـةـ لـتـحـقـيقـ اـنـجـازـاتـ تـذـكـرـ عـنـ تـطـيـقـهاـ فيـ إـفـرـيقـيـاـ ،ـ وـيـعـزـىـ ذـلـكـ إـلـىـ تـحـوـفـ الـقـادـةـ الـأـفـارـقـةـ مـنـ آـثـارـهـاـ السـالـبـةـ عـلـىـ النـسـيـجـ الـاجـتـمـاعـيـ لـلـشـعـوبـ الإـفـرـيقـيـةـ ،ـ وـأـشـارـواـ إـلـىـ عـدـمـ تـهـيـئـةـ الـبـيـئـةـ الإـفـرـيقـيـةـ لـمـلـكـ هـذـاـ النـمـطـ مـنـ الـمـارـسـةـ السـيـاسـيـةـ رـغـمـ أـنـهـ جـاءـواـ إـلـىـ قـمـ الـحـكـمـ فيـ دـوـلـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ النـمـطـ مـنـ الـمـارـسـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ ،ـ وـهـمـ بـذـكـرـ جـعلـواـ نـجـاحـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ يـتـطـلـبـ مـقـدـمـاتـ وـشـرـوـطـاـ لـمـ تـسـتـوفـهـاـ إـفـرـيقـيـاـ آـنـذـاـكـ .^(٤)

وـمـنـ بـدـاـيـةـ التـسـعـينـيـاتـ بـدـأـتـ مـعـظـمـ الدـوـلـ الإـفـرـيقـيـةـ تـتـجـهـ نـحـوـ الـأـخـذـ بـنـظـامـ التـعـدـديـةـ الـحـزـبـيـةـ تـحـتـ وـطـأـ ضـغـوطـ دـاخـلـيـةـ وـخـارـجـيـةـ فـيـ ظـلـ فـشـلـ الـأـنـظـمـةـ السـيـاسـيـةـ التـيـ سـادـتـ إـفـرـيقـيـاـ ،ـ وـالـانـهـارـ لـلـتـجـرـبـةـ الـمـاـثـلـةـ الـآنـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الغـربـيـ ،ـ وـحـتـىـ لـاـ تـتـكـرـرـ التـجـارـبـ الـفـاشـلـةـ كـانـ لـابـدـ مـنـ الـوـقـوفـ عـلـىـ أـسـبـابـ الـفـشـلـ وـالـنـجـاحـ الـقـائـمـةـ عـلـىـ الـمـرـجـعـيـةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ التـيـ صـاحـبـتـ تـجـارـبـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـيـ إـفـرـيقـيـاـ .^(٥)

مـنـ خـالـلـ التـجـرـبـةـ التـارـيـخـيـةـ التـيـ عـاشـتـهـاـ الدـوـلـ الإـفـرـيقـيـةـ ،ـ فـإـنـ التـجـرـبـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ تـوـاجـهـ بـعـضـ الـإـشـكـالـيـاتـ فـيـ الـفـهـمـ وـالـتـطـيـقـ كـنـظـامـ الـحـكـمـ ،ـ بـسـبـبـ النـعـرـاتـ وـالـتـعـصـبـ الـقـبـليـ ،ـ إـذـ تـعـانـيـ الـقـارـةـ الإـفـرـيقـيـةـ مـنـ تـنـاقـصـاتـ حـادـةـ عـاقـتـ التـطـوـرـ الـدـيمـقـراـطـيـ فـيـ إـفـرـيقـيـاـ ،ـ وـتـرـكـتـ آـثـارـ سـالـبـةـ عـلـىـ كـافـةـ الـهـيـاـكـلـ وـالـأـنـشـطـةـ السـيـاسـيـةـ وـالـاـقـتـصـادـيـةـ مـاـ جـعـلـهـاـ أـكـثـرـ الـإـشـكـالـيـاتـ التـيـ تـقـفـ أـمـامـ الـمـارـسـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ .^(٦)

وـكـمـ هـوـ مـعـلـومـ فـإـنـ الـاستـعـمـارـ قـدـ قـامـ بـرـسـمـ حدـودـ لـلـدـوـلـ الإـفـرـيقـيـةـ التـيـ أـسـسـهـاـ بـهـوـاهـ ،ـ وـجـعـ عـرـقـيـاتـ مـخـتـلـفـةـ فـيـ حدـودـ ضـيـقةـ ،ـ وـمـنـ قـبـلـ أـشـعـلـ بـيـنـهـاـ النـعـرـاتـ الـعـرـقـيـةـ وـالـدـينـيـةـ ،ـ حـيـثـ

^(٤) أـسـمـاءـ عـلـىـ زـيـنـ الـعـابـدـيـنـ .ـ الـمـرـجـعـيـةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ وـالـمـارـسـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـيـ إـفـرـيقـيـاـ الـمـعاـصـرـةـ ،ـ الـمـرـصـدـ الـثـقـافـيـ ،ـ وـرـقـةـ مـنـشـورـةـ فـيـ أـعـمـالـ نـدوـةـ إـلـاسـلـامـ وـتـحـديـاتـ إـفـرـيقـيـاـ ،ـ الـجـزـءـ الـأـوـلـ ،ـ صـ :ـ ١٣٧ـ .ـ

^(٥) الـمـرـجـعـيـةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ وـالـمـارـسـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـيـ إـفـرـيقـيـاـ ،ـ صـ :ـ ١٤٠ـ .ـ

^(٦) الـمـرـجـعـيـةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ وـالـمـارـسـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـيـ إـفـرـيقـيـاـ الـمـعاـصـرـةـ ،ـ صـ :ـ ١٤٠ـ .ـ

أدخل في المجتمع الإفريقي ديانة غريبة وهي النصرانية ، ومن ثم حول بعض العرقيات الإفريقية إلى المسيحية ، وتوجهًاً بعد ذلك بتسليم مقاليد الحكم والإدارة إلى تلك الأقلية الإثنية أو الدينية التي رباهما على يديه.

وفي المقابل علم الأغلبية التي استؤثر بالحكم عنها أنّ الديمقراطية لا تقبل أن تحكم الأغلبية من قبل الأقلية ، فحدث بذلك ما تشهده القارة من حروب دامية .

وعليه فإنّ الظاهرة الحزبية في العالم الإفريقي سواء من حيث نشوئها؛ أو خصائصها ومقوماتها تمثل أثراً وشاهداً على واقع التخلف والاختلاف بدلاً من القضاء على التخلف والاختلاف وتحقيق التنمية والوحدة.

ثانياً: النظم الاشتراكية الشيوعية:

ومن اللافت للنظر أنّ نكر و ما اعتبر الاشتراكية الإفريقية في جوهرها نظرية اجتماعية وسياسية وفلسفية ذات أصل وأساس إفريقي . ورأى أنّ الثقافة الإفريقية الأصيلة هي ثقافة جماعية الطابع ، ولا تسودها النزعة الفردية ، ثم نظر إلى الرأسمالية ، على أنها قوة مخربة ، لو سمح لها بالنمو في إفريقيا لتوحشت وأدت إلى تدهور القيم الأخلاقية للسكان الأصليين في إفريقيا وجودة الحياة في كافة مناحيها . وعلى سبيل المثال فإنّه في إفريقيا تعتبر ملكية الأرض تقليديا غير شخصية ، فهناك استخدام مشاعي للأرض ، لكن إذا هيمنت الرأسمالية فإنّ البديل الذي سيكون أوفر حظا هو بسط مزيد من الرأسمالية في إفريقيا بعد الاستقلال ، وهو في هذا الإطار استعمار جديد . وهذا الدخول السوفياتي الشيوعي من ناحية والرأسمالي من ناحية أخرى قد عمق الهوة بين الأفارقـة وزاد من حدة التفرق والاختلاف بينهم.

أفر يقيا والاستعمار، ص ١٣٤: (١٢)

وتعتبر سياسات حكومة البرتغال الاستبدادية التعسفية هي المسئولة عن التيار اليساري الذي اندفع في البرتغال . وبنفس المنطق قويت التيارات اليسارية في أفريقيا البرتغالية.

وحتى عندما طبقت إصلاحات اشتراكية فإن سياسات الإنصاف وجهت ضد المظالم الاجتماعية التقليدية للحد من ثروات الإقطاعيين والرأسماليين ولكنها لم تتجاوزهم للحد من التفاوت في الرواتب والامتيازات داخل القطاع العام نفسه حتى صارت الفوارق بين الدخول الكبيرة والدخول الصغيرة في القطاع العام وداخل نطاق الدولة فوارق شاسعة يبلغ أكبر دخل في كثير من هذه البلدان ٣٠ ضعفاً من أصغر دخل من الأجرور فيها .

وقد أدت مشروعات الإصلاح والإجراءات الاشتراكية إلى انتشار الفساد المالي والإداري. ذلك الفساد الذي انتعش مستمدًا من مصادر داخلية وخارجية وجعل الصفة الحاكمة مضرب الأمثل للحياة المسرفة المترهلة.

ولم يكن موقف القوى الأجنبية مشجعاً . فالغرب ساند أي نظام أبدى احتراماً للنشاط الرأسمالي وميلاً ضد الشيوعية . والشرق عندما وجد فرصةً مضى يستخدم مكانته لدعم الأقليات الشيوعية في السياسة الداخلية كما حدث في السودان ومصر على سبيل المثال ، وبذلك تعمقت الهوة بين الأفارقـة وزاد مستوى الخلاف بينهم .

ثالثاً : النظام الشمولي : ”نظام الحزب الواحد“ :

أدى نظام الحزب الواحد في أفريقيا إلى استبداد زعيم منفرد بالأمر كله دون قيود ترشد ممارساته.

و كانت عقلية الحكام الوطنيين وأعوانهم لم تتشبع بفكر جديد ، ولا بتحليل أنساني لمشاكل البلاد يلقي ضوءاً على الحلول المطلوبة ، وهذا أدى إلى الاستمرار في إغفال القطاع التقليدي في الاقتصاد الوطني.

وقد قام هؤلاء القادة بتجييش القبائل لتكون قاعدتها الأساسية في مواجهة المشكلات التي تعرّيها ، واستخدامها متى شاءت وقوداً في أزماتها المتكررة . كما قامت هذه النخب بتوظيف الانقسامات الإثنية لتحقيق أغراضها السياسية . إذ أن القارة الإفريقية ، تضم الآلاف من الجماعات الإثنية التي كانت تتعايش وتعمل وتتزاوج بعضها مع بعضها في إطار سلْمِيَّة ، لكن حدة المشكلات الإثنية أخذت في تصاعد مع قدوم الاستعمار الغربي.

لذا لابد من إيجاد نظام سياسي ملائم للدول الإفريقية ، فالنظام السياسي الملائم لهذه البلدان لا يمكن أن يكون النظام البرلماني المتعدد الأحزاب ؛ لأنّ هذا النظام لا ينجح إلا في مجتمعات نالت قدرًا ملحوظًا من التطور الاجتماعي والاقتصادي.

الحجز الثاني

النابع والأسباب الفكرية والثقافية

عمل الاستعمار الأوروبي على ربط إفريقيا فكريًا وثقافيًا بالدولة الأم ، ولكن نلم الحديث من أطرافه يجب علينا أن نأخذ الموضوع من خلال سياسات الاستعمار واتجاهاته الثقافية الشيء الذي أحدث ثانية في هذا الباب. عمومًا يمكن تقسيم إثنيات الاستعمار الثقافية إلى مجموعتين :

الأولى : المجموعة اللاتينية في البحر الأبيض المتوسط ، وتضم : فرنسا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا.

الثانية : مجموعة الشمال الجرمانية : وهي بريطانيا وألمانيا.

فالمجموعة الأولى كاثوليكية والثانية بروتستانتية ، ولأجل هذا التباين بين المجموعتين اللتين اقسمتا القارة الإفريقية ، اتسعت الرقعة بين الشعوب الإفريقية نظراً لانعكاس سلوكهما في التعليم والثقافة عموماً.

وعلى سبيل المثال فقد كان النفوذ الفرنسي في الستينيات "عقد الاستقلال الإفريقي" مركزاً على وجه الخصوص في مجال التعليم ، ففي دول الجماعة الفرنسية كان هناك ٨٠٪ من معلمي المدارس الثانوية فرنسيون ، إضافة إلى ذلك كانت هناك أربع جامعات إقليمية قد تم تأسيسها في هذه الدول بمساعدة فرنسية . ووفقاً للعديد من الاتفاقيات التي وقعتها فرنسا مع الدول الإفريقية ، خاصة الناطقة بالفرنسية ، فإنّ وزارة التعاون الفرنسية قدمت نحو خمسةألف [٥٠٠٠٠] فني لمساعدة العديد من دول إفريقيا جنوب الصحراء في بداية الستينيات ، وبدون هؤلاء المتخصصين فإنه كان من المشكوك أن تتمكن هذه الدول المعنية من القيام بتسهيل الحياة اليومية بها بصورة فعالة.^(١٣)

^(١٣) إفريقيا والاستعمار ، ص : ١٣٩ .

ثمة ملاحظة مبدئية وهي أنه عندما تعرضت القارة الإفريقية إلى التغيير الثقافي الكبير عند دخول الاستعمار الأوروبي في نهاية القرن التاسع عشر ، ارتبط ذلك بإدماج القارة في الثقافة العالمية عبر إدخال الأنظمة الحديثة في الإعلام والإدارة والتعليم ، وهذا يعد تبديلاً ثقافياً في جوهر مكونات الثقافة المحلية . ومحورت محاولات الاستعمار في التركيز على الآتي :

أولاً : طمس اللغة والهوية :

وهدفت هذه الإستراتيجية إلى محو قيم الإنسان الإفريقي وثقافته ، بالرضا والإقناع أو بالقوة . وذلك بتذويب الثقافات الإفريقية في إطار ثقافة الجماعة الاستعمارية المسيطرة ؛ بحججة الاستعلاء الغربي قيمياً وثقافياً . وما زال في الغرب حتى الآن من يختمر في ذهنه أن التاريخ لم يتخذ له سبيلاً بين الشعوب الإفريقية السوداء . ولما كانت نفس الإنسان هي هويته ، وهويته هي حصيلة ماضيه القريب والبعيد أو قل التراث والتاريخ ، ارتأى الاستعمار طمس هذا التاريخ ورفضه تحت شعار ”الشعوب السوداء لا مكان لها في التاريخ“ . قال أحدهم :

”على الإفريقيين أن يتحولوا بالصبر ، ويعترفوا بدونيthem ..“ ”كل أحداث العالم مرت على منأى من الإفريقيين“ .. ”إفريقيا ليس لها فضل في دفتر تاريخ هذا الكون ، كل التطورات التي ظهرت فيها مصدرة إليها من الخارج“^(١٤) .

وهذا أدى إلى أن تطفو على السطح مشكلات جديدة ساعدت في تعميق الجرح الإفريقي وزادت من التفرق والتطرف بين الأفارقة . فقد خطط الاستعمار لربط مستعمراته بالثقافة ممارسة لـ ”مبدأ التبعية الفكرية“ التي يسميها عالم الاجتماع ابن خلدون - رحمه الله - ”نحلة الغالب“^(١٥) . وكان أول ما جأ إليه الاستعمار عند احتلال الدول الإفريقية هو طمس معالم ثقافتهم المحلية ، فكان لابد من رد فعل مماثل ومناسب وبالعيار نفسه ، أي :

إعلان حرب ثقافية للدفاع عن الهوية .

وإن أخطر ما واجه الإنسان في إفريقيا من جراء السياسات الاستعمارية هو طمس اللغة والهوية ، ففي تنجانيقا على سبيل المثال ؛ رفضت البعثات التبشيرية المسيحية استخدام

^(١٤) قضايا اللغة والدين في إفريقيا ، ص : ٤٦ .

^(١٥) ابن خلدون . المقدمة ، ص :

اللغة السواحلية في المدارس على أساس أنها تحض على نشر القيم الإسلامية ، ويؤكد ذلك المعنى : أنّ الإدارة الاستعمارية الألمانية حينها استخدمت في البداية اللغة السواحلية كلغة للتعامل التجاري الحكومي وحثت الأوربيين على تعلمها ؛ احتجتبعثات التبشيرية في أوغندا على ذلك ، وقادت حملة مناهضة للغة السواحلية على أساس نفس الاعتبارات السابقة ، ولم يكن مستغرباً أن نجد أحد القساوسة الأوغنديين - رغم تأييده لفكرة وجود لغة واحدة تجمع شعوب إفريقيا الوسطى - يصر على ألا تكون تلك اللغة هي السواحلية ، يقول في ذلك : "إذا كان وجود لغة واحدة لأفريقيا الوسطى هو أمر مرغوب فيه بإخلاص بالغ ، فإنّ الرب حرم أن تكون هذه اللغة هي السواحلية ، أهي الإنجليزية ؟ نعم .. أما السواحليلي فلا ؛ فالأولى تعني الإنجيل والمسيحية ، أما الثانية فتعني الإسلام " ^(١٦) .

وبالنظر إلى جنوب السودان الذي يعتبر أحد الشواهد الأساسية للتفرق والتطرف فإنه قد انتشر الإسلام والعروبة عبر القرون في شمال السودان ، وفي البداية حالت عوامل جغرافية دون انتشارهما في جنوب السودان ، وحينما أزالت الوسائل الحديثة الموانع الجغرافية حلّت محلها موانع سياسية وإدارية فرضها الاستعمار البريطاني . ولعلّ أوضح تعبير عن تلك السياسة هو ما جاء في مذكرة السكرتير الإداري السير هارولد ماكميكيل في عام ١٩٣٠ من أنه ينبغي أن يتم تطوير الجنوب على أساس حضارته المحلية الزنجية وأن يستخدم أهله اللغة الإنجليزية كوسيلة تخاطب بينهم ، وأن يقفل الجنوب تماماً في وجه الدين الإسلامي واللغة العربية والمؤثرات الشمالية كاللباس الوطني الشمالي .. الخ .

لقد اعتمد الاستعمار على أصداء التناحر بين العرب والأفارقة ليزيد من حجم الصحراء الكبرى كحائط متين بين إفريقيا شمال الصحراء وأفريقيا السمراء .

ويدخل في هذا السياق محاولة الاستعمار الفرنسي إحداث قطيعة بين بلاد المغرب العربي وشمال إفريقيا ، وبين باقي المجتمعات المسلمة في إفريقيا من خلال حمو المكون العربي والإسلامي من الهوية الإفريقية ، وإظهار الإسلام الإفريقي مختلفاً تماماً عن الإسلام العربي ^(١٧) .

^(١٦) حمدي عبد الرحمن . التعددية وأزمة بناء الدولة في إفريقيا الإسلامية ، القاهرة : مركز دراسات الأفريقي ، ١٩٦٦ .

^(١٧) نقل عن آدم بمبأ . الإسلام وتشكيل الهويات في إفريقيا ، مجلة قراءات إفريقية ، ابريل ٢٠١٢م ، العدد ١٠ .

كما لا يخفى أنّ الجهود الاستعمارية الramية إلى طمس الهوية والثقافة الإسلامية لصالح فرض القيم الغربية أدى إلى خلق حالة من القنوط عند الإنسان الإفريقي وبذا تعمقت الفجوة بين الأفارقة.

وهذا كله نابع من الاختلاف بين الأيديولوجية الغربية والعربية التي عملت على تعميق الخلاف بين الأفارقة والثقافة العربية مما أدى إلى تطرف الكثير من الإثنيات غير العربية ضد الثقافة العربية والإسلامية.

الاستقطاب الديني المسيحي :

أحدث الاستعمار انقطاعاً بائناً في التطور العفوي للقاربة الإفريقية في جوانبها الاقتصادية والسياسية ، كما أحدث خللاً في نسيجها الثقافي والديني ، وغنى عن التعبير القول بأن التهافت السياسي على إفريقيا سبقة تهافت ديني ، وقد أثر الجانبان معاً على الإنسان الأفريقي .

وقد كان سياسيو الاستعمار يدركون أن السيطرة على الأرض وقسم ظهر الناس بالبنية والنار لا يضمن إلا ولاء مؤقتاً مادامت هنالك ثقافة أو تراث يبقى في هؤلاء هاجس التمايز ، فلذلك طبقو المثل الاستعماري القائل : ”قبل السيطرة على الناس لابد من السيطرة على نفوسهم“ . فقد دعا بعض المبشرين إلى ضرورة هداية الشعوب الإفريقية ، وأن على الأبيض أن يتحمل عبئه في تبشير هذه الشعوب وتمدينها ، فهبت البعثات التنصيرية تحت ظل الحماية الاستعمارية وخلقت لنفسها جواً خاصاً للمسيحية في إفريقيا ، وهو ما سمي بـاقحام الدين المسيحي لتبرير الاستعمار ، قال أحدهم : ”متى كان الدين موجوداً في أوروبا حتى تفاصيل به على الآخرين؟؟؟“ .

لذا لم يكن الإنسان الإفريقي يفرق بين المستعمر والبشر ، وهذه التوأمة جعلت الروائي الجنوبي إفريقي بيتر إبراهام يقول : ”في الحقيقة المسيحية دابة الاستعمار“ . وكان يسمى البنية والكتاب المقدس التوأمين المساعدين للاستعمار^(١٨) ، وقال الزعيم كاوندا في بعض خطبه : ”حينما يريد رجل إنجليزي سوقاً جديدة لبضائعه الفاسدة التي صنعها في مانشستر ، فإنه يرسل مبشراً للتعليم الأهالي“ ”بشرة السلام“ ويقتل الأهالي البشر ، فيهب

^(١٨) وذلك في روايته الشهيرة ”الاحتلال الوحشي“ .

الإنجليزي ليحمل السلاح دفاعا عن المسيحية ويحارب من أجلها ، ثم يستولي على السوق كمكافأة من السماء“.

فالدين المسيحي الذي تعطلت محركاته منذ قرون في أثيوبيا ومصر بدأ يستعيد حيويته من جديد في ظل الوصاية الإمبريالية الاستعمارية وسيطرتها المطلقة على إفريقيا عام ١٨٨٥ م ، فهبت البعثات التنصيرية لنشر المسيحية في إفريقيا بحماية استعمارية فكسبت لها أتباعا في المناطق التي لم يصلها الإسلام لبعدها عن تأثير الثقافة العربية الإسلامية لأسباب في معظمها جغرافية .

ويرى ديكسون مونجاي أنه قد شكل الاستقلال السياسي لأفريقيا فرصة لدول القارة بأن تشهد تحولا اجتماعيا تاريخيا ، لكن بدلا من تحقق ذلك ظهر العديد من القادة الأفارقة الذين استغلوا هذا الاستقلال لخداع شعوبهم ، فقد عمد جميع القادة الأفارقة الذين قادوا بلادهم من الاستعمار إلى الحكم الذاتي والاستقلال إلى الاحتماء بالعقيدة المسيحية لتحقيق الزعامة المرجوة من قبل مواطنיהם ، وقد توصل نكروما وجميع الوطنيين الأفارقة إلى أنهم بدون الاحتماء بالعقيدة المسيحية فإنهم لن يصلوا أبدا لوجهتهم السياسية المحددة . وأنه ليس هناك بديل عن ذلك . وقد أرست حكومات الدول الاستعمارية فكرة أنه طالما ترسخت العقيدة المسيحية في عقول الوطنيين الأفارقة فإنه ليس هناك مانع من تحقق الاستقلال السياسي .^(١٩)

تحييد الدين الإسلامي في الساحة الإفريقية :

حركة الإسلام في إفريقيا في معظم مظاهرها حركة مستقلة مجردة عن أي كيان خارجي ، فهي مسألة إقناع واقتناع ، وقد لعب الإفريقيون أنفسهم دورا هاما في نشر هذا الدين بينهم ، كما ساهموا في إثراء ثقافته ولغته العربية .^(٢٠) فإفريقيا وحدتها بين القارات التي قبلت الإسلام دينا والعروبة جنسا وثقافة ، بينما نبذت أوروبا الاثنين معا ، وقبلت آسيا غير العربية الأولى لا الثانية .

Mungazi. Dikson . The mind of black Africa . West port 1996- -^(١٩)

p : 169.

العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة الإسلامية ، ندوة عقدت في الخرطوم ١٩٨٥ م .^(٢٠)

ولقد ألقى الاستعمار بذور المحنّة في إفريقيا ، وأثمرت هذه المحنّة مزيداً من الصراعات والنزاعات ، فمهمة الاستعمار لم تكن سياسية واقتصادية فقط ، بل كانت عقائدية استهدفت تحجيم المد الإسلامي ، وإضعاف السلطة السياسية ذات المرجعية الإسلامية^(٢١) ، ومعلوم أنه حيثما كان الإسلام دين الأغلبية فلا سبيل لإغفاله ، ونسيانه ؛ لأنّ الإسلام دين يضم محتوى اجتماعياً لا يمكن إهماله أو إغفاله . فالإسلام أكثر الأديان انتشاراً في إفريقيا حتى وصفت بأنّها قارة الإسلام ، فالدين الإسلامي بالنسبة للشعوب الإفريقية يعد ديناً إفريقياً انتشر بقوته الذاتية ، وخصائصه المتفقة مع الفطرة الإفريقية ، فكان أكثر الأديان صلاحية وارتباطاً بالواقع الإفريقي ، إلا أنّ هناك تحديات كثيرة واجهت هذا الدين المحبوب لدى الأفارقة منها العودة بالعقيدة إلى مرحلة النقاء الأول ، وضعف دور مؤسسات العمل الدعوي التي تقوم بنشر الدعوة الإسلامية الصافية والنقية ، ومحاربة المد التنصيري الذي تمدد حتى داخل دائرة الوجود الإسلامي في القارة . ومن أهم التحديات التي واجهها الإسلام أنّ النخب الحاكمة في الدول الإفريقية بعد الاستقلال سعت إلى تحديد المتغير الديني ، من خلال فرض دساتير علمانية تفصل بين الدين والدولة ، وتوّكّد على حرية المعتقد لتمكين التنصير من اختراق البؤر المسلمة وذلك بفتح الباب أمام الحركات التبشيرية ؛ للنفاذ إلى المناطق الإسلامية وغير الإسلامية على السواء ، مما أدى إلى التصادم بين الديانتين فخلق توتراً وتطرفاً في كثير من الأقطار الإفريقية . كما حاولت بعض الدوائر تعميق الخلاف بين المسلمين أنفسهم مثل ذلك في التركيز على القضايا الخلافية ، في الأمور المرتبطة بالعقيدة والاصطدام بالطرق الصوفية بطرح قضايا فقهية خلافية لإشعال الفتنة بين المسلمين ، ولعل ذلك عمّق الخلاف والاختلاف والتطرف ، فسارعت الكنيسة ومؤسساتها التبشيرية على استغلال هذه الأوضاع لصالحها ؛ مما أدى إلى بروز مشكلة التطرف المذموم والتعصب لبعض المذاهب الفقهية ؛ أو الشخصيات الدينية ، أو الاتجاهات الفكرية ؛ ولذا نحن بحاجة ماسة إلى وعي عميق بما يسمى بـ ”فقه الاختلاف“ الذي عرفه خير قرون هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأئمّة

عبد الله أبو بكر شيخ حسين . الصراعات الإثنية والدينية في إفريقيا . ورقة مقدمة إلى ندوة :
الإسلام وتحديات إفريقيا . رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع رابطة العالم الإسلامي
بالتعاون مع جامعة أم درمان الإسلامية ومنتدى النهضة والتواصل الحضاري . الخرطوم -
السودان ، ٤ / ٥ / ١٤٣٤ هـ - ١٥ / ٤ / ٢٠١٣ م.ص : ١٤١ . (٢١)

المدى ؛ فلم يضرهم الاختلاف العلمي شيئاً ، وجهله كثير منا ، فأصبحنا يعادى بعضاً بسبب مسائل يسيرة أو غير سبب.

كما أنّ أبرز ما يواجه مسيرة الحركات والتنظيمات الإسلامية في الواقع الإفريقي المعاصر : أنها لا تعبّر عن تجانس فكري ؛ إذ أنها تعكس اختلافاً في الرؤى والتفسيرات .

الاستقطاب العربي - الأفريقي .

كان هذا هو أساس السياسة البريطانية في السودان حتى بعد الحرب العالمية الثانية ويومئذ اتضح للإدارة البريطانية أنّ أيام الإمبراطورية صارت معدودة فلا بد من اتخاذ قرار بشأن مصير الجنوب : أيكون دولة مستقلة في المستقبل ؟ أم يلحق بأحد أقطار شرق أفريقيا مثل يوغندا؟ وبعد البحث استبعدوا هذين الاحتمالين لأسباب عملية وقرروا أن لا مفر من إلحاق الجنوب بشمال السودان في قطر واحد. هذا ما تقرر في عام ١٩٤٨ .

فمعظم الدول في أفريقيا السمراء اعتبرت مشكلة جنوب السودان صراعاً بين العرب والأفارقة كما اعتبروها بحق إحدى المشاكل التي ورثتها الأقطار المستقلة من الاستعمار. ونادوا باعتبارها صراعاً عربياً أفريقياً وأعلنوا بعض القادة الأفارقة من أمثال الدكتور ناندا - رئيس مالي وهو وأضرابه من التيار الوطني الأفريقي ..

وكان الاستعمار وإسرائيل يحرسان لتطویر ذلك التناقض لإتلاف العلاقات بين العرب والأفارقة .

هناك نقطة أخرى هي إريتريا : إذ أنّ بعض الدول العربية تعتبر إريتريا قطرة عرباً ينبغي أن يتحرر وينضم إلى الجامعة العربية وآخرون في العالم العربي يرون أنّ تمزيق إثيوبيا لا معنى له بل لا بد من أن ينال الأثيوبيون جيواً والإريتريون حقوقهم السياسية والمدنية وأن ينال الإريتريون قدرًا معلومًا من الحكم الذاتي ، مما شجع السياسي أفورقي الرئيس الحالي على المجاهرة برأيه في هذا الصدد وهو معاداته للقيم العربية ورفضه الانضمام للجامعة العربية. فهذه المناطق وغيرها تعتبر نطاق استقطاب عربي أفريقي خلقت أزمة بين شعوبها المسلمة المتعاطفة مع العربة وغيرها المعادية لها.

النظم الإدارية والتعليمية :

من اللافت أنَّ التوسيع الكبير في التعليم العلماني والمسيحي في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية قد شكل ضغطاً كبيراً على التعليم الإسلامي في إفريقيا الفرنكوفونية . وبينما كانت المدارس التي تدرس علوم القرآن تنتشر انتشاراً كبيراً في إفريقيا الفرنكوفونية وبمعدل متشابه تقربياً فإنَّ الشعوب الإسلامية في إفريقيا الفرنكوفونية وجدت نفسها تحكم بواسطة قيادات تلقت تعليماً غربياً في المدارس العلمانية . ورداً على هذا التهديد ، عزف المسلمون عن التعليم باعتباره تعليماً استعمارياً هدفه الأساسي تنصير أبناء المسلمين ، ومن هنا تولدت ”حركة بوکو حرام“ التي تعني ”التعليم الغربي حرام“.^(٢٢)

مسؤولية الاستعمار في نشأة بوکو حرام :

نشأت حركة بوکو حرام في ولاية يوبي بنيجيريا عام ٢٠٠٢م ، وتعني الكلمة ”بوکو حرام“ بلغة الهاووسا ”حرم التعليم الغربي“ ، وبالتالي تعتبر هذه الجماعة كل ما هو غربي منافياً للإسلام جملة وتفصيلاً ومرفوضاً ، وترى في النفوذ الغربي في المجتمعات الإسلامية أصل الضعف الديني لدى هذه المجتمعات ؛ كما أنها لا تؤمن إلا بالتعليم الذي يشبه نظام ”الملاي“ والحلقات الدينية.^(٢٣)

وهي عبارة عن حركة ذات طبيعة راديكالية تنادي بالتغيير على طريقتها وترفض مظاهر الحضارة الغربية بما في ذلك التعليم الغربي ، من هنا أطلق عليها إعلامياً لقب ”بوکو حرام“.^(٢٤) وطالبت بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وترى في الديمقراطيات الغربية كفراً ومن ثم تكفر من يحكم إليها. وهي تعبير عن إحباط وخيئة أمل في الدولة والطبقة السياسية العلمانية التي أبعدت المعتدلين من العلماء والمتدينين ثقافةً إسلامية عن المشاركة في تسيير الشأن العام منذ الاستقلال ، بفعل الاستعمار وبالتالي أصبح الفكر المتطرف هو البديل ، أضعف إلى ذلك سوء الإدارة

^(٢٢) إفريقيا والاستعمار ، أحمد فليفل ، ص: ١٣٩ .

^(٢٣) ”بوکو حرام“ .. ”القاعدة“ في قلب إفريقيا .

^(٢٤) بوکو حرام قراءة في عوامل النشأة والتطور . نور الدين البشير . مقال في الانترنت .

من قبل هذه الطبقة الحاكمة المغيرة عن المجتمع وثقافته ودينه مما خلق أسباباً اجتماعية اقتصادية وسياسية لقيام الحركة ، فالأسباب الاجتماعية تمثل في الفقر ، والأمية المتفشية ، والجهل والظلم الاجتماعي والتهميش والإهمال من قبل الحكومات النيجيرية المتعاقبة لأقاليم الشمال مما أدى إلى نشوء بيئة حاضنة مثل هذه الحركات المتطرفة ، أضف إلى ذلك اختلال الصيغة التي اتبعت في الحكم بعد الاستقلال بالتوافق الضمني بين الطبقة الحاكمة والمستعمر مما أدى إلى حالة من الغبن ، وجعل الساحة مفتوحة مما يجعل لكل حركة ترفع مطالب بحقوق المسلمين أو تطبيق الشريعة تنجح وتكتسب التعاطف والتأييد حتى وإن كانت متطرفة ، فنشأة هذه الحركة المتطرفة ترجع في الأساس كردة فعل للثقافة الاستعمارية المتمثلة في الظلم والإقصاء السياسي والتهميش التي مارستها الإدارة الاستعمارية والتي مازالت آثارها موجودة حتى الآن .

ونتيجة لانحياز الاستعمار للديانة المسيحية وإقصائه الدين الإسلامي قدمت جماعة "بوكو حرام" نفسها كمدافع عن الإسلام والمسلمين ضد المسيحيين ؛ مما أعطاها نوعاً من التعاطف من بسطاء المسلمين تجاه الجماعة.

الجور الثالث

النابع والأسباب الاقتصادية

اتبع المستعمرون نمطاً تنموياً غير متوازن ، وذلك بتتنمية المناطق الغنية بالثروات ، أو التي تلبي احتياجات الإدارة الاستعمارية ، على حساب بقية المناطق ، فالعوامل الاقتصادية ، وفي مقدمتها الرغبة في السيطرة على الموارد النفيسة والاستراتيجية ؛ مثلما هو الحال في أنجولا وليبيريا وسيراليون وغيرها ، أدت إلى بروز التطرف . وكان من آثار هذا التفرق في القارة الإفريقية استغلال المشاكل الاقتصادية والإدارية للدولة الحديثة الاستقلال ؛ بهدف التدخل في شؤونها والضغط عليها في صورة معونات وقرصون ؛ لإقامة القواعد العسكرية ، وإثارة الأضطرابات الداخلية والانقسامات الطائفية والحزبية والعنصرية ؛ لإضعاف الدول الإفريقية وإيقاعها وبالتالي تحت السيطرة الأجنبية ، واستخدام المنظمات الدولية التي تقوم فيها

الدول الكبرى بدور رئيسي في الضغط على الدول النامية وتوجيه سياستها^(٢٥)؛ مما زاد من معاناتها وتخلفها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي مقارنة بباقي دول العالم.^(٢٦) كما أنّ العوامل الاقتصادية تلعب دوراً هاماً في إشعال الحروب الأهلية في القارة الإفريقية. فقد أدت الصراعات والحروب الإثنية إلى نشوء ما يُعرف باسم "اقتصاديات الحرب" ، حيث يهيمن أمراء الحرب على الشؤون الاقتصادية والثروات في المناطق التي يسيطرون عليها ، ويستثمرون عائدات بيع تلك الثروات في تكريس الثروة وتدبير تكاليف الصراع ، وعادة ما يرتبط هؤلاء بشبكات التجارة الدولية ، كما يترك قادة الجماعات المتصارعة أتباعهم يمارسون عمليات السلب والنهب ؛ بما في ذلك سلب مواد الإغاثة الإنسانية ، وذلك كبديل عن دفع الرواتب لهم ، ومن ثمّ يجد هؤلاء أن من مصلحتهم استمرار الصراع وتصعيده.

وفيما يتعلق بالبني الأساسية ؛ أدت الحرب الأهلية في كل من أنجولا وليبيريا ورواندا وبوروندي والكونغو الديمقراطية وسيراليون إلى تدمير معظم عناصر البنية الأساسية في البلاد ، وبخاصة الجسور والطرق الرئيسية.

وبالنسبة لثروات الدول الإفريقية ؛ فقد أتت عليها تلك الصراعات ، ففي الكونغو الديمقراطية تعاني البلاد منذ العام ١٩٩٦م حتى الآن عمليات نهب منهجي ، وذلك من قبل جميع الأطراف المنخرطة في الصراع الداخلي فيها ، وحتى عندما تم تشكيل لجنة دولية للتحقيق في ذلك الأمر لم تتم محااسبة المتورطين في عمليات النهب ، بعد أن كشف تقرير اللجنة عن تورط عدد غير قليل من الحكومات الغربية الاستعمارية في تلك العمليات.^(٢٧) وقد قامت الدول الأوروبية خلال مدة استعمارها للدول الإفريقية بربط اقتصادياتها بأوروبا بوصفها مصادر للمواد الأولية الالزمة لصناعتها وأسواقاً لتصريف إنتاجها الصناعي .

٢٥) د. السيد على أحمد فليفل . إفريقيا والاستعمار - بحث مقدم إلى ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا - الخرطوم ، السودان جامعة أم درمان الإسلامية بالتعاون مع منتدى النهضة والتواصل الحضاري . الجزء الأول ، ص: ١٢٨-١٢٩ .

٢٦) المصدر نفسه ، ص: ١٢٩ .
٢٧) الصراعات الإثنية في إفريقيا .

وفي عقد الستينيات وما تلاه حصلت معظم الدول الإفريقية على استقلالها ، واتجه بعضها إلى إحداث نوع من النمو الاقتصادي ، إلا أنّ سياسة الدول الغربية الاستعمارية كانت تجتهد في عدم تشجيع مثل هذا الاتجاه حتى تظل إفريقيا مصدرًا للمواد الأولية رخيصة الثمن منخفضة القيمة ، وتظل سوقاً للمتاجرات الغربية . وقد قامت سياسة الدول الغربية في المرحلة التالية على ضمان السوق الإفريقي والمواد الأولية المعدنية والزراعية والغابية ومصادر الوقود والطاقة وغيرها من خلال الضغط على الدول الإفريقية من قبل منظمة التجارة العالمية لفتح الأسواق وتحرير التجارة ، وكان من نتائج ذلك التأثير السلبي في الاقتصاد الإفريقي ، حيث انهارت الصناعات التي كانت قائمة ، وانخفضت قيمة صادراته الأولية ، وزادت بشكل واضح قيمة وارداته ، وبمعنى أشمل أصبح الاقتصاد الإفريقي مهمشاً عن الاقتصاد العالمي.^(٢٨)

وتعد أزمة الديون التي واجهت إفريقيا ، ولا سيما خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي ، من أبرز نتائج وصور هذه التبعية الاقتصادية ؛ مما دفع المؤسسات الدولية ، وبخاصة البنك الدولي وصندوق النقد ، إلى مطالبة دول القارة بضرورة إجراء برامج التهيئة الهيكلية [sap] ، ولكن ترتب على تطبيقها في التسعينيات في العديد من الدول الإفريقية ارتفاع معدلات البطالة وانخفاض الأجور الحقيقة ، وتعذر سيراليون نموذجاً للصراعات الأهلية التي اندلعت في التسعينيات على خلفية تدهور الأوضاع الاقتصادية.^(٢٩)

المصدر السابق ، ص : ١٣٠ .^(٢٨)

حمدي عبد الرحمن . إفريقيا وتحديات عصر الهيمنة . القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٦ م.^(٢٩)

المchor الرابع

النابع والسباب الاجتماعي

ربط عدد كبير من الدراسات التاريخية الحديثة ربطاً واضحاً بين المنظومة الاجتماعية وفق نمطها الثقافي ونمواها الحضاري وخصائصها الاجتماعية من جانب وبين خصائص البيئة الطبيعية الجغرافية من الجانب الآخر.^(٣٠)

ومن التأثيرات البالغة التي خلفتها أزمة التفرق والاختلاف في إفريقيا ، تلك التأثيرات السلبية الناجمة عن تصاعد المشاكل داخل هذه القارة بين أبناء الشعب الإفريقي بل بين أبناء الوطن الواحد ، والمشكلة هنا تتجاوز حدود ما تخلفه تلك المشكلات من قتل وجرحى ومتشردين ونازحين ولاجئين وضياع فرص التنمية وغيرها إلى إحداث أزمة عانت منها العديد من دول القارة ومنها تشاد وأفريقيا الوسطى والسودان ورواندا وليبيريا وغيرها.

ومن أهم الآثار المترتبة على اندلاع الأزمة في إفريقيا "أزمة الاختلاف" وخصوصاً في الناحية الاجتماعية تأثير عمليات النزوح في النسيج الاجتماعي وإحداث خلل في التوازنات الاجتماعية القبلية والتركيبة الديمografية في كل منطقة من مناطق القارة التي ما زالت مستمرة حتى الآن في كثير من مناطق القارة ومن أهمها دارفور- وكذلك في المناطق المجاورة لها ، في إفريقيا الوسطى.

ومن الآثار الاجتماعية لتصاعد أزمة الاختلاف في إفريقيا زيادة معدلات الظواهر السلبية مثل ارتفاع معدلات الجرائم وتنوعها ، وكذلك النهب والسرقة والاحتيال ، وهجر المواطنون المدن .

ومن الآثار التي أفرزتها الأزمة وجود عدد كبير من المنظمات الأجنبية في أواسط معسكرات اللاجئين الإفريقيين وبيدو أن هناك نوعاً من السيطرة الواضحة لهذه المنظمات على الأوضاع كافة وجميع الأنشطة داخل المعسكرات ، وعلى الرغم من الدور الذي تدعي هذه المنظمات القيام به ، إلا أنّ هذا لا يخلو من مهام مستترة عديدة تسعى تلك المنظمات للقيام بها ، خدمة لتجهات دول محددة لصالحها.

^(٣٠) كريستين نصار. الإنسان والجغرافيا ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٩١ م. الفصل الأول.

وطلت تمارس المنظمات سيطرتها وتحكمها في التعامل مع المواطنين الأفارقة ، وهذا الأمر يثير العديد من الشبهات حول حقيقة وجود هذه المنظمات خصوصاً أنّ بعضها يروج للمفاهيم السلبية ضد العرب والإسلام من خلال الندوات التي تهدف إلى خلق بلبلة داخل المعسكرات ، كما أنّ هذه المنظمات أصبحت أداة وهدفاً يوظفها الإعلام العالمي للترويج لخدوث انتهاكات حقوق الإنسان في القارة.

ولا تكتفي تلك المنظمات بذلك ، بل إنّها تستهدف المنظمات الوطنية مثل منظمة الهلال الأحمر للتقليل من أهمية الدور الذي تقوم به وقد تتهمها بالتجسس لصالح الحكومات ، وربما يكون هذا من الأسباب التي تشير إلى خروج تلك المنظمات عن الدور الإنساني الذي تدعي القيام به.

تدويل القضايا الإفريقية :

إنّ الحكومات الإفريقية ما أن تفرغ من مشكلة حتى تفاجأ بأزمة جديدة في مجلس الأمن تتعلق بأمورها الداخلية ، فملف دارفور مثلاً تم تدويله وأقلمته بصورة كاملة ، وقد أثر ذلك على علاقات السودان الإقليمية والدولية وسبقت تلك الأزمة صور لنازحين ولاجئي دارفور في الفضائيات العالمية تتحدث عن الفظائع التي ارتكبت هناك ، أعقبتها حملة إعلامية شرسة في أميركا والمجتمعات الغربية كتلك التي قادتها البارون كوكس في بريطانيا وأوروبا والولايات المتحدة الأميركية في بداية الإنقاذ ، وكانت لها آثار سالبة على علاقات السودان بتلك الدول ، فقدادتها المنظمات الطوعية والإنسانية العالمية وبدأت الحكومة في مواجهة قرارات المجتمع الدولي حيث صدرت عدة قرارات من مجلس الأمن الدولي والاتحاد الأوروبي والأفريقي والكونغرس الأميركي وصدرت تقارير من المنظمات الإنسانية العاملة في مجال الإغاثة ، فتحذثوا عن انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان في دارفور مما كان لها الأثر السالب على علاقات السودان الخارجية بالمجتمع الإقليمي والدولي.

عدم استقرار الدول :

أثرت مشكلة التفرق والاختلاف على كل الدول على المستوى الإقليمي الواسع ، فمثلاً مشكلة دارفور أثرت في تشاد ولibia ومصر وحتى دول البحيرات العظمى خاصة شمال أفريقيا وغربها ، نتيجة لحقائق التاريخ والجغرافيا ، بالإضافة إلى أنّ دارفور بوابة الدخول

لوسط أفريقيا جنوب الصحراء وكذلك غربها ، ولذا فهي إحدى نقاط الالتماس بين الغرب والأفارقة ، كما أنها تمثل أيضاً بوابة لجيرانها على مناطق إستراتيجية . فليبيا تعتبر مدخلاً للشمال الأفريقي وغرب أوروبا ، وتشاد مدخلاً للقرن الأفريقي في المحيط الأطلنطي ، أما أفريقيا الوسطى فهي مدخل لوسط أفريقيا ومنطقة البحيرات ، ومن ثم تماست المصالح الفرنسية والأمريكية عند دارفور في أفريقيا ، ويدرك التاريخ كيف حاولت فرنسا السيطرة على هذه المنطقة الجغرافية حتى تستطيع المحافظة على نفوذها الاستعماري في تشاد وأفريقيا الوسطى والكاميرون ومالي ، لكن ظلت دارفور تاريخياً ، هي مركز لحركات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في تشاد ، وهنالك ارتباط وثيق بين القبائل الدارفورية مع القبائل الأخرى داخل الدول المجاورة لها وتنوعت ارتباطاتها خاصة الزغاوة والمساليت والفور ، حيث ارتبطت بمصالح تشاد وأفريقيا الوسطى وليبيا ، ومصر .

*- استخدام إفريقيا مسرحاً لتصفية الصراعات السياسية بين الدول الكبرى :

وعلى مستوى التشابكات السياسية وبسبب هذا الوضع الجغرافي والتاريخي والقبلي كانت إفريقيا مسرحاً خلقياً لعدة صراعات حيث تم استخدام هذه القارة ، إما كمخزن للسلاح أو للتأييد القبلي أو حتى الاستعداد عسكرياً لأي صراع مرتفع سواء في الداخل أو الخارج وبدت هذه الاستخدامات واضحة في الصراعات "التشادية- التشادية" و "التشادية- الليبية" حول شريط أوزو الحدودي وكذلك الصراعات الداخلية لأفريقيا الوسطى.^(٣١)

وعلى المستوى الاجتماعي تمثل أكبر المشكلات الاجتماعية للقاراء على دول الجوار في ظاهرة اللجوء ، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار عدم وجود حواجز طبيعية بين الدول ، بالإضافة إلى التداخل القبلي الموجود أصلاً والتأثير بعدم وجود الأمن والاستقرار في معظم دول القارة ، وانعكس كل هذا على هذه الهجرات الكبيرة للمواطنين من وإلى كل الدول موزعين بينها كل حسب ارتباطه بالدولة الأقرب له ، وهنا تبرز مشكلة اللجوء ، إذ إن الدول التي يلتجأ إليها المواطنون أصلاً فقيرة وبذلك تزيد عبئها على العبء الموجود سلفاً ، ولا

^(٣١) السيد فليفل وحسن مكي ، أعمال الحلقة النقاشية حول الصراع في دارفور ، مرجع سابق ، ص ١١٧ .

ينحصر الحديث هنا على الأعباء الاقتصادية فقط التي تمثل في توفير السكن والغذاء ، وإنما تنتقل إلى الأعباء الاجتماعية والأمنية والسياسية فوجود معسكرات اللاجئين في الدول تزيد الضغط على داخل هذه الدول نفسها ، إذ إنّ القبائل تهاجر بنفس عدائها وبذلك يكون عدم الاستقرار قد انتقل من وإلى تلك الدول التي تمت الهجرات إليها ، وهذا يكون مدعماً للتدخل الأجنبي بدعوى حفظ الأمن والاستقرار .

وهنا نضرب مثلاً من منطلق مشكلة دارفور ، ونبذلّاً بأفريقيا الوسطى ، فهي تخشى من أن يستغلّ أنصار الرئيس السابق الموجودين في دارفور ، الصراع في المنطقة لينقضوا على حكم الرئيس الحالي الذي جاء للحكم بانقلاب عسكري في مارس ٢٠٠٣ م ، وما يصيب أفريقيا الوسطى يصيب تشاد نسبة لوجود علاقة قوية بين النظامين .

وكذلك تعتبر مصر دارفور الامتداد الاستراتيجي لها عبر السودان ، وعمق أفريقيا ، كما يقع تحت رمال دارفور الخزان الجوفي وتشترك في مياهه الجوفية كلّ من مصر ولibia والسودان وتشاد ، ومن ثمّ فوجود قوى دولية في دارفور أو تصاعد الصراع فيها لفصل الإقليم يهدّد مصالحها المائية وأمنها القومي بصورة مباشرة ، يضاف إلى ذلك الحديث عن وجود علاقات بين تمرد دارفور وإسرائيل من خلال الجسر الإريتري الذي يمثل خطراً كبيراً على مصر .^(٣٢)

ويمكن القول ، إنّ مشكلة الاختلاف في إفريقيا طرحت مخاطر عامة منها تدفق اللاجئين من المناطق المتأثرة لدول الجوار وتهديد أمن الدول المجاورة بتسرب السلاح والمسلحين ، إضافة إلى تشجيع المجموعات الشبيهة في الدول المجاورة على ممارسة التمرد لانتزاع مطالبتها ، وزيادة أعباء الصرف على الأوضاع الأمنية على الحدود ، كما أنّ فرض عقوبات على الدول الإفريقية يطرح تأثيرات اقتصادية سالبة على انسياج حركة التبادل التجاري بين الدول بشكل طبيعي حتى لو كانت هذه العقوبات لا تمس هذا الجانب بصورة مباشرة ، أما في حالة حدوث تدخل عسكري أجنبي في القارة فإنّ الدول المجاورة في هذه الحالة ستصبح في وضع صعب من جراء تفجير العنف بدرجة أكبر في منطقة النزاع ووجود

^(٣٢) السيد فليفل وحسن مكي ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

مقاوِمات مسلحة يمكن أن تتحرّك عبر الحدود مدعومة بالعِلاقات القبليَّة ، إضافةً لما يمثله الوجود الأجنبي من ضغوطات على بقية دول المنطقة.

الخاتمة والتوصيات :

كان من نتائج السياسات الاستعماريَّة أن تُعَذَّر بناء الأُمَّة في معظم دول القارة ؛ مما ولَّد نتائج عكسيَّة ، كان أهمُّها حدوث أَزْمَة عدم التكامل الإقليمي ، وكذا عدم التكامل السياسي ، وكان من مظاهر ذلك : التظاهرات ، والتوترات الأمنيَّة ، والإضرابات ، والتمردات المسلحة ، والانقلابات العسكريَّة ، والمحاولات الانفصاليَّة ، وحروب العصابات ، بيد أنَّ أَخْطَرَ المظاهر على الإطلاق تمثل في التطرف "واندلاع الصراعات والحروب الأهلية في القارة" ، حيث مثَّلت تلك الصراعات والحروب أَبْرَزَ أَشْكال التفاعلات الإفريقيَّة في أعقاب الحرب الباردة ، فخلال المدة من ١٩٩٠م إلى ١٩٩٦م اندلعت في إفريقيا أكثر من ٣٠ حرباً ، كان معظمها داخلياً ، وفي العام ١٩٩٧م وحده ، نُكِّبت ١٤ دولة إفريقيَّة بِنزاعات داخلية مسلحة^(٣٣) ، ناجمة عن عوامل عديدة في مقدمتها التطرف الإثني .

إنَّ التطرف والاختلاف والتفرق في القارة الإفريقيَّة أدى إلى نتائج متباعدة الأبعاد والتأثير ، وشملت هذه النتائج جوانب سياسية وإدارية واقتصادية وفكريَّة وثقافية ، كما أنها أثَّرت على التواصُل بين الدول الإفريقيَّة على كلِّ الأصعدة من خلال فصل عرى الترابط بين أطراف القارة الإفريقيَّة وبين شماليها وجنوبها ، وشرقيها وغربيها ، وهو الأمر الذي حدث بِعَامِ الاستعمار الأوروبي الذي تَمَّ تَمَّ نَفْسُه بِتَبَيَّنَاتِ في المُنْتَلَقَاتِ والمناطق الجغرافية التي سيطر عليها لِذَا يَجِبُ :

(١) أن تعرِّف الأُمَّة الإفريقيَّة من هم أعداؤها الحقيقيون ، على مَرِّ التاريَّخ ، ولو تلوَّنَت الوجوه ، وتبدلَت الأَقْعُونَ ، وتغيرَتِ الحيل والطرق ، قال تعالي : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعْيِ﴾ [فاطر : ٦]. فإذا عرف الأفارقَة من هو عدوهم ، نسوا الخلافات الجانبيَّة أو الجُزئيَّة فيما بينهم ، ليقفوا في مسار واحد نحو تحقيق الوحدة ، والسلامة من الأذى والضرر الذي يوجِّهه العدو نحوهم.

قراءات إفريقيَّة – الصراعات الإثنية في إفريقيا – الخصائص والتداعيات وسبل المواجهة .

(٣٣)

- (٢) يجب أن تتوحد جهود الأمة في شتى المجالات : السياسية ، والتعليمية ، والاقتصادية ، والإعلامية والدعوية ، من أجل حماية مصيرها المشترك ، لأنّ الأمة الإسلامية مهددة بخطر مشترك ، فهي مقصودة في مجموعها ، والتساهل أو غض الطرف عن جزء من الأمة ، يعد تمكيناً للعدو الذي يحرص على تدميرها وإسقاطها وإزالة حضارتها وما ترقيها وتقدمها.
- (٣) نبذ الاختلاف والتطرف ، إذا أراد الإنسان الإفريقي أن يعيش بعيداً عن المكدرات والمنغصات ، وعلينا نحن المسلمين أن نعيدهم بمنهج القرآن الكريم ، الداعي إلى الوحدة والأخوة ، وأن نرسخ في نفوسنا يقيناً أن التفاضل إنما بالقوى ، قال تعالى : ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءُكُمْ...﴾ [الحجرات : ١٣].
- (٤) إصلاح النظام الاقتصادي ، فلا سبيل لإطلاق الحرية الفردية فيه لأن ذلك سوف يعني في عالم اليوم إتاحة المجال لرأس المال الأجنبي لأنّه هو الأقوى والأقدر في العالم وهذا أكبر عامل لمحاربة التطرف.
- (٥) ضرورة تجميع جهود أبناء القارة ، وحشد قوى العلماء والثقافيين والشباب والرجال والنساء نحو تحقيق الوحدة ، وتعزيز العلاقات الاجتماعية ، ونبذ التعصب العرقي والطائفي والمذهبي .
- (٦) التخلّي عن تسييس القبائل ، وأن يكون معيار المشاركة السياسية بعيداً عن الانتهاكات العرقية والجehوية التي نهى عنها الإسلام ، فقد قال رسول الله ﷺ عن القبلية "دعوها فإنها متننة". فقد باتت الإثنية محفزاً أساسياً لإثارة التطرف والحرّوب الأهلية في إفريقيا ، وبالرغم من وجود عوامل أخرى للتطرف مثل الخلافات الدينية ، والمصالح الاقتصادية ، والصراع على السلطة ؛ فإن تلك العوامل لا تحدث تأثيراتها في الغالب إلا بعد أن تتدخل مع العوامل الإثنية ، فالإحساس بالظلم والحرمان من جانب جماعة أو جماعات إثنية معينة هو بداية الطريق نحو اندلاع الصراعات والحرّوب الأهلية في مجتمع ما.
- (٧) إحياء منهج الوحدة والمجتمع ، وترك الفرقه والتزاع ، إحياءً بالقول والعمل ، والدعوة والممارسة عند العاملين للإسلام بمختلف جماعاتهم وتنظيماتهم ، لأنهم يمثلون بمجموعهم عناصر الطائفة المتصورة في هذا العصر ، التي قال عنها ﷺ : "لَا

تَرَأَّلْ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَّهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ^(٣٤).
وَاللهُ نَسْأَلُ أَنْ يَؤْلِفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا وَأَنْ يَجْمِعَنَا عَلَى الْخَيْرِ وَالْهُدَىِ، وَالْحَمْدُ لِللهِ رَبِّ الْعَالَمِ.

قائمة المراجع :

- (١) آدم بمبأ . الإسلام وتشكيل الهويات في إفريقيا ، مجلة قراءات إفريقيا ، إبريل ٢٠١٢م ، العدد ١٠ .
- (٢) آدم محمد أحمد ، دكتور ، دارفور ”المأزق والحلول“ ، مؤتمر جمعية العلوم السياسية السودانية ، قاعة الصداق ، نوفمبر ٢٠٠٨م .
- (٣) آدم عبد المؤمن ، طريق الإنقاذ الغربي ، التنمية مفتاح السلام في دارفور .
- (٤) السيد على أحمد فليفل ، دكتور . إفريقيا والاستعمار - بحث مقدم إلى ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا - الخرطوم ، السودان جامعة أم درمان الإسلامية بالتعاون مع منتدى النهضة والتواصل الحضاري . الجزء الأول .
- (٥) السيد فليفل وحسن مكي ، أعمال الحلقة النقاشية حول الصراع في دارفور .
- (٦) أسامة على زين العابدين . المرجعية الاجتماعية والممارسة الديمقراطيّة في إفريقيا المعاصرة ، المرصد الثقافي ، ورقة منشورة في أعمال ندوة الإسلام وتحديات إفريقيا ، الجزء الأول .
- (٧) أيمن شبانة . - الصراعات الإثنية في إفريقيا .. الخصائص - التداعيات - سبل المواجهة ٢٠ فبراير ٢٠١٤م .- معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة .
- (٨) جامع عمر عيسى . الصراع بين الإسلام والنصرانية في شرق إفريقيا ، ١٩٩٩م .
- (٩) حمدي عبد الرحمن . التعددية وأزمة بناء الدولة في إفريقيا الإسلامية ، القاهرة : مركز دراسات الأفريقي ، ١٩٦٦ .
- (١٠) حمدي عبد الرحمن . إفريقيا وتحديات عصر الهمينة . القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٦م .

- (١١) كرستين نصار. الإنسان والجغرافيا ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٩١ م.
- (١٢) عبد الله أبو بكر شيخ حسين . الصراعات الإثنية والدينية في إفريقيا . ورقة مقدمة إلى ندوة : الإسلام وتحديات إفريقيا . رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع جامعة أم درمان الإسلامية ومنتدى النهضة والتواصل الحضاري . الخرطوم - السودان ، ٤ - ٥ / ٦ هـ - ١٤٣٤ م.
- (١٣) عبد الله زكريا إدريس . التداخل القبلي واللغوي بين السودان والدول الإفريقية .
- (١٤) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك ، الترمذى ، أبو عيسى [ت : ٢٧٩ هـ]. سنن الترمذى . تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر (ج ١ ، ٢) و محمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤ ، ٥) ، الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر . الطبعة : الثانية ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- (١٥) مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري [ت : ٢٦١ هـ]. * - المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ . المحقق : محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت عدد الأجزاء : ٥ ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين .
- (١٦) مفرح بن سليمان القوسي [مجلة البيان ٢١٦]. عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .
- (١٧) نور الدين البشير. بوکو حرام قراءة في عوامل النشأة والتطور .. مقال في الانترنت .

الطبعة الأولى

دَرْسَاتٌ إِسْلَامِيَّةٌ

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ - ٢٠١٦ م

التطرف والغلو ”الأسباب والآثار والعلاج“

د. عبد الحي القاسم عبد المؤمن عمر

جامعة الإمام المهدى ، كلية الشريعة والقانون

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(١٧٣ - ٢٠٢)

المـسـتـخـلـصـ :

هدفت هذه الدراسة لبيان معنى التطرف والغلو الديني ، وذلك بتعریف موجز للمصطلحين في اللغة والاصطلاح ، وبيّنت الدراسة ، أن المصطلحين متراوّهان من حيث أن كلاً منها يعتبر تجاوزاً لحد الاعتدال والتّوسيط ، كما وضحت الدراسة أن التطرف والغلو ظاهرة اجتماعية عامة لا تختص بزمن دون آخر كما لا يمكن إلهاقهما بالغالين المسلمين فقط ، بل في كل الأديان السماوية نجد من يتطرف ويعالي فيها ، لأن الأديان لا توصف بالغلو لأن منهجهما رباني ، بل مطريقوها هم الذين يقومون بمجاوزة حدود الاعتدال ، كما وضحت الدراسة أسباب الغلو والتطرف في الدين ومظاهره ، ثم أخيراً ما هو العلاج الناجع لهذه الظاهرة التي شغلت العالم بأثره ، وختّمت الدراسة بأهم النتائج وأبرز التوصيات.

مـقـدـمةـ :

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين ، أما بعد.

لا شك أن الغلو والتطرف كلمتان متراوّهتان لأننا عندما نتأمل الدلالة اللغوية لكلمة طرف نجدها شاملة لكل من يتجاوز التوسيط إما بالإفراط والغلو^(١) ، أو بالتفريط والإهمال ، فالتطرف والغلو هو سلوك يظهر في حياة كثير من الناس ، ويرجع هذا السلوك إلى عدة عوامل ودوافع تحرّكه ، وقد عُرف هذا السلوك في معظم عصور التاريخ الإسلامي.

وتتنوع الأسباب المؤدية إلى الغلو والتطرف ، وتمتد آثارها إلى زعزعة النظام المجتمعي والأمان النفسي ، الذي يُعدُّ من أهم الضرورات الإنسانية لدى البشرية جمّاء .
ومعرفة الأسباب المختلفة وحصرُها خطوةٌ مهمةٌ وضروريةٌ للحدّ من الغلو والتطرف والقضاء عليهم .

^(١) المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس ، وآخرون ، مادة طرف ، معجم اللغة العربية المعاصر ، مادة غلا.

واستشعاراً من الباحث بأهمية معرفة أسباب الغلو والتطرف : النفسية والاجتماعية والفكرية والتربيوية والسياسية والاقتصادية وغيرها بصورة شاملة ومتعمقة ، فقد قام باختيار هذا الجانب والكتابة فيه.

أسباب اختيار الموضوع :

- (١) بيان أن الغلو والتطرف أديا إلى قتل ونهب وإنساد في الأرض في كثير من دول العالم ، الإسلامية وغيرها فكان لا بد من توضيح موقف الشرع الحنيف من ذلك وأسباب المؤدية إليه وعلاج ذلك.
- (٢) هنالك بعض الشبهات التي تدور في أذهان بعض الناس فيما يتعلق بتفسير الآيات الثلاث في سورة المائدة : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] ، فكان لا بد من توضيح المقصود من ذلك.

أهداف البحث :

- (١) يهدف هذا البحث إلى بيان الجهد العظيم الذي بذله علماؤنا الكرام في سبيل إيصال المعلومة الصحيحة لأفراد المجتمع فيما يتعلق بهذا الموضوع.
- (٢) تبصير القارئ بأهمية الرجوع إلى كتاب ربنا تعالى وسنة نبيه ﷺ وفهمها كما فهمها سلف هذه الأمة ، ولا يتأنى ذلك إلا بمحاجة العلماء في حلقاتهم العلمية.

أهمية البحث :

- (١) تتمثل أهمية هذا البحث في كون الغلو أصبح ظاهرةً منتشرةً في بلاد العالم الإسلامي كله ، تهدد سلامة الجماعات والأفراد وأمنهم.
- (٢) كما أن لهذا الموضوع أهمية قصوى في كون القارئ يستطيع الوقوف على النصوص الواضحة التي تحذر الجميع من الوقوع في الغلو من الكتاب والسنّة وكيف فهمها سلف هذه الأمة وقاموا بترجمة ذلك في الواقع المعاصر.

منهج البحث :

المنهج المتبّع في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي والتاريخي والتحليلي.

مخطط البحث :

المبحث الأول : التعريف بالتطرف والغلو لغة واصطلاحاً.

المطلب الأول : التطرف والغلو في اللغة

المطلب الثاني : التعريف بالتطرف والغلو اصطلاحاً

المبحث الثاني : أسباب ظهور التطرف والغلو.

المطلب الأول : الأسباب العامة.

المطلب الثاني : أسباب ظهور التطرف والغلو ومظاهره في العصر الحديث

المبحث الثالث : مظاهر الغلو والتطرف وأثارهما.

المطلب الأول : الآثار العقدية والفكرية

المطلب الثاني : الآثار السلوكية والاجتماعية

المبحث الرابع : طرق علاج ظاهرة التطرف والغلو.

المطلب الأول : العلاج العقدي والديني

المطلب الثاني : العلاج الاجتماعي

البحث الأول

التعريف بالتطرف والغلو لغةً واصطلاحاً

المطلب الأول : التطرف والغلو في اللغة

أولاًً : التطرف في اللغة : معنى تطرف في معجم المعاني الجامع ، تطرف ” فعل ” ، تطرف / تطرف في يتطرف ، تطراً فهو متطرف ، والمفعول متطرف^(١) ، فالتطرف مشتق من الطرف أي الناحية ، أو متنهى الشيء ، وتطرف أتى الطرف ، وجماز حد الاعتدال ولم يتوسط.

وأصل الكلمة في الحسيات ثم استخدمت في المعنيات ، كالتطرف الفكري ، وفي الحقيقة هو مصطلح صحفي ولم يرد هذا اللفظ بهذا الاصطلاح لا في الكتاب ولا في السنة.

ثانياًً : الغلو في اللغة : كلمة غلو من : ” غل و ” ، مصدر غلا ، كلامه فيه غلو : فيه مبالغة ، وتميز فكره بالغلو ، أي تميز فكره بالتعصب ، وغلا في الدين : أي المغالاة والمشقة وتحميل النفس ما لا تطيق وتشدد وتصلب حتى جاوز الحد.^(٢)

المطلب الثاني : التعريف بالتطرف والغلو اصطلاحاً

أولاًً : التطرف : تعد مشكلة التطرف من القضايا الرئيسية التي يهتم بها الكثيرون في المجتمعات المعاصرة فهي قضية يومية حياتية تتد جذورها في التكوين الهيكلية للأفكار والمثل التي يرتضيها المجتمع ، فال الفكر المتطرف شأنه شأن أي نسق معرفي ، هو ظاهرة اجتماعية تتأثر و تؤثر في غيرها من الظواهر ، مرتبطة إلى حد كبير بالظروف التاريخية والسياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من ظروف يتعرض لها المجتمع ، ويعد مفهوم التطرف من المفاهيم التي يصعب تحديدها أو إطلاق تعميمات بشأنها نظراً لما يشير إليه المعنى اللغوي للتطرف من تجاوز حد الاعتدال^(٣) ، وغالباً ما يستخدم هذا

المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وآخرون ، مادة (طرف).

معجم اللغة العربية المعاصر ، مادة غلا.

مفهوم التطرف الديني ، www.moqatel.com

(١)

(٢)

(٣)

التطرف والغلو "الأسباب والأثار والعلاج"

المصطلح من قبل العلمانيين دون التزام بالموضوعية في هذا المصطلح ، فهم لم يحددوا أولاً ما هو التطرف ، ولا معناه ، بل يريدونه لفظاً عامضاً عائماً فضفاضاً لمحاولة إضافاته وإلصاقه فيمن يشاءون سواء كانت الخصومة سياسية أو فكرية أو شرعية أو دنيوية ، بل حتى خصومة شخصية ، فالاليوم التطرف والمطرف هو الإسلام والمتزم به ، وغداً يتتحول التطرف إلى جهة أخرى.

فمن له مواقف سياسية معينة ضد إسرائيل فهو متطرف سياسي مهما كانت قضيته عادلة ، ويبدل من أجل الدفاع عن دينه وبلده وأمته.

ومواجهة بعض المواقف السلوكية السلبية في نظر بعض العلمانيين تطرف كالدعوة إلى الحجاب ، ونبذ التبرج ، أو محاربة الربا ، والدعوة للعمل بالنظام الإسلامي ، أو تجنب الفواحش ، وتقيد الحريات بالضوابط الدينية يعد تطرفاً عند البعض ، كما يعد متطرفاً من يدعوا للالتزام العقائدي في الدعوة لتحكيم الشريعة واعتبار غير المسلم له أحكامه الخاصة به ، وأن لقاء الديانات على غير كلمة التوحيد غير ممكن ، وأن من لم يؤمن بالنبي ﷺ بعد ما بلغته الرسالة وزالت عنه الموانع فليس ب المسلم ، ففي نظر البعض يعد هذا تطرفاً عقدياً ، ولذا فهذه لفظة ليس لها حد لمعروفة ما تجمع وما تمنع إذ الكل يوظفها حسب هواه ، وبما أن التطرف هو مجاوزة حد الاعتدال فهذا يدعوه إلى معرفة الغلو.

ثانياً : الغلو : الغلو لفظة شرعية وردت في الكتاب والسنة وهي من غلا إذ زاد وارتفع وجاوز الحد ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوْا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحُقْقَ ...﴾ [النساء : ١٧١] وقال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوْا فِي دِينِكُمْ عَيْرَ الْحُقْقَ وَلَا تَسْتَعِنُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلٍ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٧٧].

وجاء في السنة عن ابن عباس رضي الله عنه : لما جمع النبي صلوات الله عليه الجمرات أمره أن يلقط له حصى صغاراً وقال : ”بمثل هؤلاء فارموا وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين“ ^(٥).

ولذا فإن استخدام المصطلحات الشرعية أسلم وأحكم.

والغلو هو مجاوزة الحد والحد هو النص الشرعي على فهم سلف الأمة الذين شهدوا التنزيل وفهموا مقاصد الشعاع الحكيم. والغلو نوعان :

الأول : غلو اعتقادى : كغلو النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام ، وغلو الرافضة في الأئمة ، وغلو الصوفية في الأولياء ، وغلو الخوارج في تكfir أهل الإسلام بالكبيرة والذنب.

الثاني : غلو عملي : وهو المتعلق بالأمور العملية التفصيلية من الأقوال والأفعال بما لا يترتب عليه اعتقاد مثل رمي الجمار بالحصى الكبيرة ، والزيادة في العبادات كالوصال في الصوم والتبتل بعدم الزواج والرهبنة في الدين ... الخ.

صحيح ابن حبان بترتيب بن بلبان ، محمد بن حبان البستي ، المترجم : شعيب الأرناؤوط ، كتاب مناسك الحج ، باب التقاط الحصى ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، رقم الحديث (٣٨٧١) ، وصححه المحدث. ^(٥)

البحث الثاني : أسباب ظهور التطرف والظلم^(٧)

المطلب الأول : الأسباب العامة :

- (١) قلة التفقه في الدين "أي ضعف العلم الشرعي" ، أو أخذ العلم على غير نهج سليم ، أو تلقيه عن غير أهلية ولا جدارة.
- (٢) ظهور نزعات الأهواء والعصبيات والتحزبات.
- (٣) الابتعاد عن العلماء وجفوتهم وترك التلقي عنهم والاقتداء بهم ، والتلقي عن دعاء السوء والفتنة والالتفاف حولهم.
- (٤) التعلم والغرور ، والتعالي على العلماء وعلى الناس ، واحتقار الآخرين وآرائهم.
- (٥) حداثة السن وقلة التجارب ، والغيرة غير المترنة؛ "عواطف بلا علم ولا حكمة".
- (٦) شيوع المنكرات والفساد والظلم في المجتمعات ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو التقصير فيه ، كما في كثير من البلاد الإسلامية.
- (٧) النقمة على الواقع وأهله ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية في كثير من بلاد المسلمين.
- (٨) تحدي الخصوم "في الداخل والخارج" واستفزازهم للغيورين ، وللشباب وللدعوة "المكر الكبار" ، وكيدهم للدين وأهله ، وطعنهم في السلف الصالح.
- (٩) قلة الصبر وضعف الحكمة في الدعوة لدى كثير من الغيورين ولا سيما الشباب المتدلين.

إذا توافرت هذه الأسباب ونحوها أو أكثرها ، مهـدـ هذا لظهور الغلو والتطرف في أي زمان وأـيـ مكانـ وأـيـ مجـتمـعـ ، وبـخـاصـةـ إـذـاـ انـضـافـ إـلـىـ هـذـهـ الأـسـبـابـ تـقـصـيـرـ الـوـلـاـةـ وـغـفـلـةـ الـعـلـمـ وـطـلـابـ الـعـلـمـ وـالـدـعـاـةـ وـالـمـرـبـيـنـ وـالـآـبـاءـ وـالـمـتـصـدـرـيـنـ عنـ مـعـالـجـةـ هـذـهـ السـمـاتـ وـأـسـبـابـهاـ فيـ وـقـتـ مـبـكـرـ.

^(٧) راجع كتاب (الخوارج) ناصر العقل ١٢٣-١٢٤.

هذا ما يتعلق بالأسباب العامة على مدار التاريخ.
أما الأسباب التي هيأت لظهور الغلو والعنف في العصر الحديث بين المسلمين في شتى بلاد العالم فأذكرها في المطلب التالي.

المطلب الثاني : أسباب ظهور التطرف والغلو ومظاهره في العصر الحديث^(١)

أما ما يتعلق بالأسباب التي هيأت لبروز الغلو الذي هو سبب من أسباب العنف والإرهاب بين المسلمين في العصر الحديث^(٢) فهي كثيرة ومتباينة تمثل في الآتي :
أولاً : إعراض أكثر المسلمين عن دينهم ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً : إعراضًا لم يحدث مثله في تاريخ الإسلام ، مما أوقعهم في ضنك العيش وفي حياة الشقاء. كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّنِي حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجِزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٧] يتجلّي هذا الإعراض بأمور كثيرة في حياة كثير من المسلمين اليوم؛ أفراداً وجماعات ودولات وشعوبًا وهيئات ومؤسسات ، ومن مظاهر هذا الإعراض :

- (١) كثرة البدع والعقائد الفاسدة ، وما نتج عن ذلك من الافتراق والفرق والأهواء ، والتنازع والخصومات في الدين.
- (٢) الإعراض عن نهج السلف الصالح وجهمه ، أو التنكر له.
- (٣) العلمنة الصرّيحة في أكثر بلاد المسلمين ، التي أدت إلى الإعراض عن شرع الله ، وإلى الحكم بغير ما أنزل الله ، وظهور الزندقة والتiarات الضالة ، والتنكر للدين والفضيلة ، مما أدى إلى :

 - (١) شيوع الفساد ، وظهور الفواحش والمنكرات ، وحمايتها.
 - (٢) التعلق بالشعارات والمبادئ المدamaة والأفكار المستوردة.

١٢٥-١٣١ راجع (الخوارج) لناصر العقل .

^(٢) الإرهاب والعنف ظاهرة شعوبية عالمية ، لكنها قد تبدو بين المسلمين أكثر؛ لأنهم مستهدفوون وهم أكثر إباء للضييم .

وكل هذه الأمور ونحوها مما يندرج تحت مفهوم الإعراض عن شرع الله ، وتشير غيرة الشباب الم الدين ، وحين لا يظهر له السعي الجاد لتغيير الحال وإنكار المنكر ، يلتجأ إلى التصدي لهذه الانحرافات بلا علم ولا حكمة .

(٣) وقوع أكثر المسلمين في التقصير في حق الله تعالى ، وارتكابهم للذنوب والمعاصي ، والمنكرات ، وضعف مظاهر التقوى والورع والخشوع في حياة المسلمين اليوم .

(٤) ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو التقصير فيه في أكثر بلاد المسلمين .

ثانيا : شيوع الظلم بشتى صوره وأشكاله : ظلم الأفراد ، وظلم الشعوب ، وظلم الولاة وجوهرهم ، وظلم الناس بعضهم لبعض ، مما ينافي أعظم مقاصد الشريعة ، وما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ من تحقيق العدل ونفي الظلم ، مما يُنمّي مظاهر السخط والتذمر والحدق والتشفي في الفوس .

ثالثا - تحكمُ الكافرِين " من اليهود والنصارى والملحدين والوثنيين " في مصالح المسلمين : وتدخلهم في شؤون البلاد الإسلامية ، ومصائر شعوبها عبر الاحتلال ، والغزو الفكري والإعلامي والاقتصادي ، وتحت ستار المصالح المشتركة ، أو المنظمات الدولية ، ونحو ذلك مما تداعت به الأمم على المسلمين من كل حدب وصوب ، بين طامع وكائد وحاسد .

وغير ذلك من صور التحكم في مصائر المسلمين والحجر عليهم ، مما أدى إلى تذمرهم وشعور طوائف من شبابهم ومتقفيهم وأهل الغيرة منهم بالضييم والإذلال والإحباط . وما ينتج عن ذلك من ردود الأفعال والسطح والعنف .

رابعا : محاربة التمسك بالدين والعمل بالسنن : التضييق على العلماء الامرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والتمكين لأهل الفسق والفجور والإلحاد ، مما يعد أعظم استفزاز لذوي الغيرة والاستقامة .

خامسا : الجهل بالعلم الشرعي وقلة الفقه في الدين : المتأمل لواقع أكثر أصحاب التوجهات التي يميل أصحابها إلى الغلو والعنف يجد أن أكثرهم يتميزون بالجهل وضعف الفقه

في الدين ، وضحالة الحصيلة في العلوم الشرعية ، فحين يتصدون للأمور الكبار والمصالح العظمى يكثر منهم التخبط والخلط والأحكام المتسرعة والمواقف المتشنجة ، ففي الحديث ”تحقرن صلاتكم مع صلاتهم“^(٤) .

سادسا : الجفوة بين العلماء والشباب ” وبين الشباب والمسؤولين ” : ففي أغلب بلاد المسلمين تجد العلماء ” بعلمهم وحكمتهم وفهمهم وتجاربهم ” في معزل عن أكثر الشباب ، وربما يسيئونظن بالكثير منهم كذلك ، وبالمقابل تجد الشباب بحيويتهم ونشاطهم وهمتهم بمعزل عن العلماء ، وربما تكون سمعتهم في أذهان الكثيرين على غير الحقيقة ، وبعض ذلك بسبب انحراف مناهج التربية لدى بعض الجماعات ، وبسبب وسائل الإعلام المغرضة التي تفرق بين المؤمنين ، مما أوقع بعض الشباب في الأحكام والتصرفات الجائرة والخاطئة التي لا تليق تجاه علمائهم ، وتتجاه حكامهم ، وكذلك هناك حاجز نفسي كبير بين النخبة من الشباب ، وبين المسؤولين ، تجعل كلامهم يسيء الظن بالآخر ، ولا يفهم حقيقة ما عليه الآخر إلا عبر وسائل غير أمينة غالبا ، ومن هنا يفقد الحوار الذي هو أساس التفاهم والإصلاح ، قال ﷺ ” من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ”^(٥) .

سابعا : الخلل في مناهج بعض الدعوات المعاصرة : فأغلبها تعتمد في مناهجها على الشحن العاطفي ، وتربي أتباعها على مجرد أمور عاطفية وغايات دينوية : سياسية واقتصادية ونحوها ، وتحشو أذهانهم بالأفكار والمفاهيم التي لم تؤصل شرعا ، والتي تؤدي إلى التصادم مع المخالفين بلا حكمة . وفي الوقت نفسه تقصير في أعظم الواجبات ، فتنسى الغايات الكبرى في الدعوة ، من غرس العقيدة السليمة والفقه في دين الله تعالى ، والحرص على الجماعة ، وتحقيق الأمن ، والتجدد من الهوى والعصبية ، وفقه التعامل مع المخالفين ومع الأحداث على قواعد الشرع .

^(٤) صحيح البخاري-كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم-باب قتل الخوارج ٦٩٣١ ح ٣٤٠ / ٣

^(٥) صحيح البخاري-كتاب العلم-باب رفع العلم وظهور الجهل ١ / ١ ح ٣١ ح ٨١

التطرف والغلو "الأسباب والآثار والعلاج"

ثامناً : ضيق العقل وقصر النظر وقلة الصبر وضعف الحكمـة : ونحو ذلكـ ما هو موجود لدى بعضـ الشبابـ ، فإذا أضـيفـ إلىـ هـذـهـ الخـصـالـ ؛ـ منـ سـوءـ الأـحوالـ ،ـ وـشـيـوعـ الفـسـادـ ،ـ وـالـإـعـراضـ عنـ دـيـنـ اللهـ ،ـ وـالـظـلـمـ ،ـ وـمـحـارـبـةـ التـدـيـنـ وـفـقـدـانـ الـحـوـارـ الجـادـ -ـ أـدـىـ ذـلـكـ إلىـ التـطـرـفـ فيـ الـأـحـكـامـ وـالـمـوـاقـفـ ،ـ "ـ إـنـ اللهـ يـحـبـ الرـفـقـ فـيـ الـأـمـرـ كـلـهـ"ـ^(١١)ـ ،ـ وـعـنـدـ مـسـلـمـ :ـ "ـ إـنـ الرـفـقـ لـاـ يـكـوـنـ فـيـ شـيـءـ إـلـاـ زـانـهـ وـلـاـ يـنـزـعـ مـنـ شـيـءـ إـلـاـ شـانـهـ"ـ^(١٢)ـ

تاسعاً : تـصـدـرـ حـدـثـاءـ الـأـسـنـانـ وـسـفـهـاءـ الـأـحـلـامـ :ـ تـصـدـرـ حـدـثـاءـ الـأـسـنـانـ وـسـفـهـاءـ الـأـحـلـامـ لـلـعـلـمـ وـالـدـعـوـةـ ،ـ فـفـيـ الـحـدـيـثـ :ـ "ـ سـيـخـرـجـ قـوـمـ فـيـ آـخـرـ الـزـمـانـ أـحـدـاتـ الـأـسـنـانـ سـفـهـاءـ الـأـحـلـامـ يـقـولـونـ مـنـ خـيـرـ قـوـلـ الـبـرـيـةـ ،ـ لـاـ يـجـاـزـ إـيمـانـهـمـ حـنـاجـرـهـمـ ،ـ يـمـرـقـونـ مـنـ الـدـيـنـ كـمـ يـمـرـقـ السـهـمـ مـنـ الرـمـيـةـ ،ـ فـأـيـنـاـ لـقـيـتـمـوـهـمـ فـاقـتـلـوـهـمـ فـإـنـ فـيـ قـتـلـهـمـ أـجـرـاـ مـنـ قـتـلـهـمـ يـوـمـ

الـقـيـامـةـ"ـ^(١٣)ـ

هـذـاـ تـرـىـ بـعـضـ الشـابـ اـتـخـذـ مـنـهـمـ رـؤـسـاءـ جـهـاـلـاـ ،ـ فـأـفـتـوـ بـغـيـرـ عـلـمـ ،ـ وـحـكـمـوـاـ فـيـ الـأـمـورـ بـلـ فـقـهـ ،ـ وـوـاجـهـوـاـ الـأـحـدـاتـ الـجـسـامـ بـلـ تـجـرـبـةـ وـلـاـ رـأـيـ وـلـاـ رـجـوـعـ إـلـىـ أـهـلـ الـعـلـمـ وـالـرـأـيـ ،ـ بـلـ كـثـيـرـ مـنـهـمـ يـتـقـصـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـاـشـيـخـ وـلـاـ يـعـرـفـ لـهـمـ قـدـرـهـمـ ،ـ فـيـلـمـزـهـمـ بـالـتـقـصـيـرـ أـوـ الـمـدـاهـنـةـ وـنـحـوـ ذـلـكـ.^(١٤)

عاشرـاً :ـ التـعـالـمـ وـالـغـرـورـ :ـ مـنـ أـسـبـابـ ظـهـورـ الـغـلـوـ وـالـعـنـفـ فـيـ بـعـضـ فـئـاتـ الـأـمـةـ الـيـوـمـ اـدـعـاءـ الـعـلـمـ ،ـ فـيـ حـيـنـ أـنـكـ تـجـدـ أـحـدـهـمـ لـاـ يـعـرـفـ بـدـيـهـيـاتـ الـعـلـمـ الـشـرـعـيـ وـالـأـحـكـامـ وـقـوـاـعـدـ الـدـيـنـ ،ـ أـوـ قـدـ يـكـوـنـ عـنـهـ عـلـمـ قـلـيلـ بـلـ أـصـوـلـ وـلـاـ ضـوـابـطـ وـلـاـ فـقـهـ وـلـاـ رـأـيـ سـدـيدـ ،ـ وـيـظـنـ أـنـهـ بـعـلـمـهـ الـقـلـيلـ وـفـهـمـهـ السـقـيمـ قـدـ حـازـ عـلـمـ الـأـوـلـيـنـ وـالـأـخـرـيـنـ ،ـ فـيـسـتـقـلـ

صـحـيـحـ الـبـخـارـيـ ،ـ كـتـابـ الـدـعـوـاتـ ،ـ بـابـ الـدـعـاءـ عـلـىـ الـمـشـرـكـيـنـ ،ـ طـ ١٤٢٣ـهـ ،ـ ٢٠٠٢ـمـ ،ـ دـارـ الـبـيـانـ الـحـدـيـثـ ،ـ الـقـاـفـهـةـ ،ـ ٣ـ/ـ٢٢٣ـ ،ـ رـقـمـ الـحـدـيـثـ :ـ ٦٣٩٥ـ.

صـحـيـحـ مـسـلـمـ ،ـ كـتـابـ الـبـرـ وـالـصـلـةـ وـالـأـدـبـ ،ـ ظـ ١٤٢٤ـهـ ،ـ ٢٠٠٤ـمـ ،ـ ٦٤٠ـ/ـ٢ـ ،ـ رـقـمـ الـحـدـيـثـ :ـ ٢٥٩٤ـ.

صـحـيـحـ الـبـخـارـيـ-ـ كـتـابـ اـسـتـابـةـ الـمـرـتـدـيـنـ وـالـمـعـانـدـيـنـ وـقـتـالـهـمـ-ـ بـابـ قـتـلـ الـخـوـارـجـ

٦٩٣٠ـحـ ٣٤٠ـ/ـ٣ـ.

صـحـيـحـ الـبـخـارـيـ ،ـ أـبـوـ عـبـدـ اللهـ مـحـمـدـ بـنـ إـسـمـاعـيـلـ الـبـخـارـيـ ،ـ مـكـتـبـةـ الصـفـاـ ،ـ طـ الـأـوـلـيـ

١٤٢٣ـهـ-ـ ٢٠٠٣ـمـ ،ـ تـحـقـيقـ مـحـمـودـ بـنـ الـجـمـيلـ ،ـ ٣٤٠ـحـ ٦٩٣٠ـ.

بغروره عن العلماء ، عن مواصلة طلب العلم فيهلك بغروره ويُهلك. وهكذا كان الخوارج الأولون يدعون العلم والاجتهاد ويتطاولون على العلماء ، وهم من أجهل الناس.

حادي عشر : التشدد في الدين والتنطع : الخروج عن منهج الاعتدال في الدين الذي كان عليه النبي ﷺ وقد حذر النبي ﷺ من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ” إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ” .^(١٥)

ثاني عشر : شدة الغيرة وقوه العاطفة لدى فئات من الشباب والثقفين وغيرهم : بلا علم ولا فقه ولا حكمة ، مع العلم أن الغيرة على محارم الله وعلى دين الله أمر محمود شرعا ، لكن ذلك مشروط بالحكمة والفقه وال بصيرة ، ومراعاة المصالح ودرء المفاسد. فإذا فقدت هذه الشروط أو بعضها أدى ذلك إلى الغلو والتنطع والشدة والعنف في معالجة الأمور ، وهذا مما لا يستقيم به للمسلمين أمر لا في دينهم ولا في دنياهم.

ثالث عشر : فساد الإعلام : الإعلام في العصر الحديث صار - غالبا - مطية الشيطان إلى كل فتنة وضلاله وبدعة ورذيلة ، فإن وسائل الإعلام في أكثر البلاد الإسلامية غالبا ما تسخر في سبيل الشيطان ، وهي من خيله ورجله في الدعوة إلى الضلاله ونشر البدعة والزنندة وترويج الرذيلة والفساد ، وهتك الفضيلة ، وحرب التدين وأهله ، وبالمقابل فإن إسهام الإعلام في نشر الحق والفضيلة قليل وباهت جدا ، ولا شك أن هذا الوضع منكر عظيم ومكر كبار ، ويعد أعظم استفزاز يثير غيرة كل مؤمن وحفيظة كل مسلم ، فإذا اقتنى ذلك بشيء من قلة العلم والحلم والصبر والحكمة ، وغياب التوجيه الشرعي السليم ، أدى ذلك بالضرورة إلى الصلف والقسوة في الأحكام والتعامل ، وإلى الإحباط والتشاؤم واليأس عند بعضهم فيندفع إلى التغيير بعنف. لذا فإن علاج هذه الظواهر لن يكون حاسما إلا بإزالتها أسبابها.

ومن العلماء من قسم أسباب التطرف والغلو إلى الآتي :

أهمُّ أسباب الغلو والتطرف :

أولاً : الأسباب الفكرية للفلو والتطرف :

(١) معاناة العالم الإسلامي اليوم من انقساماتٍ فكريةٍ حادة ، بين تياراتٍ مختلفة ، ومن أبرز هذه التيارات :

(أ) تيارٌ يدعو إلى بناء الحياة على أساسٍ دنيويٍ ماديٍ غير مرتبط بالإسلام ، ولا بالتقاليد والعادات الاجتماعية الأصيلة. بل هي من وجهة نظرهم ، عوائقٌ في طريق التقدم والانطلاق نحو الحضارة.

(ب) تيارٌ يعارض المدنية الحديثة وكلَّ ما يتصل بالتقدم الحضاري ، فهي من وجهة نظرهم فسادٌ في الدين والأخلاق ، فالحضارة تجعل الفرد يعيش لنفسه ملبياً لرغباتها متنكرًا للأداب والفضيلة.

ولذا فكل تيار منها يرفض فكر الآخر ويقاومه ، وينظر إليه نظرةً ازدراءً واحتقاراً.^(١٦)

(٢) حرص الاستعمار على مسخ الهوية الإسلامية في البلدان المستعمرة ، وذلك من خلال إحياء القوميات التي عَفَّ عليها الدهر ، مثل : الفرعونية في مصر ، والآشورية في العراق ، والفارسية في إيران ، والفينيقية في سوريا وفلسطين ، والبربرية في المغرب العربي.^(١٧)

(٣) غياب الوسطية ، إن غلو بعض المعاصرين أُمّاتٍ كثيراً من السنن ، فتوّجَّه بعض من ظن أن الدين فيما عليه الغلاة ، وصار يرمي الآخرين بالتفريط والتهاون في دين الله والمداهنة ونحو ذلك ، بل إن علوًّا صوَّت الغلاة وظهورَ أمرهم وغرابةَ فعلهم جعلهم أشهرَ في الميدان من بعض أهل الاعتدال حتى ظن بعض الجهلة أن هؤلاء يمثلون الإسلام وأهله ، فبظهور الغلو احتفى الاعتدال وبظهور الغالين غاب المعتدلون.^(١٨)

دور التربية الإسلامية في الإرهاب الظاهري ص ٦١-٦٢.

(١٦)

مشكلة الغلو في الدين اللوبيحق ٢/٥٦٦.

(١٧)

نفس المرجع ص ٧٠٣.

(١٨)

ثم إن النبي ﷺ حذر من الخروج على منهج الاعتدال في الدين فقال : ”إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه“.^(١٩) والتشدد في الدين كثيراً ما ينشأ عن قلة الفقه في الدين.

(٤) الخلل في مناهج بعض الدعوات المعاصرة ، فأغلبها تعتمد في مناهجها على الشحن العاطفي ، وتربي أتباعها على مجرد أمور عاطفية وغaiات دنيوية ونحوها ، وتحشو أذهانهم بالأفكار والمفاهيم التي تؤدي إلى التصادم مع المخالفين بلا حكمة. وفي الوقت نفسه تقصير في أعظم الواجبات ، فتنسى الغaiات الكبرى في الدعوة ، من غرس العقيدة السليمة ، والفقه في الدين ، والحرص على الجماعة ، وتحقيق الأمن ، والتجدد من الهوى والعصبية ، وفقه التعامل مع المخالفين.

ثانياً : الأسباب العلمية للفلو والتطرف :

(١) غياب دور العلماء وانشغالهم ، فالعلماء لهم منزلة عظيمة في المجتمع المسلم ، فهم ورثة الأنبياء ، فغيابهم أو انشغالهم ، مدعوة لتصدير غير الأكفاء الذين يُضلون الناس بغير علم ، وحينذاك يتعرض المجتمع للهلاك.^(٢٠) ففي الحديث : ”من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل“.^(٢١)

(٢) نقص الثقافة الدينية في المناهج التعليمية في معظم البلدان الإسلامية ، فقد أُسست السياسة التعليمية في معظم البلدان الإسلامية على أسس غير إسلامية ، كالتنمية على حب القومية العربية ونحوها.^(٢٢) فما يُدرَس في مراحل التعليم الأساس وما بعده ، لا يؤهل شخصاً مثقفاً بالحد الأدنى من الثقافة الإسلامية ، وقد أدى ضعف المقررات الدينية إلى الأثر السلبي على سلوك الأفراد واتجاهاتهم.^(٢٣)

صحيح البخاري-كتاب الإيمان-باب الدين يسر ١/٢٠ ح ٣٩.

^(١٩)

مشكلة الغلو في الدين اللوحيق ٢/٥٤٩ ، مرجع سابق.

^(٢٠)

صحيح البخاري-كتاب العلم-باب رفع العلم وظهور الجهل ١/٣١ ح ٨١.

^(٢١)

التعليم العام في البلاد العربية ، محمد متير موسى ، عالم الكتب بالقاهرة ، ط الثانية ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م ، ص ١٩٦.

^(٢٢)

دور التربية الإسلامية في الإرهاب ، خالد الظاهري ، دار عالم الكتب بالرياض ، ط الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م ، ص ٦٠.

^(٢٣)

ثالثاً : الأسباب الدينية للغلو والتطرف :

- (١) الفساد العقدي ، إن كثيراً من المسلمين فرّقوا دينهم وكانوا شيئاً يقابلون البدعة بالبدعة ، فإذا نشأ فكر منحرف ظهر فكر منحرف آخر ينافقه ، فالشيعة مثلاً غالباً في على ^{الحقيقة} والخوارج كفروه ، وفي العصر الحديث امتلأت الساحة بالفرق والمذاهب ، وقد كان انتشار تلك الفرق مؤثراً في إحداث الغلو والتطرف.^(٢٤)
- (٢) عدم الحكم بما أنزل الله في معظم البلاد الإسلامية ، وعند تبع مظاهر الغلو والتطرف على مر التاريخ نجد غالباً يرجع إلى مسألة الحكم بغير ما أنزل الله ، فهذا الانحراف العقدي وهو عدم الحكم بما أنزل الله الذي أنتج انحرافاً عقدياً مقبلاً.^(٢٥)
- (٣) إعراض أكثر المسلمين عن دينهم ، عقيدة وشريعة وأخلاقاً ، مما أوقعهم في ضنك العيش وفي حياة الشقاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه : ١٢٤] ، مما يُنمّي هذا الإعراض مظاهر السخط والتذمر والغلو والتطرف الفكري عند البعض . ومن مظاهر هذا الإعراض : ظهور الفواحش والمنكرات وحمايتها . والتعلق بالشعارات والمبادئ الهدامة والأفكار المستوردة . والتقصير في حق الله تعالى ، والوقوع في الذنوب والمعاصي . وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وشيوخ الظلم بشتى صوره وأشكاله : ظلم الأفراد ، وظلم الشعوب ، وظلم الولاة وجورهم ، وظلم الناس بعضهم لبعض والتضييق على المتسكين بالدين ، وبالمقابل التمكين لأهل الفسق والفحش والإلحاد ، مما يعد أعظم استفزاز لذوي الغيرة والاستقامة .
- (٤) إن الانحلال الخلقي المدعوم أحياناً بالقانون تحت غطاء الحرية هو أحد أسباب الغلو والتطرف ، فمظاهر الرذيلة التي يشاهدها المسلم خاصة في المجتمعات الإسلامية ، في الشارع والمدرسة والجامعة والإعلام الرسمي والصحافة والإذاعة والأسواق ، والاستهزاء بالدين وحملته وتشويه صورته ومحاربته ، ومحاصرة القائم على دينه في فكره

مشكلة الغلو في الدين اللويمى/٢ ٤٤٦-٤٥٠ .^(٢٤)

نفس المرجع ، ص ٤٣١-٤٣٢ .^(٢٥)

وإغلاق منافذ التعبير عليه ، كل ذلك من أسباب نشوء الغلو والتطرف وردة الفعل القاسية وإن كانت غير مبررة.

رابعاً : الأسباب السياسية للغلو والتطرف :

(١) التناقض الفاضح بين ما تحض عليه مواطيق النظام السياسي الدولي من مبادئ وما تدعو إليه من قيم إنسانية رفيعة ، وبين ما تنم عنه سلوكياته الفعلية التي تتنكر لكل القيم والثاليات.

(٢) افتقار النظام السياسي الدولي إلى الحزم في الرد بعقوبات دولية ، حيث أن المجتمع الدولي يطبق هذه العقوبات على بعض دول العالم الثالث وتغضب الطرف عن دول آخر ترتكب أفعى الجرائم ، وهذا يفتح المجال واسعاً أمام المغاليين والمتطوفين في أن الاستهداف لدول دون أخرى.^(٢٦)

(٣) إن احتلال بلاد المسلمين بالغزو الفكري والعسكري وقتل أبنائهم وهتك أعراضهم وتدمير مقدساتهم ومصادر ثرواتهم ، كما يحصل في أفغانستان والعراق وفلسطين وغيرها ، حيث تداعى الأعداء على المسلمين من كل حدب وصوب ، بين طامع وكائد وحاسد. أدى إلى تذمر وشعور طوائف من شباب الأمة ومثقفيها وأهل الغيرة بالضيم والإذلال والإحباط ، فتتج عن ذلك ردود أفعال مبنية على الغلو والتطرف والعنف ضد حكام الأمة وغيرهم من يرضون بحال الأمة.

خامساً : الأسباب الاقتصادية للغلو والتطرف :

(١) تبشر العولمة التي تجتاح العالم بمزيد من الأزمات الاقتصادية للدول والمجتمعات المطحونة ، مما يزيد الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، ومن ثم يولد التطرف في الفكر.^(٢٧)

(٢) إن كثيراً من النافذين استكثروا على شعوبهم أن يشاركوهم الحياة ، فاستأثروا بالثروات والمؤسسات والشركات ، وعاشوا حياة البذخ والسرف واستغلال السلطة ، في ظل وجود طبقة محرومة تعيش دون مستوى الفقر ، بل تصل إلى حد العدم ولا

سلوك الإنسان بين الجريمة والعدوان والإرهاب منصور الشربيني ص ٢٤٤-٢٤٥.^(٢٦)

دور التربية الإسلامية في الإرهاب الظاهري ص ٥٩-٦٠.^(٢٧)

تملك شيئاً ، إنه وبحكم الطبيعة البشرية سيرتفع مستوى الحقد والحسد والتحامل والتطرف والنسمة على الآخر الغني ، مما يؤجج روح العداء ويدكي نار التطرف والغلو تحت مسمى الدين أو غيره.

(٣) عدم القدرة على إقامة تعاون دولي جدي من قبل الأمم المتحدة ، وجسم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للدول. ويكون ذلك عن طريق النمو ، والتقليل من الهوة السحرية بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، وتحقيق مستوى حياة أفضل للغالبية العظمى من الشعوب بكرامة وشرف.

(٤) عدم قدرة المنظمة على إيجاد تنظيم عادل ودائم لعدد من المشكلات الدولية. مثل اغتصاب الأراضي والنهب والاضطهاد وهي حالة كثيرة من الشعوب.^(٢٨)

سادساً : الأسباب الاجتماعية للغلو والتطرف

(١) اختلال العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وما يلفت النظر هنا أن ضبط هذه العلاقة جاء بأسلوب شرعي بديع هو توجيه كل من الطرفين : الحاكم والمحكوم إلى القيام بالمهام المنوطة به والواجبات الموكلة إليه بأسلوب قوي ، فإذا نظرت إلى النصوص الواردة في شأن الحاكم وحقوق الرعية عليه والواجبات المنوطة به ظنت أن الشرع مائل إلى جانب الرعية ، وإذا نظرت إلى النصوص الواردة في شأن الرعية وحقوق ولí الأمر عليهم من الطاعة والنصرة ونحوها ظنت أن الشرع مائل إلى جانب الحاكم ، وال موقف كما هو واضح يتشكل من محمل النظر إلى النصوص الواردة في ذلك وعلى الإمام إقامة الدين والحكم بشرعية سيد المرسلين وإصلاح أمر المسلمين والرفق بهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى الرعية السمع والطاعة ، وعليها التناصح والشورى.^(٢٩)

(٢) فقدان الاتماء إلى المجتمع الإسلامي والتعلق به ، لهذا فقد اهتم الإسلام بالتعلق بالمجتمع اهتماماً بالغاً ، وبين علاقة الفرد به حتى شبه المجتمع بالجسم الواحد ، ودعا إلى التعلق بالجماعة ، ففي الحديث : "عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع

٥٨-٥٧ ص السابق المرجع.

٤٧٥-٤٨٨ / ٢ مشكلة الغلو في الدين الويحق ، مرجع سابق.

^(٢٨)

^(٢٩)

- الواحد وهو من الاثنين أبعد ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة^(٣٠). وفي الحديث أيضاً : ”من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه“^(٣١).
- (٣) التفكك الأسري والاجتماعي ، فحرمان الطفل من الحاجات ، أو معاملته بالقسوة منذ صغره ، أو سوء العلاقة بين الزوجين ، يساعد على أن ينشأ الطفل قاسياً ناقماً على الناس ، يتخذ من الانحراف وسيلةً للثورة على مجتمعه وبيئته ، ونستشهد بحادثة عن النبي ﷺ ، فقد روي أنه قبل الحسن فقال له أحد الصحابة : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فقال النبي ﷺ : ”من لا يرحم لا يرحم“^(٣٢).
- (٤) رفقاء السوء ، لا شك أنه لا يُستهان بدور الرفقاء في النزوع نحو الغلو والتطرف ، لا سيما عندما يكون تأثير الرفقاء قوياً في وجود شخصية ضعيفة أو غير مستقرة أسرياً ، وفي الحديث : ”الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل“^(٣٣).

سابعاً : الأسباب التربوية للغلو والتطرف

- (١) افتقاد التوافق مع النفس ومع الغير ، وحين التأمل في الحياة المعاصرة نجد أن أكثر الذين اتهموا بالغلو والتطرف أو وقعوا فيه هم من يفتقد التوافق مع النفس أو مع المجتمع ، وعدم التوافق هذا دفعهم إلى اتخاذ أساليب غير شرعية في تغيير الواقع الذي يعيشونه.^(٣٤)

^(٣٠) سنن الترمذى ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، تحقيق مصطفى الذهبي ، -كتاب الفتنة-باب ما جاء في لزوم الجماعة ٤/٢١٣ ح ٢١٦٥. وقال : حديث حسن صحيح.

^(٣١) سنن الترمذى-كتاب الأمثال-باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٤/٤٥٥٧ ح ٢٨٦٣. وقال : حديث حسن صحيح.

^(٣٢) صحيح البخارى-كتاب الأدب-باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٣/١٣٧ ح ٥٩٩٧..
^(٣٣) سنن أبي داود ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي -كتاب الأدب-باب من يؤمر أن يجالس ٤/٢٠٦٢ ح ٤٨٣٣. والحديث إسناده حسن.

^(٣٤) مشكلة الغلو في الدين اللويمى ١/٣٢٧.

- (٢) عدم إشباع الحاجات الإنسانية ، فالإنسان وخصوصاً في مرحلة الشباب بحاجة إلى جملة من الحاجات الأساسية التي ينبغي إشباعها وتوجيهها ، ليعيش في استقرار نفسي واجتماعي ، وإلا فسيصير الشاب إلى أحد طريقين : إما إشباع حاجاته من طرق غير سوية أو شرعية ، أو البقاء في ظل الحرمان ، وكلا الطريقين يصير بالمرء والمجتمع إلى عدم الاستقرار ، مما يولد غلواً وتطرفاً في الفكر نحو المجتمع.^(٣٥)
- (٣) تلعب وسائل الإعلام دوراً لا يُستهان به في تغذية فكر الغلو والتطرف ، فهي بما تقدمه من برامج وأفلام وأخبار ونحوه ، ففي أغلب الأحيان تنتهي منهج التطرف فاما الاستهتار بالعقول والشعائر الدينية والأخلاقية ، أو زرع الفتنة وإثارتها من خلال بعض البرامج أو الأفكار.^(٣٦)

الباحث الثالث : مظاهر الغلو والتطرف وأثارهما

- إنه من الطبيعي لهذه الظاهرة أن تورث آثاراً سلطة منها الإفراط في التدين لإثبات الذات وإظهارها بأيتها ميزة عن الآخرين وهذا الإفراط قد يؤدي إلى الآتي :
- (١) الإفراط الذي يؤدي إلى الكفر والإلحاد فلا يبقى للإنسان فضيلة في نفسه وقد يلجأ للهروب من الواقع.
- (٢) التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر ، مما يؤدي إلى إلزام الناس بما لم يلزمهم الله به وقد يؤدي ذلك إلى الغلطة والخسارة وإيذاء الآخرين.
- هذا هو جانب الإفراط ، أما الجانب الآخر فهو جانب التفريط الذي يتمثل في النقصان والتقصير والوقوف دون الحد في الأمور ، أو القيام بأقل ما يجب القيام به والتراخي في الأمور ، كتأخير الصلوات والتهاون في أمرها والتکاسل في أداء التوافل مثلاً ، فالفرق بين الأمرين أن الإفراط هو القيام بأكثر مما يجب والتسريع في الأمور ، بينما التفريط هو تجاوز الحد بالنقصان والتقصير.

٣٣٢ / ١ . المرجع السابق .

١٦٠ . الإعلام الإسلامي الشنقيطي ص .

المطلب الأول : الآثار العقدية والفكريّة والسلوكية أولاً : الآثار العقدية :

- (١) الضلال وترك المهدى ، إن الغلو والتطرف ضلال عن الحق وابتداع في الدين ، ذلك لأنّه يتبع الظن والتشابه ، قال ابن تيمية : أصل الضلال اتباع الظن والهوى.^(٣٧) وقال ابن عباس لما سئل عن الخوارج : يؤمّنون بمحكمه ويصلّون عند متشابهه ، لأنّه ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم.^(٣٨)
- (٢) التفرق ، ذلك أنّ فكر الغلو والتطرف يزيد الأمة فرقاً ، ففي الحديث : ” افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرق أمتى على ثلث وسبعين فرقة ”.^(٣٩)
- (٣) التطاول على الشريعة واتهامها بالنقصان ، ذلك أنّ من يحمل فكر الغلو والتطرف إنما يبتدع في الدين ما ليس منه ، وكأنّه يتهم الدين بالنقصان ، فالغلو والابتداع مضادة للشارع حيث نصب المبتدع نفسه مستدركاً على الشريعة لا مكتفياً بها حُدّ له.^(٤٠)

ثانياً : الآثار الفكرية :

- (١) تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، إن الغلو في الدين في العصر الحديث شوّه الدين الإسلامي الحنيف ، ونفر الناس منه ، وفتح الأبواب للطعن فيه ، فتجرّأ أناسٌ على أفعالٍ وأقوالٍ لم يكونوا ليجرؤوا عليها لولا وجود الغلو والغلاة ، فسمع الطاعون في الشريعة.^(٤١) ففي الحديث : ” أفتان أنت يا معاذ؟ ”^(٤٢) ، ذلك أنه كان يطيل في صلاته

مجموع الفتاوى ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، مكتبة المعارف بالرياض.

(٣٧)

الشريعة الأجرى ص ٢٧.

(٣٨)

سنن أبي داود-كتاب السنة-باب شرح السنة ٤/٤٥٩٦ ح ١٩٦٩. والحديث إسناده صحيح. الاعتصام ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار ابن عفان بالسعودية ، ط الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، تحقيق سليم الملاوي ٢/٦١.

(٣٩)

مشكلة الغلو في الدين اللوحيق ٢/٦٩٣-٦٩٢.

(٤٠)

صحيح البخاري-كتاب الأدب-باب من لم ير إكفاراً من قال ذلك متّأولاً أو جاهلاً ٣/١٥٩ ح ٦١٠٦.

(٤١)

(٤٢)

بالناس فاشتكى عليه أحدهم . والمراد : منفر عن الدين وصاد عنه .^(٤٣) وفي الحديث :
”يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُّنْفَرِينَ فَمَنْ أَنْهَا مُغْلَةُ اللَّهِ فَلَيَجْزُوَنَّ“ .^(٤٤)

(٢) الإفراط في التدين لإثبات الذات وإظهارها بأنها مميزة عن الآخرين ، واتهام أهل

الوسطية والاعتدال بالتقدير والتهاون ، ذلك أن الغلاة يحسبون أنهم على خير وأنهم
مهتدون ، وأن من خالفهم أو قصر فيما هم عليه ، فقد قصر في الدين وتهاون فيه ، مما
يكتبهم الاغترار بالنفس .

(٣) التناقض في أفهامهم ، ذلك أن الغلاة يستدلون بأدلة من الكتاب والسنة هي في حقيقة
الأمر تخالفهم ، لكنهم أخذوا بظاهر النصوص أو ألوّوها بما يتناسب مع فكرهم .

(٤) التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر ، مما يؤدي إلى إزام الناس بما لم يلزموهم
الله به وقد يؤدي ذلك إلى الغلطة والخسارة وإيذاء الآخرين .

المطلب الثاني : الآثار السلوكية والاجتماعية أولاً : الآثار السلوكية :

(١) إن الغلو شر أنواع الأمراض التي تفتك بالمجتمع ، ذلك أنها تنقسم إلى شهوات
وشبهات ، فمرض الشهوة كمعصية الخمر والزنا ونحو ذلك يُرجى شفاؤه ، أما
مرض الشبهة وهو ما يتعلّق بالمعتقدات والأفكار فيصعب شفاؤه ، ذلك أن العاصي
يعلم أنه يرتكب خطأً ، أما مريض الشبهة فيحسب أنه يحسن صنعاً .

(٢) الانقطاع عن الطاعات ، لهذا أرشدنا النبي إلى ترك الغلو والتشدد في العبادة لأنه يؤدي
إلى تركها بعد ذلك ، ففي الحديث : ”إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسِرٌ وَلَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا
غَلَبَهُ“ .^(٤٥) قال ابن حجر : والمعنى لا يتعقّم أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلّا
عجز وانقطاع فيُغلب .^(٤٦)

صحيح مسلم بشرح النووي ، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار الفجر
للتراث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، تحقيق محمد تامر . ١٨٢ / ٤ .^(٤٣)

صحيح البخاري - كتاب الأذان - باب من شكا إمامه إذا طول / ١٦٠ ح ٧٠٤ .^(٤٤)

صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب الدين يسر / ١٢٠ ح ٣٩ .^(٤٥)

فتح الباري / ١١٧ / ١ .^(٤٦)

ثانياً : الآثار الاجتماعية :

- (١) وقوع الفتنة والاقتتال بين المسلمين ، ذلك أن الغلاة يحلون لأنفسهم الخروج على الحاكم وقتل المسلمين ، ظانين أنهم بذلك يحاربون أعداء الإسلام ، قال ابن عمر في الخوارج : ”إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين“.^(٤٧) وقال أبو قلابة : ما ابتدع رجل بدعة إلا استحل السيف.^(٤٨)
- (٢) الهالك والواقع في العذاب ، ففي الحديث : ”هلك المتنطعون ، قالها ثلاثة“.^(٤٩) قال النووي : أي : المتعمدون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.^(٥٠)
- (٣) التشديد من الله تعالى ، ففي الحديث : ”لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ، فإن قوماً شددوا فشدد الله عليهم ، فتلك بقائهم في الصوامع والديار : ”رهبانية ابتدعواها ما كتبناها عليهم“.^(٥١)

البحث الرابع : طرق علاج ظاهرة التطرف والعنف

المطلب الأول : العلاج العقدي والديني

أولاً : العلاج العقدي والديني :

- (١) الاعتصام بالكتاب والسنّة يحقق النجاة من كل شر وانحراف ، إذ الشرور منبعها الإعراض عن دين الله وشرعيه ، ففي الحديث : ”تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وستي“.^(٥٢)

صحيح البخاري-معلقاً-كتاب استتابة المرتدين-باب قتال الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ٣٤٠/٣.^(٤٧)

سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندى ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي -كتاب المقدمة-باب اتباع السنّة ٩٩٤٦/١.^(٤٨)

صحيح مسلم-كتاب العلم-باب هلك المتنطعون ٤/٢٠٥٥ ح ٢٦٧٠.^(٤٩)
شرح صحيح مسلم ٨/٤٣٨.^(٥٠)

سنن أبي داود-كتاب الأدب-باب في الحسد ٤/٤٢٠٩١ ح ٤٩٠٤. والحديث إسناده ضعيف.^(٥١)

- (٢) معالجة الفساد العقدي ، وذلك بالالتزام بفكر الوسطية والاعتدال وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، فأهل السنة وسط في باب الصفات بين تعطيل الجهمية وتجسيم المشبهة ، وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرة والجبرية.^(٣) لهذا فإن غلو المرجئة المعاصرين في إرجائهم دفع أقواماً نحو الغلو في التكفير.
- (٣) محاربة المظاهر العامة للفساد الأخلاقي والديني ، ذلك من شأنه أنه لا يترك مجالاً للغلاة والمتشددين لهاجمة المجتمع والتطاول عليه ، أما وجود مظاهر الانحلال والفساد فقد يعطيهم المبرر في نظر الكثرين لما يقومون به ، لهذا لا بد من قطع دابر الفتنة وسد باب الذرائع .
إذاً لا بد من إجراء حوارات ولقاءات ومناظرات مع من يحمل فكرًا فيه غلو أو تطرف أو عرضت عليه شبهة بقصد تشخيص المشكلة ومعالجتها ، بعيداً عن المزايدات والتشهير وكيل التهم واستباق الأحكام والبحث عن مكاسب دنيوية .

ثانياً : العلاج العلمي والتربوي :

- (١) الحث على طلب العلم الشرعي النافع ، ذلك أن أهم أسباب الغلو والتطرف الجهل بأحكام الدين ، قال ابن تيمية : يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين ، وإلا فقد يفسد ورره أكثر مما يصلحه ، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم.^(٤)
- (٢) الرجوع إلى العلماء ومشاورتهم ، لأنهم أعرف الناس بمراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ ، ففي الحديث : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبضُ الْعِلْمَ يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُقْرَأْ عَالِمًا أَخْذَ النَّاسَ رُؤُوسًا جَهَالًا فَسَأَلُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوْا وَأَضَلُّوْا".^(٥) وفي الحديث : "إِنَّمَا مِثْلُ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمِثْلِ النَّجُومِ فِي

موطأ مالك-كتاب القدر-باب النهي عن القول بالقدر. والمستدرك ١/٩٣. وحسنه الألباني
في صحيح المشكاة ١/٦٦ .^(٤)

انظر : الفتوى ابن تيمية ٣/١٤١ .^(٥)

مجموع الفتوى ابن تيمية ٢٠/١٤١ .^(٦)

صحيح البخاري-كتاب العلم-باب كيف يقبض العلم.^(٧)

السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل
الهداة ”^(٥٦) .

لابد من تمكين العلماء الربانيين المخلصين والمشهود لهم بالعلم والإخلاص والتجدد
وعدم التبعية أو التعصب من توجيه الجماهير وفتح القنوات الإعلامية لهم وأن يكونوا
مرجعية حقيقة صادقة مخلصة للحاكم والمحكوم .

(٣) قيام العلماء بدورهم الذي ينبغي عليهم القيام به ، فإن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق أن
يبيّنوا الحق للناس ولا يكتمنوه ، فإذا ترك العلماء الساحة فارغة حمل الرأية من لا يجيد
النزال .

(٤) محاورة العلماء للغلاة ومناظرتهم ، وذلك بإقامة الحجّة عليهم من الكتاب والسنة
وأقوال سلف الأمة ، كما أثّر عن ابن عباس رضي الله عنهما في مناظرته للخوارج في
زمن علي رضي الله عنه ^(٥٧) .

(٥) الاهتمام بمناهج التربية والتعليم ، وذلك من خلال العناية بالخطبة الدراسية والكتاب
المدرسي والمدرسين الأكفاء وبالسياسة التعليمية كلها ، لأن هذا من شأنه أن يؤسس
لبناء شخصية مسلمة متكاملة البناء .

المطلب الثاني : العلاج الاجتماعي

(١) الرد على شبهات الغلاة والمتطرفين ودحضها ، وهذا واجب على العلماء . قال ابن
القيم : إن من بعض حقوق الله على عبده : رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ،
ومجاهدتهم بالحجّة والبيان ، والسيف والسنان والقلب والجنان ، وليس وراء ذلك من
حبة خردل من إيمان ^(٥٨) . حيث أن من النصح الواجب لله ولرسوله ولكتابه الرد على
أهل الغلو والابداع وتحذير الأمة من فعلهم .

مسند أحمد ٣/١٥٧ . وال الحديث إسناده ضعيف . ^(٥٦)

المرجع نفسه ٥/٦٧ . وال الحديث إسناده صحيح . ^(٥٧)

هداية الحيارى ابن القيم ص ٣٦ . ^(٥٨)

التطرف والغلو "الأسباب والآثار والعلاج"

- (٢) إنشاء لجان تضم خبراء من الشرعيين والنفسانيين والاجتماعيين والاقتصاديين والأمنيين والإعلاميين لمعالجة ظاهرة الغلو والتطرف في المجتمعات ، عبر دراسات علمية وميدانية جادة غير منحازة.
- (٣) العقوبة والردع ، وهذا واجب الحكام والأمراء ، وذلك بعد استخدام كل الوسائل والسبل لمعالجة ظاهرة الغلو والتطرف ، فآخر العلاج الكي ، إذ إن بعض الغلة لا يصلح معهم إلا التعزير من حبس أو نفي أو ضرب ونحوه ، وذلك بضوابط شرعية يحددها أهل الاختصاص ، فقد شرع الله تعالى العقوبات ونوعها.
- (٤) محاسبة المجتمع والدولة على ما يضخه الإعلام من انحراف حلقي وما يخالف العقيدة والأداب ومنع المساس بالدين وأهله ومعرفة أن الحريات المنفلتة لا تولد إلا ردة فعل منفلتة غير منضبطة.
- (٥) تحسين الأوضاع الخارجية التي تجلب على الدول مواقف معادية والداخلية التي تسمى بالمواقف الأمنية بعدم التضييق على حريات الناس المنضبطة واحترام المخالف وإلغاء المحاكم الصورية التي تغطي على رغبات النظام في تصفية الخصوم والتعسف في حقهم.
- (٦) تحسين الوضع الاقتصادي للشباب بتوزيع الثروات بالشكل العادل وإتاحة فرص العمل والإبداع والمشاركة وإعادة تأهيل الشباب ليكون كل شاب فرداً صالحاً في مجتمعه وأمهه والقضاء على هاجس الرزق وانتظار الفتن واستغلال هذا الفقر من قبل البعض لتجنيد الشباب لتحقيق أهداف وغايات غير مشروعة.
- (٧) ضرورة العدل وإعطاء الناس حقوقهم ، سواء كانت حقوقاً مالية أو سياسية أو اجتماعية أو شخصية والقضاء على الظلم أو تقليله فإن المجتمعات لا يمكن أن يترعرع فيها الأمن وقد ساد الظلم ومن الظلم سرقة أقوات الناس وأخذهم بالظنة وتعذيبهم ومصادرة عقولهم ، وعد أنفاسهم وأخذهم بجريمة غيرهم ، فإن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدولة المسلمة إذا كانت ظالمة.^(٥٩)

(٨) ملء الفراغ الروحي لدى الشباب من خلال :

(١) عقد الندوات والمؤتمرات التثقيفية على مدار السنة.

(٢) تنسيط الرياضة ودعم الأندية بما لا يخالف ديننا الحنيف.

(٣) تفعيل دور المساجد والمراکز الدينية في توعية الناس.

(٤) إقامة المعسكرات الصيفية للتحقيق والترويح.

أمور يحسن التنبه لها في معالجة الغلو أو ما يسمى "التطرف الديني" منها :

♦ أن أعظم سبب لوجود التطرف في العصر الحاضر ، هو التطرف المعاكس في رفض الدين أو التساهل والإعراض عنه وعدم الجدية في علاج النوعين بتوافق.

♦ يجب في هذه الحال التفريق "بوضوح" بين التمسك بالدين والسنة "وهو حق" وبين الغلو والتطرف "وهو باطل".

♦ إن الغلو "التطرف الديني" لا يمكن علاجه علاجا حاسما إلا بأمررين ، وهما :

♦ الحوار الجاد والمجادلة والتي هي أحسن ، ومن خلال النصوص الشرعية والقواعد المعتبرة من قبل الراسخين والمتخصصين الذين يحترمهم المحاور ويعرف بجدراتهم.

♦ ثم الجد والحزم في معالجة أسباب الغلو ، بعد إقامة الحجة وكشف مواطن الانحراف بجلاء.

♦ إن أكثر ما يثيره أهل الغلو "التطرف الديني" مبني على أوهام وظنون وشائعات ، وتلبيس ، ثم أدى ذلك إلى التهاجر والقطيعة بينهم وبين العلماء والمفكرين ورجال الدولة.

♦ فالحل هو كشف الحقائق ، والشفافية وال الحوار الجاد واللقاء المباشر وفتح الأبواب بضوابط.

♦ يجب أن تضبط التعددية " وحرية " الرأي التي ظهرت الدعوة إليها أخيرا بالضوابط الشرعية؛ بحيث تكون التعددية في الاجتهادات لا في العقيدة والمسالمات والثوابت ، ولا تكون ترويجا للفرق والبدع والأهواء؛ فالبلد بلد الإسلام والسنة ويجب أن تبقى كذلك.

♦ إن تجاوز هذه الثوابت من قبل بعض الجاهلين كان من أسباب تصاعد الغلو وذرائعه.^(٦٠)

الغلو الأسباب والعلاج ، ناصر بن عبد الكريم العقل ، أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة ،^(٦٠) جامعة الإمام محمد بن سعود ، كلية أصول الدين ، ص ، ٢٠ .

الخاتمة :

نحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقنا لكتابه هذا البحث ، كما نشكره كثيراً أن يسر لنا ما يعيننا على اتمامه ، و نسأله تعالى أن يجعله لنا في ميزان الحسنات يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ، وقد اشتمل هذا البحث على عددٍ من النتائج والتوصيات نجملها في الآتي :

أولاً : النتائج

- (١) من الأسباب العامة للتطرف ، قلة الفقه في الدين والابتعاد عن العلماء والتعلم والغرور والجهل بأمور الدين والجفوة بين الشباب والعلماء... الخ.
- (٢) من مظاهر الغلو والتطرف وآثارها التعصب للرأي وعدم الاعتراف بالرأي الآخر ، مما يؤدي إلى إلزام الناس بما لم يلزمهم الله به وقد يؤدي ذلك إلى الغلطة والخشونة وإيذاء الآخرين.
- (٣) من العلاج العلمي التربوي للغلو والتطرف الحث على طلب العلم الشرعي النافع ، ذلك أن أهم أسباب الغلو والتطرف الجهل بأحكام الدين.

ثانياً : التوصيات

- (١) مراقبة الشباب عن طريق أسرهم ومجالستهم بغرض غرز الفضائل السمحنة في نفوسهم.
- (٢) توفير فرص عمل كافية وعادلة للشباب حتى لا يحس بالظلم وعدم العدالة بينبني جنس القطر الواحد.
- (٣) مراجعة المناهج التعليمية ومراعاة البرامج التربوية فيها ، حتى يستطيع الشاب مواجهة كل فكر هدام لا يستقيم مع شرع الله الحنيف.
- (٤) مواصلة مثل هذه المؤتمرات في عدد لا يستهان به في الجامعات السودانية - سواء أكانت الجامعات الموجودة في العاصمة أو الولايات - لبث الوعي الديني الصائب بين الطلاب.

(٥) القيام بالعديد من الندوات الدينية والمحاضرات في المؤسسات التعليمية المختلفة والمليادين العامة والأسواق دور العبادة والأجهزة الإعلامية ، المرئية ، المقرئية والمسروقة .

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) الاعتصام ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار ابن عفان بالسعودية ، ط الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، تحقيق سليم الهمالي .
- (٣) الإعلام الإسلامي ، الدكتور سيد محمد سادati الشنقيطي .
- (٤) التعليم العام في البلاد العربية ، محمد منير موسى ، عالم الكتب بالقاهرة ، ط الثانية ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .
- (٥) الخوارج مناهجهم وأصولهم وسماهم قدّيماً وحديثاً و موقف السلف منهم ، ناصر بن عبد الكريم العقل .
- (٦) دور التربية الإسلامية في الإرهاب ، خالد الظاهري ، دار عالم الكتب بالرياض ، ط الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م ، ص ٦٠ .
- (٧) سلوك الإنسان بين الجريمة والعدوان والإرهاب منصور الشربيني ص ٢٤٤-٢٤٥ .
- (٨) سنن الترمذى ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، تحقيق مصطفى الذهبي .
- (٩) سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندى ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي .
- (١٠) سنن أبي داود ، دار الحديث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ، تحقيق مصطفى الذهبي .
- (١١) الشريعة لأبي بكر بن الحسين الأجري المتوفى سنة ٣٦٠ .
- (١٢) صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، مكتبة الصفا ، ط الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م ، تحقيق محمود بن الجميل .
- (١٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، محمد بن حبان البستي ، المترجم : شعيب الأرناؤوط ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، رقم الحديث .

التطرف والغلو "الأسباب والآثار والعلاج"

- (١٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار الفجر للتراث بالقاهرة ، ط الأولى ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩ م ، تحقيق محمد تامر.
- (١٥) الغلو الأسباب والعلاج ، ناصر بن عبد الكريم العقل ، أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، كلية أصول الدين.
- (١٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري للفقيه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني.
- (١٧) مجموع الفتاوى ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، مكتبة المعارف بالرياض.
- (١٨) مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر ، الأسباب والآثار ، عبد الرحمن معلا اللويحق ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة.
- (١٩) معجم اللغة العربية المعاصر ، مادة غلا.
- (٢٠) المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وآخرون ، مادة "طرف".
- (٢١) مفهوم التطرف الديني ، www.moqatel.com
- (٢٢) موطن الإمام مالك ، للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبهاني المدنى ، المتوفى ١٧٩ هـ.
- (٢٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، المكتبة القيمة بالقاهرة ، ط الثانية ١٣٩٩ هـ ، تحقيق أحمد السقا.

مجلة علمية

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م

التطرف ما بين الأسباب الكامنة والحلول الممكنة ”رؤية نفسية“

أ. تهاني هاشم خليل عابدين

محاضر بقسم علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٠٣-٢٢٥)

المستخلص :

هدفت هذه الدراسة إلى التحليل النفسي للتطور على الأسباب واقتراح الحلول ، وقد استخدم المنهج الاستقرائي الاستباطي لإجراء الدراسة ، تمثلت أهم نتائج الدراسة في أن التطور يتحدد بأسلوب التفكير والانفعالات والمشاعر ومبدأ الفروق الفردية ، وأن الإيجاء سبب رئيسي في إنتشار التطور عبر حرب المصطلحات والتعصب السلبي والإدراك الخاطئ ، ومن الأسباب النفسية للتطور الإندفاع والشخصية غير المستقلة ، ويتمثل الحل لمشكلة التطور في تنمية ممارسة التفكير الناقد والثقة في النفس وأخلاق الشخصية الإسلامية وأيضاً تعديل أساليب التنشئة الاجتماعية ، وأختتمت الدراسة بعدد من التوصيات أهمها التوصية بتطبيق برامج إرشادية لتنمية ممارسة التفكير الناقد كأسلوب حياة.

المقدمة :

تعتبر مشكلة التطور من المشكلات المؤرقه لهدوء الحياة النفسية والاجتماعية لـإنسان القرن الحادي والعشرين ، مما جعل علماء النفس المعاصرین ينظرون إلى السلوك المتطรّف على أنه من السلوكيات الشاذة التي يجب بحثها ومعاجتها ، ويلاحظ أن التطور يتتج عن تعطيل الإنسان للملكة العقلية التي تمنحه إنسانيته الحقيقة وتميّزه عن غيره من المخلوقات الأخرى ، فقد فطر الله سبحانه وتعالى الكائنات الحية على قابلية النمو والزيادة ، والقابلية للنمو التي ميّز بها الإنسان عن سائر المخلوقات الحية تمثلت في نعمة العقل الذي يأتي نتيجة للنمو المعرفي للإنسان ، وبذلك تتأكد الأهمية البالغة التي أولاها القرآن الكريم لممارسة التفكير لتفعيل هذا العقل^(١) ، كما ووجه القرآن الكريم ولفت النظر إلى استخدام العقل عند محاولة الوصول إلى الحقيقة ؛ حيث استخدم طرقاً مباشرة وأخرى غير مباشرة تدعى الإنسان إلى تفعيل العقل ومارسته دوماً في التفكير والتأمل ، وقد تكررت هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام ، كما حفظ القرآن الكريم العقل ؛ فحرّم كل ما من شأنه إفساده أو إدخال الخلل

^(١) العياصرة ، وليد رفيق (٢٠١١) إستراتيجيات تعليم التفكير ومهاراته ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن ، ص ١٥ .

إليه^(٣) ؛ فحرم المفسدات المادية كالخمر والمعنوية كالتقليد الأعمى وما ينبع عنه من تطرف فيكون الفرد ذاً بعد واحد في تفكيره ويصبح عقله وكأنه غير موجود تماماً.

مشكلة الدراسة :

يمكن القول بأن الجانب العقلي للإنسان يمثل المرتكز الأكثر حيوية فيما يتعلق بتفاعلاته مع ذاته ومع غيره من الأفراد ومع البيئة من حوله عموماً ، ومن هنا تبرز أهمية التعرف على طبيعة الأساليب العقلية وما يرتبط بها من جوانب نفسية أخرى تقف حجر عثرة أمام تشكيل مجتمعات إنسانية تخلو من مظاهر التعصب السلبي والتطرف غير المبرر وما ينبع عنها من مشكلات جمة تزداد وتربو آثارها السالبة مع الوقت ؛ كل ذلك لتقديم حلول علمية تعمل على الجانب النفسي للإنسان بهدف التخلص من السلوك المتطرف الذي بات سبباً رئيساً لتدور المجتمعات على اختلاف ثقافاتها وفي كافة المستويات دون استثناء ، لتمثل مشكلة هذه الدراسة في محاولة التوصل لإنجذابات علمية عن الأسئلة التالية :

- (١) ما هي الأسباب النفسية للتطرف؟
- (٢) كيف يمكن معالجة التطرف من منطلقات نفسية؟

أهداف الدراسة :

- (١) التعرف على الأسباب النفسية الكامنة وراء التطرف.
- (٢) اقتراح معالجات ذات طابع نفسي للتطرف باعتباره سلوكاً بشرياً سالباً.

أهمية الدراسة :

- (١) وضع تحليل نفسي علمي للتطرف حتى يساعد على الكشف عن الأسباب التي تزيد من السلوكيات المتطرفة في المجتمع الإنساني.
- (٢) الإجابة عن بعض الأسئلة ذات الصلة بالسلوك المتطرف التي يثيرها المهتمون بالمشكلات النفسية والاجتماعية الناجمة عن التطرف.
- (٣) الاستفادة من المعرفة العلمية في مجال علم النفس لحل مشكلة التطرف.

^(٣) إبراهيم ، السيد السيد (٢٠٠٩) العقل البشري رأس مال ، مؤسسة طيبة للطبع والنشر ، القاهرة ، ص ٨٢.

منهج الدراسة :

تم اتباع المنهج الاستقرائي الاستنباطي لإجراء هذه الدراسة الذي يتضمن باحثاً موضوعياً يمثل الأداة الأساسية لجمع بيانات بحثه من خلال الملاحظة العلمية والاستقصاء والتحليل العقلي ، ويتم التعامل مع البيانات على هيئة كلمات بدلاً من الأرقام والإحصاء ، وتحدد موثوقية البحث باستخدام مصادر متعددة لجمع البيانات ، كما يتم جمع البيانات وتحليلها في نفس الوقت بحيث يرتبط ذلك بشكل جذري بموضوع البحث ويكون نابعاً من البيانات المرتبطة به ؛ فموضوعية المنهج الاستقرائي الاستنباطي تعتمد على تنوّع المحكّات المستخدمة في جمع البيانات وتحليلها.

الأساس النظري للدراسة :

مفهوم التطرف :

يشير التطرف في اللغة إلى الوقوف في الطرف بعيداً عن الوسط ، وأصله في الحسّيات كالتطرف في الجلوس أو الوقوف أو السير ثم انتقل إلى المعنيات كالتطرف في الدين أو الفكر أو السلوك ، والتطرف لفظ معياري يعني مخالفة الخط السوي الذي تحدده المعايير الدينية والقانونية والاجتماعية السائدة في مجتمع محدد ، ويمكن النظر للتطرف من وجهة النظر النفسية على أنه سلوك تفكيري ” عقلي ” في المقام الأول ؛ تنتج عنه ردود أفعال أخرى متطرفة تحمل أبعاداً وجدانية وأخرى سلوكية ، مما يعطي أهمية بالغة للتركيز على مفهوم ” التفكير ” عند تحليل التعصب عبر منظار علم النفس ، ويمكن القول بأن التفكير يمثل خاصية إنسانية يتفرد فيها كل فرد بأسلوب خاص جداً من التفكير ، حيث يتأثر أسلوب التفكير بنمط تنشئة الفرد ودافعه وقدراته ومستواه التعليمي وغير ذلك من الخصائص والسمات والقدرات التي تميزه عن الآخرين ، كما يُعد التفكير من الظواهر النهائية التي تتطور عبر مراحل العمر المتتابعة ، ويلاحظ أن تنوع سياقات الحياة قد فرض على الفرد مواجهة المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتكنولوجية ؛ مما أوجب عليه التسلح بمهارات تمكنه من تحقيق فهم عميق لمجريات الأحداث التي يتعرض لها أو يساهم في إحداثها ؛ عبر مجموعة من العمليات المعرفية التي تتفاعل جميعها لتشكل التفكير

”Thinking“ الذي يمكن الفرد من استيعاب كل مُعطيات هذه الحياة بصورة موضوعية بعيدة عن التعصب والتطرف وسوء الفهم.^(٣)

التفكير بوصفه أساساً نفسياً للتطرف :

يتجلى التفكير في الطريقة التي يحصل الفرد من خلالها على معلومات جديدة وبها يفهم الموجود من الأفكار التي أتت بها أو أتت من غيره ؛ فعن طريق التفكير ينشئ الفرد أفكاراً لم تكن موجودة تتعلق بحياته وبالكون من حوله ، وبالتالي يمكن من استيعاب وفهم الأفكار الموجودة ، وعلى الرغم من أن التفكير أمر مأثور لدى الناس فإنه من أكثر المفاهيم غموضاً ؛ فهو كمفهوم تتشابك وتتعدد أبعاده وهو من تعقده تصعب الإحاطة بجميع جوانبه^(٤) ، والإنسان غير المتطرف يمارس نوعاً من التفكير العلمي الناقد وهو ليس تفكير العلماء بالضرورة ؛ فالتفكير العلمي يمكن أن يتمثل في ذلك التفكير المنظم الذي يمكن أن يُمارس في الحياة اليومية ليبعد الإنسان عن التطرف الذي يمكن أن يتسبب في إحداث الكثير من المشكلات له ول مجتمعه ؛ فالتفكير يكون علمياً عندما يكون منظماً مبنياً على مجموعة من المبادئ والمحاكمات العقلية التي يطبقها الفرد في كل لحظة دون الشعور بها شعوراً واعياً ؛ مثل مبدأ استحالة تأكيد الشيء ونفيضه في آن واحد.

تحتل مسألة التفكير في علم النفس وعلوم أخرى وفي الحياة بوجه عام مكانة رئيسية ، حيث يُعد التفكير كعملية معرفية عنصراً أساسياً في البناء المعرفي الذي يمتلكه الإنسان ، ويتأثر ببقية العمليات المعرفية الأخرى كالإدراك والتذكر والانتباه ، كما يؤثر ويتأثر بجوانب الشخصية وما تحمله من قيم ومعايير وسمات إنجعالية وإجتماعية مختلفة ، ويتميز التفكير عن سائر العمليات المعرفية بأنه أشدها تعقيداً ؛ مما يمكنه من معالجة المعلومات وإنتاج وإعادة إنتاج معارف ومعلومات جديدة ، وهكذا يشكل التفكير المنطلق الرئيس لردود الأفعال المعرفية والوجدانية والسلوكيات التي تصدر عن الفرد ، فيكون السلوك سليماً أو شاداً متزناً أو متطرفاً كنتيجة مباشرة للعملية التفكيرية التي تمت مسبقاً.

^(٣) العتوم ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشارة ، موفق (٢٠٠٩) تنمية مهارات التفكير ”نماذج نظرية وتطبيقات عملية“ (الطبعة الثانية) ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، ص ١٧.

^(٤) العقل البشري رأس مال (٢٠٠٩) ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

يمكن ربط مفهوم التطرف بمفهوم التفكير عبر الحقيقة التي تشير إلى أن ما يصنعه الفرد هو نتيجة مباشرة لتفكيره ؛ فكما أن المرء ينهض وينشط ويُتَّجِّب بداعٍ من أفكاره ، كذلك يمرض ويشقى ويتَّصَب ويتطرف بداعٍ من أفكاره أيضاً ، وبالرغم من تشابه الأفراد في آلية التفكير "الدماغ" إلا أنهم يتَّجَّون من خلالها أشكالاً متباعدة من الأفكار ، فالدماغ يفكّر دائمًا فيما يريد الفرد له أن يفكّر فيه ؛ لأنّ المُفكّر هو سبب الفكرة ، وال فكرة هي السبب في التفكير ، والتفكير هو السبب في التركيز ، والتركيز هو السبب في الإحساس ، والإحساس هو السبب في السلوك ، والسلوك هو السبب في النتائج ، والتَّنَائِج هي السبب في الواقع الذي يعيشه الفرد ؛ مما يشير إلى أن التغيير للأفضل يعتمد على تغيير أسلوب التفكير ، وبذلك تظهر مسؤولية التساؤل حول إمكانية أن يتمثل الحل الجذري لمشكلات التَّعَصُّب والتطرف ومشكلات البشرية في عمومها في معالجة الجانب الفكري للإنسان أكثر من معالجة الجوانب الوجدانية والسلوكية والمادية؟.

فالعقل هو رأس مال الإنسان لكونه لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة بدونه ، والله سبحانه وتعالى وهب العقل وميّزه به ليتَّدبر أموره ويتَّفَكَّر وليعلم ما الذي يجب عليه أن يفعله وما الذي لا يجب أن يفعله ، حيث يستخدم مصطلح العقل (Mind) عادةً لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري خاصة تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعيًا بشكل شخصي^(٥) ، وبأيّ في مقدمتها التفكير الذي يمثل لغة العقل البشري ، وبالمفهوم الوظيفي العملي يُنظر إلى العقل على أنه مركز للتحكم والسيطرة وتوجيه الطاقات الإنسانية ؛ من خلال تحليل المعلومات التي تستخدمها الحواس وتخزينها وتوظيفها و اختيار الأفعال وردود الأفعال المناسبة باستخدام آلية التفكير ، وبذلك يعتبر التفكير عملية واعية يقوم بها الفرد عن وعي وإدراك ، كما أن العقل كأي ظاهرة تاريخية قابل للتغيير والتطور ، وفي كل مرحلة تاريخية جديدة يتجاوز ذاته ويعيد بناءها بشكل جديد ، وقد طورت الدراسات الحديثة التي تبحث في مفهوم العقل معارف مُذهلة حول طبيعة عمل العقل وقدراته ؛ حيث ربطت بين دراسة الشبكات العصبية وعلم النفس وعلم الفيزياء وعلم الأحياء الخلوي والجزئي وعلم الاجتماع وتاريخ العلم والأسئلة ؛ بما لا يدع مجالاً للشك في إدراك تلك العلوم لمحورية دور

^(٥) العقل البشري رأس مال (٢٠٠٩) ، مرجع سابق ، ص ٨.

العقل البشري في إنشاء كافة المشكلات المادية والنفسية والاجتماعية للإنسان وفي حلها كذلك ؟ بما فيها مشكلة التطرف.

دور المشاعر الإنسانية في التطرف :

يمكن تحليل ظاهرة التطرف كذلك عبر نتائج البحوث العلمية التي تشير إلى أن المشاعر والانفعالات تلعب دوراً مهماً في عملية التفكير ؛ حيث أن لـ "اللوحة" دوراً محورياً في تشفير الرسائل الشعورية وتحويلها إلى رموز يمكن الاحتفاظ بها في الذاكرة طويلة المدى ، علاوة على ذلك فإن المشاعر لها أولوية في كثير من الأحيان عند قيام المخ بمعالجة المدخلات التي ترد إليه ، فتعمل المشاعر المحايدة والسلبية لدى الأفراد نحو بعض الموضوعات على انخفاض مستوى التفكير ، وهذا ما يقود إلى ردود الأفعال المتطرفة وغير العقلانية غالباً ؛ حيث يمكن النظر للتطرف على أنه شحنات انفعالية تنشأ عن أفكار غير سليمة وتقود إلى سلوكيات تتصف بالتعصب غير الموضوعي ؛ فالعواطف في عمومها أشبه بشحنة تدفع إلى إثبات أفعال معينة ، لذلك لا بد لهذه الشحنات أن تكون ممتددة التأثير حتى يكتمل الفعل ، وقد وجد عبر دراسات علمية حديثة اتصالاً بسيطاً بين الجهاز الطرفي "المسئول عن المشاعر" والقشرة المخية "المسئولة عن الإدراك والتفكير" وهذا الاتصال البسيط فسيولوجية عظيمة ، فهو يسمح بقدر محدود من التأثير المتبادل بين الجهازين ، ولكنه في ذات الوقت - نظراً لبساطته - يعطي لكل منهما فرصة الاستقلال في الوظيفة إلى حد كبير ، وبمعنى آخر فإن الفكر يؤثر في العاطفة والعاطفة تؤثر في الفكر لكن هذا التأثير ليس بالدرجة التي تجعل أحدهما وصياً على الآخر ، فللافكار استقلالها النسبي وللمشاعر استقلالها النسبي ، ليشكل ذلك التفاعل بين العمليات المعرفية والوجدانية منطلقاً لربط التطرف والمشكلات الناتجة عنه بالشحنات الانفعالية المرتبطة بالأفكار التي يحملها الفرد ويعامل وفقاً لها.

مبدأ الفروق الفردية والتطرف :

يمكن القول بأن اختلاف البشر في طريقة التفكير نفسها قد تشكل سبباً في إحداث التطرف وما ينتج عنه من مشكلات ، حيث تظهر الفروق الفردية في التفكير تبعاً لما يُعرف لدى علماء النفس بأسلوب التفكير ، ومن علماء النفس الذين اهتموا بدراسة أساليب التفكير العالم روبرت ستيرنبرغ [Sternberg] الذي يُعرف بأسلوب التفكير بأنه الطريقة المفضلة في

التفكير لدى الفرد ، وهو بذلك ليس قدرة عقلية ؛ بيد أن أسلوب التفكير يبين كيفية توظيف الفرد للقدرات العقلية التي يمتلكها تجاه قضية ما ، وبالرغم من أن العمليات العقلية يشتراك فيها جميع الناس غير أن هذا الاشتراك لا يعني التطابق ؛ فهُم غير متساوين حين يدركون أو يتذكرون أو يفكرون ، وبذلك فإن منشأ التطرف والتعصب السلبي تتمثل المفاهيم التي ييلورها العقل بشكل لا يتسق مع الواقع ولا يتطابق مع حقيقته.

يمكن أن تتغير أساليب التفكير [Thinking Styles] عند الأفراد تبعاً لمتغيرات ومستجدات عديدة تحدث عبر الزمن ، كما أن أساليب التفكير ليست محفورة منذ الميلاد في دماغ الفرد ، فهي في معظمها ناتجة عن الوسط الذي يتفاعل فيه الأفراد ، كما قد يفضل الفرد أسلوباً محدداً من التفكير وفي مرحلة أخرى من حياته يُفضل أسلوباً آخر ، حيث أن أساليب التفكير ليست ثابتة ، كما أن أسلوب التفكير تتمثله مجموعة من الطرق والإستراتيجيات الفكرية التي اعتاد الفرد أن يتعامل بها مع المعلومات المتاحة لديه من ذاته أو بيئته ، وذلك حيال ما يواجهه من مشكلات ، وتلك الطرق يكتسبها الفرد من خلال مراحل نموه المختلفة ، بما يمكنه من السيطرة عليها وتوجيهها لما فيه صالحة^(١) ، كما أن الفروق الفردية في مقدرة الأفراد على معالجة المعلومات التي تصل إليهم من محيطهم الخارجي أو حتى من نسيج خيالهم تعتبر واقعاً تجربة الإشارة إليه ، فكل البشر يفكرون لكن لكل منهم أسلوبه المُنفرد ، ومن ثم يجب الاهتمام بتدريب الأفراد على تطوير أسلوبهم في التفكير وتنمية قدرتهم على التحول إلى أساليب التفكير الحاذقة والفعالة بعيداً عن أساليب التفكير الشاذة والمتطرفة.

الشخصية الناقدة مقابل الشخصية المُتطرفة :

يشير النقد في اللغة إلى تحليل الشئ لكوناته وجزئياته بهدف التعرف عليه عن قرب وبصورة أكثر عمقاً ، كما يدل على توضيح السليبيات والإيجابيات التي يتصف بها موضوع النقد ، ويؤكد علماء النفس أن ممارسة النقد تمكن الفرد من تقسيم الأمور وإدراكتها بصورة أكثر دقة ، لتكون الحجج والأدلة المقنعة لعقل الإنسان بمثابة الأصل المقرر والركيزة الأساسية التي ينطلق منها الفرد حيال نشاطاته الفكرية والانفعالية والسلوكية جميعاً ، فالنقد

^(١) العtom ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشاره ، موفق (٢٠٠٩) تنمية مهارات التفكير "نماذج نظرية وتطبيقات عملية" ، مرجع سابق ، ص ٣٤-٣٥.

وفقاً لما تقدم يمكن اعتباره تفكيراً تأملياً محكمًا بقواعد المنطق ، يُمارِس فيه الفرد الافتراض والتفسير والتحليل وتقدير المناقشات والاستنباط ، كما يُعد عملية عقلية مركبة من مهارات وموارد ، فهو شكل من أشكال التفكير عالي الرتبة الذي يتطلب استخدام مهارات التفكير المتقدمة لمعالجة المعلومات ومحاكمتها منطقياً وبفعالية عالية للتوصل إلى نتائج هي أقرب ما تكون للحقيقة.^(٧)

يمكن القول بأن التفكير الناقد ذو أهمية بالغة في التخلص من التفكير المطرب حيث أنه يشير إلى العمليات العقلية التي تؤدي إلى اتخاذ أحكام موضوعية بناءً على مهارات الاستقراء والاستنتاج ، فضلاً عن ما يتضمنه من مكونات ذات صلة بالتوجه والميل كالنزعة إلى التساؤل والبحث عن المعرفة والأدلة ، كما يتمثل التفكير الناقد في التعقل والأمانة العلمية والافتتاح العقلي على عكس الانفعالية والجمود العقلي والانغلاق العقلي والتطرف ، ويتضمن التفكير الناقد اتباع الدليل إلى حيث يقود ؛ لكونه نشاطاً ذهنياً تأملياً ومسئولاً بحيث يركز على اتخاذ قرار موضوعي بشأن ما نصدقه ونؤمن به وما نفعله في مواقف معينة ، فهو بمثابة تسؤال ذاتي نستخدمه عندما نسعى إلى الفهم والتقييم ؛ من خلال تحليل الحقائق وتحرير الأفكار وتنظيمها وتحديد الآراء وعقد المقارنات ، والتوصل للاستنتاجات وتقديرها وحل المشكلات باستخدام قواعد الاستدلال المنطقي ، وتجنب الأخطاء الشائعة في الحكم ، والتحقق من الظواهر وتقديرها بالاستناد إلى معايير محددة.

يرجع مفهوم التفكير الناقد في أصوله إلى أيام سocrates في القرن الخامس قبل الميلاد التي عرفت معنى غرس التفكير العقلي بهدف توجيه السلوك ، كما يرجع إلى أسطورة الذي جاء بعد سocrates بقرن ، أما في العصر الحديث فقد بدأت حركة التفكير الناقد مع أعمال جون ديوبي عندما استخدم فكرة التفكير المعاكس والاستقصاء ، حيث تعتبر محاولات جون ديوبي [John Dewey] في عام [١٩٣٨] من المحاولات الأولى التي بحثت في مجال التفكير الناقد ، باعتبار أن الفرد يجب أن يكون معااجلاً نشطاً للمعلومات وليس مستقبلاً جاماً لها ، وتبعاً لذلك ظهر الاهتمام بتنمية التفكير عموماً والتفكير الناقد بشكل خاص ، كما بدأ عدد

^(٧) العتوم ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشاره ، موفق (٢٠٠٩) تنمية مهارات التفكير ”نماذج نظرية وتطبيقات عملية“ ، مرجع سابق ، ص ٧٣.

من التربويين مع بداية القرن العشرين يهتمون بالتفكير الناقد كنتيجة حتمية لطبيعة المجتمع المعاصر ، الذي لا بدileل له عن هذا النمط من التفكير نسبةً للانفجار المعرفي والتغير الاجتماعي السريع والمثير ، ومع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين وعندما أخذت سرعة التغير تتزايد ، وبدأت تواجهه قدرات الإنسان وإمكاناته تحديات جديدة ، بدأ العلماء يهتمون أكثر بهذا النوع من التفكير ، وبلغ هذا الاهتمام ذروته حيث رأوا أن التربية بمعناها التقليدي لم تعد لها القدرة في مواجهة الاحتياجات المتتجدة والمترابطة لمجتمع اليوم المتغير وذلك لتحقيق التكيف الأمثل مع الذات والآخر بعيداً عن النطرف الذي يتنافى مع معايير التفكير الناقد.

يستخدم التفكير الناقد للدلالة على معانٍ عديدة ، من أهمها الكشف عن العيوب والأخطاء والشك الإيجابي في كل شيء والتفكير التحليلي والتفكير التأملي والتفكير القيظ والتفكير المستقل فضلاً عن التعرف على أوجه التحيز والتناقض وعدم الاتساق ، ومن جانب آخر فإن التفكير الناقد يعتبر من المجالات الهامة التي حظيت باهتمام علم النفس ، وهو ضروري في جميع مجالات الحياة ، كما يتطلب من الفرد ممارسة مستوى متقدم من المعالجات العقلية حتى يمارسه بنجاح وفاعلية ، حيث يقلل التفكير الناقد من ممارسة التفكير المترافق لكونه لا يعني مجرد النقد البسيط ولا يقبل المعلومات دونها تقويم جاد ومسؤول لها ، كما أن جوهر التفكير الناقد لا يتركز على تقديم إجابات للأسئلة ، بل يتركز على الاستفسار عن الإجابات نفسها ، ووفقاً لمبادئ التفكير الناقد فإن الإشهار والانتشار لا يعني الأهمية بالضرورة ، كما يهتم التفكير الناقد بفحص الأدلة والقرائن التي تقيّم الحجة أو تعمل على إثبات صحتها ، فالتفكير الناقد عملية تفكير تأملي مُنْتَج مقوّم للأدلة والبراهين ، كما أنه لا يُبني على أوهام ، ولا يعتمد اعتماداً كلياً على السلطة أو الحكمة الشعبية كمصدر للحقيقة ، وتبعاً لذلك يقود التفكير الناقد إلى البعد عن النطرف والأحكام الذاتية المُتحيز ، وذلك تبعاً لما يتضمنه من افتتاح للعقل وتجنب للتفكير الضيق ومارسة للحذر العقلي بالبحث عن الأخطاء وعدم الدقة والتناقض.^(٨).

٨) جروان ، فتحي عبد الرحمن (٢٠١٠) تعليم التفكير "مفاهيم وتطبيقات" [الطبعة الخامسة] ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ص ٦٠ - ٦٣ .

يختلف المُفكِّر الناقد عن المُفكِّر المتطرف في عدد كبير جدًا من السمات والخصائص النفسية التي تمتَّد تأثيراتها إلى سلوكه الفعلي وإلى أدق تفاصيل حياته ، وتأكد علميًّاً أن التفكير الناقد يرتبط بعدد كبير من سمات الشخصية الفاعلة والإيجابية ؛ مثل المثابرة والثقة العالية في النفس وتحمل المسؤولية ، والتجدد والابتعاد عن المحاكاة غير المُبرَّرة ، فضلاً عن الابتكار والأصالة والمرونة والاستقلالية والاستكشاف ، والفاعلية المُرتبطة بدوام التفكير ودوام العمل وحب الاستطلاع والتساؤل الذكي والداعية نحو التفوق والإنجاز ، مما يجعل من شخصية المُفكِّر الناقد شخصية مثالية مقارنةً بالشخصية المتطرفة ، وتبعًاً لما تقدم يكون من الطبيعي أن يرتبط التطرف بمفهوم التفكير الناقد ، حيث يمثل غياب التفكير الناقد محفزاً حقيقيًّا لانتشار التطرف وفي المقابل تقود ممارسة أفراد المجتمع للتفكير الناقد بكافة مبادئه ومعاييره المقررة إلى إعاقة مظاهر التطرف وتقليل إمكانية حدوثها.

الشخصية الإسلامية مقابل الشخصية المتطرفة :

يهتم الفرد الممارس لسمات الشخصية الإسلامية بتقديم الموقف بأمانة ووضوح ، كما يعمل على تحيص المعلومات ومحاكمتها منطقياً وبدرجة عالية من العقلانية للوصول إلى الحقيقة في ظل ثقة عالية بالنفس ، فضلاً عن كونه لا يُجادل في أمور لا يعرف عنها شيئاً ، ويتحمل مسؤولياته أمام الجميع ، ويبعد عن الأحكام الذاتية على الأمور ، ويهتم بتعديل الآراء وفقاً لما يتم الحصول عليه من حقائق جديدة ، كما يوازن على تحقيق ما يؤمن به ويستمر في تقسيم ذاته وأفكاره وسلوكياته مدى الحياة ، مما يشير إلى ارتباطه بصورة دائمة بالأخلاق الإسلامية التي تنطلق من فطرة الإنسان السوية ، كما يكره إعطاء آراء دون أدلة تدعمها ويؤخر اتخاذ القرارات إلى ما بعد التفكير المتأني ، ويحاول فهم وجهات نظر الآخرين رغم عدم تقبُّله المبدئي لها ، كما يسعى للتوصل إلى المعارف الصحيحة بغض النظر عن الربح والانتصار لآرائه الخاصة ، وهو ضد الاعتقاد بالأفكار البالية والمتطرفة ، حيث تعتبر تلك السمات النفسية التي دلت على أهميتها نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة من أهم سمات الشخصية التي اعترف علماء النفس الغربيون على محوريتها في تنمية شخصية إنسانية سوية ومتزنة.

يرى الفارابي أن القوة التي يتم بواسطتها الإحساس والتفكير والتخيل هي المخيلة ، التي يحفظ بها الفرد ما ارتسם في نفسه من المحسوسات بعد غيابها عن مشاهدة الحواس لها ، وتسمى "مُفكرة" ، إذا استعملها العقل أما إذا استعملها الوهم سميت "مُتخيلة" ^(١٠) ، ويبدو أن التطرف عادةً ما ينتج عن إستعمال الوهم للمخيلة بحيث تنتج تبعاً لذلك أفكاراً هي أقرب ما تكون للتعصب غير المبرر ، ولكنها في ذات الوقت تمثل الحقيقة فقط من وجهة نظر الفرد الذي يتبنى تلك الأفكار فيدافع عنها بقوة ويستخدم كافة الأساليب لنشرها وتأكيدها ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَجِّبُ كَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشَهِّدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَّا يُحْصَمُ ﴾ [البقرة : ٢٠٤] ، وقد يدرك الفرد أنه متطرف في فكره أو أنه يتتعصب لرأيه الخاطئ فيرفض اتباع الحق رغم علمه به ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتُهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٤] ، ولذلك فإن التطرف من سمات المفسدين في الأرض والصالين ، أما المؤمنون المهتدin فهم يتبعون الحق وياخذون بالشرع كمعيار للحكم على أفكارهم وانتهاءاتهم واتجاهاتهم وبذلك فهم وبعد الناس عن الأفكار المتعصبة والسلوكيات المتطرفة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لُهُمُ الْخَيْرُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وتأكد ذلك المعنى عدد من الآيات الكريمة التي تضعه كمحك للحكم على صدق المؤمن في ممارسة تعاليم الشريعة الإسلامية في حياته اليومية ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا إِمَّا قَضَيْتَ وَإِسْلَمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، ذلك أن التشريع الإسلامي له القدرة على حل كافة الخلافات والتوفيق بين مختلف الفرق والجماعات بمتنه العدالة والحكمة ، وقد أمرنا الله تعالى برد الخلافات الله ورسوله وأولي الأمر لدرء أسباب النزاع والتطرف والعصبية ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩].

١٠ طه ، الزبير بشير (١٩٩٥) علم النفس في التراث العربي الإسلامي ، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ، الخرطوم ، ص ١١٦.

الإدراك الخاطئ بعده سبباً للسلوك المتطرف :

يمكن النظر إلى السلوك المتطرف على أساس أنه سلوك غير سليم ينبع عادةً عن المدركات الخاطئة التي تتعرض لها كينونة الإدراك الإنساني ، فالعقل البشري يُنبع المعرف الطنية ولا يستطيع إنتاج المعرف اليقينية المطلقة ، وبذلك يكتشف الإنسان عبر الزمن عدم صحة العديد من المدركات التي تم إدراكتها بطريقة خاطئة ، فالبشر في رحلة بحثهم عن الحقيقة يعتمدون كلياً على المعرف التي ترد إليهم في شكل إيحاءات خارجية أو داخلية ” ذاتية ” يتفق عنها متوجههم العلمي والفكري ، ونتيجة لذلك بربت العديد من المدركات الخاطئة في المعرفة والفكر الإنساني^(١) ، كما يمثل الإدراك الخاطئ أصلًاً لمعاناة الإنسان وتطرفه وحياده عن الطريق الصحيح ، حيث أن كثيرةً من مظاهر التطرف تأتي نتيجة لمعاجلة خاطئة للإيحاءات المستقبلة وطريقة غير سليمة في التفكير الاستنتاجي ؛ ليدخل الإنسان من خلالها في دائرة مفرغة تبدأ بفكرة متطرفة كنتيجة لإدراك خاطئ يليها انفعال متطرف ثم بعد ذلك سلوك متطرف تولد عنه فكرة متطرفة أخرى يليها انفعال متطرف آخر ... وهكذا ، فيكون الفرد أسيراً لها إلى أن يُعدل من أسلوبه السالب في الاستنتاج ومنهجه غير السليم وغير التفاوقي في الإدراك ، حيث أن الإدراك الخاطئة المتكررة تقود إلى عقل مُغمر بالمعرف والمقدمات الخاطئة ، بالإضافة إلى النزوع إلى الخبرات الخيالية المشوهة التي يتولد عنها انحراف حاد في البناء المعرفي يقود إلى ظهور السلوك المتطرف بكافة أبعاده وتجلياته.

الحرب النفسية وعلاقتها بالterrorism :

تعمل الحرب النفسية على التأثير في الرأي العام وتستخدم عدة أدوات للوصول إلى ذلك ، ويعتبر الإعلام من أهم الأدوات التي تستعين بها في سبيل الوصول إلى مدى تعيم أكبر لأهدافها وغاياتها ، ومن أهم خصائص الحرب النفسية أنها تركز على القوة المعنوية والإرادة والتوجه ، كما أنها ترتكز على دراسة شاملة للمستهدفين ؛ كخطوة أولى للتخطيط المُتخصص للحرب النفسية الموجهة نحوهم ، وعلى استغلال مشاعرهم ودواجهم ؛ فالحرب النفسية هي حرب لتغيير السلوك وميادتها هو الشخصية وأسلحتها هي بعض وسائل الإيحاء

^(١) عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) الإيحاءات المُدركة ، كتاب غير منشور ، تحت رقم التسجيل : ت - ٢٠١٢ - ١٢ ك ، ص ٨ .

المتمثلة في الكلمات والأفكار والدعایة والإشاعات ، وفي ظل ضعف الحساسية النفسية يكون من السهل على أقل سلاح نفسي للعدو أن يصيب ويؤثر^(١٢) ؛ فتنتشر تبعاً لذلك مظاهر التطرف والتعصب التي يتم نشرها في المجتمع المستهدف بالحرب النفسية ، حيث أن وسائل العدو في الحرب النفسية موجودة باستمرار ولكن وجودها وحده لا يؤثر وإنما الذي يؤثر هو استعدادنا لاستقبالها والتأثير بها.

حرب المصطلحات بعدها مدخل للفكر المتطرف :

تعتبر حرب المصطلحات من الأساليب الإيحائية القوية التي يمكن أن تزيد من احتمالية ظهور السلوكيات المتطرف ، حيث انتشرت بطريقة واسعة لنشر أفكار وثقافات غير مقبولة في شكل مقبول ، وتعتمد أساساً على اللعب بالمصطلحات وتقويه دلالاتها بطريقة تجعل المُتلقي دون وعي منه مُعتقداً لهذه الأفكار وتلك الثقافات ومحارساً لها بل ومُدافعاً عنها ، وبذلك فإن أي شكل من الغزو الفكري الموجود في العالم اليوم ما هو إلا نتيجة حتمية لحرب المصطلحات التي ترتكز في أساسها على آلية الإيحاء ، ومن الأمثلة الواقعية على ذلك تغليف الدلالات غير المقبولة بمصطلحات مقبولة ومن ثم العمل على نشرها وبثها بكلفة الوسائل الممكنة ، فكانت حرب المصطلحات وبهذه النظرة أداةً لتحقيق المطامع بأساليب ناعمة لا تكلف ولا تسبب في أي خسائر مادية أو بشرية لتحقيقها^(١٣) ، وهذا الرأي لا تدعمه أسس ومبادئ نظرية المؤامرة ، ولكن تدعمه كل المعاني التي ينطق بها الواقع عن مظاهر التطرف بين المسلمين اليوم الذي لا يحتاج لكثير من الشرح واستخدام الكلمات لتوضيحه أو كشف أبعاده ؛ ابتداءً من مظاهر التبعية والتقليد الأعمى وانتهاءً بالسلوكيات المتطرف التي باتت تشكل تهديدات حقيقة للاستقرار والأمن في العالم العربي الإسلامي.

يمكن أن تتطور حرب المصطلحات وتنكشف تأثيراتها لتدوي إلى ما يعرف في علم النفس بغسيل المخ ، الذي يشير إلى العملية التي يتم من خلالها تطهير المخ وإعادة تشكيل التفكير ، ويمكن أن يستخدم ما يعرف بغسيل المخ مع المجموعات والأفراد ، واستخدامه مع المجموعات عادةً ما يكون من خلال حملة إعلامية مكثفة ، وعملية غسيل المخ أشبه ما تكون

^(١٢) عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدركة (٢٠١٢) ، ص ١٢ .
^(١٣) عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدركة (٢٠١٢) ، ص ١٤-١٥ .

بعملية الفرمطة في الكمبيوتر لأنها تعتمد على حمو وإعادة التعلم ، بما يجعل من هذه العملية النفسية أداة فعالة لتشكيل السلوك المترافق ، ويلاحظ أن مدى التأثر بها يتوقف على قوة أو ضعف ميل الفرد للخضوع والتأثر ، كما يمكن إرجاع بعض أشكال السلوك المترافق إلى ما يعرف بسيكولوجية الحشد التي قامت مجموعة من النظريات النفسية بتفسيرها من خلال التأكيد على أن الأفراد يسلكون عندما يكونون وسط جماعة في مواقف محددة بما لا يتفق مع سلوكهم في نفس الموقف عندما يكونون بمفردهم ، لأن العقاب لن ينالهم في الحالة الأولى نسبة لعدم القدرة على إيجاد أدلة قوية تدينهم كأفراد عندما يكونون وسط جماعة.^(١٤)

يمكن للسلوكيات المترفة المرتبطة بسيكولوجية الحشد أن تحدث نتيجة لإيحاء سلوك الحشد بأنها سلوكيات مرغوب فيها أو صحيحة وعلى أنها الطريقة الفعالة للحصول على الحقوق مثلاً ، والأدلة الواقعية على ذلك كثيرة ومنها العنف الطلابي في الجامعات والمظاهرات التخريبية للمواطنين والخلافات العنيفة بين الفرق وتطرف اتباع المذاهب والأحزاب السياسية والفكرية ... وما إلى ذلك ، كما قد تعدد الحالات التي يؤثر فيها سلوك الجماعة على سلوك الفرد لتشمل كافة نواحي الحياة ، حيث يمدنا النظر الثاقب إلى هذه الأمثلة بالدليل القوي على أن سلوك الآخرين عندما تكون له صفة الانتشار أو الاستمرارية أو الاثنين معاً ؛ فإنه يعطي إيحاء للفرد بأنه سلوك صحيح وطبيعي حتى وإن لم يكن كذلك بل حتى وإن كان على النقيض من ذلك تماماً ، ولكن لابد من الاشارة إلى أن درجة التأثر بإيحاء سلوك الآخرين تعتمد في المقام الأول على مدى وعي الفرد ومدى قوة إرادته أو ضعفها في الانسياق والخضوع.^(١٥)

التطرف بوصفه مرادفاً للتعصب السلبي :

يمثل التطرف في علم النفس ما يعرف بالتعصب السلبي الذي لا يقوم على أسس عقلية كما لا تدعمه الأدلة الموضوعية ، ومن خلال التعمق في دلالات مصطلح التعصب سيتضح أنه عبارة عن ميل انفعالي يؤدي إلى أن يفكر الفرد وينفعل ويسلك نحو شيء أو فرد أو موقف بطرق تتفق مع حكم بالتفضيل أو عدم التفضيل ، ويكون ذلك الحكم سابقاً على

^(١٤) مرجع سابق ، الإيحاءات المُدرَّكة (٢٠١٢) ، ص ٢٠.

^(١٥) عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدرَّكة (٢٠١٢) ، ص ٢٠.

وجود دليل منطقي مناسب ، وهو يقوم على أساس نسق من القوالب النمطية والتصورات الجامدة التي يلعب الإيحاء دوره الفعال في صناعتها ، ومن خلال تدقيق النظر للواقع المعاش يمكن الكشف عن العديد من صور التعصب التي لا تستند إلا على بعض الإيحاءات التي لا تستند بدورها إلى أي مبررات منطقية تدعم صحتها ، ولكن بالرغم من ذلك يلاحظ أن مثل هذه الإيحاءات تؤثر بالفعل على العديد من الأفراد فتتحكم في أفكارهم وأحاسيسهم ونزعاتهم السلوكية نحو موضوع التعصب بشكل كبير قد يصعب تصحيحة إلا بعد جهودات عميقة ومتولة ، نسبة لما تمتلكه تلك الأفكار من مكانة عميقة في أنفس معتنقها والمتأثرين بها بالرغم من عدم منطقيتها^(١٦) ، ومن جانب آخر يمكن القول بأن الإيحاء هو مكمن فاعلية الأفكار المتطrtle لكونه يتضمن عملية غرس أفكار في عقلية الفرد بحيث لا تجد الفكرة الجديدة معارضة أو انتقاداً من الأفكار الأخرى القديمة ، وبذلك يمكن النظر إلى مظاهر التطرف على أنها نتيجة حتمية لمبدأ "الإلفة بالموضوع" الناتج عن تكرار الإيحاء بأفكار محددة عبر الزمن فيقبلها الفرد بسهولة نسبة لافتة إليها بدون محاجتها عقلياً^(١٧) .

التقليد الأعمى بوصفه منشأ للسلوك المتطرف :

يمكن القول بأن التطرف يتيح عن تقليد السلوكيات المتطrtle أو في المقابل التأثر بها ، وهناك أهمية للتمييز بطريقة حاسمة بين ظاهري التقليد والتأثر ، فحتى إذا تمثلت نتائج هذا التأثر في نوع من الاستجابة الوعائية فإنها تُنفذ ببطء واستلهام ولا تأخذ الطابع الوعي الذي يتسم به التقليد ، وفي التأثر حقيقة بينة وهي أن المرسل لا يفطن عادةً إلى دوره المؤثر ، كما أن المُتلقي لا يتبعه إلى فاعلية العناصر التي يحتفظ بها ، ومن هنا يمكن اعتبار التأثر تقليداً غير واعٍ واعتبار التقليد تأثراً واعياً ، ويرتبط ذلك التقليد أو التأثر غالباً بمبدأ الأكثريّة الذي يدل من الناحية السيكولوجية على أن الأقلية غالباً ما تميل إلى التأثر بالأغلبية^(١٨) ؛ وذلك بتوجيه الأفراد لزعاتهم السلوكية وخصائصهم الفكرية والانفعالية تبعاً للخصائص السلوكية والانفعالية والفكرية السائدة ، التي يمكن أن تتطور لتأخذ شكل التقليد الأعمى والفكر المتطرف .

^(١٦) مرجع سابق ، الإيحاءات المُدركة (٢٠١٢) ، ص ١٣-١٤ .

^(١٧) مرجع سابق ، الإيحاءات المُدركة (٢٠١٢) ، ص ٢٩ .

^(١٨) عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدركة (٢٠١٢) ، ص ١٦ .

تشير الملاحظة الواقعية إلى أن هنالك نوعين من التقليد؛ أولهما هو التقليد **المُبَصِّر** الذي يمارسه الفرد على بصيرة ودرأة وعلى هدي الله عز وجل وعلى سنة رسوله ﷺ، والتقليد **المُبَصِّر** ليس تقليداً بالمعنى المذموم وإنما هو تقليد محمود ومرغوب فيه، ويمكن أن يظهر هذا النوع من التقليد في اتباعنا لرسولنا الكريم ﷺ في قوله وفعله واتباع أوامره واجتناب نواهيه، كما يمكن أن يظهر في الانتقاء **المُبَصِّر** من قبل الفرد للأفكار والسلوكيات التي يمكن أن يُقلد فيها غيره من الناس بعد اقتناعه التام بمشروعيتها وبصحتها وبفائدتها، أما النوع الثاني فهو التقليد **الأعمى** ويتمثل في اعتناق فكر أو قبول رأي أو القيام بسلوك موافقة ومسايرة لفئة من الناس دون البحث عن دليل شرعي يبني عليه ذلك سواء من الكتاب أو السنة الصحيحة، فالتقليد **الأعمى** يتم باتباع الغير في اعتقادات أو أقوال أو أفعال أو عادات مع جهل ضررها أو مصادمتها للفطرة النقية والعلم السليم والشريعة المشرفة، ووصف التقليد **الأعمى** بأنه **”أعمى“** لأنه تقليد بدون دليل ولا برهان يدل عليه، إن **المُقلد** لآخرين تقليداً **أعمى** نسي أن كل ابن آدم خطأون وتوهم أن الآخرين معصومون من الضلال والإنحراف والخطأ، ونسى بأن الناس لا ينطقون دائمًا من حجة دامغة أو برهان ساطع أو دليل قاطع؛ بل هم كثيراً ما يُطلقون الكلام على هوانة، والله عز وجل قد بين حال **المُقلدين** ومن قلدوهم يوم القيمة، وكيف يُلقي كل من الفريقين بالتبعة والمسؤولية على الفريق الآخر، فقال عز وجل : ﴿إِذْ تَرَأَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ [١٦٦] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَتَرَأَّءُوا مِنْهُمْ كَمَا تَرَأَءُوا مِنَ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧-١٦٦].

الحاجة للانتماء بعدها معززاً نفسياً للطرف :

يعتبر الانتماء من الحاجات النفسية المركوزة في أعماق النفس البشرية ، فكل فرد يسعى للانتماء لمجموعات مختلفة كالأسرة وجماعة الرفاق والحزب السياسي والفريق الرياضي وغيرها من المجموعات لإشباع تلك الحاجة ، وإذا تأملنا في مجال الفرق الدينية والسياسية باعتبارهما من أكثر الجماعات التي تظهر فيها مظاهر التطرف ، سنجد أنها تجهد في أن تظهر بأساليب إقناع تعتمد على عنصر الإيماء اعتماداً كبيراً لتزيد من اتباعها ولتلبس أفكارها ثوب الحق والمصداقية ، هذا الواقع الماثل الذي قد يصيب الفرد بالخيرة فيما يتعلق بمحاولة الاختيار الصحيح للجماعة التي يجب أن يقتنع بأفكارها ويتمي لها يوضح الأثر الكبير

للإيحاء في مجال سيكولوجية التطرف ، حيث أن كل جماعة منها تعمل على إقناع الآخرين بأفكارها من خلال الإيحاء بدرجة قد تذوب معها معايير الفرد للحكم السليم غير المتطرف ، حيث يمثل الإيحاء أداة مرنّة وفاعلة من شأنها أن تجعل الحق حقاً والحق باطلًا والباطل حقاً والباطل باطلًا على حد السواء.^(١٩)

تضاعف في ذات السياق فاعلية تأثير جماعة الأقران على الفرد خصوصاً في مرحلتي الطفولة المتأخرة والراهقة ، فيبرز دورها في تفعيل مظاهر السلوك المتطرف لدى الناشئة ، وذلك على اعتبار أن عدم الانجراف مع جماعة الأقران ومسايرتهم يعتبر في نظر هؤلاء الأطفال والراهقين ضعفاً وشذوذًا ينبع من عدم القدرة على التوافق ، كل ذلك بالرغم من أن المقاومة الوعية لهذا الانجراف التي تقبل الصحيح وترفض الخطأ تُنم عن شخصية في قمة القوة ، لأن الرفض في هذه الحالة يكون من باب أن الفرد " لا يريد " وليس " لا يستطيع " ، وبالطبع فإن الاختلافات كبيرة بين دلالة اللفظين ، والحقيقة التي تداعت مثل هذه الإيحاءات لحجبها عن الرؤية تتمثل في كون الانجراف اللاواعي يُمثل قمة الضعف ؛ لأن الفرد حينما يقبل الصحيح والخطأ دون تمييز أو مقدرة على إبداء الرأي والاعتراض على الخطأ ، فإنه في هذه الحالة " لا يستطيع " أن يحكم ذاته نسبة لضعف إرادته ، فيكون " إمعة " يقبل التأثير ويدمن التقليد ويمارس التطرف بشكل كبير.

نتائج الدراسة :

أولاً : تتمثل الأسباب النفسية للتطرف فيما يلي :

- (١) أساليب الإقناع التي تعتمد على عنصر الإيحاء اعتماداً كبيراً يمكن أن تشكل السبب الرئيسي في انتشار التطرف ؛ حيث يمثل الإيحاء أداة مرنّة وفاعلة من شأنها أن تجعل الحق حقاً والحق باطلًا والباطل حقاً والباطل باطلًا على حد السواء.
- (٢) التطرف سلوك عقلي في المقام الأول وتنبع عنه ردود أفعال متطرفة تحمل أبعاداً وجدانية وأخرى سلوكية ، بالدرجة التي تجعل من " أسلوب التفكير المتطرف " سبباً في مشكلة التطرف.

١٩ عابدين ، تهاني هاشم (٢٠١٢) ، مرجع سابق ، الإيحاءات المُدركة (٢٠١٢) ، ص ٢٩.

- (٣) التفكير العلمي هو ليس تفكير العلماء فقط بالضرورة ، فالتفكير العلمي يمكن أن يتمثل في ذلك التفكير المنظم الذي يمكن أن يُمارس في الحياة اليومية لبعض الإنسان عن التطرف.
- (٤) السلوك المتطرف يؤثر ويتأثر بجوانب الشخصية وما تحمله من قيم ومعايير وسمات انفعالية واجتماعية مختلفة ، حيث تؤثر أساليب التنشئة الاجتماعية غير السليمة في خلق أجيال قابلة للتطرف.
- (٥) تشكل الأفكار المتطرفة المنطلق الرئيس لردود الأفعال الوجданية والسلوكية المتطرفة التي تصدر عن الفرد ، حيث يسلك الفرد وينفعل بدافع من أفكاره التي يؤمن بها.
- (٦) تعمل المشاعر المحايدة والسلبية لدى الأفراد نحو بعض الموضوعات على إنشاء ردود الأفعال المتطرفة وغير العقلانية غالباً ، حيث يمكن النظر للتطرف على أنه شحنات انفعالية تنشأ عن أفكار غير سليمة وتقود إلى سلوكيات تتصرف بالتعصب غير الموضوعي.
- (٧) اختلاف البشر في طريقة التفكير ” الفروق الفردية في التفكير ” يمكن أن تكون سبباً في إحداث التطرف وما ينبع عنه من مشكلات ، وذلك عند غياب ثقافة أدب الاختلاف في المجتمع.
- (٨) منشأ التطرف يكمن في المفاهيم التي يبلورها العقل بشكل لا يتنسق مع الواقع ولا يتطابق مع حقيقته من خلال ما يعرف علمياً بالإدراك الخاطئ.
- (٩) ينبع التطرف عن أفكار هي أقرب ما تكون للأوهام التي لا تمثل الحقيقة بتاتاً ، ولكنها في ذات الوقت تمثل الحقيقة فقط من وجهة نظر الفرد الذي يتبنى تلك الأفكار فيدفع عنها بقوة وبشدة الطرق السليم منها والخاطئ.
- (١٠) يعتبر التفكير الناقد من أنماط التفكير المتقدمة لمعالجة المعلومات ومحاكمتها منطقياً وبفعالية عالية للتوصل إلى نتائج هي أقرب ما تكون للحقيقة ، بما يجعله الأسلوب التفكيري الأمثل في مقاومة التطرف.
- (١١) يختلف المُفكِّر الناقد عن المُفكِّر المتطرف في عدد كبير جداً من السمات والخصائص النفسية ، حيث يرتبط التفكير الناقد بعدد كبير من سمات الشخصية الفاعلة والإيجابية ، مثل الابتعاد عن المُحاكاة غير المبررة وطلب الإقناع العقلي من الآخرين.

- (١٢) السلوك المتطرف ينتج عادةً عن المُدركات الخاطئة التي تتعرض لها كينونة الإدراك الإنساني ، التي تنتج تبعاً لطبيعة العقل البشري الذي يُنتج المعرف الظنية ولا يستطيع إنتاج المعرف اليقينية المطلقة.
- (١٣) تعمل الحرب النفسية عبر وسائل الإعلام والاتصال المختلفة على نشر العديد من مظاهر التطرف في المجتمعات المستهدفة ، تبعاً لما تتمتع به من إمكانية للوصول إلى مدى تعميم أكبر لأهدافها وغاياتها.
- (١٤) تعتبر حرب المصطلحات من الأساليب النفسية القوية التي تزيد من احتمالية ظهور السلوكيات المتطرفة.
- (١٥) يمثل التطرف في علم النفس ما يعرف بالتعصب السلبي الذي لا يقوم على أساس عقلية ولا تدعمه الأدلة الموضوعية ، كما تحل الأفكار التعصبية مكانة عميقة في أنفس المؤمنين بها على الرغم من عدم منطقيتها.
- (١٦) ينبع التطرف من الناحية النفسية عن التقليد الأعمى للسلوكيات المتطرفة أو في المقابل التأثر غير الوعي بها عبر الزمن.
- (١٧) تعتبر عملية غسيل المخ من الإستراتيجيات النفسية الفعالة لتشكيل السلوك المتطرف في بعض الحالات.
- (١٨) تلعب سيكولوجية الحشد دوراً واضحاً في تعزيز العديد من مظاهر التطرف في المجتمع الإنساني.
- (١٩) تتضاعف فاعلية تأثير جماعة الأقران على الفرد خصوصاً في مرحلتي الطفولة المتأخرة والمرأفة فيها يتعلق بتشكيل مظاهر السلوك المتطرف لدى الناشئة.
- (٢٠) يشكل الاندفاع سلوكاً افعالياً ويثق الصلة بالتطرف ويؤدي تعديله إلى تحقيق تفكير متزن وموضوعي.
- (٢١) الاعتمادية المفرطة على الآخرين تعمل على نشر ثقافة التطرف ؛ لكون الفرد في هذه الحالة يعمل على تبني الأفكار الجاهزة فيتقبلها من الآخرين بغض النظر عن كونها متطرفة أو غير متطرفة.

(٢٢) عدم الرغبة في التفكير تمثل أكبر المسببات النفسية النزوعية للتطرف ، فبعض الأفراد مثلاً قد لا يرغبون في بذل الجهد أو تحمل المسئولية لاتخاذ قراراتهم وتشكيل أفكارهم وانتهاءاتهم ؛ بما يزيد من نسبة تقبل الأفكار المتطرفة لديهم.

(٢٣) فقدان الثقة في التفكير تقود إلى إحجام الفرد عن القيام بعملية التفكير في الموضوع المطروح خوفاً من عدم قبول رأيه ؛ فيفضل الفرد هنا مسيرة الآخرين بشكل أعمى يعزز من ظهور الأفكار المتطرفة.

(٢٤) الشخصية الإنسانية لا تخرج عن ثلاثة أنماط أساسية ؛ تمثل في المسير الذي يُفكّر وينفعل ويسلك وفقاً لتوقعات الجماعة ، والمغایر الذي يَعرف توقعات الجماعة لكنه يسلك بأسلوب مُخالف لتوقعاتها ، والمستقل الذي لا يتأثر فكره أو انفعاله أو سلوكه بالتوقعات الثقافية ، وقد تأكّد أن الشخصية المسيرة والشخصية المغایرة هما الأكثر تطرفاً في مقابل الشخصية المستقلة.

ثانياً : تمثل الحلول النفسية للتطرف فيما يلي :

(١) تربية التفكير الناقد لدى الأفراد والذى ينطلق أساساً من القيم والمبادئ الإنسانية بعدها محكاة له ويستهدف بشكل رئيسي الوصول للحقيقة ، ستشكل خطوة مهمة ياتجاه حل مشكلة إنتشار التطرف.

(٢) التركيز على معالجة الجانب الفكري للفرد المتطرف أكثر من معالجة الجوانب الوجدانية والسلوكية يعتبر إجراءً حيوياً حل مشكلة التطرف ؛ حيث تمثل الأفكار المتطرفة المنشأ النفسي للتطرف.

(٣) أساليب التفكير المتطرفة ليست محفورة منذ الميلاد في دماغ الفرد فهي في معظمها ناتجة عن الوسط الذي يتفاعل فيه الأفراد ، مما يعطي أهمية لرفع الوعي الاجتماعي المحيط بالفرد بما يدعم دحر التطرف.

(٤) الاهتمام بتدريب الأفراد على تطوير أسلوبهم في التفكير الذي يقود إلى تنمية قدرتهم على التحول إلى أساليب التفكير الحاذقة بعيداً عن أساليب التفكير الشاذة والمتطرفة.

- (٥) تنمية الحساسية النفسية لدى أفراد المجتمع تضمن وقايتهم من التطرف الذي تستهدفه أساليب الحرب النفسية وحرب المصطلحات وإستراتيجيات غسيل المخ التي يتم ترويجها عبر وسائل الإعلام والاتصال الحديثة.
- (٦) تطوير الحقيقة التي تشير إلى تأثير جماعة الأقران على بعضهم البعض في انتشار السلوك المتطرف؛ بشكل إيجابي يقلل من مظاهر التطرف لدى الناشئة.

توصيات الدراسة :

- (١) تصميم وتطبيق برامج إرشادية تستهدف حل مشكلة التطرف عبر تنمية ممارسة الأفراد للتفكير الناقد في سياق حياتهم اليومية.
- (٢) تطوير مؤسسات التنشئة الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية المعلومات والإستراتيجيات الالزمة لبناء أجيال غير متطرفة في أساليب تفكيرها ومشاعرها وانتهاءاتها ونزعاتها السلوكية.
- (٣) وضع رقابة على المعلومات التي تتيحها وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة؛ بحيث يتم تلافي تأثيراتها ذات الصلة بالجوانب المعززة للتطرف من خلال حملات إعلامية مضادة.

الخاتمة :

تجمع مشكلة التطرف بين اهتمامات العديد من ميادين العلم والمعرفة ، كالدراسات الإسلامية وعلوم النفس والتربية والسياسة والمجتمع والقانون ، ويعود السبب في ذلك إلى تعدد الجهات العلمية التي يهمها معالجة القضية لارتباطها المباشر بخصوصاتها ، ويمكن القول بأن اهتمام تلك التخصصات المختلفة بمشكلة التطرف ظهر من خلال بحوث ودراسات علمية عديدة هدفت للكشف عن أسباب مشكلة التطرف ، وتجدر الإشارة إلى أن الذي تم في الدراسة الحالية هو محاولة ربط عملية الكشف عن أسباب التطرف بوضع الحلول والمعالجات المقترحة ، حيث يجدر بها التلازم مع بعضها البعض للتخلص من مظاهر السلوك المتطرف ، وذلك من خلال تقييم الحلول انطلاقاً من الأسباب ، التي يمكن أن تمنحها المبرر لتكون حلولاً نفسية مقترحة للتخلص من التطرف وما يتبع عنه من مشكلات.

قائمة المصادر والمراجع :

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) إبراهيم ، السيد السيد [٢٠٠٩] العقل البشري رأس مال ، مؤسسة طيبة للطبع والنشر ، القاهرة.
- (٣) جروان ، فتحي عبد الرحمن [٢٠١٠] تعليم التفكير ”مفاهيم وتطبيقات“ الطبعة الخامسة ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان.
- (٤) طه ، الزبير بشير [١٩٩٥] علم النفس في التراث العربي الإسلامي ، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ، الخرطوم.
- (٥) عابدين ، تهاني هاشم [٢٠١٢] الإيحاءات المُدركة ، كتاب غير منشور ، تحت رقم التسجيل : ٨ ت-٢٠١٢-٢٠١٢ ك.
- (٦) العتوم ، عدنان يوسف والجراح ، عبد الناصر ذياب وبشارة ، موفق [٢٠٠٩] تنمية مهارات التفكير ”نماذج نظرية وتطبيقات عملية“ الطبعة الثانية ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان.
- (٧) العياضرة ، وليد رفيق [٢٠١١] إستراتيجيات تعليم التفكير ومهاراته ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن.

قسم الثقافة الإسلامية

- * أنشئ قسم الثقافة الإسلامية في العام ١٩٩٤ م وكان وقتها يتبع لإدارة التعريب.
- * ثم أنشئت إدارة مطلوبات الجامعة في العام ١٩٩٨ م وأضيف قسم الثقافة الإسلامية لها.
- * يضم القسم في عضويته عشرة أساتذة ، واحد بدرجة أستاذ مشارك وسبعة بدرجة أستاذ مساعد ومحاضرين.
- * يقوم القسم بتدريس منهج الثقافة الإسلامية لكل كليات الجامعة كمطلوب جامعية.
- * للقسم نشاط خارجي يتمثل في المؤتمرات العلمية والمنتديات الشرعية وغير ذلك
- * للقسم أهداف تمثل في ربط الطالب بتراثه الإسلامي وتزويده بالمعارف الإسلامية ، وتحقيق مبدأ الأخوة الإسلامية بين الطلاب ، وربط الدين بالعمل وأنماط السلوك. وتنمية الإيمان في نفوس الطلاب ، إلى غير ذلك من الأهداف.

مجلة علمية

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ - ٢٠١٦ م

صياغة رؤية إسلامية وسطية للحوار والتعايش الديني مع الأقليات غير المسلمة

د. هويدا صلاح الدين العتباني

جامعة بحري

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٢٧-٢٥١)

المستخلص :

هذه الورقة ”صياغة رؤية إسلامية معتدلة للحوار والتعايش الديني مع الأقليات غير المسلمة“ استعرضت المفاهيم التي تقود إلى فهم أبعاد قضية تعامل الإسلام مع الأقليات غير المسلمة. إضافة إلى تقديم نماذج من التعايش الديني والأحكام الشرعية التي تصبح صمام أمان للأقليات غير المسلمة ، والتي تعيش تحت ظل الحكم الإسلامي.

وقد أكدت الورقة أن الإسلام كرس مبدأ المساواة بين جميع الناس وفقاً لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمَنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠]. ومن ثم فقد أكد الإسلام على الأسس والقواعد التي تعطي الأقليات حقوقهم حتى لا يتعرضوا للتهميش والأذلال والقهر، لا سيما في ظل المجتمعات التعددية. وتحت الإسلام على الحوار مع المختلفين دينياً، تجنبًا للنزاع وال الحرب ، وحتى يمكن إستيعاب الاختلافات الفكرية والدينية وتقبل الآخر. الأمر الذي يؤكد أن الإسلام يعتمد رؤية معتدلة ، ويرفض الفكر الإقصائي والتطرف في التعامل مع غير المسلمين.

مقدمة :

مع بروز رسالة الإسلام كان المعيار الأشمل والأوسع هو تكريم الإنسان والاعتراف بأفضليته وإبطال استبعاده بغض النظر عن عرقه أو لونه أو دينه ، فكان أبرز وأعظم شعار للمساواة في الإنسانية قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمَنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠]. ومن هنا بربت الحاجة إلى تأسيس مرجعية إسلامية وسطية ومعتدلة تنسجم مع طبيعة التعددية والتنوع الشعافي والديني في الدولة الواحدة ، وتعتمد مبدأ الحرية والعدل والمساواة مما يمكنها من التعامل مع الأقليات الدينية غير المسلمة ، ويتبعها سبر غور التطرف الديني والفكر المتشدد.

تستعرض هذه الورقة حقوق الأقليات غير المسلمة ، وهي حقوق تستند إلى فلسفة الحق الإنساني في الإسلام ، في ظل المجتمعات التعددية ، وأهمية إجراء حوار في حالة النزاعات ، وذلك من خلال المحاور التالية :

المحور الأول : دراسة مفاهيم للمصطلحات الأساسية المرتبطة بالبحث.

المحور الثاني : فلسفة الحق في الإسلام.

المحور الثالث : حقوق الأقليات غير المسلمة وفق الرؤية الإسلامية.

المحور الرابع : رؤية تأصيلية للحوار.

تهدف الورقة إلى :

أولاً : تأسيس رؤية وسطية معتدلة ، تستند إلى الفقه الإسلامي ، الذي يسعى إلى التعايش الديني في المجتمع المتعدد.

ثانياً : إيجاد صيغ مشتركة للتعايش مع الأديان الأخرى من خلال الربط في القضايا المشتركة.

ثالثاً : بلوغ رؤية حوارية تستوعب الاختلافات الفكرية والدينية وتقبل الآخر.

وفي هذا المنحى فإن الدراسة تتيح الإجابة عن مدى إمكانية إيجاد فكر وسطي معتدل

يعتمد على الفقه الإسلامي وي العمل على الانسجام والتعايش الديني في المجتمع المتعدد ؟

دراسة المفاهيم :

تعد دراسة المفاهيم الاجتماعية والسياسية ذات أهمية علمية ، وتصالح مدخلاً لفهم أبعاد القضية. على أن تلك المفاهيم تظل قيد البحث والتنقيب في ما هو متاح ، ومن ثم القيام بعملية التنقيب حصولاً على أفضل التنتائج. ويبدو من الأهمية تعريف المصطلحات التي لها علاقة بموضوع الورقة وهي :

أولاً : الحق

ثانياً : الأمة والمواطنة.

ثالثاً : الأقلية.

رابعاً : الحوار.

أولاً : الحق :

كلمة حق بمعنى وجب ، يحق للمظلوم أن يجاهد في وجه الحق ، أي ”وجب“ على المظلوم.^(١) وبعض العلماء مثل ابن نجم المصري المتوفي عام ٩٦٩ هـ ، عرف حق الملكية بأنه ”اختصاص حاجز“ ، باعتبار أن الاختصاص هو جوهر الحق.^(٢)

^(١) المعجم العربي الأساسي – مادة حق.

وسر الفقهاء الحق أيضاً بأنه ”كل ما هو ثابت ثبوتا شرعاً، أي بحكم الشارع وكان له بسبب ذلك حمايته“^(٣). والتعريف الأخير هو الأكثر وضوحاً، وهو الذي سنعتمد له ونستطع به في تبيان حقوق الأقليات الدينية. والحق من أسماء الله الحسنى، وقيل من صفاته. والحق نقيض الباطل كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلِسُوا الْحُقْقَ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحُقْقَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٣].

يقول القرافي في كتاب الفروق إن ”حق الله أمره ومنه وحق العبد مصالحه“^(٤). هنا لا بد من التفرقة بين حق الله سبحانه وتعالى وحق الفرد. فقد قسم الأصوليون في باب المحكوم فيه الحق إلى قسمين، الأول حق الله أو حق الجماعة وهو ما يتعلق به النفع العام، ونسبة إلى الله تعالى لعظم خطره وشموله ومدى نفعه. والثاني هو حق العبد أو الفرد وهو ما يتعلق بمنفعة خاصة.^(٥)

ويرتكز مفهوم الحق بصفة عامة على مبدأ العدل، وصولاً إلى نقطة التوازن بين منفعة الفرد ومنفعة الجماعة، فالفرد يحترم حقوق الآخرين كي يضمن احترام الآخرين لحقوقه. وقد بالغ الإسلام في رعايته لحقوق الإنسان إلى درجة أطلق البعض عليها ”حرمات“ وأطلق البعض الآخر عليها ”ضرورات“ وأدخلها قسم ثالث في باب ”الواجبات“.^(٦)

^(١) فتحي الدربي، الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده، دمشق ١٩٦٧، ص ١٨٦.

^(٢) علي الخفيف، الحق والذمة، ١٩٤٥، ص ٣٦. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: هويدا صلاح الدين العتباني، حقوق الإنسان بين الإسلام والمواثيق الدولية مع دراسة خاصة لحقوق الإنسان في السودان، رسالة ماجستير ١٩٩٨، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم.

^(٣) شهاب الدين بن العباس الصهاجي القرافي، الفروق، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، ج ١، ص ١٤٠.

^(٤) محمد فتحي عثمان، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية و الفكر القانوني العربي ، دار الشروق ، ط الأولى ١٩٨٢، ص ٢٩.

^(٥) هبة رؤوف ، المرأة و العمل السياسي رؤية إسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٩٥ ، ص ٨٦.

وقد يأتي الحق كثمرة لأداء الواجب الإنساني كما جاء في الحديث "من أحيا أرضاً ميتاً فهيء له" رواية الترمذى عن جابر - كتاب الإحياء. فالحق هنا يتم نيله بعد القيام بواجب الإحياء للأرض بالسقي والغرس ، وعلى ذلك يصبح كل حق يقابلها واجب.

ثانياً : الأمة والمواطنة :

يعبر مفهوم الأمة عن مجموعة من الناس تشتراك في وحدة الأصل واللغة والثقافة والتاريخ.^(٤) وربما تجمع بينهم القيم والأهداف و يؤلف بينهم نفس التاريخ والمستقبل المشترك. وليس بالضرورة وجود الأمة في دولة واحدة أو اقليم واحد ، بل يمكن أن تتوزع في أقاليم مختلفة ، مثل الأمة العربية والأمة الإسلامية ، وهو على عكس مصطلح "الأقليمية" والذى يرمز إلى "وضع وحالة تدرجان داخل الدولة الواحدة أو الأقليم الواحد ، اعتباراً بأن الأقليم يمثل عباد لواء المجموعة وتنسب إليه هويتها. كما أنه يشير إلى درجة من التجانس التي تسود مجموعة بعينها".^(٥)

ومفهوم الأمة هو المفهوم المعتمد في الإسلام لدى غالبية الفقهاء ، فقد ورد لفظاً ومعنى في القرآن الكريم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ...﴾ [الشورى : ٨]. وإن كانت الأمة يسودها الإيمان فإن الإسلام هو المرجعية الأساسية ، ومن ثم يجب الاعتراف بكل ما ينبع عن تلك المرجعية ، وباعتبار أنها مرجعية لنظام شامل ومتكملاً للحياة الإنسانية.

أما المواطنة فيشير مفهومها إلى تمنع الشخص بالحقوق والواجبات داخل الدولة أو البقعة الجغرافية التي لها حدود معينة ، والتي تستند إلى حكم القانون ، وعادة ما تكون رابطة "الجنسية" هي المعيار الأساسي في تحديد المواطنة.^(٦) وانطلاقاً من مفهوم المواطنة ، فإن جميع المواطنين متساوون ، لا يميز بينهم الإختلاف في الدين أو الجنس أو العرق.

٢- يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد العرب ، ج ٢، مطبعة

جامعة الخرطوم ١٩٨٩، ص ١٠٥

^(٤)

٤- محمد عمر بشير ، الإقليمية والوحدة القومية ، المركز الطباعي ، ص ٤٠.

^(٥)

٦- سامح فوزي ، المواطنة ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، ص ٩-٧.

^(٦)

وإذا عقدنا مقارنة بين مفهوم الأمة والمواطنة ، نجد أن المفهومين يلتقيان في أن الحقوق تكتسب و تستحق بغض النظر عن العرق أو اللون أو القبيلة. و رغم أن مفهوم الأمة يبدو أنه لا تحدده حدود إلا أنه مقيد بضوابط الإيمان ، بينما المواطنة لا تتقيد بحاجز المعتقد أو الدين بل تتقيد بحاجز الجنسية. فكلا المفهومين ينفتح في جوانب و يتقييد في أخرى. وعلى سبيل المثال يرى بعض الناقدين لمفهوم المواطنة أن ثمة إشكالية تمثل في اعتماد مبدأ المواطنة للمواطنين غير المسلمين في الدولة ، ومن ثم تعميمهم بالحقوق ، في الوقت الذي يحرم منها مسلمون من جنسيات مختلفة ، وهو أمر يخالف مفهوم الأمة ، والذي لا تحدده حدود جغرافية ، مما يحتم إيجاد صيغة اجتهادية تتصدى لتلك الإشكالية.^(١٠)

ورغم رفض بعض الفقهاء تطبيق مبدأ المواطنة في الدولة الإسلامية ، إلا أن البعض الآخر يرى أن مفهوم الأمة هو مفهوم شامل يجمع بين الناس كافة ، وعناصر الأمة من الأفراد ” مواطنين ” في دولة الإسلام. وأن عنصر المواطنة يضم غير المسلمين الذين ارتسوا العيش تحت سقف الدولة الإسلامية.^(١١)

إضافة إلى ذلك فإنه يصبح من المهم اعتماد فقه الضرورة ، والذي يضمن عدم ضياع الحقوق ، أو على أساس ” حيثما وجدت المصلحة الشرعية فثم وجه الله ”^(١٢) بالطبع المقصود هو المصلحة المقيدة بالضوابط الشرعية ، وعلى أساس أن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد. وعلى سبيل المثال أشار العلامة ابن القيم إلى قبول شهادة غير المسلم بأنه ” ضرورة يقتضي هذا التعليق قبولها في كل ضرورة ، حضراً وسفراً ”^(١٣) لكن في اعتقاده

^(١٠) أبو بكر سليمان الشيخ ، مقالات في الشريعة و جدل الموية ، هيئة الأعمال الفكرية ، السودان ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

^(١١) حسن سيد سليمان ، الدولة الإسلامية طبعتها وأسسها ، جماعة الفكر والثقافة الإسلامية ، ص ٢٦ .

^(١٢) يقول القرضاوي لا تؤخذ العبارة على إطلاقها بل تعمل فيها لم يكن فيه نص صريح محكم. والمعروف أن الشرع جاء بجلب المصالح في العاجل والأجل فإن وجدت مصلحة معتبرة فإن الشرع أجاز تحصيلها.

^(١٣) ابن القيم ، إعلام الموقعين .

تظل الأشكالية في من هو الذي يحدد المصلحة أو الضرورة؟ وما هي مؤهلاته الفقهية؟ وإلى أي مدى يجد قبولاً لدى الناس؟.

ثالثاً : الأقلية :

الأقلية هي مجموعة إنسانية تنضوي ضمن مجموعة أكثر تعداداً يطلق عليها غالبية أو أكثريّة. ويعني ذلك أن فئة الأقلية عملياً هي فئة نسبية قابلة دائماً للتمرد ، إذ إنها تتعلق بالسياق وبوجهة النظر التي ترتبط بها.^(١٤)

ولقد استخدمت الكلمة أقليات وعلى مدى طوبل للإشارة إلى شعب ، ينتمي إلى إثنية أو لغة أو دين ، ويكون ضمن دولة خاضعة لسلطة مركزية. وعلى ذلك فإن الحقائق الإقليات بالمجتمعات المسيطرة يؤمن ويضمن نظاماً للحماية من قبل الدولة أو السلطة المركزية.^(١٥) ومهما يكن من أمر فإن قضية الأقليات في ظل الأغلبية أو الأكثريّة غالباً ما تقود إلى مطالب ، وإذا لم يتم تحقيقها فإنها تؤدي إلى أزمة وعدم استقرار ، وذلك من شأنه إثارة المشاكل التي تتعلق بالبناء الاجتماعي للهوية الجماعية والعلاقة بالآخر.

وعندما تكون الأكثريّة هي الفئة المهيمنة ، فإنها تستهدف إلغاء التباينات للتخلص من وجود أي بديل ثقافي ينافسها في أسلوب وطريقة حياتها ، وذلك من أجل الاستحواز على الدولة كآلية للدفاع عن هويتها. ومن هذا المنطلق ستغدو الأقليات هي الفئة المتضررة لأنها ستخسر خصوصيتها الثقافية. ولا يستبعد تولد ردود فعل عكسية وسالبة ، وأول مظاهر تلك الردود هو رفض التعايش مع الهوية الثقافية الغالبة والمهيمنة على مفهوم الأمور ، كمحاولة للاحتفاظ بخصوصيتها وهويتها ، وربما تلزم الدولة في هذه الحالة إلى تطبيق حق "تقرير المصير" كحق للحماية القانونية^(١٦) ولذلك فإن التحدي الماثل أمام الأكثريّة هو إمكانية توفيق الأوضاع التي تهيئ البيئة المناسبة للتعايش مع الأقليات الدينية أو العرقية مع تقديم الخيارات المقبولة لدى الأطراف المختلفة.

^(١٤) جان فرانسوا دورتيه ، معجم العلوم الإنسانية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط٢ ، بيروت ٢٠١١ ، ص ٧٠.

^(١٥) المصدر نفسه.

^(١٦) المصدر نفسه.

رابعاً : الحوار :

حسب ابن منظور ، الحوار هو التردد إما بالذات أو بالفكر ، حار الماء في القدير ، أي أنه ”تردد“ وحور الحور الرجوع عن الشيء ، وحؤوراً رجع عنه.^(١٧) والحوار هو محادثة بين شخصين أو أكثر في عملية يجري فيها تبادل الآراء والأفكار. وينتظر الحوار عن الجدل ، فالمتحاوران يلتقيان في حديث أو مناقشة وربما يفترقان بعد ذلك. لكن الجدل يحدث على سبيل المنازلة والمغالبة ، فيه تكون الخصومة والانتصار للنفس^(١٨) ، وفي الحديث ” ما أتيت الجدل قوم إلا ضلوا ” أما المجادلة بمعنى المناظرة لإظهار الحق فنجدها في قوله تعالى ﴿... وَجَادُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ [النحل : ١٢٥].

ولقد وردت كلمة المحاورة في القرآن في ثلاثة مواضع فيها مراجعة للكلام والتدالو^(١٩) بين طرفين ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴾ [الكهف : ٣٤]. ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي حَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف : ٣٧]. ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] ، ورغم ورود كلمة المحاورة ثلاث مرات إلا أن الحوار ورد بصيغة قال ، وهي كلمة تدل على الحوار وقد وردت في القرآن سبعاً وعشرين وخمسين مرات.^(٢٠)

فلسفة الحق الإنساني وحقوق الأقليات الدينية :

إن أهم الأسس والمعايير التي تميز الحق الإنساني هي القيم التي تمثل في الحرية والعدل والمساواة ويمكن تفصيل ذلك كالتالي :

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، باب حرر ، دار المعرف ،^(١٧)
ص ٨٣٠.

محمد الفاضل بن الباقي ، تأصيل الحوار الديني : تأصيل المصطلحات وتحديد الضوابط الشرعية ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٥.^(١٨)
المصدر نفسه.^(١٩)

الحرية :

وتعني حالة الوضع الذي يتحرر فيه الفرد من القوى الاجتماعية والثقافية ، والتي ربما تسببت في إعاقة الفرد ومنعه من تحقيق ذاته.^(٢٠)

والحرية أن يكون الإنسان سيد نفسه ، فيمتلك قراره ويتحكم فيه بشرط ألا ينحرف وراء أهوائه ، التي تتعارض مع الضوابط الشرعية ، وتوادي إلى الإضرار بالآخرين.^(٢١) وعلى ذلك يكون للإنسان الخيرة في أن يفعل ما يريد بشرط عدم الإضرار بالآخرين^(٢٢) ، سواء كان الضرر حسياً أو مادياً ، حتى إن كان الآخرون مخالفين له في العقيدة والدين.

لقد تأسست الحرية الدينية وعدم التعدي على حرية الآخرين بسبب مخالفتهم للدين أو العقيدة ، إنطلاقاً من قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ﴾ [الكافرون : ٦]. وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَنِ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ بِجَيْعًا أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٩٩] وقوله ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكُفِرْ ...﴾ [الكهف : ٢٩].

العدل :

وهو عكس الجور ، والعدل كلمة ترجع إلى المعادلة بين شيئين^(٢٣) ، وعلاقته بالحق أن الدافع لتحقيق العدل هو إحقاق الحق وإبطال الباطل. فالحاكم أو القاضي أو الإمام يجتهد في إقامة العدل حتى لا يتشر الجور والظلم. وأهم مقومات العدل الشهادة الصادقة ، ولو كانت على النفس والأقربين ، وهي إقرار على النفس وإلزام الحق لها^(٢٤) ، نجد ذلك في قوله تعالى

٢٠) حسام الدين علي مجید ، إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر جدلية الاندماج و التنوع ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت يوليو ٢٠١٠ ، ص ١٧٧.

٢١) محمد أبو زهرة ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، دار الفكر العربي ، ص ١٨٧.

٢٢) المادة الرابعة ، الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ، ١٩٧٩.

٢٣) محمد الطاهر بن عاشور ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ، ص ١٨٦.

٢٤) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، الكشاف ، ج ١ ، تفسير سورة النساء ، الدار العالمية للطباعة والنشر ، ص ٥٩٨.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالَّدِينِ وَالْأَقْرَبِينَ ... ﴾ [النساء : ١٣٥].

من النماذج الحية التي تعكس مبدأ العدل ما حدث في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رض حين اندفع إليه رجل قبطي يستغيث ودموعه تسيل ، يشكو ابن عمرو بن العاص قائلاً : سابقني بن عمرو بن العاص فسبقه ، فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم هو وابنه ، فقال عمر للقطبي خذ السوط وأضرب ، فأمسك الرجل بالسوط وضرب به ابن عمرو ، وعمر يقول أضرب ابن الأكرمين ، ثم قال ضعه على صلة عمرو ، فقال القبطي : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه. ثم نظر عمر وقال ”منذكم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً“.

المساواة :

هناك علاقة وطيدة بين المساواة والعدل ، سويت المكان أي عدله. وعليه يتعين لكل فرد استحقاقاً ، أو بعبارة أخرى يتساوى الناس جميعاً في القيمة الإنسانية ، حيث يصبح تطبيق المساواة في الحقوق بين الناس بغض النظر عن العرق أو الجنس أو الدين. ولذلك يمكن القول إن المساواة هي الرئة التي تنفس بها الحقوق الإنسانية.

وتتحدد المساواة وفقاً للرؤية الإسلامية بتنظيم العلاقات الإنسانية بين الفرد والمجتمع من جهة وبين الأفراد بعضهم البعض من جهة أخرى ، تحقيقاً للعدالة الاجتماعية ، واعتباراً للمسؤولية الفردية والاجتماعية ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنَّ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ... ﴾ [آل عمران : ١٩٥].

المساواة عادة لها جوانبها المطلقة ولها جوانبها النسبية ، حيث لا يوجد في الواقع العملي ما يعرف بالمساواة المطلقة فقط ، بل يوجد ما يعرف بالتمييز الإيجابي ، وهو الذي

٢٥) محمد خلف الله ، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٤٦.

٢٦) معجم مفاهيم الوسطية ، إشراف وتحرير سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل ، بالتعاون بين مركز الحضارة للدراسات السياسية ومنتدى النهضة والتوالصل ، مطبع العملة ، ط١ ،

٢٠١١ ، ص ١٥٣.

يقتضيه الواقع المعيشي. ومن أقرب الأمثلة في تطبيق المساواة بين الناس بغض النظر عن أصلهم أو جنسهم أو لونهم ، الحادثة التي جاء فيها فريق من قريش إلى النبي ﷺ وطلبوه منه أن لا يجالس بلا لحبيسي ، وسلمان الفارسي ، وصهيباً الرومي ، وعماراً وغيرهم من الموالى والقراء ، حتى يستطيعوا مجالسة الرسول ﷺ ، والاستماع لدعوته فنزلت الآية ﴿ وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَّيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٢].

أما بالنسبة إلى غير المسلمين فإنهم يصبحون سواسية مع المسلمين أمام القضاء ، فيحکم للمسلم ضد غير المسلم ، أو يحکم لغير المسلم ضد المسلم ، متى ما ثبت استحقاق العقوبة لأحدهما. ^(٢٧)

مفهوم أهل الذمة والتعامل معهم :

في اللغة الذمة هي العهد والأمان والكافلة ، وفلان له ذمة ، أي له حق. والذمة هي عقد يبرم على التأييد مع أهل الكتاب من جانب وإمام المسلمين من جانب آخر ، وبهذا الشكل فإن أموال المعاهددين ودماءهم كأموال المسلمين ودمائهم. وفي ذلك قال علي ابن أبي طالب ” إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا ”. ^(٢٨) وعلى ذلك فإن عقد الذمة يترب على حقوق متبادلة ، أي أن كل طرف له حقوق وعليه واجبات.

وأهل الذمة هم المعاهددون من أهل الكتاب من النصارى واليهود وأهل الثقافات الأخرى كالمجوس والمرشدين وذلك استناداً لقول الرسول ﷺ ” سنوا بهم سنة أهل الكتاب ” ^(٢٩) وإن كان بعض الفقهاء مثل الكاساني أخرج المرشدين من أهل الذمة فإن البعض الآخر مثل مالك والأوزاعي والشافعى وأبي ثور وإبن المنذر والحنابلة لم يفرقوا بين مشركي العرب والمعجم في أن يكونوا من أهل الذمة. ^(٣٠)

^(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٦.

^(٢٨) علاء الدين ابن بكر بن مسعود الكاساني ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ج ٧ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص ١١١.

^(٢٩) سمعه عبد الرحمن بن عوف ورواه الشافعى.

^(٣٠) محمد عبده ، تفسير القرآن الكريم ، المنار ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ١٠ ، ص ٣٠٣.

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم ”عقد الذمة“ ليس مفهوماً إسلامياً خالصاً ، بل إنه كان شائعاً قبل الإسلام. وفيها بعد أكسبه الإسلام مشروعه ، وأضاف إليه ، فتحولت ذمة العاقد أو المجير إلى عقد مؤبد لا يقبل الفسخ حماية لغير المسلمين.^(٣١)

ومن أهم وأبرز الدلائل في الرخصة التي منحها الله تعالى لتعامل المسلمين بالقسط والبر مع غير المسلمين الموجودين في المجتمع الواحد أو الدولة الواحدة هو قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَمَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].^(٣٢) والبر هو الفضل والخير ، والقسط هو العدل فهما مطلوبان من المسلم ، وقد حث الله على بذل البر والعدل للناس كافة المسلمين وغير المسلمين ، إلا من قاتل المسلمين أو أخرجهم من ديارهم ، وذلك من شأنه تحقيق أنس المشاركة في دار الإسلام. ”فكل ما حقق مصالح المشتركين معًا فيه جاز ، وكل ما أهدرها فهو بالإهدار أولى وأحق“.^(٣٣)

وقد ذكر القرافي في معنى البر بأهل الكتاب أنه ”الرفق بضعيفهم ، وسد خلة فقيرهم ، وإطعام جائعهم ، وكساء عارיהם ، ولين القول لهم على سبيل التلطف والرحمة ، واحتمال إذائهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً بهم لا خوفاً ، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ، ونصيحتهم في جميع أمورهم ، في دينهم ودنياهم ، وحفظ غييتهم إذا تعرض أحد لأذائهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم“.^(٣٤)

٣١) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، شركة القرافك للطباعة و النشر ، الخرطوم ، ١٤٠٩ ، ص ١٣.

٣٢) سبب نزول الآية ، أن أسماء بنت أبي بكر قدمت إليها أمها وكانت مشركة في وقت المهادنة مع كفار قريش وأهدت إلى أسماء قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها شيئاً حتى أنت وسألت النبي ﷺ ، هل تصل أمها ، فقال نعم. انظر ، أبي عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٨ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ٤٥.

٣٣) محمد سليم العوا ، من معالم النظام الإسلامي ، سلسلة رسائل البعث الحضاري ، مطبوعات الحركة الإسلامية الطلابية ، ٨ أبريل ، ص ٥٠ ، ٥١.

٣٤) محمد سليم العوا ، النـ ظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ٢٣.

وفي قوله تعالى ﴿قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحِرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحُقْقِ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْحِرْزِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبه: ٢٩]. فقد قيل إنها نزلت في الحرب التي كانت بين المسلمين والروم وهم أهل كتاب وقد بدأوا بقتال المسلمين واعتدوا عليهم. على أن قوله تعالى ﴿قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ لم يقصد بها الإطلاق في القتل وإنما قصد بها قتال الذين بدأوا بالعدوان. ثم جعل للقتال غاية ، وهي إعطاء الجزية بدلاً عن القتال. قال ابن عربي في ذلك ”مزج بين الغاية التي تمتد إليها العقيدة وعين البدل الذي ترتفع به“.^(٣٥)

ولا بد هنا من التفرقة الزمنية بين حالة الحرب وحالة السلم ، وفي ذلك امر الله سبحانه وتعالى أن لا يولي المسلم في حال احتدام النزاع إلا الله ورسوله والمؤمنين ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةً وَيُحَذَّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمُصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وعلى ذلك يمكن القول ان نهي الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة الكافرين انحصر في حالة العدوان أو الحرب ، وليس في حالة أن يكونوا شركاء في الوطن ، أو حالة السلم ، أو كجيران يتداخلون في العيش مع بعضهم البعض.^(٣٦)

أما الجزية فهي ضريبة مثل الخراج ، تؤخذ نظير ما يبذله المسلمون من حماية لأهل الذمة وتوفير الطمأنينة والأمن الكافيين.^(٣٧) وليس المقصود بالجزية المال فقط ، بل الحماية من جهة ، والدعوة الإسلامية والتعاضد الديني من جهة أخرى ، حيث يسكن الذمي بين المسلمين فيرى الإسلام عن قرب ، وبالفعل أسلم عدد كبير من أهل الكتاب في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقال ”إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا هَادِيًّا وَلَمْ يَبْعَثْهُ جَابِيًّا“.^(٣٨)

أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، مصدر سابق ، ج ٨ ، ص ١١٠ .^(٣٥)

محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ٧ .^(٣٦)
ابن قدامة ، موفق الدين أبو محمد عبدالله ، المغني . ويليه الشرح الكبير ، دار الكتاب العربي ، ج ١٠ .^(٣٧)

القطب محمد القطب ، غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، ص ٢١٢ .^(٣٨)

وروي كذلك أن عمر بن الخطاب رأى أحد اليهود وهو يشحذ فأسه عن مشكلته فأجاب أن ذلك بسبب دفع الجزية ، فأخذه إلى بيت مال المسلمين وطلب من مسؤول الخزينة إعطائه ما يكفيه من المال^(٣٩) ، فليس من العدل أخذ الجزية منهم عند الشدة ومنعهم عند العجز.

وخلاصة القول فإن الجزية هي قيمة تدفع بدلًا عن اشتراك غير المسلمين في الدفاع عن دار الإسلام ، لذلك أسقطها الصحابة والتابعون عن الذين يقومون بالاشتراك في واجب الجهاد ، وقد قيل إنها أسقطت من سراقة بن عمرو من أهل أرمينية سنة ٢٢ هـ ، وحبيب بن مسلمة الفهري من أهل أنطاكيا . وصالح المسلمين بقيادة عبدالله بن أبي السرح ، أهل النوبة على غير جزية ، بل على هدايا يتم تبادلها بين الفريقين في كل عام.^(٤٠)

ومن جهة أخرى نجد هناك مواقع كثيرة في التاريخ الإسلامي تستحوذ المسلمين بالتعامل بالحسنى مع غيرهم من أهل الديانات والثقافات المختلفة ، فقد قيل إن عمر بن الخطاب رض كان يسأل القادمين من الأنصار عن أهل الذمة ويشدد في المسألة ، حتى يقال له لا نعلم إلا وفاءً وبراً ، ومات وهو يوصي خيراً بأهل ذمة المسلمين ، أن يقاتل من ورائهم — يعني يحميهم — ولا يكلفهم فوق طاقتهم . وقد كان آخر ما وصى به الرسول صل قبل موته أن "احفظوني في ذمي" رواية نافع عن ابن عمر . وقوله في موقع آخر "من آذى ذمي فأنا خصمه يوم القيمة"^(٤١) وهذا أقوى تعبير لوحدة الأصل وتطبيق مبدأ الحرية والعدل والمساواة بين الناس.

ومهما يكن من أمر وفي إطار السياقات الزمانية والمكانية والتي نشأت بعدها الدولة الإسلامية الحديثة ، فإنه لم يعد هناك حاجة إلى تسمية "أهل الذمة" وبذات الطريقة والكيفية التي كانت في عهد الرسول صل والخلفاء الراشدين من بعده ، حيث تم فتح كثير من الدول وضمها بعد حروب بين المسلمين من جهة وأهل تلك الدول من جهة أخرى . لكنه بعد انتصارات دولة الخلافة سيطر الاستعمار الغربي على معظم تلك الدول والتي أصبح معظم من يعيش فيها مسلمين ، وانقطع العمل بأحكام الشريعة في بعضها لمدة من الزمان . وحيث

Islam & Relationship with Non Muslim Al Tayib Zain Al Abdin.

(٣٩)

محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٤٠)

محمد أبو زهرة ، مصدر سابق ، ص ١٩٨ .

(٤١)

تُمَتْ مُقاوَمَةُ الْاسْتِعْمَارِ الْغَرْبِيِّ عَلَى مَدِى قَرْوَنْ مِنَ الزَّمَانِ ، وَشَارَكَ فِي تَلْكَ الْمُقاوَمَةِ مُسْلِمُونَ وَأَقْلِيَاتٍ غَيْرِ مُسْلِمَةٍ ، حَتَّى اسْتَعَادَتِ الدُّولَةُ إِسْلَامِيَّةٌ كَيْنُونَتَهَا وَنَشَأتِ الدُّولَ الْقَائِمَةُ الْيَوْمَ بَعْدَ أَنْ رَوَتْ شَجَرَةَ اسْتِقْلَالَهَا مِنْ دَمَاءِ ابْنَائِهَا جَمِيعًا ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُنْطَقِ أَنْ يَأْتِي هُؤُلَاءِ الْأَبْنَاءِ لِيَقْتَلُوْا الْيَوْمَ أَوْ تَقْهَرَ الْأَغْلِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ الْأَقْلِيَّةُ غَيْرُ الْمُسْلِمَةِ ، أَوْ يَكُونُ هَنَّاكَ ثَمَةٌ تَمْيِيزٌ تَحْتَ مَسْمَى ”أَهْلُ الْذَّمَةِ“ وَالَّذِي أَوْجَدَتِهِ ظَرُوفَ وَحَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، بَلْ الْوَاجِبُ الْتَّعْالَمُ بِالْحَسْنِي تَحْقِيقًا لِلْمُصْلَحَةِ الْمُشَتَّرَكَةِ وَهِيَ مُصْلَحَةُ الْأُمَّةِ.

حقوق الأقليات الدينية في المجتمع المسلم :

كَمَا سَبَقَ القَوْلُ إِنَّ الْأَقْلِيَّةَ هِيَ مُجَمَّوَعَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ ، تَنْصُوْيِ تَحْتَ نَظَامٍ يَحْكُمُ مِنْ قَبْلِ أَكْثَرِيَّةٍ تَمْتَلِكُ السُّلْطَةَ الْمُرْكَزِيَّةَ ، وَيَقْعُدُ عَلَى عَاتِقِهَا تَوْفِيرُ الْحَمَاءِ. وَمِنَ النَّاحِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ ، فَإِنَّ أَيِّ مُجَمَّوَعَةً تَعْتَنِقُ دِيَنًا غَيْرَ إِسْلَامٍ وَتَعِيشُ وَسْطَ أَغْلِيَّةٍ مُسْلِمَةٍ وَفِي ظَلِّ دُولَةٍ تَحْكُمُ بِالشَّرِيعَةِ إِسْلَامِيَّةٍ تَعْتَبِرُ أَقْلِيَّةً ، لَهَا حُقُوقٌ وَعَلَيْهَا وَاجِبَاتٌ.

عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَوْضِيْحِ الْحُقُوقِ الَّتِي تَنَاهَا الْأَقْلِيَّاتُ غَيْرُ الْمُسْلِمَةِ ، بِاعتِبَارِهِمْ مُوَاطِنِينَ يَعِيشُونَ فِي ظَلِّ الدُّولَةِ إِسْلَامِيَّةِ ، وَبِصَفَّةِ عَامَّةٍ يَمْكُنُ تَفْصِيلُ تَلْكَ الْحُقُوقِ فِي الْآتِيِّ :

أَوْلًاً : حُقُوقٌ عَامَّةٌ حِيثُ إِنَّ ”أَمْوَالَهُمْ وَدَمَاءَهُمْ كَأَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَدَمَائِهِمْ“.

ثَانِيًّاً : حُقُوقُ الْحَيَاةِ ، حِيثُ إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ...﴾ [البَقْرَةُ : ١٧٨]. لِفَظُ عَامٍ يَنْطَبِقُ عَلَى الْجَمِيعِ مُسْلِمِينَ وَغَيْرِ مُسْلِمِينَ.

ثَالِثًاً : حُقُوقٌ مَدْنِيَّةٌ ، حِيثُ يَتَمْتَعُ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ بِحُقُوقٌ مَدْنِيَّةٌ ، مُثَلُّ حُقُوقِ التَّمْلِكِ ، وَحُقُوقِ الْجِنْسِيَّةِ ، وَحُقُوقِ التَّزْوِيجِ ، وَحُقُوقِ تَقْلِيدِ الْوَظَافِعِ الْعَامَّةِ... إِلَخ.

رَابِعًاً : مِنَ النَّاحِيَّةِ الْقَانُونِيَّةِ ، تَطْبِقُ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ نَفْسُ الْأَحْكَامِ وَالْقَوْانِينِ الَّتِي تَطْبِقُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا أَنْ هَنَّاكَ إِسْتِثْنَاءٌ فِي تَطْبِيقِ قَانُونِ الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ فِي الْزَوْجِ وَالْطَلاقِ وَالْوَرَاثَةِ... إِلَخْ فَتَكُونُ لِلْأَقْلِيَّاتِ حَرِيَّةٌ مَارِسَةٌ أَحْكَامَ دِينِهِمْ حَسْبَ قَاعِدَةِ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ. أَوْ لَأَنَّهُ مِنَ الْبَدِيَّيِّ إِذَا أَمْرَنَا أَنْ نَتَرَكْهُمْ لِدِينِهِمْ ، فَالْأُولَى كَذَلِكَ تَرَكْهُمْ وَعَدْمُ التَّعَرُضِ لِعِبَادَتِهِمْ وَعِادَاتِهِمْ مِنْ زَوْجٍ أَوْ طَلاقٍ.^(٤٢)

(٤٢) محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة، ص ٣٤.

خامساً : ما يخص الزكاة ، فهناك خلاف بين الفقهاء ، حيث يرى أكثرهم عدم أحقيـة غير المسلمين في الزكـاة ، بسبب أنها تجـمـع من المسلمين فقط ، و حتى الفقهاء الذين يؤـيدـون دفعـها لغير المسلمين يـرون أنـ يتمـ ذلكـ بعدـ أنـ يـسـتـوفـيـ منهاـ المـسـلـمـونـ.^(٤٣) ورغم عدم أـخـذـ غيرـ المسلمينـ أـموـالـ الزـكـاةـ إـلـاـ أـنـهـ يـنـالـونـ حـقـهـمـ منـ الفـيـعـ وـالـغـنـيـمـةـ إـذـ شـهـدـواـ القـتـالـ.

أما الصـدـقاتـ فـتـدـفعـ لـهـمـ ، لأنـ مـنـ وـاجـبـ الدـوـلـةـ الإـسـلـامـيـةـ رـعـاـيـةـ المـسـلـمـينـ وـغـيرـ المـسـلـمـينـ ، وـقـدـ تـصـدـقـ الرـسـوـلـ ﷺـ عـلـىـ أـسـرـةـ يـهـوـدـيـةـ ، وـذـلـكـ أـرـسـلـ مـقـنـيـاتـ إـلـىـ بـعـضـ الـقـبـائـلـ فـيـ مـكـةـ عـنـدـمـ عـانـوـاـ مـنـ الـمـجـاـعـةـ لـتـوزـيـعـهـاـ عـلـىـ فـقـرـائـهـمـ . وـقـدـ قـامـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ رضـ بـتـوزـيـعـ الصـدـقاتـ مـنـ خـزـيـنـةـ بـيـتـ مـالـ المـسـلـمـينـ.^(٤٤) وـلـأـهـمـيـةـ الـحـقـوقـ الـخـاصـةـ بـتـقـلـدـ الـوـظـائـفـ الـقـيـادـيـةـ إـنـهـ يـمـكـنـ تـنـاوـلـهـاـ بـشـعـ منـ التـفـصـيلـ .

حيـثـ إـنـ هـذـهـ الـوـظـائـفـ يـتـمـ الـاـخـتـيـارـ لـهـاـ عـنـ طـرـيـقـ الـاـنـتـخـابـ أـوـ التـعـيـنـ وـذـلـكـ كـأـلـآـتـيـ :

(١) الـاـنـتـخـابـ : وـيـكـوـنـ بـالـنـسـبـةـ لـلـوـظـائـفـ الـتـيـ هـاـ بـعـدـ سـيـاسـيـ ، وـيـتـمـ التـرـشـيـحـ وـالـاـنـتـخـابـ فـيـهـاـ لـأـيـ فـرـدـ مـسـلـمـ وـغـيرـ مـسـلـمـ دـوـنـ تـفـرـقـةـ ، وـذـلـكـ مـثـلـ الـاـنـتـخـابـ لـلـمـجـالـسـ الـوـلـائـيـةـ وـالـمـجـالـسـ التـشـرـيـعـيـةـ ”ـالـنـيـابـيـةـ“ـ يـقـولـ المـوـدـودـيـ فـيـ ذـلـكـ ”ـيـجـوزـ وـلـاـ شـكـ أـنـ يـمـنـحـ هـؤـلـاءـ حـقـوقـ الـعـضـوـيـةـ وـالـتـصـوـيـتـ فـيـ الـمـجـالـسـ الـبـلـدـيـةـ Local Bodiesـ لـأـنـ الـمـجـالـسـ لـاـ تـتـنـاوـلـ الـمـسـائـلـ الـمـتـعـلـقـةـ بـنـظـامـ الـحـيـاـةـ وـإـنـمـاـ تـكـوـنـ وـظـيـفـتـهـاـ تـدـبـيرـ الـأـمـورـ لـتـحـقـيقـ الـضـرـورـاتـ الـمـحـلـيـةـ“ـ^(٤٥)ـ كـذـلـكـ فـإـنـ هـذـهـ الـمـجـالـسـ تـغـلـبـ عـلـيـهـاـ الصـبـغـةـ الـدـنـيـوـيـةـ وـالـتـيـ لـاـ تـخـرـجـ عـنـ الـقـضـاـيـاـ الـإـقـتـصـادـيـةـ وـالـصـنـاعـيـةـ وـالـتـشـرـيـعـيـةـ وـعـرـضـ مـشـاـكـلـ الـنـاخـيـنـ وـتـقـدـيمـ الـنـصـحـ لـلـحـكـومـةـ وـهـيـ أـمـورـ لـاـ ضـرـرـ فـيـهـاـ مـنـ أـيـ نـوـعـ مـنـ الـمـشـارـكـةـ بـالـرـأـيـ وـالـمـشـورـةـ .

(٢) التعيين : وغالباً ما يتم على أساس المؤهلات وتحقيق الشخص المعين للمواصفات الوظيفية ، وعليه يتم التعيين لفرد مسلماً كان أو غير مسلم ، تحقيقاً للعدل والمساواة بين المواطنين في البلد الواحد.

غير أن هناك بعض الوظائف لا يمكن أن يتولاها غير المسلم ، نسبة إلى صفتها الدينية ، مثل التعيين في ديوان الزكاة أو التعيين لوظيفة في مسجد ، وهذا الوضع يكون مماثلاً في المجتمع المسيحي والذي لا يقبل تعيين المسلم في وظيفة في الكنيسة.^(٤٦)

أما تولي الأقليات الدينية غير المسلمة للمناصب القيادية العليا ، أو ما يعرف بالمناصب الدستورية ، فقد استفاض في توضيحيها الماوردي ، فقسم المناصب الوزارية إلى وزارة تفويض وزارة تنفيذ.^(٤٧) وبصفة عامة فإن الحاكم المسلم يقوم بتفويض أحد المسلمين ليتولى عنه أمر الوزارة ، وفي ذات الوقت يمكنه تعيين غير المسلم في الوزارات التنفيذية ، والتي يتم فيها أمر التنفيذ وفقاً للنهج الإسلامي. وقد تولى عدد من المسيحيين مناصب عليا في عهد الدولة العباسية ، مثل أبي أسحق الصابي ، الذي تولى منصب الكاتب ، وكان من أرفع المناصب في الدولة ، كما تولى أيضاً من المسيحيين نصر بن هارون منصب وزير عضد الدولة.^(٤٨)

تطبيق مبدأ التعدديّة والمواطنة على الأقليات الدينية :

يندلع النزاع غالباً نتيجة لعدم الاعتراف بالأخر والتهميش واستخدام القسر والإكراه الذي تمارسه الأكثريّة في المجتمع التعددي أو السلطة المركزيّة ، على الأقليات الدينية. ومن هنا فإن مبدأ المواطنة هو أساس للحقوق والواجبات.

ورجوعاً إلى المجتمع في عهد الرسالة المحمدية ، نجد أن مجتمع المدينة كان تعددياً ، حيث كانت تتشكل فيه ثلات فئات أساسية ، المسلمين ، واليهود ، والشرون. اليهود منقسمون إلى قبائل ، ذكر أنهم تسع بطنون من اليهود^(٤٩) ، وال المسلمين منقسمون إلى مهاجرين

مقابلة أجرتها كاتبة الورقة مع بروفسور حافظ الشيخ رحمة الله ، نائب رئيس القضاء ، مايو ١٩٩٨ ، الخرطوم ، السودان.^(٤٦)

أبو الحسن الماوردي ، الأحكام السلطانية و الولاية الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، ص ٢٥، ٢٩.^(٤٧)

القطب محمد القطب ، مصدر سابق ، ص ٣٢٣.^(٤٨)

محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي و وضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ١٠-١١.^(٤٩)

وأنصار ، والأنصار منقسمون إلى أوس وخرج .^(٥٠) يقول الواقدي إن المدينة فيها أخلاط من المجموعات ” منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام ، وفيهم أهل الحلقة والمحضون ، ومنهم حلفاء للحرين جمِيعاً الأوس والخرج ” ، فما كان من الرسول ﷺ إلا القيام بعملية الاستصلاح والموادعة .^(٥١)

وقد استطاع الرسول ﷺ في تلك البيئة التعددية أن يضع صيغة تحالفية ، يمكن وصفها بأنها بمثابة الدستور الإسلامي الذي يضمن قدرًا من الوحدة والتماسك الداخلي ، تلك الصيغة هي ما عبر عنه المؤرخون بصحيفة المدينة ، حيث حوى الجزء الأول من هذه الصحيفة ، مفهوم الأمة ، والذي يحمل في طياته عنصر المواطن ” هذا كتاب بين المؤمنين وال المسلمين ومنتبعهم ، فلحق بهم وقادهم معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس ” وفي موقع آخر ” وأن من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ”^(٥٢) ولذلك كان التحدي الماثل ، الإصلاح لتلك الفئات المختلفة في العقيدة والفكر والعرق . لقد جعلت الوثيقة غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين فيها ، لهم من الحقوق ما لل المسلمين وعليهم من الواجبات ما عليهم ، وبتطبيق مفهوم المواطن يصبح عناصر الأمة من الأفراد المسلمين وغير المسلمين ، أي إنهم ” مواطنون ” في دولة الإسلام .

كذلك كتب الرسول ﷺ إلى أهل نجران ” ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأله منهم حقاً فبيههم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ”^(٥٣) .

٥٠ التجاني عبد القادر ، الإسلام والفدرالية مع إشارات للتجربة السودانية المعاصرة ، معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ، دار الحكمة للطباعة و النشر ، ط ٢ ، ١٩٩٥ ، ص ١١ .

٥١ الواقدي ، كتاب المغازي ، تحقيق د. مارسون جونسون ، مطبعة جامعة اكسفورد .

٥٢ النص الكامل للوثيقة في السيرة النبوية لإبن هشام ، دار العرفة ، ج ٢ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ .

٥٣ المصدر نفسه ، ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

وما ورد سابقاً يجعل الأحكام النبوية في معاملة غير المسلمين تصبح معياراً للحكم ، وجاز أخذ ماتوافق معها من اجتهاد الفقهاء طالما أنه يحقق المصلحة ، عند تنظيم الدولة الإسلامية الحديثة.^(٤٤) وذلك بعد الأخذ في الاعتبار التغيرات الزمانية والمكانية.

وبصفة عامة فإن تطبيق مبدأ المواطن يسري على الأقليات الدينية داخل الدولة الإسلامية ، حيث تتساوى في الحقوق والواجبات مع المسلمين ، كما أنه يجب على الحاكم المسلم ضمان المحافظة على ثقافاتهم وعاداتهم وأموالهم.

تأصيل الحوار الديني :

إذا كان من الضروري دراسة موضوع الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى ، أو بين المسلمين الذين تفرق بهم السبل ، فانقسموا بين متشدد ومنفتح ، فلا بد من اعتماد أسلوب توفيقية ، يخلق صلة بين المتحاورين ، ويعمل على تضييق الفجوة الخلافية بينهم. فلا يستعجل المراء إنكار حجة الآخر بل يسعى للبحث عن سبل التقارب ، قال الإمام الشافعي ” ما ناظرت أحداً فأنكر الحجة إلا سقط من عيني ، ولا قبلها إلا قبلته ، ولا كانت الحجة معه إلا رجعت اليه ... ”.^(٤٥) وبصفة عامة ، لا بد من مراعاة الآتي عند إجراء الحوار :

- (١) تحديد الهدف الذي يراد منه الوصول إلى غاية معينة.
- (٢) تحديد الضوابط الأدية والتي تعبّر عن الأخلاق والاحترام المتبادل.
- (٣) أهلية المتحاورين وقدرتهم على التحاوار بذكاء وحنكة.
- (٤) عدم التعصب ، والاستعداد للبحث عن الحقيقة ، وقبول التبيّنة.

ولا شك أن كل طرف يؤسس حواره باحثاً عن مصلحته ، مما يتطلب دراسة وتحليل قضية الحوار من جوانبه المختلفة. وحتى يمكن بناء الثقة فإنه يلزم إبداء نوع من التنازل في الحقوق والمصالح ، والتي ربما تشمل التفاصيل التي تؤثر على مجريات الحوار ، وليس بالضرورة أن يلمس هذا التنازل المبادئ والقيم الأساسية والتي تعد بمثابة ثوابت شرعية. ويمكن أن نستقي العبرة بالاستدلال بنموذج حواري جرت أحداثه في صدر الرسالة

^(٤٤) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، مصدر سابق ، ص ١٢ .

^(٤٥) محمد الفاضل بن علي اللافي ، مصدر سابق ، ص ٣٩ .

المحمدية. وهو الحوار الذي جرى بين أبي جعفر بن أبي طالب موفد الرسول ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعد أن اشتد الحصار والتضييق على المسلمين.

لقد كان الحوار عبارة عن مرافعة رائعة ، قدم فيها جعفر بن أبي طالب أبلغ نموذج حواري ، فقد استطاع بحنته أن يخرج من المحك الضيق حين حاصره عمرو بن العاص الذي اشتهر بالمكر والدهاء محاولاً إفشال الحوار ، وكان ذلك قبل اعتناقه الإسلام ، وبدأت القصة حين احتمى المسلمون بالنجاشي ، فسافر عمرو بن العاص ليتحقق بهم ، وقال للنجاشي ”أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولهاً عظيماً“ . وكان يقصد أن يوقع المسلمين في الأمور الخلافية مع المسيحية ، والتمثلة في صلب المسيح وقولهم المسيح ابن الله ، فأرسل النجاشي يسأل المسلمين عن قولهم في المسيح. ففرعوا في بادئ الأمر لكنهم صمموا على قول الصدق مما كلفهم الأمر ، فقال جعفر ﷺ ”نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول“ ثم قرأ عليه آيات من سورة مريم. وهي القصة المشتركة بين الإسلام والمسيحية ، فقال النجاشي ”أذهبوا فأنتم آمنون بأرضي من سبكم غرم“ ، وقيل إنه قال لعمرو ابن العاص إن ”هؤلاء لا أبد لهم بجبل من ذهب“ .^(٥٦)

وتتجلى سلاسة الحوار ونجاحه في حنكة جعفر وتمكنه من تضييق الفجوة بين الديانتين ، وإبرازه للقواسم المشتركة ، فتجنب الحديث عن صلب المسيح حسب الرد القرآني ، والنفي بقتل المسيح ﷺ وقولهم إنّا قاتلنا المسيح عيسى ابن مريم رَسُولَ اللهِ وَمَا قَاتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبَّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِّنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَاتَلُوهُ يَقِيْنًا“ [النساء : ١٥٧] . وفي المقابل اختار من الأمور المشتركة قصة ولادة المسيح والتجاء مريم إلى جزع النخلة وخطابها مع جبريل ، فقرأ آيات من صورة مريم.

ولعل العبرة تتجلى في الاختيار الموفق لشخصية جعفر بن أبي طالب ، الذي يتمتع بالذكاء والقدرة في إدارة الحوار ، وحسمه الأمر بالحكمة والمنطق ، ولعبت المعرفة والإدراك بالموضوع دوراً كبيراً في انجاح الحوار.

صفي الدين المباركفوري ، الرحيق المختوم ، دار الوقار للطباعة و النشر والتوزيع ، جمهورية مصر العربية ، المنصورة ١٩٩٦ ، ص ١١٩ .^(٥٦)

وإن كانت قوة الشخصية والعقلية الراجحة والمستنيرة ، لها القدرة في إبراز الحقائق الجوهرية ذات الصلة بالحدث تمثل أحد أهم عوامل إنجاح الحوار ، فإن الاستنساك ب المواطن الامور وجوهرها ، مع التغاضي عن الصغائر وتجاوز التفاصيل المخلة ، تمثل أهم أطر نجاحات الحوار.

خلاصة الأمر إن الحوار الموضوعي الذي يصطحب التحليل الجوهرى ، يقود إلى خلق بيئة مناسبة للتعايش الديني والاجتماعي والتبادل الثقافي. ولا شك أن الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى خاصة المسيحية ، ينشد البحث عن أرضية مشتركة ، والتي تشمل قضيائى الحداثة ، والحرىات العامة ، والضوابط الأخلاقية ، ومهمها كان الاختلاف والتبالين في بعض الواقع والمواضيع ، فإن الأصولية الإسلامية تعمل بالتنسيق مع العلوم الدينية خاصة في المجالات الاجتماعية والإنسانية ، حيث المساحة المشتركة التي تحكم الإنسان أيًّا كانت ديناته. وطالما أن الوضع المثالى يسعى فيه الإنسان إلى إبراز وضع قيمي لتكريم الإنسان ، الذي استخلفه الله في الأرض ، وحمله الأمانة ، فإن هذا المفهوم سيجد قبولاً عاماً ، يلتقي فيه مع الأيديولوجيات والأديان التي قد تختلف معه في المنهج وطريقة التطبيق ، لكنها تلتقي معه في الأطر والأهداف العامة والغايات الإنسانية.

النتائج والتوصيات :

من السياقات السابقة ، توصلت الدراسة إلى التنتائج التالية :

أولاً : أجزل الإسلام العطاء للحقوق الإنسانية ، والتي تكفل للفرد وضعاً يتمتع فيه بالعدل والحرية والمساواة ، ومن ثم عدم التعدي على الآخرين بسبب مخالفتهم للدين أو العرق أو الجنس ، تأكيداً للقيمة الإنسانية واعتباراً للمسؤولية الفردية والجماعية.

ثانياً : تستند الرؤية الإسلامية إلى مرجعية تبرز من خلالها صيغة وسطية يتظور فيها الخطاب ليدعم التعايش مع الأديان الأخرى ، والتفاعل مع غير المسلم ، والذي عليه ما على المسلمين وله ما لهم من حقوق وواجبات.

ثالثاً : يبيح الفقه الإسلامي في إطار التعامل مع الأقليات الدينية صيغة مشتركة للتعايش ، مثل الزواج منهم ، إباحة إنشاء دور العبادة ، تقلد المناصب القيادية التنفيذية والتشريعية.....الخ.

رابعاً : أن ما يحدث من صراعات بين الأطراف المختلفة دينياً ، ليس بالضرورة أن يكون سببه الدين ، بل يمكن نسبه إلى العلاقات والظروف السياسية غير المتكافئة من جهة ، والتدخلات التي صاغتها عقلية أمنية لديها مصالح سياسية من جهة أخرى.

خامساً : أن الاعتراف بالأديان والتعايش مع غير المسلمين ، يحتم إجراء حوار سلمي ، يستوعب الاختلافات الفكرية والدينية ، ويرتكز على تبادل الآراء بين الأطراف المختلفة بغرض الوصول إلى صيغ مشتركة تضمن المصالح الذاتية والوطنية.

التصويبات المقترحة :

أولاً : الترسير لمفهوم الأمة والمواطنة ، والذي يكفل للإنسان حقوقه ويبين واجباته ، بغض النظر عن ديانته أو ثقافته.

ثانياً : رعاية الدولة للثقافات وكفالة الأقليات الدينية.

ثالثاً : زيادة الوعي المعرفي والديني وترسيخ قيم التسامح والتعايش الديني لوطن يسع الجميع.

رابعاً : تفعيل الحوار ، وتوسيع التواصل بين الكيانات الدينية ، لرتوق النسيج الاجتماعي وعلى أساس أن المشكلة ليست في الفوارق وإنما في الفشل في التعامل مع الفوارق.

خامساً : تعزيز وتشجيع عملية التعايش الديني عن طريق بث ثقافة السلام والتسامح واحترام الأديان والثقافات.

سادساً : تنشيط الخطاب الإسلامي المعتدل بعد إجراء المقاربات والراجعات الفكرية حتى يمكن احتواء التطرف الفكري.

قائمة المراجع :

المراجع :

(١) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، دار المعرف ، القاهرة ، ب.ت.

(٢) المعجم العربي الأساسي ، ب.ت.

(٣) معجم العلوم الإنسانية ، جان فرانسوا دورتيه ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط٢ بيروت ، ٢٠١١.

(٤) معجم مفاهيم الوسطية ، إشراف وتحرير سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل ، بالتعاون بين مركز الحضارة للدراسات السياسية و منتدى النهضة وال التواصل ، مطبع العملة ، ط ١ ، ٢٠١١.

التفاصيل:

- (١) أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ب.ت.
- (٢) أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، الكشاف ، الدار العالمية للطباعة والنشر.
- (٣) محمد عبده ، تفسير القرآن الكريم ، المنار ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ب.ت.

كتب السيرة

- (١) أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية لإبن هشام ، دار المعرفة ، بيروت ، ب.ت.
- (٢) الواقدي ، كتاب المغازي ، تحقيق د. مارسون جونس ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ب.ت.
- (٣) صفي الدين المباركفوري ، الرحيق المختوم ، دار الوقار للطباعة والنشر والتوزيع ، جمهورية مصر العربية ، المنصورة ١٩٩٦.

المراجع الفقهية:

- (١) ابن القيم ، إعلام الموقعين ، ب.ت.
- (٢) شهاب الدين ابن العباس الصهاجي القرافي ، الفروق ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ب.ت.
- (٣) علاء الدين ابن بكر بن مسعود الكاساني ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ب.ت.
- (٤) موفق الدين أبو محمد عبدالله ابن قدامة ، المغني ويليه الشرح الكبير ، دار الكتاب العربي ، ب.ت.

الرسائل العلمية :

- هويدا صلاح الدين العتباني ، حقوق الإنسان بين الإسلام والمواثيق الدولية مع دراسة خاصة لحقوق الإنسان في السودان ، رسالة ماجستير ١٩٩٨ ، الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم.

المقابلات

- مقابلة مع بروفسور حافظ الشيخ رحمة الله ، نائب رئيس القضاء ، مايو ١٩٩٨ ، الخرطوم ، السودان.

المواضيق

- الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ، ١٩٧٩ .

الأوراق

- Islam & Relationship with Non Muslim , Al Tayib Zain Al Abdin.

الكتب

- (١) أبو الأعلى المودودي ، نظرية الإسلام و هديه ، طبعة ١٩٦٧ .
- (٢) أبو بكر سليمان الشيخ ، مقالات في الشريعة و جدل الهوية ، هيئة الأعمال الفكرية ، السودان ، ب.ت.
- (٣) أبو الحسن الماوردي ، الأحكام السلطانية والولاية الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ١٩٨٥ .
- (٤) التجاني عبد القادر ، الإسلام والفدرالية مع إشارات للتجربة السودانية المعاصرة ، معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، ٢ ط ، ١٩٩٥ .
- (٥) حسام الدين علي مجید ، إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر جدلية الاندماج والتنوع ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠١٠ .

- (٦) حسن سيد سليمان ، الدولة الاسلامية طبيعتها وأسسها ، جماعة الفكر والثقافة الاسلامية ، ب ت.
- (٧) سامح فوزي ، المواطنة ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان. ب ت
- (٨) علي الخفيف ، الحق والذمة ، ١٩٤٥.
- (٩) فتحي الدرني ، الحق ومدى سلطان الدولة في تقييده ، دمشق ١٩٦٧ .
- (١٠) القطب محمد القطب ، غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، ب ت.
- (١١) محمد أبو زهرة ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، دار الفكر ، ب ت.
- (١٢) محمد أبو زهرة ، تنظيم الإسلام للمجتمع ، القاهرة ، ب ت.
- (١٣) محمد خلف الله ، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ب ت.
- (١٤) محمد سليم العوا ، من معالم النظام الإسلامي ، سلسلة رسائل البعث الحضاري ، مطبوعات الحركة الإسلامية الطلابية ، ٨ أبريل ١٩٩٥ .
- (١٥) محمد سليم العوا ، النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين ، شركة القرافك للطباعة والنشر ، الخرطوم ، ٥١٤٠٩.
- (١٦) محمد الطاهر بن عاشور ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ، ب ت.
- (١٧) محمد عمر بشير ، الإقليمية والوحدة القومية ، المركز الاعلامي ، ب ت.
- (١٨) محمد الفاضل بن اللاف ، تأصيل الحوار الديني : تأصيل المصطلحات وتحديد الضوابط الشرعية ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ط ١٤٠٤ ، ٢٠٠٤ .
- (١٩) محمد فتحي عثمان ، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني العربي ، دار الشروق ، ط ١٩٨٢ ، ١٩٨٢ .
- (٢٠) هبة رؤوف ، المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٥ .
- (٢١) يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان وافريقيا وبلاد العرب ، ج ٢ ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٨٩ .

قسم الثقافة الإسلامية

- * أنشئ قسم الثقافة الإسلامية في العام ١٩٩٤م وكان وقتها يتبع لإدارة التعريب.
- * ثم أنشئت إدارة مطلوبات الجامعة في العام ١٩٩٨م وأضيف قسم الثقافة الإسلامية لها.
- * يضم القسم في عضويته عشرة أساتذة ، واحد بدرجة أستاذ مشارك وسبعة بدرجة أستاذ مساعد ومحاضرين.
- * يقوم القسم بتدريس منهج الثقافة الإسلامية لكل كليات الجامعة كمطلوب جامعة.
- * للقسم نشاط خارجي يتمثل في المؤتمرات العلمية والمنتديات الشرعية وغير ذلك
- * للقسم أهداف تتمثل في ربط الطالب بتراثه الإسلامي وتزويده بالمعارف الإسلامية ، وتحقيق مبدأ الأخوة الإسلامية بين الطلاب ، وربط الدين بالعمل وأنماط السلوك. وتنمية الإيمان في نفوس الطلاب ، إلى غير ذلك من الأهداف.

مجلة علمية

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ - ٢٠١٦ م

العنصرية والقومية السلبية السمات والحلول من خلال كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي

أ.د. فيروز عثمان صالح

الأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب - جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٥٣-٢٨٢)

المستخلص :

تعالج هذه الدراسة موضوعاً يمس واقعنا المعاصر في جانبه الاجتماعي وهو : مشكلة القومية والعنصرية وحلوها من منظور كليات رسائل النور في إرساء فقه التوسط لمقابلة الغلو والتطرف والتعصب بكافة أشكاله ، الذي أدى لتراجع الأمة وغياب دورها الحضاري وهو واحد من شواغل رسائل النور ، لذا تهدف الدراسة إلى إبراز جهود الأستاذ بديع الزمان النورسي في تحديد سمات العنصرية ووصفها والتحذير من آثارها الوخيمة على الأمة وإسهامه في ايجاد الحلول العملية لهذه المشكلة. وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي وتوصلت إلى نتائج مهمة منها : أنه لا سبيل لإنقاذ الأمة من الإرهاب والعنف والفوضى والدمار والهوان والذل الذي ينشأ ويتزعم في ظل العنصرية والقومية إلا بالوحدة المنشقة من حقائق القرآن، وتحصي الباحثة بإجراء المزيد من الدراسات والمؤتمرات لحل مشكلات الغلو والتطرف بكافة أشكاله.

مقدمة :

الحمد لله الذي جعلنا من الأمة المسلمة ، أمة الإيمان ، الأمة الوسط ، أمة المعيارية بما تمتلك من معايير الكتاب والميزان والصلة والسلام على أشرف المسلمين سيدنا محمد- الذي كانت سيرته وسته بياناً وتطبيقاً ومارسة وتزيلاً لهذه المعيارية على واقع الناس - وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ، فإن محاولة استقراء فقه التوسط والتقعيد له ، ومحاولة إعادة الحق إلى نصابه ، وتحديد مسؤولية الأمة ووظيفتها في الشهادة والقيادة ، هو اليوم من أجل الأعمال الفكرية البنائية والحمائية معًا بعد هذه الموجة العابثة من الغلو والتعصب والتمييز والعنصرية ، والعبث بالقيم الإسلامية ودلالاتها.

وانطلاقاً من حقيقة أنَّ الأمة " لا تجتمع على ضلاله " (١) فلا يتصور اجتماعٌ على ذلك الانحراف والفساد الفكري " التطرف والغلو بكلفة أشكاله وصوره " فذلك ينافق خلود الرسالة الخاتمة وقدرتها على إنتاج نماذج بشرية جديرة بالاقتداء ، كما ينافق خاتمتها ، حيث من لوازم الخاتمة التجلّي في واقع الناس.

ولعل رسائل النور - لبديع الزمان سعيد النورسي [١٨٧٧-١٩٦٠م] باتت اليوم شاهداً على ذلك وعلى كون المعيارية والمرجعية لا تُسلب من الأمة كلها ، فقد تصدى الأستاذ النورسي وأخذ على عاتقه واجب إعادة الأمور إلى نصابها ، وتأسيس قيم العدل والمساواة وإقامة الكتاب والميزان ، وإرساء فقه التوسط والتقييد له ، لمقابلة الغلو والتطرف والتعصب بكافة أشكاله.

وهذه الدراسة تُعنى بالجانب الاجتماعي من التطرف والغلو- أي " النزعات العنصرية والقومية " - وتبيّن الدراسة دقة النورسي في تشخيص العلة ووصف الدواء لهذا المرض الاجتماعي الذي زاد من تراجع الأمة وغياب دورها الريادي والقيادي ووظيفتها في الشهادة.

وفي عبارة الأستاذ النورسي إشارة إلى قوله ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلَاثٍ خَلَالَ أَنْ لَا يُدْعُوا عَلَيْكُمْ نَيْسُكُمْ فَتَهَلُّكُوا جَمِيعاً وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحُقْقَ وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ " . سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، تحقيق : محمد حبيبي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، وعن أبي بصرة الغفارى صاحب رسول الله ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعًا فَأَعْطَانِي ثَلَاثًا وَمَنْعِنِي وَأَحَدَةً سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ لَا يَجْمِعَ أَمْتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيَ وَسَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ لَا يُهْلِكَهُمْ بِالسَّيِّنَ كَمَا أَهْلَكَ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ فَأَعْطَانِيَ وَسَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ لَا يَلْسِسُهُمْ شَيْئًا وَيَنْدِقَ بَعْضُهُمْ بِأَسَّ بَعْضٍ فَمَعَنِيَ " . أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْبَانِي ، مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، مُؤْسَسَةُ قِرْطَبَةِ ، مَصْرُ ، ج ٦ ص ٣٩٦ . : عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، سنن الدارمي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ج ١ ، ص ٤٢ .

الدراسة :

اختلف الباحثون في بيان مفهوم العنصرية والقومية وذلك لأسباب أهمها : اختلاف تصوراتهم الفكرية والعقائدية والنفسية والاجتماعية حول العنصرية والقومية. وثانياً : تصوراتهم لمشكلات الإنسان السياسية والفكرية والاجتماعية ، لكنهم على الرغم من ذلك حاولوا النفاذ إلى بواعتها ودواتها ووصفها وصفاً دقيقاً ، لإيجاد الحلول النافعة والناجعة لهذا المرض الاجتماعي الخطير.^(٢)

وقد حظيت العنصرية والقومية السلبية باهتمام الأستاذ النورسي الذي وصفها وصفاً دقيقاً وبين سماتها وأثارها ونتائجها على المجتمع الإسلامي والإنساني ثم بين الحلول لهذه المشكلة الاجتماعية التي تعد شكلاً من أشكال التطرف الاجتماعي. وذلك في مؤلفه القيم كليات رسائل النور.

مفهوم العنصرية والقومية السلبية وسماتها وصفاتها عند الأستاذ النورسي :

أولاًً : العنصرية والقومية السلبية تعمل على إقصاء الآخرين ولا تعترف بهم : وصف الأستاذ النورسي - في رسائل النور - العنصرية والقومية السلبية بجلاء فنجد أنه يؤكد أن المدنية الحديثة المستندة لحكمة الفلسفة تلتزم بالعنصرية والقومية ، التي تعتمد على الآخرين وتكبر بابتلاعهم فنجد أنه يعتقد - في الكلمات - موازنة بين حكمة الفلسفة وحكمة القرآن^(٣) من حيث أثرهما في تربية وتجيئ المجتمع الإنساني قائلاً : " إن حكمة الفلسفة ترى " القوة " نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية. وتهدف إلى " المنفعة " في كل شيء وتتخذ " الصراع " دستوراً للحياة ، وتلتزم " بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات ... ومن المعلوم أن شأن " القوة " هو " الاعتداء " وشأن " المنفعة " هو " التزاحم " إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم .. وشأن

د. عماد عبد الله الشريفين ، المؤتمر العالمي التاسع لبديع الزمان النورسي : العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية ، ورقة بعنوان : العنصرية والقومية السلبية من خلال كليات رسائل النور ، إسطنبول ، ٢٠١٠ م ، ص ٧٤٥ .^(٤)

سيرد الحديث عن حكمة القرآن التي تستند إليها القومية الإيجابية لاحقاً^(٥)

”الصراع“ هو ”النزاع والجدال“ .. و شأن ”العنصرية“ هو ”الاعتداء“ إذ تكبر بابتلاع غيرها و تتوسع على حساب العناصر الأخرى ”^(٤) .

إذن فقد أكد الأستاذ النورسي أن أخص خصائص الفكر العنصري والقومي أنه لا يدع مجالاً لغيره من الأيديولوجيات والأفكار والمبادئ كي تعيش و تنمو إلى جانبه ”ف شأن العنصرية هو الاعتداء إذ تكبر بابتلاع غيرها و تتوسع على حساب العناصر الأخرى“^(٥) .

ويؤكد - رحمه الله - في موضع آخر من كتابه الكلمات ”أن شأن العنصرية هو ”التجاوز“ حيث تكبر بابتلاع غيرها“^(٦) والتجاوز هو الظلم وإقصاء الآخر.

ثانياً : العنصرية تعزز ثقافة العنف والتصادم مع الآخرين : أكد الأستاذ النورسي أن التصادم والعنف مع الآخرين ، والتناكر والتعاند المفضي إلى الدمار والهلاك من أخص خصائص وسمات العنصرية والقومية السلبية ، يقول رحمه الله في اللوامع من الكلمات : ”شأن القومية السلبية والعنصرية : التصادم المريع ، وهو المشاهد ومن هنا ينشأ الدمار والهلاك“^(٧) وأكّد ذلك في السانحات من صيقل الإسلام .^(٨) فمنبع العنف هو ”التعصب العنصري والأنانية“^(٩) .

^(٤) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ٣، ١٩٩٨م ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

^(٥) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

^(٦) النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ج ١ ، ص ٤٧٢ .

^(٧) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٨٥٥ .

^(٨) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة و تحقيق إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ١ ، ١٩٩٥م ، ج ٨ ، ص ٣٥٧ .

^(٩) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، الشعارات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ .

فالقومية والعنصرية ”فكرة أو اعتقاد أو سلوك يقوم على الفصل بين الناس ، أو شعور بالتفوق على الآخرين تدعيمه السلطة والقوة ، وتبصره صفات خاصة موجودة عند البعض ومحروم منها الآخرون كاللون والجنس ، والثروة والجاه“^(١٠)

فالشعور القومي السلبي ينشأ كما يؤكّد الأستاذ النورسي ”من الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند“^(١١) ذلك ”أن الشر إذا تمكن من الأفئدة فتนาصر ودّها ، وانكسرت زجاجتها ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد ، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، ونيران العداوة إذا اشتعلت تحرّق حاضر الناس ومستقبلهم ، وتلتهم علائقهم وفضائلهم“^(١٢) وقد قال رسول الله ﷺ : ”إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ، ولكنّه لم ييأس من التحرّش بينهم“^(١٣)

وقد ذكر الأستاذ النورسي شواهد من التاريخ لظهور أضرار كثيرة نجمت عن النزاعات العنصرية والقومية ، منها : ما ترتب على خلط القومية العربية وإقحامها بالسياسة في عهد الأمويين من سخط العالم الإسلامي ، وفتنة داخلية ، ومنها ما حدث في تاريخ أوروبا في العصور المتأخرة من حروب بسببها ... ، ومنها ما كانت ذات

^(١٠) محمد عبابة ، العنصرية وعلاجها من منظور تربوي إسلامي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، كلية الشريعة ، ٢٠٠٤ م ، نقلًا عن عمار عبد الله الشريفين ، المؤتمر العالمي التاسع لبديع الزمان النورسي ، مصدر سابق ، ص ٧٤٦.

^(١١) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٣٥.

^(١٢) محمد الغزالي ، خلق المسلم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط ٣ ، ١٩٩٠ م ، ص ٩١.
^(١٣) عن أبي سفيانَ عن جابرٍ قال سمعت النبي ﷺ يقول : ”إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيرِ يَبْنُهُمْ“ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٢١٦. انظر أيضًا : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣١٣.

علاقة بواقع المسلمين في عهد الحرية ”الاستقلال“ حيث تشكلت جماعات مختلفة للإجئين وفي المقدمة الروم والأرمن ، تحت أسماء أندية كثيرة وسببت تفرقة القلوب.^(١٤) أما في عهد الأستاذ النورسي فيؤكد رحمة الله : ”أنَّ التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله - بسبب من الفكر القومي - هلاك عظيم ، وخطب جسيم ، ... ومصيبة كبرى لا توصف ، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعض ولا يعبأ بالثعابين الماردة^(١٥) التي تحوم حوله“.^(١٦)

ويؤكد كذلك - رحمة الله - في كتابه المكتوبات أن العداء والحدق والشقاق الناتج من الفكر القومي ترفضه الحقيقة ويرفضه الإسلام إذ هو ظلم وسم زعاف للحياة البشرية إذ يقول : ”إن ما يسببه التحيز - لعنصر أو ملة أو عرف - والعناد من نفاق وشقاق في أوساط المؤمنين ، وما يوغر في صدورهم من حقد وغل وعداء ، مرفوض أصلاً ، ترفضه الحقيقة والحكمة ، ويرفضه الإسلام الذي يمثل روح الإنسانية الكبرى ، فضلاً على أن العداء ظلم شنيع يفسد حياة البشرية : الشخصية والاجتماعية والمعنوية ، بل هو سُم زعاف لحياة البشرية قاطبة“.^(١٧)

والعناد كما يقرر الأستاذ النورسي - ”يلزم أحياناً المغالين في التعصب الضلال والباطل“^(١٨) والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ”فميل الإنسان نحو الظلم لا يجد لا سيما إذا انضمت إلى ذلك الميل الأشكال الخبيثة للأنانية

^(١٤) بديع الزمان النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إسطنبول ، ط ١ ، ١٩٩٢م ، ج ٢ ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ملخصاً.

^(١٥) أشار الأستاذ النورسي بذلك إلى أطامع أوروبا التي لا تفتر ولا تشبع كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاء ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٥.

^(١٦) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٥.

^(١٧) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٣٣٩. بديع الزمان سعيد النورسي ، من كليات رسائل النور (١٢) الإلحاد والأخوة ، ترجمة : إحسان قاسم ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ٥ ، ٢٠٠٨م ، ص ٩١.

^(١٨) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٦٤.

كالإعجاب بالنفس وتحري المصالحة الشخصية والكبر والفساد والغرور ، تولد جرائم
بشرية لم تجد لها البشرية اسمًا^(١٩) .

ثالثًا : العنصرية والقومية السلبية ظالمة ولا تتبع للعدالة ولا توافق الحق : وكذلك فإن من خصائص العنصرية والقومية السلبية أنها تقوم على أساس ظالم ولا تعرف الحق والعدل وفيها دعوى الجاهلية التي تجاوزها الإسلام ، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله : ” إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا توافق الحق ، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة ، لأن الحكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم ، فأنى له أن يبلغ العدالة ! بينما الإسلام يجب ما قبله ”^(٢٠) من عصبية جاهلية ، لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلما ... إذ لا تكون هناك عدالة قط وإنما تهدر الحقوق ويُضيّع الإنصاف.^(٢١)

يرى الأستاذ النورسي : ” أن مقاومة الحسن والحسين رضي الله عنهم للأمويين ، في حقيقتها صراع بين الدين والقومية إذ اعتمد الأمويون على جنس العرب في تقوية الدولة الإسلامية ، وقدموهم على غيرهم ، أي فضلوا رابطة القومية على رابطة الإسلام فآذوا الأقوام الأخرى بنظرتهم هذه فولدوا فيهم الكراهية والنفور ”^(٢٢) . إن عادة العرب في الاستعلاء بالنسب والازدھاء بالأبوة غلبت في مجتمعهم تعالىم الإسلام ، فكان ذلك من أسباب الفتوح الخطيرة في ماضينا وحاضرنا .

١٩) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٦٤ .

٢٠) رُوي أن عمرو بن العاص قال : قلت يا رسول الله أبا يُعلَك على أن تغفر لي ما تَقدَّمَ من ذنبي فقال رسول الله ﷺ : ” إن الإسلام يُجْبِ ما كان قبله وإن المُحرَّمة تُجْبِ ما كان قبلها ” أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، مسنون أحمد بن حنبل ، ج ٤ ص ٢٠٤ . أحمد بن الحسين ابن علي بن موسى أبو بكر البهقي ، سنن البهقي الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار البارز ، مكة المكرمة ، هـ ١٤١٤ - ١٩٩٤ ، ج ٩ ص ١٢٣ .

٢١) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٦٨ .
٢٢) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

لذا فلا عدالة ولا إنصاف ولا حق دون تجاوز التزععات العنصرية والعصبيات الجنسية التي وصفها النورسي بأنها ”السم القاتل“^(٢٣) ، و ”الداء الخبيث“^(٢٤) ، و ”المرض الوبيـل“^(٢٥) :

وإنه من الطبيعي أن يحب المرء وطنه وقومه ، لكن لا يجوز أبداً أن يكون ذلك سبباً في نسيان المرء لربه وخلقه ومثله.^(٢٦) قال رسول الله ﷺ : ”خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم“^(٢٧) . وسئل ما العصبية ؟ قال ”أن تعين قومك على الظلم“^(٢٨) .

رابعاً : العنصرية اتباع للأئمة والشيطان وشرك عظيم : يؤكـد الأستاذ النورسي أن الذي تنبـض فيه عروق العصبية القومية والعنصرية - من فـرط أناـيـته - يـصـبـحـ مـخـالـفـاـ لـأـوـامـرـ اللهـ سبحانـهـ وـتـعـالـىـ كـالـشـيـطـانـ وـيـتـرـدـىـ فـيـ مـهـاـويـ الشـرـكـ إـذـ يـقـولـ ”إـنـ ”أـنـ“ ... إـنـ لمـ تـعـرـفـ مـاهـيـتـهـ يـنـمـوـ فـيـ الـخـفـاءـ كـنـمـوـ الـبـذـرـةـ تـحـتـ التـرـابـ وـيـكـبـرـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ ،ـ حـتـىـ يـنـتـشـرـ فـيـ جـمـيـعـ أـنـحـاءـ وـجـودـ الـإـنـسـانـ ،ـ فـيـتـلـعـهـ اـبـلـاعـ الـثـعـبـانـ الـضـخـمـ ،ـ فـيـكـونـ ذـكـ

النورسي ، كليات رسائل التور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٧٩ .^(٢٣)

المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٩ .^(٢٤)

المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٩ .^(٢٥)

(٢٦)

(٢٧)

محمد الغزالي ، خلق المسلم ، مرجع سابق ، ص ١٨٢ .

حدثنا أحـمـدـ بـنـ عـمـرـ وـبـنـ السـرـحـ ثـنـاـ أـيـوبـ بـنـ سـوـيـدـ عـنـ أـسـأـمـةـ بـنـ زـيـدـ أـنـهـ سـمـعـ سـعـيـدـ بـنـ الـمـسـيـبـ يـحـدـثـ عـنـ سـرـاقـةـ بـنـ مـالـكـ بـنـ جـعـشـمـ الـمـدـلـحـيـ قـالـ خـطـبـنـاـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ فـقـالـ :ـ ”خـيـرـكـمـ الـمـدـافـعـ عـنـ عـشـيرـتـهـ مـاـ لـمـ يـأـثـمـ“ .ـ سـلـيـانـ بـنـ الـأـشـعـثـ أـبـوـ دـاـوـدـ السـجـسـتـانـيـ الـأـزـدـيـ ،ـ سـنـنـ أـبـيـ دـاـوـدـ تـحـقـيقـ :ـ مـحـمـدـ مـحـيـيـ الدـيـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ ،ـ دـارـ الـفـكـرـ ،ـ جـ ٤ـ ،ـ صـ ٣٣١ـ .ـ قـالـ أـبـوـ دـاـوـدـ أـيـوبـ بـنـ سـوـيـدـ تـصـيـفـ ،ـ اـنـظـرـ أـيـضاـ :ـ الـحـسـيـنـ بـنـ مـسـعـودـ الـبـغـوـيـ ،ـ شـرـحـ الـسـنـةـ ،ـ تـحـقـيقـ :ـ شـعـيـبـ الـأـرـنـاؤـوـطـ مـحـمـدـ زـهـيرـ الشـاوـيـشـ ،ـ الـمـكـتـبـ الـإـسـلـامـيـ ،ـ دـمـشـقـ – بـيـرـوـتـ ،ـ الـطـبـعـةـ الـثـانـيـةـ ،ـ ١٤٠٣ـ هـ – ١٩٨٣ـ مـ ،ـ بـابـ الـعـصـبـيـةـ جـ ١٣ـ صـ ١٢٢ـ .ـ وـذـكـرـ الـطـبـرـانـيـ أـنـ الـحـدـيـثـ لـمـ يـرـوـهـ عـنـ أـسـأـمـةـ إـلـاـ أـيـوبـ .ـ اـنـظـرـ ،ـ سـلـيـانـ بـنـ أـحـمـدـ بـنـ أـيـوبـ أـبـوـ الـقـاسـمـ الـطـبـرـانـيـ ،ـ الـرـوـضـ الدـانـيـ (ـالـعـجمـ الصـغـيرـ)ـ تـحـقـيقـ :ـ مـحـمـدـ شـكـورـ مـحـمـودـ الـحـاجـ أـمـرـيـرـ ،ـ الـمـكـتـبـ الـإـسـلـامـيـ ،ـ دـارـ عـمـارـ بـيـرـوـتـ ،ـ عـمـانـ ،ـ الـطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ ،ـ ١٤٠٥ـ هـ – ١٩٨٥ـ مـ ،ـ جـ ٢ـ ،ـ صـ ١٩٧ـ .ـ^(٢٨)

سلـيـانـ بـنـ الـأـشـعـثـ أـبـوـ دـاـوـدـ السـجـسـتـانـيـ ،ـ سـنـنـ أـبـيـ دـاـوـدـ ،ـ جـ ٤ـ صـ ٣٣١ـ ،ـ سـلـيـانـ بـنـ أـحـمـدـ بـنـ أـيـوبـ أـبـوـ الـقـاسـمـ الـطـبـرـانـيـ ،ـ الـمـعـجمـ الـكـبـيرـ ،ـ تـحـقـيقـ :ـ حـمـدـيـ بـنـ عـبـدـ الـمـجـيدـ الـسـلـفـيـ ،ـ مـكـتـبـةـ الـزـهـرـاءـ ،ـ الـمـوـصـلـ ،ـ الـطـبـعـةـ الـثـانـيـةـ ،ـ ١٤٠٤ـ – ١٩٨٣ـ ،ـ جـ ٢٢ـ صـ ٩٨ـ .ـ أـحـمـدـ بـنـ الـحـسـيـنـ بـنـ عـلـيـ بـنـ مـوـسـىـ أـبـوـ بـكـرـ الـبـيـهـقـيـ ،ـ سـنـنـ الـبـيـهـقـيـ الـكـبـرـيـ ،ـ تـحـقـيقـ :ـ مـحـمـدـ عـبـدـ الـقـادـرـ عـطـاـ ،ـ جـ ١٠ـ صـ ٢٣٤ـ .ـ^(٢٩)

الإنسان بكامله وبجميع لطائفه ومشاعره عبارة عن "أنا". ثم تمده "أنانية" النوع نافحة فيه روح العصبية النوعية والقومية ، فيتسلط بالاستناد على هذه "الأنانية" حتى يصير كالشيطان الرجيم يتحدى أوامر الله ويعارضها ثم يبدأ بقياس كل الناس ، بل كل الأشياء على نفسه ووفق هواه ، فيقسم مُلك الله سبحانه على تلك الأشياء ، وعلى الأسباب فيتردى في شرك عظيم ^(٢٩) .

إذن فإن الأستاذ النورسي يرى أن النزعات العنصرية والفكر القومي توجه أو اعتقاد يدعو إلى الاعتداء على الآخرين ، وتجاوز حقوقهم ، وظلمهم ويعزز ثقافة العنف والتصادم المؤدي بدوره إلى الدمار والهلاك والجرائم الإنسانية ، كما أنها سلوك شيطاني مخالف لأوامر الله سبحانه وتعالى مؤدي إلى الشرك بالله.

حلول مشاكل العنصرية والقومية من خلال رسائل النور :

بعد أنَّ شخص الأستاذ النورسي وبيَّنَ ذلك الداء الاجتماعي الخبيث والمرض الوبيل - أي العنصرية والقومية - شرع في وصف الدواء وتبين العلاج والحلول العملية التي منها :

أولاًً : الدعوة للتعارف والتعاون الإنساني والإسلامي : عقب الأستاذ النورسي على قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًاٰ وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ قائلاً : "أي خلقناكم طوائف وقبائل وأئمَّاً وشعوباً كي يعرف بعضكم بعضاً وتتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية ، لتعارفوا فيما بينكم ، ولم يجعلكم قبائل وطوائف لتناكرروا فتتخاصموا" ^(٣٠) .

وكذلك نجده في صيقل الإسلام - بعد ذكره للآية السابقة- يؤكِّد أن هنالك روابط ووظائف محددة تجمع بين الناس في كل مجتمع من شأنها إحداث التعاون والتعارف إذ يقول : "كما أنَّ هنالك روابط تربط الجندي بفصيله وفوجه ولوائه وفرقته في الجيش قوله واجب ووظيفة في كل منها ، كذلك كل إنسان في المجتمع له روابط متسلسلة

النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ١ ، ص ٦٣٨ . ^(٢٩)

النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٤١٣ . ^(٣٠)

وظائف مترابطة فلو اختلطت هذه الروابط والوظائف ولم تُعِنْ وتحدّد لما كان هنالك تعاون ولا تعارف ”^(٣١)“.

وكذلك ”فإن الأمر في المجتمع الإسلامي الشبيه بالجيش العظيم قد قُسم إلى قبائل وطوائف ، مع أنّ لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة إذ خالقهم واحد ورازقهم واحد ، ورسولهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وكتابهم واحد ، ووطنهم واحد... وهكذا واحد ، واحد ... إلى الألوف من جهات الوحدة التي تقتضي الأخوة والمحبة والوحدة ، بمعنى أن الإنقسام إلى طوائف وقبائل - كما تعلنه الآية الكريمة - ما هو إلا للتعارف والتعاون لا للتناكر والتخاصم ”^(٣٢)“.

وقد أكّد الأستاذ النورسي أنّ الإسلام يُرْغَب في هذا النوع من الشعور القومي بخلاف الشعور القومي السلبي إذ يقول في صيقل الإسلام : ”فَنَمُّ الشَّعُورُ الْقُومِيُّ فِي الشَّخْصِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ايجابيًّا أَوْ سلبيًّا : فَالْإِيجابيُّ يَتَعَشَّشُ بِنَمُّ الْشَّفَقَةِ عَلَى بَنِي الْجِنْسِ الَّتِي تَدْفَعُ إِلَى التَّعَاوُنِ وَالتَّعَارُفِ. أَمَّا السُّلْبِيُّ فَهُوَ الَّذِي يَنْشَأُ مِنَ الْحَرَصِ عَلَى الْعَرْقِ وَالْجِنْسِ الَّذِي يَسْبِبُ التَّنَاكِرَ وَالْتَّعَانِدَ. وَالْإِسْلَامُ يَرْفَضُ هَذَا الْأَخِيرَ ”^(٣٣)“.

فالله سبحانه وتعالى قد أطّلعنا في الآية الكريمة أنّ الغاية من جعل الناس شعوبًا وقبائل ”إِنَّهَا لَيْسَ التَّنَافِرُ وَالْخَصَامُ... إِنَّمَا التَّعَارُفُ وَالْوَئَامُ... فَأَمَّا اخْتِلَافُ الْأَلْسُنَةِ وَالْأَلْوَانِ ، وَالْخَلْفُ الْمُطَبَّعُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْخَلْفُ الْمُوَاهِبُ وَالْأَسْتَعْدَادَاتُ ، فَنَوْعٌ لَا يَقْتَضِي النَّزَاعَ وَالشَّقَاقَ ، بَلْ يَقْتَضِي التَّعَاوُنَ لِلنَّهُوْضِ بِجَمِيعِ التَّكَالِيفِ وَالْوَفَاءِ بِجَمِيعِ الْحَاجَاتِ“^(٣٤)“.

النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .^(٣١)

النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٤١٤ .^(٣٢)
النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق : إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٣٥ .^(٣٣)

سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٩٠ م ، ج ٦ ، ص ٣٤٨ .^(٣٤)

فنحن المسلمين - كما يؤكد محمد الغزالى - ”نؤمن بالأخوة الإنسانية ونعد اختلاف الأجناس والألوان مصدر تعارف لا تناكر“.^(٣٥)

ثانياً : التأكيد على الأخوة الإنسانية المستندة على وحدة الأصل الإنساني : أكد النبي ﷺ بأقواله وأفعاله على وحدة الأصل الإنساني وعلى أن المفاضلة بين إنسان وآخر وقبيلة وآخرين هو التقوى ، إذ يقول عليه أفضل الصلاة والسلام كما روى مسلم في صحيحه : ”أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى“.^(٣٦) وكذلك قوله ﷺ : ”كلكم لآدم وآدم خلق من تراب“.^(٣٧)

ويقول عليه الصلاة والسلام : ”إن الله عز وجل أذهب عنكم عيّة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بني آدم وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحّم من فحم جهنم أو لتكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها التتن“.^(٣٨)

إن الإسلام جاء لتصحيح الأوضاع الموجة والأفكار الباطلة مبتدئاً بالوثنية ومتهاهاً بالعصبية والعنصرية والقبلية التي كانت سبباً يحول دون توحد الناس وسيباً في تنازعهم واختلافهم وقد نهى ﷺ عن العصبية والتحيز والتعاند والتبعية العميماء

محمد الغزالى ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، (د.ن) الطبعة الأولى ، ص ١٨٥ .^(٣٩)

أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، مسنـد الإمام أـحمد بن حنـبل جـ ٥ صـ ٤١١ ، عبد الله بن المبارك بن واضح ، مـسنـد الإمام عبد الله بن المبارك ، تـحـقـيقـ: صـبـحـيـ الـبـدـرـيـ السـامـرـائـيـ ، مـكـتبـةـ الـمـعـارـفـ ، الـرـيـاضـ ، الطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ ، ١٤٠٧ـهـ ، جـ ١ـ صـ ١٤٧ـ .^(٤٠)

الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري ، الجامع الصحيح مـسنـد الإمام الربيع بن حبيب ، تـحـقـيقـ: محمد إدريس ، عـاـشـورـ بنـ يـوسـفـ ، دـارـ الـحـكـمـةـ ، مـكـتبـةـ الـاسـتـقـامـةـ ، بـيـرـوـتـ ، سـلـطـنـةـ عـمـانـ ، الطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ ، ١٤١٥ـهـ ، جـ ١ـ صـ ١٧٠ـ .^(٤١)

عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي أبو محمد المصري ، الجامع في الحديث ، تـحـقـيقـ: دـ . مـصـطـفـىـ حـسـنـ حـسـنـ أـبـوـ الـخـيـرـ ، دـارـ اـبـنـ الجـوـزـيـ ، السـعـودـيـةـ ، الطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ ، ١٩٩٦ـمـ ، جـ ١ـ ، صـ ٧١ـ . العـيـةـ: الـكـبـرـ ، وـالـنـخـوـةـ ، بـضـمـ الـعـيـنـ وـكـسـرـهـ . قال عمر بن الخطاب رض : إنـاـ قـوـمـ أـكـرـمـاـنـاـ اللـهـ بـالـإـسـلـامـ ، فـمـنـ يـلـتـمـسـ الـعـزـ بـغـيرـ إـلـاسـلـامـ ، يـذـلـهـ اللـهـ . الحـسـنـ بنـ مـسـعـودـ الـبـغـوـيـ ، شـرـحـ السـنـنـ ، جـ ١٣ـ ، صـ ١٢٤ـ .^(٤٢)

قائلاً : ”ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية“.^(٣٩)

إذن فقد أعلن الرسول ﷺ المساواة الجامعة وأكّد على الكرامة الإنسانية فبات التفاضل والشرف بالتقوى : ” وقد أصبح المجتمع الإسلامي يتعامل بتلك الصفات ويطبقها ، وينسى العصبية البغيضة ” فحين باع حكيم بن حزام داره ، وخطبه في ذلك بعض الناس ، يثيرون في نفسه نُخوة الأجداد الموروثة والشرف المستمد من العشيرة والنسب ، فاجأهم الرجل بقول جديد في المجتمع العربي ، يعكس اتجاهاته ويصور قيمه الإسلامية تجاه مبدأ المساواة : ” يا أيها الناس ، لقد أصبح الشرف اليوم بالتقوى ”.^(٤٠) فالإسلام مجتمع كبير يمتد حتى يشمل الإنسانية كلها بجميع أجناسها وألوانها ولغاتها في كل أرض وفي كل مكان وفي كل زمان : ” وعند المقارنة بين الأخوة الإيمانية والأخوة في النسب التي تعارف عليها الناس ، إذا كان الاشتراك في النسب كافياً لايجاد رابطة الأخوة بين الأفراد وإن اختلفوا في العقائد والعواطف والمصالح ، فإن الاشتراك في العقيدة الراسخة والعاطفة المثل ونظام العيش الواحد والمصالح المشتركة أحق وأجدر بهذه الأخوة ، لأن النسب تلاق في حدود الجسد فقط ، أما هذه الأمور فإنها اتحاد في أكرم مقومات الإنسان ”.^(٤١)

سلیمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، ج ٤ ص ٣٣٢. يقول المناوي في معرض شرحه للحديث : ”ليس منا من دعا إلى عصبية“ أي من يدعو الناس إلى الاجتماع على عصبية وهي معاونة الظالم ” وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية“ قال ابن الأثير العصبي الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم والتعصب المدافعة والمحاماة [عن جبير بن مطعم] وفيه انقطاع . انظر : الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي ، التيسير بشرح الجامع الصغير ، : مكتبة الإمام الشافعي ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .^(٣٩)

مصطفى عبد الواحد ، المجتمع الإسلامي ، دار الأمل ، الكويت ، (د.ت) ، ص ٨٤ .^(٤٠)
عبد الرحمن حسن حنكة الميداني ، الحضارة الإسلامية ، دار العلم ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٨م ، ص ١٤٩ .^(٤١)

لذا فإنّ الأستاذ النورسي يقرر : ” أنه بسر الإيمان والتوحيد ، يرى أخوّة بين كل الكائنات ، وأنسية وتحبّاً بين أجزائها لا سيما بين الأدميين ، ولا سيما بين المؤمنين ، ويرى أخوّة في الأصل والبدا والماضي ، وتلاقياً في المنهى ، والتبيّحة في المستقبل ”.^(٤٢) إذن فالأخوّة الإنسانية المستندة على وحدة الأصل تستوجب التعاون والمساندة الذي هو دستور عمل الكون كما يؤكّد الأستاذ النورسي : ” فإنه ما من شئ في هذا العالم إلا وكأنه يتطلع إلى الآخر فيغيّره ، أو يرى الآخر فيشد من أزره ويعاونه ... فيكمل الواحد عمل الآخر ، ويكون ظهيره وسنه ، ويتوّجه الجميع جنباً إلى جنب في طريق الحياة ”.^(٤٣)

وإذا تقرّر أنّ أجزاء الكون تظهر تحبّاً وأنسّاً وتسانداً وتعاوناً ، فلابد أن يتحقّق ذلك بين مكونات المجتمع البشري ، أي شعوبها وقبائلها وأقوامها ، ولا يتحقّق ذلك بداعه إلا بتجاوز الفكر القومي والتميّز العنصري والتعصب العرقي .

والأستاذ النورسي يؤكّد أنّ دستور التعاون الاجتماعي المستمد من القرآن سبب في إنجاز أصعب المهام إذ يقول : ” أما أسس مدنية القرآن الكريم فهي إيجابية ... ودستورها في الحياة : التعاون والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات ... ”^(٤٤) فالتعاون من القواعد الثابتة للنبوة في الحياة الاجتماعية^(٤٥) وهو سبب في إنجاز أصعب المهام.^(٤٦)

وكذلك ينبع الأستاذ النورسي إلى ضرورة العمل والتمسّك بالقيم والروابط الاجتماعية المستندة على حكمة القرآن لتحقيق ثمراتها وغاياتها ، إذ يقول رحمة الله في الكلمات : ” أما حكمة القرآن فهي تقبل ” الحق ” نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة ، وتحبّل ” رضي الله ونيل الفضائل ” هو الغاية والهدف ، بدلاً من المنفعة . وتتّخذ دستور ” التعاون ” أساساً في الحياة ، بدلاً من دستور الصراع ، وتلتزم رابطة

٤٢) بديع الزمان سعيد النورسي ، كليات رسائل النور ، المثنوي العربي النوري ، تحقيق : إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٩٩ م ، ج٦ ، ص١٨١ .

٤٣) النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج١ ، ص٣١٧ . المرجع نفسه ، ج١ ، ص٨٥٥-٨٥٦ .

٤٤) النورسي ، كليات النور ، الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج١ ، ص٦٤٤ .

٤٥) النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج٢ ، ص٢٥٢ .

”الدين“ والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من ”العنصرية والقومية السلبية“.^(٤٧)

ثالثاً : القومية الإيجابية تحقيق لقوة المسلمين المادية والمعنوية : يرى الأستاذ النورسي أن القومية الإيجابية هي القومية التي من شأنها إحياء التعاون والتساند والقوة لل المسلمين ، إذ يقول رحمه الله : ”ال القومية الإيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية ، وهي سبب للتعاون والتساند ، وتحقيق قوة نافعة للمجتمع ، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية“.^(٤٨)

فالقومية الإيجابية مفضية إلى ائتلاف القلوب والمشاعر والاتحاد الغايات والمناهج والاتحاد قوة وليس ذلك في شعور الناس فقط ، إنه قانون من قوانين الكون ، فالخيط الواهي إذا انضم إليه مثله أضحم حبلاً متيناً يجر الأثقال ، وهذا العالم الكبير ما هو إلا جملة ذرات متحدة. ” وقد شرح حكيم لأولاده هذا المعنى عند وفاته ليلقنهم درساً في الاتحاد ، قدم إليهم حزمة من العصي قد اجتمعت عيادتها ، فعجزوا عن كسرها ، فلما انفك الرباط وتفرقت الأعداد كسرت واحداً واحداً“.^(٤٩)

وقد جأ الإمام النورسي إلى طريقة مقاربة لطريقة ذلك الحكيم ليدلل على كون الاتحاد قوة إذ يقول رحمه الله : ”نحن بحاجة ماسة بل مضطرون إلى الاتحاد والتساند النام وإلى الفوز بسر ”الإخلاص“ الذي يهبي قوة معنوية بمقدار ألف ومائة وأحد عشر [١١١] ناتجة من أربعة.نعم... إن لم تتحد ثلات ”ألفات“ فستبقى قيمتها ثلاثة عشر ، أما إذا اتحدت وتساندت بسر العددية ، فإنها تكسب قيمة مائة وأحد عشر [١١١]. وكذا الحال في أربع ”أربعات“ عندما تكتب كل [٤] منفردة عن البقية فإن مجموعها [١٦] أما إذا اتحدت هذه الأرقام واتفقت بسر الأخوة ووحدة الهدف والمهمة

النورسي ، كليات رسائل النور ، الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم ج ١ ص ٤٧٢-٤٧٣ انظر^(٤٧)
أيضاً المرجع نفسه ج ١ ص ١٤٥ مع اختلاف يسير.

النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ج ٢ ص ٤١٥ .^(٤٨)
محمد الغزالى ، خلق المسلم ، ص ١٨٩ .^(٤٩)

الواحدة على سطر واحد فعندما تكسب قيمة أربعة آلاف وأربعين إلة وأربعين واربعين [٤٤٤] وقوتها“^(٤٠):

ويبيّن الأستاذ النورسي سر القوة التي تنشأ من الاتحاد قائلاً : ”أما حكمة هذا السر فهي أن كل فرد من عشرة أشخاص متتفقين في حقيقة يمكنه أن يرى بعيون سائر إخوانه ويسمع بأذانهم ، ويرى أن كلاً منهم يكون له من القوة المعنوية والقيمة ماكأنه ينظر بعيونه عيناً ، ويفكر بعشرة عقول ، ويسمع بعشرين أذناً ، ويعمل بعشرين يداً“^(٤١).

رابعاً : سيادة الشخصية المعنوية لتحقيق التعاون والتكميل الفكري والمادي : حيث رسائل النور على ضرورة سيادة روح الجماعة التي عبر عنها سعيد النورسي رحمه الله : ”بالشخصية المعنوية“ ، مؤكداً أنها أقوى من شخصية الفرد.. وهي-أي الشخصية المعنوية-تعكس روح العامة فإن كانت مستقيمة فإن إشرافها وتألقها يكون أسطع وألمع من شخصية الفرد“^(٤٢).

ومن هذا السر والحكمة-كما يقول النورسي : ”ترى كل صاحب كمال وصاحب جمال يرى من نفسه ميلاً فطرياً إلى أن ينضم إلى مثيله ، ويأخذ بيد نظيره ، ليزداد حسنه...فالإنسان الذي لا يدرك سر التعاون فهو أبجد من الحجر ، إذ من الحجر ما يتقوس لمعونة أخيه“^(٤٣).

النورسي ، كليات رسائل النور ، اللمعات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلر للنشر ، إسطنبول ، ط ١٩٩٣ ، ج ٣ ص ٢٤٣^(٤٠).

النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ص ٥١٥ ، وقد أكد الأستاذ على هذا الأمر في الملاحق ”فقه دعوة النور“ ، ج ٧ ، ص ٥٩^(٤١).

النورسي ، كليات رسائل النور ، المنشوي العربي ، تحقيق: إحسان قاسم ، ج ٦ ص ٢٠٣-٢٠٤^(٤٢).

النورسي كليات رسائل النور ، إشارات الإعجاز في مظان الإعجاز ، تحقيق: إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إسطنبول ، ط ٣ ، ١٩٩٩ ، ج ٥ ، ص ٤٩^(٤٣).

فالتعاون الذي تُعد القومية الإيجابية إحدى منابعه - كما أكدت رسائل النور - يؤدي لإكمال النقص وتساند الموهاب " حتى يصير الجميع - في المجتمع المسلم - أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها الإنسان الكامل " ^(٥٤) . وفي ظل سيادة روح الجماعة فإن " التأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والأراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب - إنما هي ظاهرة صحيحة طبيعية سليمة لا خطر فيها ولا خوف منها " ^(٥٥) .

فالقرآن يدعو الناس إلى التعارف والتعاون ، ووجود الشعوب والقبائل واختلاف اللغات واقع اجتماعي يدفع إلى التنافس على الخير وإقامة الحضارة وبناء الحياة. ^(٥٦) فكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل والتعاون - المادي والمعنوي - بين القوميات " التعددية الثقافية " ازدادت فرص النمو والاكتساب والتعلم ، فالأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً من القيم الهدافة وتوجيهات الإسلام ، وهذه القيم كفيلة عند استئثارها بأن تجعل الأمة الإسلامية في وضع يسمح لها بأن تبني الحضارة الإنسانية ، وتنسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية.

خامساً : التأكيد على أن الانقسام والتنازع مرض اجتماعي فتاك والتحذير منه : إن التنازع والانقسام والعداء يستشرى في ظل وجود العنصرية القومية البغيضة " وقد تيقظ الإسلام لبوادر الجفاء فلاحقها بالعلاج ، قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة ، وشرع الإسلام من المبادئ ما يرد عن المسلمين عوادي الانقسام والفتنة ، وما يمسك

النورسي ، كليات رسائل النور ، اللمعات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ .
محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربي ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٢ ،

^(٥٤)

^(٥٥)

ص ١٥٢

محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية والقومية ، شبكة إسلام ويب ٢٠١٥ / ٤ / ٢ م : www.library.islamweb.net/newlibraryummah.

^(٥٦)

قلوبهم على مشاعر الولاء والودة ، فنهى عن التقاطع والتدارب ”^(٥٧) . قال النبي ﷺ : ”لاتقاطعوا ولا تداربوا ، ولا تبغضوا ولا تحسدوا ، كونوا عباد الله إخواناً...“^(٥٨) . وقد وصف الأستاذ النورسي الاختلاف والفرقة والانقسام بالمرض الفتاك وأكّد أن علاجه في الاسترشاد بنور القرآن والسنّة ، إذ يقول في اللّمعات - على سبيل المثال - : ”وطريق النّجاة من هذا الواقع الباطل الأليم ، والخلص من هذا المرض الفتاك ، مرض الاختلاف الذي ألمّ بأهل الحق هو اتخاذ النّهي الإلهي في الآية الكريمة : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَنْهَبُ رِيحَكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، واتخاذ الأمر الرباني في الآية الكريمة ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى﴾ [المائدة : ٢] دستورين للعمل في الحياة الاجتماعية“^(٥٩) .

ويضيف رحمه الله - قائلًا : ”فيما أهل الحق..ويا أهل الشريعة الحقيقة والطريقة...امتلوا بما تأمركم به مئات الآيات والأحاديث الشريفة^(٦٠) من التّآخي

محمد الغزالي ، خلق المسلم ، ص ٩٢ .^(٥٧)

مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج ٤ ، ص ١٩٨٦ م. أحمد بن حنبل ، مسنّد الإمام أحمد بن حنبل ، ج ١ ، ص ٥ .^(٥٨)

النورسي ، كليات رسائل النور ، اللّمعات. ترجمة إحسان قاسم ، ج ٣ ص ٢٣٥ .^(٥٩)
حثّ الأحاديث النبوية على تفعيل قيم التعاون والتساند في الحياة الاجتماعية ومن ذلك قوله ﷺ : ”مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكت منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى“ ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ٤ ص ١٩٩٩ ، محمد بن فتوح الحميدي ، الجمعبين الصحيحين البخاري ومسلم ، تحقيق : د. علي حسين البواب ، دار ابن حزم ، لبنان / بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، ج ١ ص ٥٠٠ ، وكذلك قوله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض) محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، باب تَرَاحُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاصِدِهِمْ ، عالم الكتب بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٦ م. كتاب المظالم ج ٢ ص ٨٦٣ رقم (٢٣١٣) .^(٦٠)

والتحابب والتعاون ، وتمسكون بكل مشاعركم بعمر الاتفاق والوفاق مع إخوانكم في الدين ونوح الحق المبين.. واحذروا دائمًا الوقوع في شباك الاختلاف ”^(١٠)“.

ويؤكد الأستاذ النورسي في الملحق أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم دون الوحدة والتساند والترابط إذ يقول : ”إن الحياة نتيجة الوحدة والاتحاد ، فإذا ذهب الاتحاد المندمج المتزوج ، فالحياة المعنوية تذهب أدراج الريح ، فالآية الكريمة : ﴿وَلَا تَنَازَّعُوا فَنَفْشُلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، تشير إلى أن التساند والترابط إذا احتل تفقد الجماعة مذاقها ”^(١١)“.

سادساً : التأكيد على أن المحبة عامل بناء للمجتمعات الإنسانية والعداوة عامل تدمير : حرص الأستاذ النورسي في رسائل النور على التأكيد على ضرورة تأسيس العلاقات الاجتماعية - بين الأفراد والجماعات - على أساس من المحبة - وعده العداوة والبغضاء عوامل هدم للحياة الاجتماعية ، إذ يقول رحمة الله في ” الخطبة الشامية ” : ”إن مما تعلمه من الحياة الاجتماعية البشرية طوال حياتي ، وما أملته على التبعات والتحقيقات هو... إن صفة المحبة التي هي ضمان الحياة الاجتماعية البشرية والتي تدفع إلى تحقيق السعادة هي أليق للمحبة ، وإن صفة العداوة والبغضاء التي هي عامل تدمير الحياة الاجتماعية وهدمها هي أقبح صفة وأضرها وأجدر أن تختنب وتُنفر منها ”^(١٢)“ مؤكداً أن مثل هذه العداوة استخفاف بالأسباب التي تربط المؤمنين ومحاجة إذ يقول - رحمة الله - ”إن مثل هذه العداوة تُعد استخفافاً بالوسائل والأسباب التي تربط المؤمنين بعضهم

النورسي ، كليات رسائل النور ، اللمعات ، ترجمة : إحسان قاسم ، ج ٣ ص ٢٢٩ .^(١٠)

النورسي ، كليات رسائل النور ، الملحق ”في فقه الدعوة والنور“ ترجمة إحسان قاسم ج ٧ ، ص ٥٨ .^(١١)

النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة احسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٥٠٩ ، النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط٦ ، ٢٠٠٩ م ، ص ٥٦ . تتضمن عبارة النورسي بها أورده في المكتوبات قائلاً : ”اعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة ، كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شيء آخر“ النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم . ج ٢ ص ٣٤٣ .^(١٢)

بعض - كالإيمان والإسلام والإنسانية - وحطأ من شأنها وهي أشبه ما يكون بحماقة من يرجح أسباباً تافهة للعداوة كالخصيات على أسباب بجسامه الجبال الراسيات للود والمحبة“.^(٦٣)

فالعقيدة الروحية التي بينها القرآن الكريم ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية وهذا سر قوة الإسلام وسماحته ووحدته كما أكد الكاتب الفرنسي ”مارسيل كابي“.^(٦٤) لذا فإنّ الأستاذ النورسي يؤكّد في رسالة الأخوة في المكتوب الثاني والعشرين من المكتوبات ”أن الإيمان بعقيدة واحدة يستدعي حتّماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد ، ووحدة العقيدة هذه تقتضي وحدة المجتمع“^(٦٥) حيث لا يُعرف التحيز والعصبية والعنصرية طريقاً إلى مثل هذا المجتمع ، فالإيمان يؤسس الأخوة بين كل شيء ، لا يشتد الحرص والعداوة والحداد والوحشة في روح المؤمن ، إذ بالدقة يرى أعدى عدوه نوع آخر له...“.^(٦٦) فالأخوة في الله التي جمعت القلوب تصغر بجانبها الأحقاد التاريخية ، والثارات القبلية ، والأطعام الشخصية والرأييات العنصرية ، ويتجتمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال.^(٦٧) لذا فإنّ الأستاذ النورسي يصف بقاء الاختلاف بين المسلمين رغم الدوافع التي ينبغي أن تدفعهم إلى الوحدة - كالخطر الخارجي - بأنه ”تدهور مخيف وانحطاط مفجع وخيانة بحق الإسلام والمسلمين“.^(٦٨)

النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٥٠٩ ،^(٦٣)
النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ص ٥٧ ،^(٦٤)
النورسي ، من كليات رسائل النور (١٢) الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٩٥ .
عمر عودة الخطيب ، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، مؤسسة الرسالة ،^(٦٥)
بيروت ، ط ١٩٨٠ ، ص ١٩٣ .^(٦٦)

النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة احسان قاسم ج ٢ ص ٣٤١ ، النورسي ،^(٦٧)
من كليات رسائل النور (١٢) الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٦٤ .^(٦٨)

النورسي ، كليات رسائل النور ، المشوي العربي النوري ، ج ٦ ، ص ١٥٨ .
سید قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، مج ١ ، ج (٤-١) ،^(٦٩)
ص ٤٤٣ .^(٧٠)

النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ج ٢ ص ٣٤٩ .^(٧١)

فأشد القبائل تأخراً يدركون معنى الخطر الداهم عليهم - العدو الخارجي - فتراهم ينبذون الخلافات الداخلية وينسون العداوات الجانبيّة^(٦٩) التي قد تنشأ عند استفحال عروق العصبية والتحيز والعنصرية وغيرها من هذه الأمراض الاجتماعية .

سابعاً : الوحدة في ظل المدنية الشرعية التي يأمر بها الإسلام : يرى الأستاذ النورسي أن المدنية الشرعية القائمة على الأسس والمرتكزات الإيجابية كالحق والعدالة والمحبة والتعاون والتساند لا ترتبط المجموعات البشرية فيها برباط العنصرية بل عوضاً عن ذلك برابطة الدين وغيرها من الروابط الإيجابية كالرابطة الوطنية والرابطة التي تجمع بين من يتسبون لهن واحدة ، إذ يقول : " أما المدنية التي تأمننا بها الشريعة الغراء وتتضمنها ، فهي التي ستنكشف بانقسام هذه المدنية الحاضرة ، وتضع أساساً إيجابية بناءً مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية . نعم إنّ نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة ، والحق من شأنه : العدالة والتوازن . وهدفها : الفضيلة بدلاً من المنفعة ، والفضيلة من شأنها : المحبة والتجاذب وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية : الرابطة الدينية ، والوطنية ، والمهنية بدلاً من العنصرية ، وهذه شأنها : الأخوة الحالمة ، والسلام والوئام ، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب ، ودستورها في الحياة : التعاون بدل الصراع والجدال ، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد " .^(٧٠)

فهذا الفكر القومي الإيجابي ينبغي أن يكون خادماً للإسلام ، وأن يكون قلعة حصينة له ، وسورةً منيعاً حوله ، لا أن يحل محل الإسلام ، ولا بديلاً عنه ، لأنّ الأخوة التي يمنحها الإسلام تتضمن ألف أنواع الأخوة .. وهذا فلا تكون الأخوة القومية منها كانت إلا ستاراً من أستار الأخوة الإسلامية ، وبخلافه ، إني إقامة القومية بديلاً عن الإسلام جنائية خرقاء أشبه ماتكون بوضع أحجار القلعة في خزينة ألماس فيها وطرح الألماسات خارج القلعة .^(٧١)

^(٦٩) النورسي مرجع سابق ، ج ٢- ص ٣٤٩ .

^(٧٠) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ، ص ٣٥٩ .

^(٧١) المرجع نفسه ، ج ٢ ص ٤١٥- ٤١٦ .

ثامناً : رسائل النور تؤكد أنَّ اتحاد المسلمين هو أوجب الواجبات الدينية في هذا العصر : باعتبار الإسلام دين الإنسانية جمِيعاً فهو ليس مجتمعاً ضيقاً محدوداً تكوّنه عوامل جغرافية أو عنصرية أو عرقية أو طبقية ، لا ينشأ إلا في مناخ خاص وفي ظروف معينة ، ... بل هو مجتمع كبير يمتد حتى يشمل الإنسانية كلها بجميع أجناسها وألوانها ولغاتها في كل أرض وفي كل مكان وفي كل زمان.^(٧٢)

وقد أكَّدت رسائل النور على أنَّ الإسلام يأمر بالوحدة لحل مشاكل المسلمين والحفاظ على مصالحهم المشتركة عبر التبادل الفكري والمعرفي والتعاون بكلفة أشكاله ، وأنه لا سبيل لترقي المسلمين وتحقيق النماء إلا بالحافظ على الروابط المجتمعية أو " العقد الحياتية " كما أسمَّها ، إذ يقول - على سبيل المثال - في صيقل الإسلام : " إن نقطة استنادنا تجاه المصائب والدواهي ، التي أُلقت بثقلها العظيم ، عظم الأرض ، على العالم الإسلامي هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة ، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة ، وبالتعاون الذي تولَّه الأخوة ، فانظر بدءاً من العالم الإسلامي ، تلك الدائرة الواسعة ، وانتهاءً إلى طالب علم في المدرسة الشرعية كأصغر دائرة... تجد أن لكل منها عقداً حياتية ، تلك العقد مرتبطة ببعضها متسلسلة ومستندة إلى تلك النقطة العظمى ، كأفراد المجتمع وروابطه.. بمعنى أنه يمكن أن يصحو المسلمون ويفدوا بالرقي متى مانبهوا وبُث فيهم روح النماء ، فلا صحة بخنق تلك العقد الحياتية " .^(٧٣)

فالأخُوَّة الإسلامية هي جوهر حياة المسلمين وروحهم^(٧٤) ولا قيمة للجماعة المسلمة بلا اتحاد.^(٧٥)

ويؤكد الأستاذ النورسي أنَّ الأمة لن تجد نقطة استناد ولن يكتب لها البقاء إلا إذا توحدت فالوحدة تحول بين الأمة والانطفاء والزوال ، إذ يقول : " إن حماية سلسلة الإسلام النورانية وتقوية رابطه التي تجعل المسلمين - بسر الأخُوَّة الإيمانية - كياناً واحداً ، .. هي وحدها " نقطة الاستناد " وهي وحدها " نقطة الاستمداد " ... إنَّ

٧٢) عمر عودة الخطيب ، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، ص ١٩٥ .

٧٣) النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ج ٨ ، ص ٣٦٩ .

٧٤) المرجع نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٥٦ .

٧٥) وحيد الدين خان ، الدين الكامل ، الرسالة للإعلام الدولي ، مصر ، ط ١ ، ١٩٩٢ ، ص ٥٥ .

قطرات ولعات النور كلما بقيت متفرقة وظلّت متناشرة ، جفّت بسرعة وانطفأت حالاً -
فینادینا رب العزة سبحانه قائلًا : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ﴿ لاتقنطوا ﴾
[الزمر : ٥٣] ليحول بيننا وبين الانطفاء والزوال ” .^(٧٦)

ويقرر النورسي رحمة الله أن الإرهاب والعنف والغوضى والدمار ينشأ ويتعرّع في ظل العنصرية والتحيز والقومية ولا سبيل لإنقاذ البشرية من كل ذلك إلا بالوحدة الإسلامية . إذ يقول رحمة الله : ” إنه لا يصمد أمام هذا الدمار الرهيب إلا وحدة المسلمين المنشقة من حقائق القرآن ، فمثلاً تكون هذه الوحدة وسيلة لإنقاذ البشرية من بلاء الفوضى والإرهاب فإنها تندى هذه البلاد أيضاً من سيطرة الأجانب وتُنجي الأمة من مغبة الإرهاب ، بل لا منقذ لها إلا هذه الوحدة ” .^(٧٧)

ويؤكد الأستاذ النورسي أن طريق الذل والهوان والضعف الذي يعاني منه المسلمون اليوم لا يمكن تجاوزه إلا بالوحدة بعيداً عن التحيزات والتحيزات - العنصرية

النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ج ٨ ، ص ٣٩٢ .^(٧٦)
الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي ، (د.ن)(د.ت)
ص ١٠-٩ ، وقد أرسل النورسي رسالة إلى المسؤولين تنبئهاً لهم أن الوحدة الإسلامية هي
العلاج الوحيد تجاه الإرهاب والغوضى ، وذلك في عهد حكومة الحزب الديمقراطي ، انظر
تفصيل ذلك في : النورسي ، كليات رسائل النور ، الملاحق ، ملحق أمير داغ ، ترجمة إحسان
قاسم ، ج ٧ ص ٤١٥ ، وقد أيد بديع الزمان تركياً في انضمامها لحلف بغداد عام ١٩٥٥ م
وكتب خطاباً هاماً يهنىء فيه الرئيس جلال بيار ورئيس الوزراء مندرس وبلغهما تأييده ،
المرجع نفسه ، ج ٧ ، ص ٤١٥-٤١٩ ، وكان مماً قال : إنه قضى خمساً وخمسين سنة من عمره
لتحقيق المسألة ، ومن وسائله لتحقيق الوحدة تأسيس مدرسة الزهراء فهذه الجامعة
الإسلامية التي أراد أن تكون على غرار الأزهر الشريف في القاهرة ، سوف تكون هي وسيلة
لتحقيق السلام الشامل والتصالح على عدة مستويات وسوف تعمل هذه الجامعة على
التخلص من تأثير التفرقة العنصرية وتدفع إلى إنماء القومية الإسلامية الشاملة وازدهار
العمل بالدستور القرآني ، القائل : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَجُوا) سورة الحجرات الآية ١٠ ، انظر
تفصيل ذلك في : ابراهيم أبو ربيع ، الإسلام على مفترق الطرق ، رحلة في حياة وفكرة بديع
الزمان سعيد النورسي ، ترجمة محمد فاضل ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م ،
ص ٥١ .^(٧٧)

وغيرها- إذ يقول رحمة الله : ”أيها المؤمنون إن كنتم تريدون حقاً الحياة العزيزة ، وترفضون الرضوخ لأغلال الذل والهوان ، فأفيقوا من رقدتكم ، وعودوا إلى رشدكم ، وادخلوا القلعة الحصينة المقدسة : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠]. وحصّنوا أنفسكم بها من أيدي أولئك الظلمة الذين يستغلون خلافاتكم الداخلية.. إن قوتكم تذهب أدراج الرياح من جراء أغراضكم الشخصية وأنانيتكم وتحزبكم ، فقوة قليلة جداً تتمكن من أن تذيقكم الذل والهلاك ”^(٧٨) فلا بد من الوحدة على أساس ”الرابطة الدينية والوطنية والمهنية بدلاً من العنصرية والقومية السلبية ، وهذه الرابطة من شأنها الأخوة الخالصة ، والسلام والوئام ، والذود عن البلاد عند اعتماد الأجانب ”^(٧٩).

فالأستاذ النورسي يؤكّد في رسائل النور أنّ الفكر القومي والعنصري معاول هدم حضاري وسبب في سيطرة الآخر على المسلمين فتجده يقول على سبيل المثال : ”لقد انتشر الفكر القومي وترسخ في هذا العصر ، ويثير ظالموا أوربا الماكرoron بخاصة هذا الفكر بشكله السلبي في أوساط المسلمين ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم ”^(٨٠). لذا فقد قرر الأستاذ النورسي أن الوحدة الإسلامية هي : ”أوجب الفرائض في هذا الوقت ”^(٨١) ، ومن ثم فقد كانت الدعوة في رسائل النور إلى نبذ العنصرية والخلافات القومية سعياً لتحقيق الوحدة الإسلامية أو ما أسماه النورسي الاتحاد المحمدي^(٨٢) على

النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ ،
النورسي ، الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور ص ٤٦-٤٧ ، النورسي ،
من كليات رسائل النور^(١٢) ، الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٧٩-٨٠ .^(٧٨)

النورسي ، كليات رسائل النور ، صيقل الإسلام ، ترجمة إحسان قاسم ، ج ٨ ص ٣٥٩ .^(٧٩)

النورسي ، الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور ، ص ٢١ .^(٨٠)

النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٩٩ .^(٨١)

دعا الأستاذ النورسي إلى الاتحاد المحمدي والرجوع إلى الشريعة ونبذ الخلافات وقد أعلن عن ذلك الاتحاد عام ١٩٠٩ ضمن احتفال مهيب في جامع أيا صوفيا ، المرجع نفسه ، ص ١٠٤ نقاً عن المترجم ، لمزيد من التفصيل انظر النورسي كليات رسائل النور ، سيرة ذاتية ، إعداد وترجمة إحسان قاسم ، سوزلر للنشر ، إستانبول ، (د.ت) ج ٩ ص ١١٢ . وما بعدها .^(٨٢)

أساس وحدة الدين إذ يقول رحمه الله : ”إن التوحيد الإلهي هو جهة الوحدة في الاتحاد المحمدي^(٨٣) ، فبفضل هذه الرابطة المقدسة التي تشد الأمة الإسلامية بعضها ببعض يصبح المسلمون كافة كعشيرة واحدة ، فترتبط طوائف الإسلام برباط الأخوة الإسلامية ، كما يرتبط أفراد العشيرة الواحدة ، ويمد بعضهم بعضاً معنوياً ، وإذا اقتضى الأمر فهادياً وكأن الطوائف الإسلامية تنتظم جميعها كحلقات سلسلة نورانية ”^(٨٤) وبوحدة الصفة المسلم تذوب كل الفوارق ، اللونية واللغوية والطبقية^(٨٥) والعرقية . والأستاذ النورسي يؤكد أنّ شجرة طوبى الإسلام قد ترسخت عروقها في صلب الكون وحقيقة ، وبثت جذورها في ثنايا حقائق الكون كلها ، فهذه الشجرة العظيمة لا يمكن غرسها في تراب العنصرية الموهومة المؤقتة الجزئية الخصوصية السلبية ، بل التي لا أساس لها أصلاً وهي المشحونة بالأغراض الظالمة المظلمة^(٨٦) وإن هذا العصر ليس بعصر القومية.. وقد ولّ عصر العنصرية.^(٨٧)

النتائج :

من هذه الدراسة التي ركزت على مشكلة العنصرية سماتها وصفاتها والحلول من خلال رسائل النور توصلت الباحثة إلى نتائج مهمة منها :

- ◆ أنّ رسائل النور سعت إلى إرساء فقه التوسط والتقييد له ، لمقابلة الغلو والتطرف والتعصب بكلفة أشكاله .
- ◆ الشعور القومي عند الأستاذ النورسي إما إيجابي أو سلبي ، فالإيجابي يقوم على الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف ، أما السلبي فهو الذي ينشأ من

النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٩٨ .^(٨٣)

النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، ص ٥٩ .^(٨٤)

النورسي ، الاتحاد الإسلامي ، مقتطفات من كليات رسائل النور ، ترجمة إحسان قاسم .^(٨٥) ص ٧ .

علي الحاج على موسى ، وحدة المسلمين فريضة شرعية وضرورة حيوية ، دار جامعة القرآن الكريم للطباعة ، السودان ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م . ص ٩١ .^(٨٦)

النورسي ، كليات رسائل النور ، المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم . ج ٢ ص ٥٦٦ .^(٨٧)

المرجع نفسه ، ج ٢ ص ٥٦٦ .^(٨٨)

الحرص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند، والإسلام يرفض هذا الأخير.

أكّد الأستاذ النورسي أنّ العنصرية تعمل على إقصاء الآخرين والاعتداء عليهم إذ تكبر بابتلاعهم ، وتوسيع على حسابهم.

قرر النورسي أن الفكر القومي والتمييز العنصري معاول هدم حضاري وسبيل لسيطرة الآخر على المسلمين.

يؤكّد الأستاذ النورسي أن التباغض والتنافر بين الإسلام وقبائله ، بسبب من الفكر القومي ، هلاك عظيم ، وخطب جسيم ، إذ يفضي إلى جرائم بشعة لم تجد لها البشرية اسمًا.

تصف رسائل النور العنصرية بأنها اتباع لأنها والشيطان وشرك عظيم فضلاً عن أنها ظالمة لا تعرف الحق والعدل ، وفيها دعوى الجاهلية التي تجاوزها الإسلام.

سعياً وراء حل مشكلة العنصرية والقومية يلفت الأستاذ النورسي النظر إلى أن هنالك روابط ووظائف محددة تجمع بين الناس في كل مجتمع من شأنها إحداث التعاون والتعارف.

أعلن الرسول ﷺ المساواة الجامعة وأكّد على الكرامة الإنسانية ببات التفاضل والشرف بالتقوى لا بالعرق والجنس واللون.

يرى الأستاذ النورسي أن الأخوة التي يمنحها الإسلام تتضمن ألواناً من أنواع الأخوة وهذا فلا تكون الأخوة القومية منها كانت إلا ستاراً من ستار الأخوة الإسلامية.

يؤكّد النورسي أنه لا سبيل لإنقاذ الأمة من الإرهاب والعنف والفوضى والدمار والهوان والذل الذي ينشأ ويتزعّج في ظل العنصرية والقومية إلا بالوحدة المنبثقة من حقائق القرآن.

يرى الأستاذ النورسي أن الأخوة الإسلامية هي جوهر حياة المسلمين وروحهم ويؤكّد أن اتحاد المسلمين هو أوجب الفرائض والواجبات الدينية في هذا العصر.

الوصيات :

♦ توصي الباحثة بإجراء المزيد من الدراسات والمؤتمرات للوصول إلى علاج مشكلات الغلو والتطرف بكلفة أشكاله سعياً لإرساء قواعد التوسط والاعتدال.

قائمة المراجع :

- (١) القرآن الكريم
- (٢) أحمد : أحمد بن حنبل ، أبو عبد الله الشيباني ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر ، ج ٦ ، [د.ت.]
- (٣) البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٦ م.
- (٤) البغوي : الحسين بن مسعود البغوي ، شرح السنة ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق - بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م.
- (٥) البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- (٦) حبنكة : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، الحضارة الإسلامية ، دار القلم ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٨ م.
- (٧) الحميدي : محمد بن فتوح الحميدي ، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، تحقيق : د. علي حسين البابا ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- (٨) خان : وحيد الدين خان ، الدين الكامل ، الرسالة للإعلام الدولي ، مصر ، ط ١ ، ١٩٩٢ م.
- (٩) الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، سنن الدارمي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ.

- (١٠) أبو داود : سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محبي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت .
- (١١) الربيع : الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري ، الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب ، تحقيق : محمد إدريس عاشور بن يوسف ، دار الحكمة ، مكتبة الاستقامة ، بيروت ، سلطنة عمان ، ط١ ، ١٤١٥ هـ .
- (١٢) أبو ربيع ، إبراهيم أبو ربيع ، الإسلام على مفترق الطرق رحلة في حياة وفker بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة محمد فاضل ، شركة سوزلر للنشر ، ط١ ، ٢٠٠٥ م .
- (١٣) الشريفين : عماد الدين الشريفين ، المؤتمر العالمي التاسع لبديع الزمان النورسي العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية ، ورقة بعنوان : العنصرية والقومية السلبية من خلال كليات رسائل النور ، إسطنبول ، ٢٠١٠ م .
- (١٤) الطبراني : سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني ، الروض الداني "المعجم الصغير" ، تحقيق : محمد شكور محمود الحاج أميرير ، المكتب الإسلامي ، دار عمار ، بيروت ، عمان ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- (١٥) الطبراني ، المعجم الكبير ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة الزهراء ، الموصل ، ط٢ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .
- (١٦) عودة : عمر عودة الخطيب ، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠ م .
- (١٧) الغزالى : محمد الغزالى ، خلق المسلم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط٣ ، ١٩٩٠ م .
- (١٨) الغزالى ، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، [د.ن] الطبعة الأولى ، [د.ت] .
- (١٩) قطب : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- (٢٠) قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٩٠ م .
- (٢١) ابن المبارك ، عبد الله بن المبارك بن واضح ، مسند الإمام عبد الله بن المبارك ، تحقيق : صبحي البدرى السامرائي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٧ هـ .

- (٢٢) مرحبا : محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربي ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٢ م.
- (٢٣) مسلم : مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري التيسابوري ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . [د.ت].
- (٢٤) المناوي : زين الدين عبد الرؤوف المناوي ، التيسير بشرح الجامع الصغير ، مكتبة الإمام الشافعي ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- (٢٥) موسى : علي الحاج موسى ، وحدة المسلمين ، فريضة شرعية وضرورة حيوية ، دار جامعة القرآن للطباعة ، السودان ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م.
- (٢٦) النورسي : بديع الزمان سعيد النورسي ، كليات رسائل النور (١) الكلمات ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، دار النيل للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م.
- (٢٧) النورسي ، كليات رسائل النور (٢) المكتوبات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ١ ، ١٩٩٢ م.
- (٢٨) النورسي ، كليات رسائل النور (٣) اللمعات ، ترجمة إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ١ ، ١٩٩٣ م.
- (٢٩) النورسي ، كليات رسائل النور (٤) الشعاعات ، ترجمة : إحسان قاسم ، دار سوزلر للطباعة والنشر ، إسطانبول ، ط ١ ، ١٩٩٣ م.
- (٣٠) النورسي ، كليات رسائل النور (٥) إشارات الإعجاز في مظان الإعجاز ، تحقيق : إحسان قاسم ، دار سوزلر للطباعة والنشر ، إسطانبول ، ط ٣ ، ١٩٩٩ م.
- (٣١) النورسي ، كليات رسائل النور (٦) المثنوي العربي النوري ، تحقيق : إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ٤ ، ١٩٩٩ م.
- (٣٢) النورسي ، كليات رسائل النور (٧) الملحق في فقه دعوة النور ، ترجمة : إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ١ ، ١٩٩٥ م.
- (٣٣) النورسي ، كليات رسائل النور (٨) صيقل الإسلام ، ترجمة وتحقيق ، إحسان قاسم دار سوزلر للنشر ، إسطانبول ، ط ١ ، ١٩٩٥ م.

- (٣٤) النورسي ، كليات رسائل النور(٩) سيرة ذاتية ، إعداد وترجمة ، إحسان قاسم ، دار سوزلر للنشر ، [د.ت].
- (٣٥) النورسي ، الاتحاد الإسلامي مقتطفات من كليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي ، [د.ن][د.ت].
- (٣٦) النورسي ، من كليات رسائل النور(١٢) الإخلاص والأخوة ، ترجمة إحسان قاسم ، سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط٥ ، ٢٠٠٨ م.
- (٣٧) النورسي ، من كليات رسائل النور ، الخطبة الشامية ، ترجمة إحسان قاسم ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ط٦ ، ٢٠٠٩ م.
- (٣٨) عبد الواحد : مصطفى عبد الواحد ، المجتمع الإسلامي ، دار الأمل ، الكويت ، [د.ت].
- (٣٩) ابن وهب ، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي أبو محمد المصري ، الجامع في الحديث ، تحقيق : د. مصطفى حسن حسين أبو الخير ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، ط١٩٩٦ م.
- (٤٠) موقع على الانترنت
- (٤١) عبد الحميد : محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية والقومية ٢ / ٤ / ٢٠١٥ م : ، www.library.islamweb.net/newlibraryummah

دراست إسلامية

دراست إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الثامن / ١٤٣٨ - ٢٠١٦ م

دور الإعلام الجديد في التصدي لظاهرة التطرف وتعزيز الوسطية

د. محمد خليفة صديق

أستاذ مساعد ، قسم العلوم السياسية ، جامعة إفريقيا العالمية

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٢٨٣-٣١٨)

المتخلص :

يستهدف هذا البحث مناقشة مفهوم الإعلام الجديد ومظاهره وتطبيقاته المختلفة ، والتأثيرات الإيجابية والسلبية ومخاطر التعرض له على وعي الأمة بالقضايا الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، والتعرف على بناء المفاهيم حول التطبيقات الإعلامية الجديدة ، وبيان أهمية البعد القيمي والأخلاقي في مناخ الإعلام ، مع مناقشة لأنجع السبل لاستفادة أكبر من الإعلام الرقمي للتصدي لحمى التطرف والإرهاب وماجاورها من غلو وتجاوز وعنف .

خلص البحث لأهمية التعامل العلمي مع ظاهرة التطرف لاجتثاث جذورها من المجتمع المسلم ، بالاستفادة من تقنيات الإعلام الجديد كأداة ممتازة قليلة التكاليف وواسعة الانتشار خلق حوار مجتمعي حول قضايا المجتمع المسلم وعلى رأسها تنامي ظاهرة التطرف والغلو ، والسعى لاستخدام أمثل للإعلام الجديد في التصدي لموضوع التطرف .

مقدمة :

تعدد التسميات والمصطلحات لسمى هذا النوع من الإعلام ؛ فهناك من يطلق عليه إعلاماً جديداً ، وهناك من يسميه إعلاماً رقمياً ، وإعلاماً إلكترونياً وعالماً رقمياً وإعلاماً مندمجاً ومجتمع المعلومات ومجتمع المعرفة ، ويظل القاسم المشترك بين كل ماضي هو الاستخدام للتكنولوجيا الحديثة كمحرك أساسي لتدفق المعلومات .

والتغير الذي نشهده اليوم في عالم الإعلام يعتمد على استخدام الكمبيوتر في إنتاج وتخزين وتوزيع المعلومات والتسلية وغيرها ، وخاصية توفير مصادر المعلومات والتسلية لعموم الناس بشكل ميسر وبأسعار منخفضة هي في الواقع خاصية مشتركة بين الإعلامين القديم والجديد ، ولكن الإعلام الجديد قادر على إضافة خاصية جديدة لا يوفرها الإعلام القديم وهي التفاعل [Interactivity] وهي قدرة وسيلة الاتصال الجديدة على الاستجابة لحدث المستخدم ؛ تماماً كما يحدث في عملية المحادثة بين شخصين .^(١)

١) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد.. دراسة في تحولات التكنولوجيا وخصائصه العامة ، دراسة منشورة على الرابط : <http://www.jadeedmedia.com/>

شهدت بداية التسعينيات مرحلة نهاية مركزية الإعلام؛ فمع انطلاق الفضائيات وانتشار الإنترنت وتراجع أسعار أجهزة استقبال المحطات الفضائية وأجهزة الكمبيوتر، وتزايد قدرات شبكات الاتصال الرقمية، تغير وجه الإعلام بشكل كبير، وقبل أن تنتهي التسعينيات كان احتكار المعلومة قد انتهى عملياً، وتفتت قدرة الإعلام القديم على إبقاء قبضته مسكة بالخبر والمعلومة.^(١)

سيوضح مفهوم الإعلام الجديد ومظاهره وتطبيقاته المختلفة، ومن ثم يتعرف على انعكاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد على تنمية وعي الأمة بالقضايا الدينية والاجتماعية والسياسية بالتركيز على مدى حصانة مجموع الأمة ضد أفكار التطرف والغلو.

كما سيناقش البحث دور التعرض لتكنولوجيا الإعلام الجديد في التصدي للأفكار الدخيلة، والتعرف على الفرص المتزايدة التي يوفرها الإعلام الجديد من خلال ما يمثله من مصدر مهم لتنمية المعارف الفردية حول القضايا موضوع الحوار والنقاش والجدل السياسي داخل المجتمع بما في ذلك قضايا التطرف والغلو.

ويسعى البحث للتعرف على مدى قدرة الإعلام الجديد في زيادة الوعي لعمليات المشاركة المجتمعية وانتشار المعرفة، ومدى استخدام حملة فكر التطرف لوسائل الإعلام الجديد كساحة بديلة للعمل الاستقطابي لأفكارهم من خلال تشكيل المنتديات والواقع الفكرية الافتراضية والتغلب على القيود السياسية والقانونية المفروضة على بث الأفكار المنحرفة من خلال استخدام مداخل نظرية جديدة تتناسب مع طبيعة الإعلام الجديد التي تتمثل في مداخل التفاعلية، والمشاركة، وثراء المعلومات.

الإطار المنهجي :

تستند هذه الدراسة إلى مدخلين نظريين الأول : نظرية ثراء وسائل الإعلام Media Richness Theory التي تستخدم لدراسة معايير الاختيار بين الوسائل الإعلامية والتكنولوجية وفقاً لدرجة ثرائها المعلوماتي ، وتوضح نظرية ثراء وسائل الإعلام أن فعالية

^(١) هيثم الزبيدي ، محاضرة بعنوان : الإعلام القديم ، الإعلام الجديد وتحدي الإعلام البديل ، نشرت بصحيفة المتوسط ، ص: ١٦ ، بتاريخ ١٤/٣/٢٠٠٩م.

الاتصال تعتمد على القدر الذي تستخدم به الوسيلة ، وتركز النظرية بشكل أكبر على الأشكال التفاعلية للاتصال في التجاھين بين القائم بالاتصال والجمهور المستقبل للرسالة^(٣) ، وطبقاً لنظرية ثراء وسائل الإعلام فإن الوسائل الإعلامية التي توفر رجع صدي تكون أكثر ثراء^(٤) ، فكلما قل الغموض كان الاتصال الفعال أكثر حدوثاً وتنظر النظرية لوسائل إعلامية مثل الصحف والإذاعة ، والتليفزيون على أنها فقيرة لأنها لا تسمح برجع صدي سريع ومبادر ، كما تفترض النظرية أن وسائل الإعلام لديها القدرة على حل الغموض الذي يواجه الجمهور وتقديم تفسيرات متنوعة وتسهيل عملية الفهم على الجمهور المستقبل للرسالة ، فثراء المعلومات هو العملية التي تقوم فيها المعلومات بتخفيض درجة الغموض ، وإيجاد مساحة من المعاني المشتركة باستخدام وسيلة اتصالية معينة ، ولذا فإن مصطلح ثراء الوسيلة هو الأداة الفعلية التي يمكن من خلالها قياس ثراء المعلومة.^(٥)

تفرق نظرية ثراء وسائل الإعلام بين الوسائل الأقل ثراء والأكثر ثراء من خلال عدد المواقف المتاحة في الوسيلة ، ويفترض هذا المدخل أن الاتصال الجديد عبر الكمبيوتر هو وسيلة ثرية فهو مفيد للرسالة البسيطة وغير البسيطة وهو أكثر دقة بسبب وظائف العرض والجمهور والتفاعلية التي تعد ضرورية فالمستقبل لكي يفهم المعلومات التي تكون غير واضحة أو غامضة أو عاطفية فإنه يجب استخدام وسيلة أكثر ثراء.

وقد افترض Daft & Lengel أن وسائل الاتصال تمتلك العديد من القدرات والإمكانات لتوصيل المعلومات والمعارف لمستخدميها وبالتالي تساعد في حل مشكلات

^(٣) Alan R. Dennis , susan T. Kinney , Testing Media richness theory, in : The New Media : The Effects of cues, Feed back, and task Equivocally , Information systems research, vol ,9.No,3, pp.257-259.

هيثم الزبيدي ، محاضرة بعنوان : الإعلام القديم ، الإعلام الجديد وتحدي الإعلام البديل ، نشرت بصحيفة المتوسط ، ص: ١٦ ، بتاريخ : ١٤ / ٣ / ٢٠٠٩ م.

^(٤) L. R. Daft, and H. R. lengel, organizational Information requirements, media richness and structural Design, management sci, 32, NO, 5,1986, pp 554-571.

في : عيسى عبد الباقي موسى. ، انعکاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد ، مرجع سابق ، ص : ٣ .

الغرض وتمكين مستخدميها من الوصول لحلول للخلافات في الرأي وتسهيل التفاهم بين الناس.^(٦)

تفترض نظرية ثراء وسائل الإعلام فرضين أساسين هما :

الفرض الأول : أن الوسائل الإعلامية والتكنولوجية تمتلك قدرًا كبيرًا من البيانات والمعلومات بالإضافة إلى تنوع المضمون المقدم من خلالها وبالتالي تستطيع هذه الوسائل التغلب على الغرض والشك الذي يتبادر إلى الأفراد عند التعرض لها.

الفرض الثاني : هناك أربعة معايير أساسية لترتيب ثراء الوسيلة الإعلامية مرتبة من الأعلى إلى الأقل من حيث درجة الثراء الإعلامي وهي : سرعة رد الفعل ، قدرتها على نقل الإشارات المختلفة باستخدام تقنيات تكنولوجية حديثة مثل الوسائط المتعددة ، التركيز الشخصي على الوسيلة ، واستخدام اللغة الطبيعية ، واستفاد الباحث من تطبيق هذه النظرية في مجال الدراسة لتفسير مدى ثراء الإعلام الجديد بالمعلومات والمعارف التي تفيد بدورها في زيادة وتنمية مستوى الوعي والمعرفة للمواطنين حيث تهدف الدراسة إلى اختبار دور الإعلام الجديد عبر شبكة الإنترنت والوسائط الأخرى على تنمية وعي المواطن بالقضايا ذات الصلة بالطرف والعنف.

أما النظرية الثانية فهي نظرية الشأن العام *Public Sphere* التي وضعها^(٧) *Habermas* عام ١٩٨٩ ، حيث عرّف الشأن العام بأنه مساحة للحياة الاجتماعية التي تضم عدداً من الأفراد تجمعهم خصائص واهتمامات مشتركة ، ويعنى الشأن العام لكل الأفراد فرصة القدرة على المشاركة والوصول إليه طالما شعروا أنهم جزء منه ، حيث يرى *Habermas* أن الشأن العام هو شبكة اتصالية من الشبكات القائمة في المجتمعات المدنية

^(٦) M.EL-Shinnawy, and Mark us, M ,Media Richness Theory and New Communication Media : A study of Voice mail and Electronic mail, proc. international conf. on Information systems, Dallas tx , 1992- pp91-105

^(٧) J. Habermes, the public sphere, in c. Mukerji and schudson. M (eds) Retching popular culture : contemporary perspectives in cultural studies , 1991, pp.398-404 .

ترتبط ارتباطاً عميقاً بالحياة العامة أو الخبرات اليومية للأفراد ، ويتحقق مفهوم الشأن العام عندما يتوجه الأفراد نحو ممارسة حقهم في المجتمع والاتصال والاشتراك في مناقشة قضاياهم العامة.

وتفترض نظرية الشأن العام أربع سمات رئيسية تميز الاتصال عبر ما أطلق عليه Habermas الشأن العام وهي : القدرة على الوصول إلى دائرة الاتصال ، والحرية التي يتمتع بها الأفراد في الاتصال داخل هذه الدائرة ، وبنية المناقشة ، وطرح خطاب مبرر بأدلة إقناعية محددة ، وقد وظف الباحث هذه النظرية في الدراسة الراهنة نظراً للسمات التفاعلية لوسائل الإعلام الجديد التي يمكن أن تقود إلى مزيد من حيوية المجتمع من خلال إمكانية الوصول غير المحدد للمعلومات والمشاركة المتساوية في المناقشات.

أهمية الدراسة :

تتمثل أهمية الدراسة في عدة اعتبارات منها :

- (1) التعرف على مجمل الإعلام الجديد ودوره في تعميق درجة الوعي العام للمواطن في التعرف على الأفكار المختلفة ، حيث تدل التجربة على وجود علاقة بين مستوى معرفة الأفراد ومعدل المشاركة في التعامل الصحيح مع الموضوع المطروح ، ومن ثم فإن دراسة تنمية الوعي العام للأفراد وتحديد العوامل المؤثرة فيه والمحددة له هي أولى خطوات تفعيل المشاركة المجتمعية في التصدي للتطرف والإرهاب غير المنضبط.
- (2) التعرف بدقة على طبيعة التفاعل الاجتماعي والعلمي في وسائل الإعلام الجديد ، في ظل ما تشير إليه بعض الدراسات من أن مواطني المنطقة العربية ليس لديهم الوعي العلمي والفكري الكافي للتصدي للأفكار المستوردة والغربية.
- (3) قلة الدراسات التي تعرضت لأثر الاتصال التفاعلي من خلال وسائل الإعلام الجديد على درجة تنمية الوعي العام للمواطنين في المنطقة العربية.
- (4) تناول أبعاد جديدة لтехнологيا الإعلام الجديد تمثل في الاتصال التفاعلي عبر الإنترنت وغيره والتعرف على رؤى جمهور المستخدمين له و المجالات استخدامه وانعكاساته على تنمية الوعي القادر على التصدي للأطروحات المنحرفة.

الإجراءات المنهجية للدراسة :

- (أ) نوع الدراسة : هذه الدراسة تتبع لفئة الدراسات الوصفية التحليلية التي تستهدف وصف المواقف أو الظواهر والأحداث وجمع الحقائق الدقيقة عنها ، بهدف تحديدها تحديداً دقيقاً ، ورسم صورة متكاملة لها تتسم بالواقعية والشمولية بما يساعد على التعرف بدقة على دور وسائل الإعلام الجديد في تنمية وعي المواطنين وتعزيز معارفهم تجاه موضوع الإرهاب والتطرف وتوابعه.
- (ب) منهج الدراسة : اعتمدت الدراسة بشكل رئيسي على منهج المسح ، والمنهج الوصفي والتحليلي لاكتشاف المشكلات وجمع ما يتيح من بيانات عن موضوع الدراسة لتحليلها وتحديد أبعادها التي تسهم في التعرف على دور وسائل الإعلام الجديد في التصدي لموضوع التطرف والغلو.

مصطلحات الدراسة :

الوسطية يعني بها : ”حالة محمودة تعصم الفرد من الميل إلى أحد جانبي الإفراط والتغريب“ ، أو ”هي التوازن والتعادل بين الطرفين“ ، بحيث لا يطغى طرف على آخر ، فلا إفراط ولا تغريب ، ولا غلو ولا تقصير ، وإنما اتباع للأفضل في كل شيء . كما يعبر عنها أيضاً بـ التوازن ، الذي يعطي كل ذي حق حقه دون شطط كالأطراف المقابلة مثلاً أو المتضادة : الروحية والمادية ، والفردية والجماعية ، والواقعية والمثالية ، والثبات والتغيير ، وما شابهها ، ومعنى التوازن بينهما : أن يفسح لكل طرف منها مجاله ، ويعطي حقه بالقسط أو بالقسطاس المستقيم.

التطرف : يعرف القاموس الفلسفي التطرف بأنه : ”اندفاع غير متوازن إلى التحمس المطلق لفكرة واحدة يصبح معه صاحبه أحادي الشعور ، وفي حالة اضطراب نفسي يفقد حاسة التمييز بين الحسن والحسن ، والسيء والسيء“.

الإعلام الجديد : يشير مفهوم الإعلام الجديد **New media** بحسب د. مارتن ليستر Lester إلى مجموعة تكنولوجيات الاتصال التي تولدت من التزاوج بين الكمبيوتر

والوسائل التقليدية للإعلام ، الطباعة والتصوير الفوتوغرافي والصوت والفيديو.^(٨) ويُعرف آخرون بأنه : المعلومات والوسائل التي تنتقل إلكترونياً باستعمال الإنترنت أو إحدى خدماته.^(٩)

الإعلام الجديد .. مدخل نظري :

ظهر مصطلح الإعلام الجديد **New media** ليشير إلى المحتوى الإعلامي الذي يبث أو ينشر عبر الوسائل الإعلامية التي يصعب إدراجها تحت أي من مجموعة وسائل الإعلام التقليدية **Traditional Media** كالصحافة والراديو والتلفزيون ، وذلك بفعل التطور التكنولوجي الكبير في إنتاج وتوزيع المضامين الإعلامية.^(١٠)

و ”الجِدَة“ المشار إليها في التعريف السابق التي يتسم بها هذا النمط من الإعلام هي جِدَة نسبية ، بمعنى أن ما يكون جديداً اليوم قد لا يكون جديداً في الغد ، أو أن ما نراه غير جديد اليوم كان جديداً بالأمس. ولذا فإن بعض منظري مفهوم الإعلام الجديد مثل جيتلمان وبنجيري قد أصلاً لظهور الإعلام الجديد إبتداء من ظهور التلغراف عام ١٧٤٠ م ، وبنها فكرتهما على مبدأ الحالة الانتقالية للإعلام.

فهذا المفهوم بالرغم من دقة وصفه بالجِدَة إلا أن هناك خلافاً لفظياً ولغوياً على مدلولاته ، وهذا لا ينفي أن هناك واقعاً جديداً للإعلام ظهرت فيه أشكال متعددة من الرسائل الاتصالية والوسائل الإعلامية التي تختلف تماماً عن مرحلة ما قبل الانتشار الجماهيري لشبكة المعلومات الدولية ”الإنترنت“ . في حين يرى أ.د. يوسف بن رمضان أن الاتصال الجديد يمكن تعريفه على أنه يتجلّس في نمط اتصالي حديث يختلف أو يتجاوز نمط الاتصال التقليدي البسيط أو المبسط بين مرسّل ومتقّل ، يتميّز بقنوات متعددة يشارك فيها

د. رضا عبد الواحد أمين ، استخدامات الشباب الجامعي لموقع يوتيوب على شبكة الإنترنت ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص ٥١٢ .^(٨)

عبد القادر بن خالد ، الإعلام الجديد.. مرحلة جديدة من التنافس ، مادة عرض تقديمي موجودة على الرابط : www.aek-b.com .^(٩)

رضا عبد الواحد أمين ، استخدامات الشباب الجامعي لموقع يوتيوب على شبكة الإنترنت ، مرجع سابق ، ص ٥١٦-٥١٧ .^(١٠)

الفاعلون الاجتماعيون في كل لحظة ، سواء بصفة إرادية أو بصفة غير إرادية وذلك عبر عبارات وردود فعل وموافق وسلوك.^(١١)

تُعرِّف كلية شريديان الجامعية الإعلام الجديد بأنه : كل أنواع الإعلام الرقمي الذي يقدم في شكل رقمي وتفاعلية. ويقرن آخرون مفهوم الإعلام الجديد باستخدام الحواسيب والوسائل الرقمية المتعددة في الاتصال ، مما يؤكد ضرورة الاهتمام بالمستحدثات الرقمية وخصائصها وتأثيراتها باعتبارها التطور المعاصر والحديث لتكنولوجيا الاتصال ، ومن هنا يمكن تعريف الاتصال الرقمي بأنه تلك العملية التي يتم فيها الاتصال من بعد بين أطراف يتداولون الأدوار في بث الرسائل الاتصالية واستقبالها من خلال النظم الرقمية ووسائلها لتحقيق أهداف معينة ، وتعد الشبكة العالمية للمعلومات "الإنترنت" من أبرز النماذج المتغيرة للاتصال ذي التأثير القوي والأبعاد المتعددة ، فهي تتجاوز الحدود الجغرافية وتتسنم بالعالمية أو الكونية وسقوط الحواجز الثقافية بين أطراف عملية الاتصال ، وإذا كانت مفاهيم السينما العالمية والصحف الدولية والبث الفضائي عبر الأقمار الصناعية قد سادت لفترات طويلة ، فإن شبكة الإنترنت تعمل الآن ك وسيط بين هذه الوسائل وتسهم في تجاوز الحدود والحواجز الثقافية بين هذه الشعوب.^(١٢)

أطلق البعض على الإعلام الجديد مصطلح الإعلام التكميلي حيث يرون أنه يكمّل الإعلام التقليدي ، فقد تعاقبت وسائل الإعلام من حيث الظهور ، فمثّلت الصحفة أولى وسائل الإعلام ظهوراً ثم الإذاعة ثم التلفزيون وأخيراً الإنترنت ، إلا أن الواقع شهد على أنه لا توجد وسيلة إعلامية لديها القدرة على القضاء نهائياً على وسيلة أخرى مماثلة سبقتها.^(١٣) غير أن الإعلام الجديد يتميز بالعالمية بخلاف نظيره القديم حيث يمكن الكتابة في شأن محلي

^(١١) يوسف بن رمضان ، الاتصال الجديد والديناميات الثقافية في المجتمعات المعاصرة ، في أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص: ٣٣١.

^(١٢) عبد المحسن بدوي ، مشكلات الإعلام الجديد ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص: ٨٥.

^(١٣) روبلي جراد ، الإعلام الجديد.. قوة الانتشار وضعف المصداقية ، شبكة الشاهد الدولي : <http://arabic.alshahid.net/columnists/6348>

وفي الوقت ذاته يتبعها الجميع في أنحاء العالم ، والمواد الإعلامية في عالم الإعلام الجديد لا تعترف بفكرة المنوع ولا القوانين والضوابط ولا الموثيق الأخلاقية ، وتلك من بعض سلبياته.

يمكن تقسيم الإعلام الجديد إلى أربعة أقسام هي :^(١٤)

- (١) الإعلام الجديد القائم على شبكة الإنترنت وتطبيقاتها.
- (٢) الإعلام الجديد القائم على الأجهزة المحمولة ، بما في ذلك أجهزة قراءة الكتب والصحف.
- (٣) نوع على منصة الوسائل التقليدية مثل الراديو والتلفزيون التي أضيفت إليها ميزات جديدة مثل التفاعلية وال الرقمية والاستجابة للطلب.
- (٤) الإعلام الجديد القائم على منصة الكمبيوتر ويشمل العروض البصرية وألعاب الفيديو والكتب الإلكترونية وغيرها.

بالرغم من صعوبة الاتفاق على تحديد مفهوم واضح المعالم للإعلام الجديد بسبب حالته الديناميكية المتغيرة والمتطرفة بشكل مستمر ، إلا أن الحقيقة المؤكدة أن كثيراً من الأشكال الإعلامية والأنماط الاتصالية الجديدة بدأت تفرض نفسها في الواقع الإعلامي ، و تستقطب أعداداً متزايدة من مستخدمي الوسيط الاتصالي الجديد "شبكة الإنترنت" التي قامت بدمج الوسائل الاتصالية المختلفة القديمة والمستحدثة في مكان واحد ، وغيرت كثيراً من المفاهيم الإعلامية التي استقرت لسنوات طويلة عند الباحثين والأكاديميين ، كما أدت إلى تغير الأدوار التي تقوم بها عناصر العملية الاتصالية ، كالقائم بالاتصال والمترقب والرسالة والوسيلة ورجوع الصدى.

لم تكتف الوسيلة الإعلامية الجديدة بالسماح لكلٌ من المرسل والمستقبل بتبادل أدوار العملية الاتصالية ، ولكنها أحدثت ثورة نوعية في المحتوى الاتصالي المتنوع ، من نصوص إلى صور ، وملفات صوتية ، ولفظات فيديو مصورة ، وانتشرت الأخيرة خلال العامين الماضيين بشكل يستوجب الوقوف أمام الموقف الاتصالي لتدارك أبعاده ودراسة تأثيراته ، فقد انتشرت

^(١٤) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة ، ورقة منشورة على موقع البوابة العربية لعلوم الاتصال ، ص : ٦-٧.

الموقع التي تتيح للمستخدمين تحميل ملفات فيديو شخصية أو عامة بضوابط معينة ليراهما الجميع في أنحاء المعمورة ، حيث تحول المستخدم إلى متجر إعلامي بفضل التقنيات الاتصالية الجديدة مثل كاميرات الهاتف النقال وغيرها يتيح وبيث ما يريد على الإنترنت ، وقد لاحظ الباحث إقبال الشباب على هذه النوعية من الأشكال الاتصالية المستحدثة بصورة كبيرة.

ساهمت الفضائيات والإنترنت في خلق أطياف أخرى وفرص مهمة لمعرفة الحقائق عن قرب والتعرف على حياة الشعوب وساهمت في تنمية وعي الأفراد والمجتمعات وأطاعت الناس على عوالم لم يكن من الممكن الاطلاع عليها لو لا هذا الإعلام الجديد وهذه الثورة التكنولوجية المعاصرة.

يمكن القول إن الإعلام الجديد ، أو البديل ولد من رحم الثورة التقنية التي حدثت في عالم الاتصال ، جراء الاندماج الحاصل بين تقنية الحاسوب من ناحية ؛ والأقمار الاصطناعية من ناحية أخرى ، مما أدى إلى إتاحة قنوات اتصالية غير تقليدية ، وتوفير فرص اتصالية متنوعة ، وبدائل تواصلية غير مسبوقة ، ومن ثم فتحن اليوم نعيش عصرًا اتصالياً جديداً ، يمكن **Empowering** الفرد من ممارسة الاتصال بوسائله وأشكاله المختلفة.

مميزات الإعلام الجديد :

من الواضح أن استخدام تكنولوجيا الاتصال الجديدة سيقود لتحولات اجتماعية عميقه في المجتمع ، مع ما يعنيه ذلك من كسر احتكار الفئة المتحكمة بالمعلومات مقابل أن تصبح المعرفة شائعة يملكتها أكبر عدد من أفراد المجتمع. ويتميز عصرنا الحالي على عصور الاتصال السابقة بتطوير تقانة اتصال متفردة : فهي رقمية [Digital] ، وتبادلية [Interactive] ومرتبطة ببعضها كربط الكاميرا بالقمر الصناعي بالحاسوب ، مما يمكن من عقد مؤتمر عن بعد [Video-conferencing]. ومن هنا فإن تأثيرها على المجتمعات العربية سيكون أقوى.^(١٥)

^(١٥) عصام الموسى ، العرب وثورة الاتصال المعاصرة ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٦٩.

تبارى علماء الاتصال في تحديد مميزات خاصة للإعلام الجديد من هؤلاء فين كروسبى Vin Crosbie الذي يرى أن الإعلام الجديد يتميز بالآتي :^(١٦)

- ♦ الرسائل الفردية يمكن أن تصل في وقت واحد إلى عدد غير محدود من البشر.
- ♦ كل واحد من هؤلاء البشر لديه نفس درجة السيطرة ونفس درجة الإسهام المتبادل في هذه الرسالة.

يضع البعض للإعلام الجديد مجموعة من الميزات التي يرى أنه يتمتع بها في مقابل الإعلام القديم مثل درجة الآنية **Immediacy** وهي حالة تفید في مجال الشفافية المطلوبة للإعلام ، ونلاحظها في النقل المباشر للواقع من موقع الحدث لحظة وقوع الحدث ، وكذلك من الميزات التشعيبة **Hypermediacy** في وسائل الإعلام الجديد.

من الغريب أن معظم التنظير حول الإعلام الجديد نشأ في المراحل الأولى في مجال لا ينتمي إلى الوسط الإعلامي ، ومعظم من بادر بوضع أسسه الفكرية والتكنولوجية هم متخصصون في مجالات بعيدة كل البعد عن الإعلام منذ أن نشر فانفر بوش Vannevar Bush مقالته الشهيرة في عام ١٩٤٥ م بعنوان ”**كما يجب أن نفكر**“ التي جسد فيها أفكاره الأولى حول علاقة عقولنا بالآلية الهندسية ، وهي الأفكار التي مهدت لظهور شبكة الويب فيما بعد ، مروراً بالدور الذي لعبته رؤى جي سي أر ليكليلدر C. R. Licklider التي أطلق عليها **Man-Computer Symbiosis** في عام ١٩٦٠ التي قادت إلى تطوير أساس فكرة التفاعلية بين الإنسان والكمبيوتر ، وهو التفاعل الذي أنتج حالة الإعلام الجديد التي نعيشها الآن.

يرى البعض أن تكنولوجيا الإعلام الجديد تتميز بثلاث مميزات هي : التفاعلية وهي الميزة التي تعطي للمشاركين دوراً مؤثراً في عملية الاتصال ، بحيث يتداول المستقبل دوره مع المرسل ويستطيع المشاركة الإيجابية في الاتصال ، والسمة الثانية هي تفتيت الجماهير أو اللاجماهيرية حيث يمكن للمشارك أو الفرد الحصول على رسالة خاصة غير جاهيرية أو ميزة عبر الوسيلة الاتصالية ، مثلما يحدث في عملية الاتصال الشخصي ، أما السمة الثالثة والأخيرة

^(١٦) Crosbie , Vin, (1998). What is New Media?
www.digitaldeliverance.comphilosophydefinitiondefinition.Html
Accessed July. 2006.

فهي الالاتزامية بمعنى أن عملية الاتصال تتم في وقت مناسب للفرد مثل رسالة الفاكس أو البريد الإلكتروني حيث لا تتطلب من الفرد أن يتظرها بل تأتي إليه في أي وقت ويطلع عليها عندما يصل إلى مقره.

تُعد التفاعلية **Interactivity** هي أبرز ميزات الإعلام الجديد لقدرتها على تحقيق التفاعل مع الجمهور وتوفير رجع صدى فوري مباشر وأداة للتفاعل الفعلي بين المرسل والمتلقي وبين المستخدم والمضمون ، وهي تمثل التفاعل القائم على أساس تبادل الرسائل أو التغذية العكسية ، وهي عنصر أساسى من عناصر الاتصال المؤثر **Effective Feedback** والتفاعلية يراد بها ، من جهة التفاعل بين المصدر أو المرسل وبين المستقبل ، ومن جهة أخرى ، التفاعل بين المستخدمين أو الجمهور نفسه ، سواء تم ذلك بواسطة المصدر ومشاركته أو بدونه.^(١٧)

التفاعلية في الجغرافيا الجديدة للإعلام والاتصال لا تتحقق بين مرسل ومتلقي كما وصفها فينير في الخمسينيات من القرن الماضي ضمن دراسات رجع الصدى في بعده الفيزيائي والهندسي ، أو كما أوضحتها روبار أسكريبيت في نقه للنماذج الخطية للاتصال ، فالتفاعلية اليوم تمثل في الدور الذي تحول المتلقي بمقتضاه إلى فاعل في " وضع الأجندة" وإنماج المحتوى.^(١٨)

هناك عدة عوامل مؤثرة في عملية التفاعل مع وسائل الإعلام الجديد منها:^(١٩)

البعد الديني والوطني وهو يلعب دوراً مهمأً في تلقي المعلومة سواء للاستهلاك أو التفاعل ، فالبعد الإسلامي مثلاً يلعب دوراً مهمأً في التفاعل والاستهلاك حيث نلحظ الاهتمام بقضايا القدس وفلسطين وقضايا المسلمين في مناطق الأقليات في أوروبا وأسيا

Jassem Mohamed Al-Shaykh Jaber ، الصحفة الإلكترونية العربية ، المعايير الفنية والمهنية " دراسة تحليلية لعينة من الصحف الإلكترونية العربية " في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص: ٣٩٧ .^(١٧)

عبد الله الزين الحيدري ، الإعلام الجديد النظام والقوضي ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص: ١٣١ .^(١٨)

ساعد ساعد ، الشباب العربي والمصامن الإعلامية الإخبارية بين الاستهلاك والتفاعل ، ورقة قدمت في مؤتمر الشباب والاتصال والميديا بتونس ، ٣١-١٦ إبريل ٢٠١٠ م .^(١٩)

وغيرها ، وكذا المنافسات الرياضية حين يكون المشارك مسلماً أو عربياً ، وهناك بُعد الوسيلة والفاعل حيث أن وسائل الإعلام المكتوبة من خلال موقعها الإلكترونية فتحت فضاءات كبيرة للتواصل مع الغير ، بجانب بُعد الآنية والحداثة في التواصل والتفاعل والاستهلاك الإعلامي ، فكلما كان الصحفي حديثاً في معلوماته كان التواصل معه أكبر.

القدرة على التفاعل لا تقتصر على الإنترنت ، بل سعت الفضائيات لتحقيق ذلك عبر حضور الواقع الإلكتروني المصاحب لهذه الفضائيات ، حيث نجد أن لكل قناة موقعاً إلكترونياً يحقق لها نمطاً من التواصل التفاعلي مع الجمهور ، كإبداء الآراء وتبادل الأفكار وتقديم الاقتراحات بخصوص المضامين الإعلامية التي يقع بثها ، والانخراط في سبر الآراء والمسابقات. كما نلاحظ وجود حزمة من الخدمات التفاعلية في مستوى ما يعرف بالטלוויזיהون الرقمي الأرضي ، وتمثل هذه الخدمات في إمكانية القيام بالحجوزات المختلفة ، والحصول على أخبار البورصة والطقس والأخبار المتعلقة بأنشطة المؤسسات الخدمية والترفيهية. وهناك أيضاً التلفزيون التفاعلي الذي حقق حداً بارزاً من التفاعلية النشطة بين الباث والمتلقي إذ أتاح للمتلقي إمكانية تحديد البرنامج الذي يرغب في متابعته ، وإمكانية التحاور مع المنشط أو المشرف على الإنتاج ، وكذلك إمكانية القيام بعمليات تجارية مثل البيع والشراء ، وإمكانية التصويت وإبداء الرأي.^(٢٠)

الصحافة الإلكترونية كمظهر من مظاهر الإعلام الجديد لها تميزها عن الصحافة التقليدية ، ويظهر ذلك من خلال عاملين رئисين :^(٢١)

الأول : الجمهور الذي يفضل الإنترنت على سواه من الوسائل الإعلامية الأخرى ، يتوقع من هذه الوسيلة أن تزودهم بالسرعة في ملاحقة الأخبار والمعلومات ، بالإضافة إلى العمق و التناسل [Breadth] ، وبذلك تكون الترابطية النصية قد جمعت ما بين السرعة والعمق والترابط ، وهذه ميزة تفضيلية.

الثاني : وهو أن الترابطية النصية ، تمثل شكلاً من أشكال التفاعلية ، وعلى الرغم من أن البعض يعتبرها الشكل الابتدائي والمتدني من أشكال التفاعلية ، إلا أنها في النهاية تحقق

^(٢٠) عبد الله الزين الحيدري ، الإعلام الجديد النظام والفوسي ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ .

^(٢١) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

تفاعلاً بين مصدر أو منتج الخبر وبين مستهلكيه ، الذي يصبح مشاركاً فيه ، لأنه ومن خلال إنتقاله إلى معلومات أخرى سواء داخل الصحيفة ذاتها أو في موقع آخر يكون قد أضاف معلومات أخرى إليه.

التطبيقات السلبية والإيجابية للتعرض للإعلام الجديد :

رغم التخوف الذي يبديه بعض الباحثين من تأثير سالب لثورة الاتصال إلا أن هناك من يدافع ويفيد التعاطي الإيجابي معها ، حيث يرون أن آثار ثورة الاتصال تفيد في الانفتاح الذي يؤدي إلى اكتشاف نقاط الضعف والخلل في بنية العلاقات المتبادلة بين الشعوب والأمم والحضارات والثقافات المختلفة ونقد البنية الداخلية للثقافة السائدة وفرز عناصرها المتكلسة غير القادرة على التجديد ، بل إن الإعلام الجديد بآالياته وإمكانياته جعل المعلومات متاحة بسرعة الضوء وتمكنت شعوب العالم من الاطلاع على ما يدور في مناطق النزاع الغارقة في التعطيم مثل غزة الفلسطينية وما فيها من مذابح ودمار وخراب هز ضمير العالم وجعله يخرج في تظاهرات مستمرة كرد فعل لما يتعرض له الشعب الفلسطيني^(٢٢) ، ولكن يظل القول إن الإعلام الجديد والإنترنت على وجه الخصوص لا يستطيع أن يخلق حركة جماهيرية ولكنه يساعد على دفعها وتفعيلها.

أحدثت ثورة الاتصال التي حدثت في العالم الكثير من التائج ، وأفرزت وسائل إعلامية جديدة وكثيرة تتسارع نتائجها وأثارها ، في حين أن العرب والمسلمين تزداد مشكلاتهم الداخلية ومشكلاتهم مع العالم الخارجي ، وأصبحت توجّه لهم الاتهامات بالإرهاب تارة ، وتنعت ثقافتهم بالعنف وعدم قبول الآخر تارة أخرى ، بل يتم اتهامهم باتهامات كثيرة ويتعدى على حقوهم ، ويظل المعتدي حرّاً طليقاً مبرئاً من كل تهمة أو جريمة لقدرته وإمكاناته للاتصال بالعالم الخارجي وتوضيح وجهة نظره وإلصاق التهم بالآخرين.^(٢٣)

فؤاد البكري ، الهوية الثقافية العربية في ظل ثورة الاتصال ، الهوية الثقافية العربية في ظل ثورة الاتصال ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٣٨٢ .^(٢٢)
المراجع السابق ، ص : ٣٧٤ .^(٢٣)

من الواضح أننا نعيش اليوم عصر الإعلام الجديد وهو إعلام بلا حدود سياسية أو قومية أو دينية أو ثقافية ويستطيع العالم بمختلف شعوبه التقاط البرامج والأحداث والأخبار وكل ما يرغب فيه أصحاب الأطواق التي انتشرت فوق الأسطح العربية ومستخدمي شبكة الإنترنت ، وبطبيعة الحال فإن الدول المتقدمة وأباطرة الصحافة وأصحاب المليارات هم المتحكم الرئيس فيما يتم به ونشره أو تعديله أو إعادة صياغته ، بل إن المزج بين الخيال والواقع أصبح متاحاً أكثر من أي وقت مضى وانشر الإعلان العالمي لكي يروج للسلع والأفكار والأذواق ويصبح واقعاً حقيقياً من كثرة ترديده .^(٢٤)

من أبرز ما أفرزته ثورة الإعلام الجديد مشكلات التعدي على خصوصية الفرد ؛ والخصوصية هي : ”صيانت الحياة الشخصية والعائلية للإنسان بعيداً عن الانكشاف أو المفاجأة بغير الرضا“^(٢٥) ؛ ففي ظل العولمة وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات أصبحت المجتمعات الإنسانية الحديثة تعيش بدون حواجز مانعة للخصوصية وأصبح من الصعب جداً إخفاء المعلومات أو التعتمد عليها ، وتم إلغاء قيود الزمان والمكان ، مما كان له أثر ملموس على الحق في الخصوصية .

وظائف ومظاهر الإعلام الجديد :

على المستوى العام يمكن لهذا النوع من الإعلام أن يقوم بعدة وظائف منها : أنه يعد من الطرق الفعالة لنقل السياسات والتصورات ، وكذلك هو فرصة لتحرير الشعوب نحو الغايات الكبرى في التنمية والرفاه ، إلى جانب أنه يسهم في زيادة المشاركة السياسية ، ومعرفة رد الفعل المباشر تجاه الحملات الانتخابية والحملات المشابهة التي تقوم بها الدولة مثل حملات التعداد السكاني وغيرها ، كما أن الإعلام الجديد يساعد في نقل المعلومات بسرعة أكبر ، وتوجيه الحركات المجتمعية .

تشير معظم المؤشرات إلى أن مجال الإعلام الجديد سيكون المجال الأكثر جاذبية خلال السنوات القادمة للداخلين الجدد لحقل الإعلام ، ومع النمو السريع للغاية لاستخدام

^(٢٤) نفس المرجع ، ص : ٣٨٣ .

^(٢٥) عبد المحسن بدوي ، مشكلات الإعلام الجديد ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص : ٩٤ .

الإنترنت ، ستفتح أبواب هذا التخصص أمام الصحفيين في موقع الصحف على الإنترت وموقع وسائل الإعلام الأخرى على الشبكة مثل التلفزيون والراديو ووكالات الأنباء والموقع الإخبارية [Online news sites] وغيرها من الواقع التي تزداد أعدادها يوماً بعد يوم ، مما يعني فرصةً وظيفيةً جديدةً للصحفيين والمحررين الذين يتوقع أن يزيد الطلب على خدماتهم بصورة كبيرة في غضون السنوات القادمة ؛ حتى أولئك الصحفيين الذين لا يملكون خبرةً تكنولوجيةً فإن لديهم الفرصة لدخول عالم الصحافة الإلكترونية ، في الوقت الذي تشهد فيه الفرص الوظيفية في الإعلام التقليدي تراجعاً أو في أحسن الأحوال ثباتاً أو نمواً بطيئاً.

لقد أصبح الإنترت بوصفه أبرز مظهر للإعلام الجديد مصدرًا لاستهلاك المحتوى المعموماتي بشكل لا يضاهيه أي مصدر آخر ، إذ أنه يندر أن نجد موقعاً على الشبكة لا يهتم بتوفير المحتوى لزواره سواءً أكان هذا الموقع شخصياً أو حكومياً أو تجاريًّا ، فمعظم الواقع تستخدم المحتوى كوسيلة لجذب الزوار وإبقاءهم على صفحاتها لأطول فترة ممكنة.^(٢٦)

ظهرت للإعلام الجديد آليات ومظاهر متعددة تدل على مدى توسيع وتعقّد هذا النوع من الإعلام في بنية المجتمع العالمي ، ومن أبرز آليات ومظاهر الإعلام الجديد ما يلي :

الهاتف الجوال : ساهم التبني الواسع للانتشار لاتصالات الهواتف المحمولة حالياً في جعل الهاتف الجوال أكثر من وسيلة اتصال أو امتداد للخطوط الأرضية ، وصار وسيلة لوسائل إعلامية متعددة بشكل جيد ؛ فقد اتضح من بعض الدراسات أن مستخدمي الهاتف لا يريدونه فقط لإجراء اتصالات ، وإنما أيضاً للاستفادة من الوسائل الإعلامية المتعددة الملحقة به. وقد ظهرت هذه الاستفادة بشكل واضح في عام ٢٠٠٦م بظهور الجيل الثالث من الهواتف المحمولة التي تعمل على نقل مواد مرئية بدرجة عالية من النقاء ، وبالتالي يمكن استخدامه يومياً في التسجيل والتحرير والتدوين للأحداث والقصص اليومية.

أصبح للجوال الرقمي كذلك القدرة على استقبال البث التلفزيوني ، بالإضافة إلى أن الجيل الثالث يمكن استخدامه من الاتصال بشكل أسرع مع شبكة الإنترت التي سهلت من

^(٢٦) الموقع العربي الأول للإعلام الجديد : <http://www.ekateb.net> ، بتصرف.

إرسال وإجراء المعاملات البنكية والتسوق وخدمات تنزيل المواد السمعية والبصرية ، مع إمكانية بث المعلومات ، ومن خلال الهاتف المحمول نشأت الخدمات الإخبارية التي تقدم من خلال التطبيقات اللاسلكية [WAP wireless application protocol] ، وهذه التطبيقات اللاسلكية تعد المعبر إلى عالم جديد من البيانات المتحركة مثل خدمات خاصة عن " الطقس ، الرياضة ، الأخبار ، التسوق ، التسلية ، الترفيه ، الخدمات المصرفية ، أخبار البورصة " كل ذلك يتم توفيره من خلال الهواتف المحمولة. ^(٢٧)

أشار مستخدمو المحمول بشكل مكثف إلى أن جمعاً كبيراً من الواقع الإعلامية على شبكة الإنترنت أصبحت شديدة الاهتمام بالهاتف المحمول ، وتبث إليه موادها على مدار الساعة ، على سبيل المثال موقع شبكات التلفزيون العالمية - [CNN- FOX NEWS- ABC- BBC] وبالنسبة للدول العربية نلاحظ أن تلك الظاهرة آخذة في الازدياد رغم أنها ليست منتشرة في كل الدول العربية ، ومن هذه الشبكات التلفزيونية " الجزيرة - العربية - الإخبارية - أبو ظبي - أقرأ " وغيرها ، بل وصل الأمر إلى قنوات الأطفال.

الإنترنت : يعتبر الإنترنت من أبرز المستحدثات التكنولوجية ووسائل الإعلام الجديد في عالم ثورة المعلومات والاتصال ، حتى أصبحت أسلوباً للتعامل اليومي ونمطاً للتواصل المعرفي ، كما أن الانتشار السريع لهذه الشبكة جعلها من أهم معلم العصر الحديث ، لما أحدثته من آثار عميقة وتغيرات جذرية في أساليب وأشكال التواصل والاتصال المباشر وغير المباشر.

أصبح الإنترنت وسيلة اتصال عالمية وتفاعلية وغير مرتبة ، وينمو استعمالها تصاعدياً ، كما أنها تمنح الأفراد فرصة الحصول على معلومات لم يسبق لهم استخدامها ، ويشهه بعض الباحثين الإنترنت بـ"كرة الثلج" التي تلتف وتكبر ، وقد سمح الإنترنت بضمان حصول الفرد على معلومات عبر وسائل عديدة مثل مجموعات الأخبار وشبكة الإنترنت العالمية ، والبريد الإلكتروني ، ونظام إرسال الملفات ، ونظام الدردشة.

صفا محمود عثمان ، إدراك الجمهور والقائم بالاتصال لوسائل الاتصال الحديثة بالتطبيق على الخدمات الإعلامية المقدمة عبر الهاتف المحمول ، ورقة قدمت في المؤتمر الدولي السنوي الرابع عشر للجمعية العربية الأمريكية لأساتذة الاتصال AUSACE ، ٧-١٠ نوفمبر ٢٠٠٩ ..

ساهمت شبكة الإنترت في إيجاد شكل جديد من الإعلام عُرف في الأوساط الصحفية والعلمية بـ ”الإعلام الجديد New Media“ أو الإعلام البديل ، وتعددت تصنيفاته بين موقع إنترنت ، وجموعات بريدية ، هذا بخلاف المدونين أو البلوجرز ، والمنتديات الإلكترونية... إلخ. وقد ساهم هذا الإعلام في الآونة الأخيرة في جذب الأنظار بعد تفجيره لعدد من القضايا أثارت الرأي العام وأرغمت حكومات كثيرة في اتخاذ قرارات ضد رغبتها. ألغت شبكة ”الإنترنت“ المسافات ، واحتارت السدود والحدود ، مازجة بين الصوت والصورة والكلمة في صيغة رقمية ، بعد أن دمجت الحوسبة بالاتصال ، وأزالت الفواصل بين العمل والترفيه ، وفتحت نافذة واسعة للجماهير الغفيرة كي تشارك في ثورة اتصال تغير كل يوم أنماط الحياة والتفكير في مختلف دول العالم بدرجات متفاوتة ، وتتتج مشاهد ومعالم وأحوالاً لا تُصم عنها أذن سمعية ، ولا تغمض عنها عين بصيرة.^(٢٨)

تعمل وسائل الإعلام الجديدة خاصة الإنترت على نشر الوعي العام لدى المواطنين ، ونشر الثقافة وتوعية الجمهور وزيادة اهتمامه بالشئون الاجتماعية والسياسية بما يزيد من المشاركة النشطة للأفراد وهي خطوة أولى للتنمية السياسية ، وقد وضعت شبكة الإنترت أمام مستخدميها عدداً ضخماً ينامي يومياً من مصادر الأخبار والمعلومات المتحررة من قيود الزمان والمكان ، ويفوكد Harrigan John أن شبكة الإنترت أصبحت أكثر وسيلة إعلامية لإثارة الجدل والنقاش الديمقراطي حيث أضافت أبعاداً أخرى للاتصال مقارنة بالوسائل الإعلامية الأخرى ، منها : الطبيعة التفاعلية ، وصعوبة السيطرة والرقابة على الواقع الإلكتروني ، واتساع نطاق القاعدة الاجتماعية المستخدمة لها ، وعدم تقييدها بالحدود الجغرافية والسياسية ، كما تحول الجمهور المتلقى فيها من مجرد مستخدم ومستهلك مجهم للرسالة الإعلامية إلى مشارك فاعل في تشكيل تلك الرسالة ، ويرى Best & Kruegar أن الإنترت تعد مظهراً جديداً للطبع الاجتماعي السياسي ووسيلة لجذب المواطنين من الشباب إلى الاقتراب بصورة أوثق من العملية التنموية والسياسية في بلادهم ، كما ظهرت توقعات مرتفعة تتعلق بإمكانية الإنترت في إحداث التعبئة السياسية وإشراك جماعات جديدة

^(٢٨) صحيفة الاتحاد الإماراتية ، العدد ١٢٧١٧ ، بتاريخ : ٣٠ إبريل ٢٠١٠ م ، د. عمار علي حسن ، مقال الإعلام الجديد... ثورة ناعمة.

مستبعدة عن ممارسة السياسة ، كما أصبحت الشبكة مصدرًا مهمًا للمشاركة السياسية من قبل صغار السن الذين لا تجذبهم السياسة عادة كما استطاعت جذب أناس جدد كانوا أقل تشتلاً في أشكال المشاركة التقليدية.^(٢٩)

قد ركز بعض الباحثين على دراسة الأبعاد التفاعلية للإنترنت ، واستكشاف الاختلافات بينه وبين وسائل الإعلام التقليدية واختبار قدراته ك وسيط اتصالي يخلق شبكة اجتماعية ثقافية تشع احتياجات الناس المعرفية والاتصالية ، وقد أظهرت دراسات حديثة أن الإنترت يصلح ك وسيط وأداة فعالة لاتصال الشخصي ، بل ويستخدم كأداة مهمة في المشاركة والتفاعل اللحظي في كثير من المواقف ومناقشة مواضيع ليس من المريح التحدث فيها وجهاً لوجه ، فقد وجد بعض الباحثين أن الوسائل التفاعلية تملك الكثير من السمات التي لا تجدها لدى الوسائل الإلكترونية غير التفاعلية ، حيث أن المستخدمين يتصلون ويفصحون عما لا يستطيعون الإفصاح عنه في الاتصال الشخصي أو التلفوني ، ووجدت إحدى الدراسات التي تعرضت لاستخدام الإنترت وإشباعاته ، أبعاداً جديدة للإشباعات من الإنترت تضمنت حل المشكلات وإقناع الآخرين وتأكيد العلاقات ، والبحث عن المكانة. دراسة أخرى وجدت أن وظائف الاتصال تتحقق في أكثر الأساليب الاتصالية المستخدمة في الإنترت مثل البريد الإلكتروني والمحادثة Chat.

يلاحظ على فئات جمهور مستخدمي الإنترت أنهم أكثر نشاطاً ومشاركة في العملية الاتصالية بتأثير التفاعلية التي يتميز بها الاتصال الرقمي ، وبالتالي فإننا نتوقع أن يتخذ الفرد قراره في استخدام الإنترت عن وعي كامل بحاجاته التي يريد إشباعها ومدى إشباع تلك الحاجات من استخدام الإنترت مقارنة بوسائل الاتصال الأخرى ، ويتمثل هذا الاستخدام في اتجاهين :

(١) الاتصال بالآخرين من خلال الوسائل المتاحة على شبكة الإنترت ، سواء كان المستخدم مرسلًا أو مستقبلاً.

عيسى عبد الباقي موسى ، انعكاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد على تنمية وعي الشباب الجامعي بالقضايا السياسية ، ورقة قدمت في : مؤتمر تقنيات الاتصال والتغير الاجتماعي ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، من ١٨ إلى ٢٠ / ٣ / ٢٠٠٩ م ، ص : ٣ .^(٢٩)

- (٢) تصفح الواقع المختلفة على شبكة الإنترن特 لتلبية الحاجات.
- أجريت العديد من الدراسات على الإنترن特 ، خلصت إلى جملة من الدوافع لاستخدامه هي :^(٣٠)
- (١) بدليل عن الاتصال الشخصي.
 - (٢) للتفاعل الشخصي.
 - (٣) الإدراك الذاتي عن الجماعات المختلفة من الناس.
 - (٤) تعلم السلوكيات المناسبة.
 - (٥) بدليل إتصالي أقل تكلفة عن الوسائل الأخرى.
 - (٦) الاستمارات العقلانية.
 - (٧) المساندة المتبادلة مع الآخرين.
 - (٨) التعلم الذاتي.
 - (٩) التسلية.
 - (١٠) الأمان والصحبة.

المدونات : ظهرت المدونات في بادئ أمرها ، في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٤ م ، وكانت حينها على نطاق ضيق ، على شكل صفحات شخصية مفتوحة ، تحوي معلومات شخصية وأخرى عامة متنوعة ، بعض ما يكتب على تقارير حول أمور مختلفة ، وبهيئة تشبه إلى حد ما الصحف الإلكترونية المتعارف عليها اليوم ، مع تطور في أدوات الإدراجه وطريقة العرض. وساهم هذا التطور في زيادة عدد المدونين ، وسعة انتشار التدوين.

والمدونات في الأصل هي صفحات خاصة على شبكة الإنترنط توفرها موقع مجانية كموقع [Blogger] ، ويتوزع هؤلاء المدونون على عدّة موقع كبيرة منها "جورдан بلوج" و"بلوغرز" و"غوغل" و"جiran" و"البوابة" و"مكتوب" ، بالإضافة للصفحات

^(٣٠) Bleise, N. (1982), "Media in Rocking Chair : Media Uses and Functions Among the Elderly", in Gumpert, p. and Cathcart R. (eds) inter /Media : Interpersonal Communication in a Media world (2 nd ed, (New York : Oxford University, pp. 624 – 634.

الشخصية لبعض المدونين المعروفين من أدباء وشعراء وفنانين ومسرحيين وغيرهم. وتستمد المدونة سماتها العامة من شخصية صاحبها والأهداف التي ضبطها من التدوين.^(٣١) ويرى آخرون أن أشكال التدوين الأولى ظهرت في فرنسا مع مطلع ١٩٨٩ م في حدود شبكة اتصالية داخلية عرفت باسم : المينيتال [Minitel] ، وهي تقنية اتصالية موصولة بالمعلوماتية تتيح لمستخدميها المحليين خدمات بريدية واقتصادية وثقافية محلية ، محدودة إذا ما تم قياسها بالخدمات التي توفرها الإنترنت اليوم. ولكن التدوين على نطاق أوسع ، وعلى نحو يتم فيه تحميل النصوص والصور وصور الفيديو ، ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية أواخر التسعينيات من القرن الماضي ، وتطور مجاله باتساع دائرة استخدام شبكة الإنترنت ونمو الشركات الناشرة للمدونات الإلكترونية مثل بلوغر [Blogger] ، وسكايلوغ [Sky Blogger] وأوفربلوغ [Overblog] وسيكس أبارت [Sixapart] التي أتاحت توفير قوالب جاهزة لاحضان المدونات ، قوالب ذات تصاميم متنوعة ، مرنة الاستخدام مرفقة بجزمة من الأدوات تساعد المستخدم على التحكم فيما يشاء في شكل مدونته ومضمونها ، وتمكن ، في المقابل ، المتصفحين للمدونة من التفاعل الفوري مع المضامين.^(٣٢)

هناك أنواع متعددة للمدونات ، ويمكن أن تصنف على النحو الآتي :
(١) مدونات سياسية اجتماعية : تقوم بوظيفة النقد والتعليق في الشأن السياسي والاجتماعي.

(٢) مدونات علمية متخصصة : وهي التي تعرض مقالات علمية ونصوصاً أدبية وترجمات وغيرها كالمدونات التي تهتم بقضايا الإعلام العربي والدولي والصورة في زمن العولمة وغيرها.

^(٣١) Benoit Desavoye et Alii; Les Blogs :Nouveaux media pour tous ;M2 éditions;Paris, 2001;Francis Pisani,Internet saisi par la folie des weblogs; Le Monde Diplomatique; aout 2003,pp8-9.

عبد الله الزين الحيدري ، الإعلام الجديد النظام والفوبي ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص : ١٣٨ .

آمال قرامي ، قراءة في محتوى بعض المدونات العربية ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص : ٢٢٣-٢٢٦ .

^(٣٢)^(٣٣)

- (٣) **مدونات حقوقية** : وهى التى تنشر ثقافة حقوق الإنسان ، وتدافع عن قضايا تخصّ حرمان الفرد من حقوقه الأساسية كالكرامة ، وحق الحياة ، وحق العمل ، وحق التعليم ، والحرّيات.
- (٤) **مدونات دينية ودعوية** : وهي مندرجة في إطار نشر المعرفة الدينية والتوعية ، وعلى المستوى الإسلامي تدخل فيها جهود أسلمة المجتمع ، وتتضمن أحياناً نصوصاً تراثية للصحابة والتابعين والأئمة الأربع وغيرهم ، وأقوالاً مأثورة ، وكتباً ودروسًا ووصايا للعلماء والدعاة ، ولا غرابة أن يرتفع عدد هذه المدونات في السنوات الأخيرة ، ذلك أنّ العلماء ينصحون كل من كانت له موهبة الكتابة أن يستغلّها في العمل الدعوي ، وأن يمارس عبر فعل الكتابة واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح.
- (٥) **مدونات نسائية** : غايتها بثّ الوعي بقضايا النساء والدفاع عن قضاياهن وبث مشكلاتهن.
- (٦) **مدونات عامة** : تتضمن مقالات حول الشعر والخواطر والسير اليومية وغيرها ، وهي أقرب إلى الحكى والسرد الشفاهي.
- مما تعددت أنواع المدونات فإنّها تلتقي جميعها في أنها تمثل في نظر أصحابها الملجأ وفضاء الارتياح النفسي ، ووسيلة تعبير عن الآراء والموافق ، والإختيارات وغيرها ، كما أنها أفضل طريقة للكشف عن نسيج العلاقات الاجتماعية وخصائص البنية الاجتماعية باعتبار أنها تجعل الأزمات مرئية وتساهم في إسقاط الأقنعة. وغير خاف أنّ التدوين ، ليس إلا انعكاساً لواقع المدونين أنفسهم ، واقعهم اليومي ، السياسي ، الاجتماعي ، الثقافي ولاسيما النفسي.
- مشهد التدوين غداً فضاءً للتعبير والتفاعل المتزايد وسط جغرافيا اجتماعية متعددة الواقع والثقافات ، ومجالاً نشطاً لتحقيق الأرباح وبسط النفوذ ، يلتقي في حدوده العالم والمفكر والباحث والخبير والسياسي وطالب العلم... وعامة الناس بمختلف مراتبهم التعليمية والتکوينية. وأبرز المستخلصات في هذا المضمار أنّ التدوين ، كسائر الأنشطة الرقمية الأخرى الجارية على شبكة الإنترنـت ، هو أيضاً فضاء المفارقات المثيرة ، يمتزج فيه الكذب بالصحة ، والافتراء بالصدق ، والتحريف بالصواب ، والغش بالنصيحة.

خلصت دراسة لتحليل مضمون عينة من المدونات الإعلامية لسوزان روبنسن إلى أنه رغم اعتبار المدونات كأدوات يستعملها الإعلاميون للتعبير عن أفكارهم إلكترونياً ، والتصدي للتحديات التي تشكلها المدونات ”المستقلة“ ، إلا أن بعض هؤلاء الإعلاميين يتخلّى عن المعايير المهنية التي تحكم عمله ، مثل التأكيد من المعلومات ، ويفيّل إلى الأخذ بالشائعات وتغليب الأسلوب الذاتي في الكتابة.^(٣٤)

لئن تعددت البحوث والدراسات الخاصة بتحليل انعكاسات الإنترن特 أو الفضائيات على المجتمعات المعاصرة وغيرها من المسائل الناجمة عن ثورة المعلومات فإنّ موضوع المدونات ظلّ موضوعاً بكرأً في المنطقة العربية ، ولم ينل بعد حظه من الدرس ، رغم أنه أصبح ظاهرة لافتة للنظر تستدعي من الباحثين استقراء المدونات والتعميّص في شكلها ومحفوّتها ، لبيان خصوصياتها وكيفية التعامل معها وتحديد مختلف الوظائف التي تنبع منها في المجالات الاتصالية والاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية.^(٣٥)

صحافة المواطن :

صحافة المواطن هي : ”نشاط للمواطنين يلعبون خلاله دوراً حياً في عملية جمع وتحرير وتحليل الأخبار ، وهذه المشاركة تتم بنية مد الوسائل الإعلامية بمعلومات دقيقة وموثوقة بها ومستقلة تستجيب لمتطلبات المشاركة في الهم العام“^(٣٦) ، وصحافة المواطن وفق التعريف السابق صارت من مهامات الإعلام في العصر الحاضر ؛ فقد بات المواطن الصحفى مكملاً للمشهد الإعلامي في كثير من المناطق ، سيما مناطق النزاعات والتعتيم الإعلامي ، وهى

^(٣٤) Robinson, S. (2006, February). The Mission of the j-blog : Reca-turing journalistic authority online. Journalism, 7(1), 65-83. Retrieved November 26, 2008, from <http://web.ebscohost.com/ehost/> detail?vid=6&hid=13&sid=f2d43e44-e84b-4ba7-8605-29986b9819a940%2fsessionmgr2&bdata=JnNpdGU9ZWhvc3QtbG12ZQ%3d%3d#db=ufh&AN=20301375.

^(٣٥) آمال فرامي ، قراءة في محتوى بعض المدونات العربية ، مرجع سابق ، ص : ٢٢٠ .
^(٣٦) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد من فانفر بوش إلى نيكولاوس نيغروبونتي ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م ، ص : ٣٤ .

صحافة لم نعهد لها من قبل ، مما جعل البعض يقول إنه خلال سنوات قليلة سيصبح نصف الإنتاج الصحفي من عمل المواطنين.

يمكن تقسيم صحافة المواطن إلى عدة تقسيمات :

(١) أدوات مشاركة الجمهور : وتمثل أطر مشاركة الجمهور Audience في تعليقات القراء المرتبطة بالأخبار ، والمدونات الشخصية ، والصور أو لقطات الفيديو المصورة بالكاميرات الشخصية.

(٢) موقع الأخبار المستقلة : وهي تمثل في موقع الإنترت الإخبارية المستقلة مثل Consumer Reports.

(٣) موقع الأخبار التشاركية التامة : Full-fledged Participatory News Sites ونموذج لها الموقع الكوري الجنوبي أوه ماي نيوز.

(٤) موقع المساهمة العامة : laborative and Contributory Sites lCo مثل موقع Slashdot.

(٥) موقع البث الشخصية : Personal Broadcasting Sites مثل KenRadio^(٣٧).

هذا النوع الجديد من الصحافة وهو صحافة المواطن يتميز بالتفاعلية والتواصل الفوري بوسائل وطرق متنوعة تكسر حواجز الصمت في سرعة نقل الحس الشعبي تجاه الأحداث والمواضف والشخصيات وهدم اللغة الرسمية والفوقيه وحرية طرح المواقف الحساسة والخطيرة ، الأمر الذي يستدعي توافر قسط من الرسائل والدراسات العلمية حول هذا الموضوع بالذات.^(٣٨)

٣٧) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد من فانفر بوش إلى نيكولاس نيغروبونتي ، مرجع سابق ، ص : ٣٤ .

٣٨) تلخيص لرسالة دكتوراة حول الصحافة الإلكترونية العربية : الالتزام والانفلات في الخطاب والعرض ، موجودة على الرابط :

<http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=contact>

سمات الإعلام الجديد :

ما جرى في الإعلام خلال السنوات الأخيرة هو ثورة بكل المقاييس ، يمكن أن نصفها بأنها ”ثورة إعلامية“ أو اتصالية ، تضاف إلى الثورات الناعمة التي يشهدها العالم ، التي تغيرنا من دون إراقة نقطة دم واحدة ، لاسيما بعد أن صارت الثورات السياسية نفسها تنساب في سلاسة وسلامة عبر التطور الديمقراطي ، كما يقول جون فوران وزملاؤه في كتابهم ”مستقبل الثورات“ ، والثورة الاتصالية تلك تكسر النهاذج الإرشادية التقليدية ، متسلقة في هذا مع الطفرات المعرفية التي شهدتها العالم في العقود الأخيرة ، ومن ثم لا يمكن فهمها أو الإحاطة بها اعتماداً على طرق التفسير التقليدية لأداء الإعلام ، ونظرياته البسيطة المعهودة ، بل تحتاج إلى مقاربات ومداخل مبتكرة وجديدة تو kabk التطور الريء الذي يشهده عالم الاتصال.

لهذه الثورة الاتصالية سمات عده ، سنبسطها في هذا المقام ، كنوع من العصف الذهني ، أو مجرد طرح أولي ينتظر التعديل بالحذف أو الإضافة ، وأولى هذه السمات هي ^(٣٩) :

(١) توسيع المشاركة الشعبية في صناعة الإعلام ، بما جعلنا نشهد ما يمكن أن يسمى بـ ”الموطن الصحفي“ ، كما ذكرنا سابقاً ، إذ يوسع أي شخص أن يكتب ما يشاء وبيشه على الإنترنت في موقع خاص أو مدونة أو حتى في تعقيب على مقالات الكتاب ، وأخبار وتقارير وتحليلات وتحقيقات الصحفيين ، وهذا الاتساع الإعلامي حق كل ما حلم به من كتبوا منذ عقود عن ”مسرح المقهورين“ متخلين ومطالبين بأن يشارك المترجون في صناعة النص المسرحي وتمثيله.

(٢) تعزيز الفردية ، التي تتغول دوماً بفعل التقدم التقني وتغير بعض أنماط وطرائق المعيشة ، فمثلاً أدى اختراع الطباعة وتقديمها إلى إنهاء التجمعات البشرية التي كانت تتحلق حول شخص يقرأ لهم مخطوطاً ، وبات يوسع كل شخص أن يقرأ كتابه مختلياً بنفسه ، كما أدى اختراع ”الساندويتش“ إلى انصراف أفراد الأسرة عن التجمع لتناول الوجبات اليومية المعتادة. وعلى المنوال نفسه فإن الإنترنت سترزيد من عزلة الفرد عن

^(٣٩) صحيفة الاتحاد الإماراتية ، العدد ١٢٧١٧ ، بتاريخ ٣٠ إبريل ٢٠١٠ م ، د. عمار على حسن ، مقال الإعلام الجديد... ثورة ناعمة.

المحيطين به مباشرةً من أفراد الأسرة والأصدقاء والرفاق ، وتعيد دمجه في ”مجتمع افتراضي“ ، ليصبح له أصدقاء من شتى أرجاء المعمورة قد لا يرى وجوههم أبداً ، لكنه يتواصل معهم ويقضي بصحبتهم ساعات طويلة عبر ”البريد الإلكتروني“ أو ”الماسنجر“ أو ”الشات“ أو ”الفيسبوك“ أو ”اليوتيوب“ . ومثل هذا الوضع قد يعيد في المستقبل تشكيل الهويات والاتياءات.

(٣) إعطاء دفعة قوية لاقتصادات المعرفة ، فإذا كان النفط قد لعب دوراً حيوياً في الثورة الصناعية ، فإن عالم الرقمنيات ستكون له اليد الطولى في الطفرات الاقتصادية الحديثة ، التي تسعى جاهدة إلى الاعتماد على بدائل جديدة للطاقة ، وإلى إنتاج سلع جديدة ، لم يعرفها العالم من قبل .

(٤) تحدي السلطة ، عبر منازعتها في امتلاك وسائل الإعلام ، والرد عليها حين تستخدم هذه الوسائل في التعبئة والتحشيد وتبرير السياسات القائمة ، وتزييف الوعي في شقه المناهض للاستبداد والفساد . وهنا يكسر الإعلام الجديد تسلطية وأحادية ورسمية وقدسية أهداف الإعلام القديم ، ويضغط على السلطة من أجل تحسين الأوضاع القائمة ، وتغييرها بما يؤدي إلى مزيد من الحرية والكفاية . وقد بلغ الإعلام في هذا حداً عالياً ، إلى درجة أنه بات يمثل الرقيب الحقيقي على أداء الحكومات.

يلاحظ أن الإعلام الجديد تتواضع قدرة السلطة على تبعه وحصاره وتقويه وإسكات صوته ، مما سيؤدي حتماً إلى تعزيز الحرفيات الثلاث حول التفكير والتغيير والتدبر ، إذ إنه يساعد الناس على الاطلاع على ما يجري في مختلف أرجاء المعمورة من عادات وطرق تفكير وتصرف ، ويفتح أمامهم باباً واسعاً ليعبّروا عن آرائهم ، ثم يمنحهم وسيلة مهمة تعينهم على التواصل والتعبئة ضد أو مع ما يرون صحيحاً ، لكن الإنترنوت تظل هنا مجرد وسيلة وليس غاية ، فالدعوة إلى التظاهر والتغيير من خلال البريد الإلكتروني أو ”الفيسبوك“ ، إن لم تبعها استجابة في الواقع فإنها تفقد معناها.

(٥) الإفراط في استخدام الإعلام كركيزة أساسية في السجال العقائدي الذي يدور في العالم أجمع ، لاسيما بعد أن صار الدين يشكل عاملًا بارزاً من عوامل الصراع الدولي الراهن ، بفعل إذكاء الولايات المتحدة لمسار ”الإسلاموفobia“ في سياق بحثها عن

عدو عقب انهيار الاتحاد السوفيتي ، من جهة ، وطرحها فكرة ”الفوضى الخلاقة“ التي تقوم على إشعال النعرات الطائفية والمذهبية والعرقية ، من جهة ثانية. رغم هذه السمات فإن هناك جملة من التحديات تواجه الإعلام الجديد منها : المفهوم التقليدي للأمن القومي والمخاوف التي تتزايد بشأن تناول عدد من القضايا بصورة يعبرها البعض إنطلاقاً من حق الدولة ، بالإضافة إلى ما يسمى ”فobia الغرب“ التي تبرز في التعامل بحساسية مع كل ما يصدره الغرب وخاصة أننا دائمًا ما نلتقي فقط ولا نطور ، والتحدي الثالث هو كيفية وضع إطار شرعي أو أخلاقي يتم التعامل مع وسائل الإعلام الجديد على أساسه .^(٤٠)

أهمية البعد التقييمي في مناخ الإعلام الجديد :

كانت لجنة شون ماكرايد التي وضعت تقريرها الصادر عن اليونسكو عام ١٩٨٠ ، قد حددت ثقاني وظائف للاتصال الجماهيري ، هي : الإعلام ، التنشئة الاجتماعية ، الحفز ، المناقشة وال الحوار ، التعليم ، التثقيف ، الترفيه ، التقارب الاجتماعي).^(٤١) ولكن لاحظ بعض علماء الإعلام العربي تقل فيه الوظائف المهمة للإعلام ويركز على البرامج الترفيهية بنسبة عالية جداً ثم البرامج الإخبارية والتربوية والدينية بنسبة أقل بكثير من الأولى.^(٤٢)

مع الإعلام الجديد ، صار المواطن العادي على استعداد لقبول وجهة نظر الطرف الآخر ، سواء في فضائية عربية أو غير عربية ، ومناقشتها وربما تحديها ، وهذا يمثل بالتأكيد اتجاهًا جديداً في تفكير الإنسان العربي ، سببه بالدرجة الأولى قيام وسائل الاتصال الجماهيري العربية الجديدة بتقديم وظائف لم يكن الإعلام القديم يوليها العناية الالزمة على المستوى القومي ، من مثل الحوار والمناقشة والتثقيف ، والتقارب الاجتماعي القومي.

٤٠ تقرير عن ورشة عمل : تأثير الإعلام الجديد على الممارسة الديمقراطية في الشرق الأوسط ، موجود على الرابط : <http://www.tgmacs.com/pp/read/1899> .

٤١ MacBride, Sean, et al. Many Voices : One World. Paris : UNESCO, 1980, p.14.

٤٢ مصطفى المصمودي ، النظام الإعلامي الجديد (الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٥) ، ص : ٢٩٣ .

أسقطت وسائل الإعلام الجديدة الحاجز بين الشعوب واستعادت البشرية اتصالها المأثور ببعضها وانهارت حاجز الاقتباس والاقتداء والانتقاء والانبهار وانطلقت ثورة المعلومات تؤثر في من يرغب ومن هو مستعد دون معوقات أو تعقيدات ليصبح هناك حوارات وتفاعلات لا تنتهي ولتصبح الثقافة الإنسانية بوقتة تصرخ كافة الثقافات في تفاعل حضاري مستمر ، وشهدت المجتمعات العربية تغيرات هامة خلال فترة زمنية قصيرة على كافة المستويات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما كان له الكثير من الآثار على البنيان المجتمعي والبناء القيمي ، كما كان له الكثير من الآثار والتحولات الثقافية في الحياة وفي أشكال السلوك .

لكن الخطورة تظل ماثلة بنوعية البرامج وبالمضامين التي تحملها والقيم التي تبشر بها ، وباب الخطورة الرئيس يأتي باعتبار ان وسائل الاتصال الإلكترونية تعزز السطحية والميل للبرامج الخفيفة والتسللية وترسخ التقاليد الشفاهية ، القائمة على القيل والقال والرواية الشفوية ، وليس القراءة المتأنية العميقه والتحليلية ، مع تدهور في اللغة ، حيث يستخدم الكثيرون اللغة المحكية وهي خليط من الفصحي والدارجة واللغات الأجنبية أحياناً . وعليه فان التأكيد على أهمية تطوير صناعة إعلامية ذات مستوى لائق ترقى بالثقافة الجماهيرية العربية وتواجه تحديات الغزو الثقافي والاستعمار الإلكتروني تكون خطوة مهمة ، لكنها بحاجة لجهود اخرى تدعمها .

تشير بعض الدراسات الحديثة في المنطقة العربية إلى تنامي ظاهرة ابتزاز الفتيات للشبان والعكس باستخدام التقنيات الحديثة ، سواء كانت من خلال الجوال أو عن طريق شبكة الإنترنت ، بالاستفادة من سهولة تكوين الصداقات الإلكترونية بين الجنسين .

في دراسة مصرية حول التعرض للإنترنت لدى شباب الريف جاءت الواقع الترفيهية في الترتيب الأول من حيث تفضيل أفراد العينة لها ، بينما جاءت الواقع الثقافية والسياسية في الترتيب الرابع والخامس ، وهذا يعني أن أكثرية الشباب تتردد على موقع الإنترنت لأغراض غير مفيدة ، والخطورة هنا أن هؤلاء الشباب تقل أعمارهم عن ثلاثين عاماً الأمر الذي يؤدي إلى الإدمان السلبي للإنترنت **Negative Addiction** ، حيث يرتبط هذا النوع من الإدمان ، بانخفاض التفاعل الاجتماعي في المنزل وكذلك نقصان الوجود السيكولوجي

الأفضل وهذا يزيد من الاكتئاب والعزلة والعصبية ، ومن خلال إدمان الإنترنت ينفصل الفرد عن ذاته وعن الواقع الحقيقي.^(٤٣)

في ظل هذا التجاذب على المحتوى في الإعلام الجديد لابد من وضع رؤى تعين على تأطير مسار هذا النوع من الإعلام ليلعب دوره ورسالته السامية في تبصير الناس بأصول وأحكام الدين الإسلامي بأسلوب سهل مبسط يسهل على الرجل العادي فهمه ، ومحاربة البدع والخرافات والفرق الضالة التي تحاول النيل من الإسلام والتصدي لأعداء الإسلام فيما يثرونه من طعون وافتراءات وشبهات حول الإسلام وتدعيم القيم الدينية في المجتمعات الإسلامية.^(٤٤)

ينبغي لأي عمل إعلامي أن ينطلق من أخلاقيات وقيم تعبّر عن قيم المرسل ، وأهم هذه الأبعاد القيمية : الصدق ، باعتباره الدافع لادبيات التعامل مع المادة الإعلامية ، فالحقيقة هي المحور المحرك للإعلامي والوصول إليها ليس عبر الطرق الملتوية ولا القصيرة المشوبة بما يخدش دقتها وصدقها واقعيتها.

بجانب قيمة احترام الكرامة الإنسانية ويقتضي ذلك عرض الأخبار و الصور بما لا يمس هذه الكرامة بجانب استعمال وسائل قانونية سليمة للحصول على المعلومات ، بحيث لا يجوز استعمال أساليب مثل الخداع و التوريط و الابتزاز و التلاعب بالأشخاص مثل التسجيل أو التصوير غير القانوني.

كما يجب على الإعلامي أو من يقوم مقامه أن يتحمل مسؤولية الصحة من أخباره بمعنى انه لا يجوز نقل أي خبر أو معلومة دون التتحقق منها والتحري بشأنها والتزام الدقة في معالجتها والحذر في نشرها قبل الاستياد ، بجانب العدالة التي تقتضي توخي الحكمة في عرض الأخبار والصور والابتعاد ما امكن عن أساليب المبالغة والتهويل والإثارة الرخيصة.

٤٣ عبد الجواد سعيد ، التعرض للإنترنت وعلاقته ببعض الآثار النفسية لدى شباب الريف ، في : أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩ م ، ص : ١٩٤ .

٤٤ زاهر محمد البيك ، الصحافة الدينية ، بحث قدم لقسم الصحافة والإعلام ، الجامعة الإسلامية- غزة ، موجود على موقع الجامعة ، ص : ٨ .

كما ينبغي للإعلام أن يتولى الرد على التساؤلات والاستفسارات التي لا يجد القراء حلولاً لها وذلك من خلال إجابة العلماء عليها ، ويسيهم في تفسير الظواهر الطبيعية والعلمية تفسيراً دينياً صحيحاً يكشف عن حقيقة هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ويعمل لربط مشاعر الملتقيين وإيجاد وجдан عام بالإحساس والانتماء إلى ثقافة واحدة وذلك بما تقدمه من موضوعات مختلفة وخاصة ما يتصل منها بالتاريخ الإسلامي إلى جانب غرس العقيدة الصحيحة في أذهان الملتقيين بأسلوب عصري جذاب.

أرجع السبل لاستفادة مثلى من الإعلام الجديد في التصدي للتطرف وتعزيز الوسطية :

يقتضي الحديث عن حمى التطرف والغلو الإشارة إلى أنها ظاهرة ليست مختصة بال المسلمين وحدهم ، فقد وجد الغلو في التكفير عند كل من اليهود للنصارى والعكس ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَلَوَّنُ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مُثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة : ١١٣] ، حتى أدى بهم الأمر إلى استباحة دماء وأعراض كل منها الآخر^(٤٠) فاليهود تقرّ مبدأ القتال لأنّه مرّتبط بوجودهم وبقائهم وأنّهم أبناء الله وأحبابه وما سواهم أميون يجوز أن يفعلوا بهم ما شاؤوا على مبدئهم الخيش أنّهم شعب الله المختار.

أما ظهور نابتة الغلو والتكفير في الإسلام فمثلّها غلو الخوارج وتشددهم وخاصة في تكفير أبناء ملتهم و موقفهم من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فكانت مظاهر تطرف الخوارج وإرهاصهم تمثّل في غلوهم في دينهم من خلال أصوّلهم العقدية التي اشتهرت عنهم بعد هذه المرحلة التأريخية ، حيث تأصلت أصوّلهم ، وظهرت قواعدهم في عقيدتهم وفي تعاملهم مع المسلمين من خلال التكفير لل المسلمين ولادة وعلماء وعامة بمجرد حصول الذنب من أيّ منهم ، ومنه حكموا على علي بن أبي طالب وقبله عثمان بن عفان وعلى معاوية ومن معهم رضي الله عنهم بالكفر في أعيانهم ، ثم أفرد هذا عندهم إلى كل صاحب ذنب من المسلمين. فإنه بمجرد حصول الذنب منه يكفر عيناً وينخرج من الملة إلا أن يتوب فعليه

^(٤٠) عبد الرحمن عبد المحسن ، التطرف الديني عندبني إسرائيل ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٤ ، شعبان ١٤٠٨هـ ، ص ٩١-٨٧.

الدخول في الدين مجدداً، وترتب على التكفير الخروج على المُكفرین بالسيف ، وبالقتال ، وهو استحلال دماء المُكفرین وأعراضهم وأموالهم.^(٤٦)

لم تكن فرقة الخوارج ظاهرة تاريخية انقضى زمانها ؛ إذ لا يزال خطر أولئك الخوارج مستمراً، حيث ظهرت في هذا الزمان طوائف تنادي بأفكارهم ، وتوصل على ذات أصولهم ، مثل جماعة التكفير والهجرة وتنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام ”داعش“ وغيرها ، وترى هذه الجماعات تصفية وقتل كل من خالفهم أو رد عليهم ، وترى التكفير بالمعاصي والحكم على صاحبها بالخلود بها في نار جهنم. وهذا من أعظم المسوغات لحصول التكفير والتفجير والقتل واستباحة الدماء والأعراض والأموال والسعى في الأرض فساداً ، وتحويف الآمنين ، وإشاعة الفوضى والخوف بين المجتمعات الآمنة.^(٤٧)

من المؤكد أن ظاهرة الغلو بأبعادها هذه ؛ تقتضي التعامل معها بعلمية لاجتثاث جذورها من المجتمع المسلم ، ومن الواضح أن تقنيات الإعلام الجديد قد باتت سلاحاً مهماً وأداة ممتازة قليلة التكاليف وواسعة الانتشار لخلق حوار مجتمعي حول قضايا المجتمع المسلم وعلى رأسها تنامي ظاهرة التطرف والغلو ، في ظل ضعف للتوظيف الأمثل لهذا الإعلام الوليد من قبل الدولة ومؤسسات المجتمع وقوى التغيير والمؤسسات المعنية بالتوجيه والإرشاد.

للاستفادة القصوى من تقنيات الإعلام الجديد في تعزيز الوسطية والحد من غلواء التطرف والغلو في الدين ، لابد أن نجد في التعرف على آليات تطوير الإعلام الجديد والتي من أهمها : التدريب على فن كتابة الخبر والمقال وآلية عرضها ، التصوير وفن عرض الصور ، الفيلم وآلية صناعته ، وسائل الأمان لحفظ المدونات من الاختراق ، الحماية القانونية للمدونين وآلية الإعلان عن المدونات والأخبار الجديدة.

يمكن لوسائل الإعلام الجديد أن تسهم في التصدي لظاهرة التطرف وما يتبعها من مظاهر الغلو في الدين ، والتجافي عن منهج العدل والوسطية عقيدةً وقولاً وعملاً ، وذلك بالمساهمة في نشر العلم الصحيح والقضاء على الجهل أو محاصرته ، وهو بيئة التطرف التي

^(٤٦) علي بن عبد العزيز بن علي الشبل ، الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف ، بحث موجود على الإنترنت ، ص : ٢٣ ، ٤٢ .

^(٤٧) المرجع السابق ، ص : ٤٢ ، ٣١٤ .

يتعرّع فيها ، مع معالجة الظواهر الفردية بالحكمة والبصرة اللاحقة بها زماناً وواقعاً وحالاً ، ويتأتى هذا بالعلماء الراسخين ، والحكماء ذوي العقل والقطنة .

خاتمة :

أصبح الإنترن特 ووسائل الإعلام الجديدة في متناول اليد ، مما يجعل من السهل ملاحظة الاستخدام السلبي لها لأن المراهقين والشبان هم الفئة العمرية الغالبة في بلاد المسلمين وهم أكثر المستخدمين لهذه الوسائل ، فينبغي أن يوجّه استخدام هذه الوسائل بشكل إيجابي ، ولكن الواقع يقول إن كل تقنيات الجوال والإنترن特 تظهر في العالم لأسباب تجارية وتسويقية بحثة ويساء استخدامها في المجتمعات العربية خصوصاً لأسباب اجتماعية وسياسية ونفسية .

يلاحظ أن الخلل في فهم العلاقات الاجتماعية بين أطراف المجتمع المسلم ، وإساءة استخدام وسائل الإعلام الجديد حالياً هو نتيجة حتمية في ظل الظروف التي تمر بها مجتمعاتنا ، والمشكلة أن المؤسسات البديلة التي يفترض أن تقوم بدور التوعية والتشفيق لا تزال تقف موقف المراقب والمُنْكِر ، والخلل الأول لأي مشكلة هو الاعتراف بها والبدء بوضع حلول علمية لتطبيقها ، وهو ما لا نراه في مجال التعامل مع إساءة استخدام وسائل الإعلام الجديد في المجتمع .^(٤٨)

ينبغي لاستخدام أمثل للإعلام الجديد في التصدي لموضوع التطرف السعي لتكوين رؤية تساعد المسؤولين والمنظرين والمارسين على الاستخدام الأمثل لوسائل الإعلام الجديد منعاً للجنوح والتجاوز ، وتعبيد كل طرق التعبير التي تتيحها وسائل الإعلام الجديد مع التركيز على التحليل بالوطنية والموضوعية في التناول .

تبين من خلال البحث ضرورة التكامل بين مختلف الوسائل الإعلامية القديمة والجديدة لإحداث التغيير ؛ الذي يتطلب وسيلة مسموعة ومرئية ؛ ومن هنا فإن إحداث التكامل بين الوسائل المختلفة هو السبيل لنجاح التصدي لحمى التطرف ، مع دراسة الجوانب النفسية للجمهور المستهدف لضمان الوصول السلس للرسالة المطلوبة ؛ بجانب تكرار الرسالة .

^(٤٨) صحيفة الشرق الأوسط ، الثلاثاء ١٦ ربيع الاول ١٤٣١ هـ ٢ مارس ٢٠١٠ العدد ١١٤١٧ ، ويمكن مراجعة الرابط : <http://www.aawsat.com/details.asp>

تبين من خلال البحث كذلك الغياب الملحظ لدراسات الاتصال المباشر والاتصال الشخصي بالجماعات والمؤسسات المرجعية التي ينتمي إليها الفرد وأسرته مثل المسجد والمدرسة والجامعة ومؤسسة العلماء والدعاة والمصلحين ومؤسسات الدعوة والإرشاد والمنظمات الخيرية والإنسانية ، بجانب ضرورة تفعيل أدوار مؤسسات المجتمع الطوعية في حل مشكلات البطالة والإدمان وغيرها من المشكلات التي تعتصر الشباب المسلم فيقع في حبائل التطرف والغلو في الدين.

توصيات :

يمكن أن نوصي في ختام هذا البحث بجملة توصيات يمكن أن تسهم في الوصول لدور مقدر لوسائل الإعلام الجديد في التصدي للتطرف وما يتبعه من غلو وعنف بأنواعه ، وهي :

- (١) تشجيع البحث العلمي والدراسات الخاصة بالإعلام الجديد ، وسبل الاستفادة القصوى من إمكاناته وضرورة إحكام التنسيق بين الجهات المعنية في مجال الإعلام الجديد.
- (٢) زيادة وتعزيز اهتمام وسائل الإعلام الجديد بالتروية بأخطار التطرف والغلو ، والتنوير بشبهات أهله ودحضاها.
- (٣) تكثيف الجهود التوعوية لمستخدمي الإنترنت حول مسائل الغلو في الدين والحذر عند التعامل مع موقع الإنترنت ذات الصلة بالتطرف ومنظوماته.
- (٤) تدريب الكوادر العاملة في مجال الحواسب والإنترنت على آليات وأساليب مكافحة توسيع الواقع التي تبث فكر التطرف على الإنترنت.
- (٥) التوعية الأسرية بالمخاطر الاجتماعية والتربوية لاستخدام الشباب للإنترنت بدون رقابة الأسر ، وتنمية المفاهيم الدينية السليمة التي تقى الشباب من الوقوع في براثن التطرف وتواضعه.

المراجع :

- (١) أبحاث مؤتمر الإعلام الجديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد ، منشورات جامعة البحرين ، ٢٠٠٩م.
- (٢) ساعد ساعد ، الشباب العربي والمضامين الإعلامية الإخبارية بين الاستهلاك والتفاعل ، ورقة قدمت في مؤتمر الشباب والاتصال والميديا بتونس ، ٣١-١٦ أبريل ٢٠١٠م.
- (٣) صفا محمود عثمان ، إدراك الجمهور والقائم بالاتصال لوسائل الاتصال الحديثة بالتطبيق على الخدمات الإعلامية المقدمة عبر الهاتف المحمول ، ورقة قدمت في المؤتمر الدولي السنوي الرابع عشر للجمعية العربية الأمريكية لأساتذة الاتصال AUSACE ، ٧-١٠ نوفمبر ٢٠٠٩م.
- (٤) عمار علي حسن ، مقال بعنوان : الإعلام الجديد... ثورة ناعمة ، صحيفة الاتحاد الإماراتية ، العدد ١٢٧١٧ ، بتاريخ : ٣٠ إبريل ٢٠١٠م.
- (٥) عيسى عبد الباقي موسى ، انعكاسات الاتصال التفاعلي عبر وسائل الإعلام الجديد على تنمية وعي الشباب الجامعي بالقضايا السياسية ، ورقة قدمت في : مؤتمر تقنيات الاتصال والتغير الاجتماعي ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، من ٢٠ إلى ١٨ / ٣ / ١٤٣٠هـ ، ١٥-١٧ / ٣ / ٢٠٠٩م.
- (٦) مصطفى المصمودي ، النظام الإعلامي الجديد ، الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٥ ، ص: ٢٩٣.
- (٧) عبد الرحمن عبد المحسن ، التطرف الديني عندبني إسرائيل ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٤ ، شعبان ١٤٠٨هـ.
- (٨) صحيفة الشرق الأوسط ، الثلاثاء ١٦ ربيع الأول ١٤٣١ هـ ٢ مارس ٢٠١٠ العدد ١١٤١٧.

مراجع إنجليزية :

- (1) Alan R. Dennis , susan T. Kinney , Testing Media richness theory, in : The New Media : The Effects of cues , Feed back , and task Equivocally , Information systems research.
- (2) M.EL-Shinnawy , and Mark us ,M ,Media Richness Theory and New Communication Media : A study of Voice mail and

Electronic mail , proc. international conf. on Information systems, Dallas tx , 1992.

- (3) J. Habermes , the public sphere , in c. Mukerji and schudson. M(eds) Retching popular culture : contemporary perspectives in cultural studies , 1991.
- (4) Crosbie ,Vin, (1998). What is New Media?
(<http://www.digitaldeliverance.comphilosophydefinition-definition.Html>)
Accessed July. 2006.
- (5) Bleise, N. (1982), "Media in Rocking Chair : Media Uses and Functions Among the Elderly", in Gumpert, p. and Cathcart R. (eds) inter /Media : Interpersonal Communication in a Media world (2 nd ed, (New York : Oxford University.
- (6) Benoit Desavoye et Alii; Les Blogs :Nouveaux media pour tous ;M2 éditions;Paris, 2001;Francis Pisani,Internet saisi par la folie des weblogs; Le Monde Diplomatique; aout , 2003.
- (7) MacBride, Sean, et al. Many Voices : One World. Paris : UNESCO, 1980.

موقع إنترنت :

- (1) روبي جراد ، الإعلام الجديد.. قوة الانتشار وضعف المصداقية ، شبكة الشاهد الدولي : <http://arabic.alshahid.net/columnists/6348>
- (2) عباس مصطفى صادق ، الإعلام الجديد دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة ، ورقة منشورة على موقع البوابة العربية لعلوم الاتصال. تلخيص لرسالة دكتوراه حول الصحافة الإلكترونية العربية : الالتزام والانفلات في الخطاب والعرض ، موجودة على الرابط : www.diwanalarab.com/spip.php?page=contact
- (3) تقرير عن ورشة عمل : تأثير الإعلام الجديد على الممارسة الديمقراطية في الشرق الأوسط ، موجود على الرابط : www.tgmacs.com/pp/read/1899
- (4) زاهر محمد البيك ، الصحافة الدينية ، بحث قدم لقسم الصحافة والإعلام ، الجامعة الإسلامية - غزة ، موجود على موقع الجامعة الإسلامية في غزة.